هنري ترويا

سلسلة روايات نور العادلين

رفاق شقائق النعمان



ترجمة

علي باشا

دار علاء الدين



Henri Troyat

كاتب ومؤلف روسي الأصل كان يسمى (ليف تاراسوف) ولد في موسكو عام ١٩١١ ، وهاجر مع أسرته إلى فرنسا في عام ١٩١٨ ، نال شهادة الإجازة في الحقوق وبدأ سيرته الأدبية بعملين هما:

Faux Jour (1935)

و(L'Araigne (1938 التي حاز بفضلها على جائزة غونكورت Prix Goncourt في العام ذاته.

نشر سلسلة من الروايات الرومانسية التي عاصرت التاريخ الروسي آنذاك منها:

Tant que la Lumière durera (1947 - 50).

La Lumière des Justes (1959-63).

Le Pain de l'Etranger (1984).

Les Héritiers de l'Avenir (1968-70).

أما عمله (Les Vivants (1946 فقد كتب للمسرح.

نشر أيضاً عدداً من بيوغرافيات مشاهير وأعلام روس منها:

Dostoevsky (1940).

Peter the Great (1979).

Maupassant, Zola, Verlaine (1993).

Flaubert, and Baudelaire (1994).

أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٩ .

رفاق
شقائق النعمان

Henri Troyat

Les Compagnons Du Coquelicot

La Lumière des Justes

هنري تروَيّا

رفاق شقائق النعمان

سلسلة روايات نور العادلين

ترجمة

علي باشا

منشورات دار علاء الدين

- رفاق شقائق النعمان.
- تأليف: هنري ترويّا.
- ترجمة: علي باشا.
- الطبعة الثانية 2010.
- عدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية ، دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-324-0

الجزء الأول

١

لم يعد هنالك طريق، كان يبدو بدلاً منه، نهر من البزات العسكرية، من الأعلام والرماح والبنادق يجري ببطء عبر ذلك الريف الهادئ. وكان «نيقولا ميخالوفيتش أوزاريف» الملازم في الحرس «الليتواني» وهو يسير مع حركة هذا الجيش الجرار، ينهض قليلا عن سرج فرسه، من وقت لآخر، محاولاً أن يرى مقدمة الجيش التي أصبحت بعيدة. والترتيب الذي يسير عليه الجيش كان يعرفه الجميع بحيث لا يمكن لأحد أن يخطئ: فتلك البقعة الحمراء، بل الأرجوانية التي تكاد تحجبها عن النظر سحابة من الغبار، ليست سوى فوج الفرسان الروس «القوزاق» التابع للقيصر، وقد انتظموا في صفوف مؤلفة من خمسة عشر منهم، وخلفهم سار الفرسان حملة الدروع، وغيرهم من الفرسان وسرايا المتطوعين الذين يشكلون الحرس الملكي الروسي، وكذلك بقية الفرسان والخيالة الذين يشكلون الحرس الإمبراطوري الروسي. وكان الإمبراطور «ألكسندر» يتقدم. بعد ذلك، بين ملك روسيا والأمير «شوار زنبرج» ممثل إمبراطور النمسا.

وكان هنالك هيئة أركان عامة مؤلفة من عدة مئات من ضباط مختلف الأسلحة ومن مختلف الشعوب تحيط بكبار القادة الذين حققوا الانتصارات السابقة: كالعجوز «بلوشير» و «باركلي دي تولي» الذي رفع إلى رتبة «فيلد ماريشال» (مشير) في ميدان القتال وخلفهم، مقدمة موكب جنود المشاة للقوى المتحالفة، وهو موكب طويل يبدو كأنه لا نهاية له، وبعده، الحرس الليتواني التابع إلى الغرفة الثانية من الحرس الإمبراطوري الروسي. كانت

هذه الفرقة قد احتفظ بها كاحتياط، أثناء المعارك الأخيرة. وكان جنودها يبدون أقوياء، منظمين ومرحين، وبنادقهم التي يحملونها على أكتافهم اليسرى تتأرجح بانتظام. وأشعة الشمس تتلألأ على الحراب، على الجعاب المصقولة وعلى أغمدة سيوفهم القصيرة، وكانت حمالات هذه السيوف الناصعة البياض تبدو فوق ستراتهم الخضراء التي حال لونها. كانت الطبول تقرع في المقدمة وآلاف النعال تقع سوية، وبإيقاع واحد وهي تطأ الغبار المتصاعد. وبصورة استثنائية، سُمح لضباط المشاة، الشباب الذين يملكون راحلة، أن يمتطوها ويسيروا في مقدمة فصائلهم، بدلاً من السير على الأقدام كما هي الحال في الاستعراضات الاعتيادية. وقد سرّ «نيقولا أوزاريف» بهذا الإجراء الذي أراحه وجعله يرى كل شيء، وجعل الجميع يرونه. ولم تكن فرسه «كيتي» جميلة، بكرشها الكبير الرمادي المرّقط، وعنقها القصير، وقوائمها النحيلة. ولكن، ماذا في ذلك؟ إنه لا يطمع أبداً في منافسة أولئك السادة عناصر فرقة الفرسان، في أناقتهم. وألقى نظرة من فوق كتفه باحثاً خلفه عن حملة الدروع وفرسان الحرس الذين يأتون في المؤخرة. كان الغبار يتصاعد كالدخان من الطريق الذي تطأه الأقدام وحوافر الخيل بقوة المطارق وكان بريق الدروع يتلألأ بإيقاع رتيب عبر ضبابية الأفق المزرقّ، ولكم كان هذا الجيش، على الرغم من تعبه وجراحه، يبدو لجباً، ضخم العدد، منتظماً وقوياً! ولكم كان النصر حلو المذاق! في تلك الصبيحة الدافئة من شهر آذار (مارس) سنة (١٨١٤)! كانت بعض الجثث قد سحبت خارج الطريق، لتسهيل المرور عليه. كان «نيقولا أوزاريف» يتحاشى التفكير بها لكي لا يعكر صفو بهجته. كان يكاد لا يراها وهو ينظر إليها من طرف خفي: فيا له من منظر مؤذ! دمى ممزقة وجوهها وسخة، فرس منتفخة الكرش، قوائمها متصلبة تشبه قوائم المنضدة، حاملة مدفع محطمة، قذيفة سوداء غائصة في الأعشاب، حقيبة

ظهر من جلد الماعز، وتحتها أحدهم وقد بسط ذراعيه والتصق وجهه بالأرض. ويخيّل للمرء أنّ القتلى يُعدون بالألوف على جانبي الطريق. وعلى يسار الطريق هنالك نسق من أشجار الحور هشّمتها طلقات المدافع الرشاشة. وبالمقابل يبدو الجانب الأيمن سليماً لم يلحقه أذى، بمنحدراته المفروشة بشجيرات الكرمة والشقوق البيضاء في المقالع الكائنة هناك والبيوت الصغيرة القابعة بين خضرة الأشجار الحانية عليها، وطواحين الهواء التي توقفت أجنحتها عن الحركة. وعلى قمة إحدى التلال يبدو أحد أعمدة التلغراف وقد تحطم ولم يعد ينقل الإشارات. وقد صمتت أصوات المدافع التي كانت لا تزال حتى الأمس تدوي عبر سحابات من الدخان الأبيض. وفيالق الجيش تزحف وقد انتظمت في صفوف قتالية عبر السهل كما تزحف دودة القز على أوراق التوت، وكان القيصر وهيئة أركانه يجلسون على مرتفع يشرف على المنطقة. كان «نيقولا أوزاريف»، يهدهده وقع حوافر فرسه وقد استعاد في ذاكرته تلك اللحظة الغريبة، بعد الغروب بقليل، عندما خيم صمت مفاجئ على الجبهة، وبين عناصر الحرس الليتواني، الذين تجمعوا في الخط الثاني، أخذ الضباط يتساءلون بقلق عن أسباب ذلك التوقف كان بعض السعاة يتراكضون في كل الاتجاهات، وقد احمرت وجوههم وبدا الاهتمام في عيونهم. وفجأة تعالى صياح هز الأجواء، كان ينبعث من ضواحي المدينة وكالأمواج، كان يصل إلى أطراف المنطقة، وقد أخذ يتضخم ويقوى ويصبح صرخة واحدة تطلقها مئات الأصوات الفرحة: «باريس!»... باريس استسلمت!... مرحى! يا لها من فرحة، وأخذ الجنود يتعانقون، والقبعات تتطاير في الهواء. وقد وصل أحد الضباط المرافقين، موفداً من قبل الأركان العامة، خصيصاً لتأكيد النبأ: لقد وقعت اتفاقية الهدنة في أحد الفنادق الصغيرة في بلدة «شابيل»، قرب حاجز «سان دونيس»، بين الماريشال «مارمون» ومندوبين عن القيصر. والآن، يستطيع

«نابليون» أن يسرع بالعودة من المقاطعات الشرقية ليجد عاصمته محتلة. فهل تكون هذه هي نهاية الحرب؟ بالأمس، وحالما سمع «نيقولا أوزاريف» الأبواق وهي تعلن وقف إطلاق النار، ذهب إلى بلدة «بيل فيل» مع بعض عناصر الخدمة لمحاولة التزود بكمية من النبيذ وفي الأقبية التي اقتحمت بأعقاب البنادق، أخذ الجنود الروس، الفرنسيون، البروسيون والنمساويون يطفئون ظمأهم سوية من نفس البراميل. ولكي يشربوا بشكل أسهل وهم مرتاحون، فقد أسندوا بنادقهم جنباً إلى جنب قرب الجدار. بينما أخذ «نيقولا أوزاريف» يفكر، وقد استقام في وقفته كأنه يقف أمام رسام ليرسم له صورة ببزته العسكرية: «إني لم أتجاوز العشرين من عمري، وها أنا أعيش يوماً من أجمل أيام حياتي!» كان يمني النفس بفرحة كبرى عند دخوله إلى باريس، مدينة الفنون، الفلاسفة، وأنماط الحب المتاحة بيسر وسهولة. وهو لن يستطيع أن يفي أهله حقهم من الشكر، مهما فعل، لأنهم أتاحوا له تربية غربية! فبفضل مربيه، وهو مهاجر جاد وموثوق، يدعى «السيد لوسور» استطاع التكلم مذ كان صغيراً باللغة الفرنسية بالسهولة نفسها التي يتكلم بها اللغة الروسية، وهذا سوف يساعده كثيراً كما كان رفاقه يقولون له، على اكتساب مودة وتعاطف السكان من الرجال وعلى نيل الحظوة لدى النساء! لم يعد هنالك سوى ما يقرب من كيلومتر واحد، للوصول إلى حاجز «بانتان»! فتوقف الفوج، لكي يغير الجنود ملابسهم ويرتبوا أمورهم استعداداً للمشاركة في العرض الذي سيجري في المدينة. وبناءً على أمر انتقل من فصيل إلى آخر، تناول أفراد الحرس الليتواني من حقائبهم العسكرية القبعات الأنيقة الخاصة بالاحتفالات، ووضعوها على رؤوسهم فبلغت واقياتها مستوى حواجبهم وأخذت ريشاتها الصغيرة السوداء ترتعش فوق رؤوسهم. ثم استبدلوا سراويل الخدمة، بسراويل بيضاء ونظيفة جداً كانوا يحتفظون بها في حقائبهم ولا يرتدونها

إلا في الاحتفالات. وترجل «نيقولا» هو أيضاً لكي يصلح شأنه، وكان جميع الجنود المشاة الروس يستبدلون سراويلهم وهم يتضاحكون، على جانبي الطريق وقد هربت بعض القرويات لدى رؤيتهن هذا المشهد، وتراكضن عبر الحقول، تلاحقهن سخريات الجنود، ومزاحهم الماجن. وبعد أن أصلح «نيقولا» هندامه، تفقد رجاله ليتأكد من أنهم «بكّلوا» كل أزرار طماقاتهم القماشية (لفافات الساق) ولمعوا جيداً جميع أزرار ملابسهم. ومر العميد - الكونت «هيرا كليوس دي بوليناك»، وهو مهاجر فرنسي قائد فوج من الحرس «الليتواني»، بين الصفوف، وأعلن عن رضاه عن الاستعدادات التي اتخذت، وأصدر أمره بالتحرك. امتطى «نيقولا» سرج فرسه وهو يمني نفسه ويستعد ليعيش لحظات أكثر إثارة. كانت الحدائق والبساتين على جانبي الطريق تبدو صغيرة وأقل مساحة، بينما أخذت المنازل تبدو كبيرة وأكثر اتساعاً وتلاصقاً واتساخاً، فهل كانت هذه هي ضواحي باريس؟ كان الناس يبدون على عتبات أبواب بيوتهم: رجال، نساء وأطفال، ملابسهم رثة تنم عن الفقر وعلى وجوههم علامات الخوف. وكان هناك تناقض غريب بين أبهة موكب العرض، بأعلامه وموسيقاه الصاخبة، وبين الجمود الكئيب الذي يخيم على السكان. وأخذ «نيقولا» يفكر بحزن قائلاً في سره: «بالطبع، إنهم لا يحبوننا! ويخافون منا، ولكن هؤلاء بالذات الذين يوجّهون إلينا نظرات العداء ويُعدوننا أعداءهم سوف يشكروننا ذات يوم لأننا أنقذناهم وخلصناهم من طاغية دموي.» وكانت قناعة «نيقولا» هذه يشاركه فيها جميع رفاقه. وكيف يمكن أن يكون رأيهم مغايراً لذلك؛ وهم يرون العديد من المهاجرين الفرنسيين يقاتلون بجانب الروس وفي ظل علمهم؟: «بوليناك»، «روشوشوار»، «لامبير»، «داماس»، «مونتبيزات»، «راباتيل» «بوتيه»... الخ، والقائمة طويلة، فالجيش المتحالف يضم العديد من الجنسيات، وأنماط البزات العسكرية،

والشارات، بحيث أن الأوامر قد صدرت بأن يضع الضباط وكذلك الجنود على سواعدهم لفافة بيضاء لتحاشي أي خطأ أو التباس يمكن أن يحدث بين هؤلاء الذين يعملون في خدمة قضية واحدة. كان الجنود يكتفون بوضع قطعة قماش، تتفاوت درجة نظافتها، بين جندي وآخر. أما الملازم «نيقولا» فقد حصل على نطاق جميل من القماش الأبيض صنعه من منديلين ربط طرفيهما حول ذراعه. وأمامه، على مدى النظر، كانت جميع البزات الخضراء مزدانة بهذه الشارة المسالمة. وكانت الطبول تقرع والأبواق تصدح بمزيد من القوة في الشوارع ذات الواجهات المتقاربة وفجأة اندفع الموكب تحت قوس أثري ضخم من الحجارة، ثم استدار نحو اليمين، فوجد نفسه في شارع كبير تحف به الأشجار والمنازل العالية، وحسب مخطط باريس الذي كان قد اطلع عليه «نيقولا» عشية ذلك اليوم تحت خيمة رئيسه، فإن الموكب كان قد عبر بوابة: «سان مارتان» وهو سيسير الآن باتجاه الشوارع الكبرى. كان قد اتفق على أن يستعرض الزعماء الجيش، في شارع «الشانزيلزيه» أضخم شوارع باريس وربما كان أحد أضخم شوارع مدن العالم. وبقدر ما كانت الفيالق المنتصرة تتوغل في دخولها إلى عمق باريس كان عدد الفضوليين والمتسكعين يتزايد في طريق مرورها. وبموجب اتفاقية الهدنة، كانت عناصر الجيش الفرنسي النظامي قد انسحبت من المدينة أثناء الليل. وقد بقي أفراد الحرس الوطني وحدهم فيها للمحافظة على الأمن والنظام. وكانوا ببزاتهم الزرقاء المزدانة بكتافيات حمراء، وسراويلهم البيضاء، يشكلون سياجاً حول طريق مرور أولئك الذين قاتلوهم بالأمس. كان «نيقولا» ينظر خلسة إلى وجوه أولئك البرجوازيين، التي تتصبب عرقاً تحت قبعاتهم الكبيرة، ويرثي لحالهم. وخلفهم، كانت تزدحم وتتدافع وتدمدم جماهير باريس الفقيرة. كانت جميع النوافذ تزدحم فيها الرؤوس. وكان بعض الفضوليين قد تسلقوا الأشجار وجلسوا في

أعلاها، وفوق العربات وعلى أسطح المنازل. وفجأة انطلق الصياح مدوياً:

- عاش الحلفاء! يحيا الإمبراطور ألكسندر! يحيا السلام! وليسقط الطاغية!... هذه الهتافات الحماسية التي أعقبت الصمت المشوب بالكراهية الذي كان يخيم على الضواحي، أدهشت «نيقولا» وشعر أنه بانتقاله من هناك إلى المدينة قد انتقل من بلاد إلى أخرى. كانت بعض النساء الأنيقات يصفقن، متراقصات في أماكنهن، بينما كانت قبعاتهن وأوشحتهن تتأرجح وتتمايل مع حركاتهن. وكان بعض الرجال الذين يرتدون الصدارات الأنيقة يلوحون بمناديلهم، يرفعون قبعاتهم وعصيهم. كان بعضهم يزينون صدورهم بشعارات بيضاء. وفي الصف الأول، برز رجل محتقن الوجه وصاح بأعلى صوته: - العرش لآل بوربون! وفي اللحظة نفسها شعر «نيقولا» بلطمة خفيفة على خده: باقة زهر قذفت من مكان قريب جداً صدمته في وجهه. وقد استطاع أن يلتقطها قبل أن تقع على الأرض، ثم شمها بأناقة ورقة وغرسها بين زرين من أزرار ملابسه، وقد خشي، خلال لحظة، أن يكون قد بدر منه أكثر مما ينبغي، من التأثر، بحركته التي قام بها. ولكن التصفيق والهتافات كانت تدوي في أذنيه. وصرخت إحدى النساء: - مرحى! مرحى للروس! فابتسم «نيقولا» وشعر بالسعادة تغمره، والتفت وهو على سرج فرسه، محاولاً أن يعرف من أين أتى هذا التكريم، ولكن الازدحام كان شديداً، ويوجد أكثر مما ينبغي من الناس حوله، بحيث كانت الوجوه الفرنسية تختلط ببعضها، بنوع من المادة الوردية المتحركة. وكانت فرسه «كيتي» مزدهية تهز رأسها

صعوداً وهبوطاً. وأخذ «نيقولا» يفكر: «لا بد أني أبدو جميلاً حقاً، على صهوة فرسي. لكم هو مفرح وممتع أن أكون روسياً في هذه اللحظة! إننا لن نستطيع أن نفي إمبراطورنا العزيز حقه من التكريم والشكر على هذا المجد الخالد الذي أتاح لنا فرصة تحقيقه!» وقطع عليه حبل أفكاره صوت قوي جعله ينتفض. كان قد صدر من الجانب الأيسر في الصف: إنه الرقيب «مايتفيتش» الذي كان يصرخ وهو يسرع الخطى:

- يا صاحب السيادة، إنهم يكادون يفصلوننا عن الفوج، يجب أن نعمل شيئاً ما!... كانت الجماهير قد اخترقت حاجز الحرس الوطني، وتسللت بين عناصر فصيلة القناصة التي يقودها «نيقولا» وبين بقية عناصر الفوج، التي كانت قد ابتعدت عبر غبار كثيف، وبأسرع من لمح البصر، وجد «نيقولا» نفسه محصوراً بين مئة من الأشخاص المجهولين، الذين تبدو على وجوههم البهجة والفرح، فحاول أن يتحدث إليهم:

- هيا، أيها السادة، دعونا نمر!... فأنتم ترون جيداً أنكم تؤخرون تقدمنا!... اخلوا الشارع، وافسحوا لنا الطريق!... وتعالت الأصوات من الجمهور:

- ولكنه يتكلم الفرنسية مثلك ومثلي!... ومع ذلك كانوا يقولون لنا عنهم إنهم متوحشون!... من أين أنت آتٍ أيها الشاب الظريف؟ وبكل بساطة تأثر «نيقولا»، وأراد أن يجيب أولاً على هذا السؤال، ولكن كان قد فات الوقت على ذلك! لأن فرسه كانت قد حوصرت عبر الازدحام ولم تعد تستطيع أن تتقدم أو أن تتأخر دون أن تدهس أحد الناس، وقد تقدمت امرأة

شابة شقراء وجميلة، في عينيها بريق ينم عن الجرأة والوقاحة وأمسكت بزمام الفرس. فقال لها «نيقولا» وهو يتنهد:

- هيا!... دعك من ذلك، أيتها السيدة!..

ثم صرخ، وهو ينتصب على ركابي سرج فرسه:

- إذا لم تبتعدوا، فسأصدر الأمر لرجالي بأن يهاجموكم بالحراب!

وردد الأمر باللغة الروسية، وهو يفكر بأن حاجبيه المقطبين يضفيان طابعاً حربياً على سيمائه، وتلقى جواباً على أمره قعقعة معدنية، كان الجنود خلفه قد أحنوا أسلحتهم جميعهم سوية وفي آن واحد، استعداداً للهجوم. ولكن الجمهور كان قد تفرق في الحال.

فصاح «نيقولا»:

- إلى الأمام، سر!

فأسرعت فصيلة القناصة الخطى، لتنضم لبقية الفوج والأبواق التي لم تكن تسمع قبل قليل أخذت تصدح من جديد ببهجة وحبور من مسافة بعيدة، وقد قفز بعض رجال الحرس الوطني ليحتلوا أماكنهم. وكانت الجماهير لا تزال تهتف وتحيي الجنود عند مرورهم. وعند منعطف أحد الشوارع توقف الفوج مرة أخرى، ليعيد الجنود ترتيب صفوفهم، وكان «نيقولا» متأثراً لكونه سيشارك في العرض الذي سيجري أما مليكه، في المكان نفسه الذي قطع فيه رأس آخر ملوك فرنسا.

وفجأة تباعدت واجهات المنازل، واندفعت فيالق الجيش في فسحه واسعة من الضياء: إنها ساحة «لويس الخامس عشر» القديمة. كان حشد كبير، خليط، مزركش ومتعدد الألوان، يتماوج حول تلك الفسحة البيضاء. وكانت ألحان الأبواق وقرع الطبول تدوي في الفضاء. كان الزعماء المتحالفون يمتطون صهوات جيادهم، عند منفذ أحد الشوارع

الذي تغطيه الخضرة. وبانتظام الرجال الآليين مر رجال الحرس الليتواني بصفوف مؤلفة من ثلاثين رجلاً. وكان «نيقولا» وقد خفض سيفه، وأدار رأسه بعنف نحو اليمين، يرى القيصر «ألكسندر» يكبر شامخاً كالشمس. كان يرتدي بزة بسيطة لفارس في الحرس، يزين صدره. وشاح «سان اندري» الأزرق، والكتافيات الذهبية الضخمة تزيد من عرض كتفيه. وتحت القبعة الكبيرة، التي وضعها على رأسه بشكل منحرف والتي تزينها حزمة من ريش الديكة، كان وجهه ينم عن شباب ووقارٍ أخّاذين. كان يمتطي صهوة الفرس الجميلة الشقراء التي أهداه إياها «نابليون» منذ زمن بعيد. كان العديد من القادة وكبار الضباط يحيطون بالقيصر، ولكنّ «نيقولا» لم يكن يرى سواه، فهو محرر الوطن، الذي انتصر وتغلب على التنين أنه «أغامنون»[1] العصر الحديث. ولم يمر سوى جزء من الثانية، حتى أصبحت هذه اللوحة الرائعة والعظيمة، مجرد ذكرى في ذهن الذي تأملها بإعجاب.

***

حول وقت الأصيل، هطلت أمطار خفيفة، وبعد أن عبر جنود الحرس الليتواني باريس كلها، بنظام وخطوات العرض العسكري، توقفوا في أرض محروثة بعد أن تخطو الحواجز، وبالقرب من قرية «نولي».

وأشرف «نيقولا» على «تشبيك» الأسلحة. ولأنه كان من المحتمل ألا يبقى الفوج زمناً طويلاً في هذا المكان، فقد رأى العميد أنه يكفي أن تنصب ثلاث خيام، له وللضباط الذين يرافقونه. ولكن الوقت كان يمر والساعات تنقضي، دون أن يأتي أي ساعٍ حاملاً الأمر بالتحرك.

١ـ أغامنون: أحد مشاهير الملوك الذين تحدثت عنهم الأساطير اليونانية. ـ المترجم.

خرج «نيقولا» من الخيمة للقيام بنزهة في ذلك الحقل. كان هنالك خفيران يقومان بحراسة علم الفرقة، الذي رفع هناك. وكان هناك فانوس يضيء عليهما المكان من أسفل، على طريقة المصابيح الضعيفة الضوء التي تستخدم في المسارح. كان المطر قد توقف. وكان بعض الرجال وقد شمروا عن سواعدهم وجلسوا القرفصاء وهم يتحدثون أمام نار أوقدوها من أغصان الأشجار والتي كان يتصاعد منها دخان أكثر مما يتصاعد من لهب. وكان أحدهم يثبت أحد أزراره، وآخر ينظف حذاءه من الوحل، بينما كان آخر يشذب عصا، لمجرد التسلية وتمضية الوقت، وآخر ينظف معطف أحد الضباط، مما به من الغبار، بواسطة مكنسة صغيرة، بعد أن علقه على غصن إحدى الأشجار.

وكانت بعض الأحصنة تصهل، وهي مربوطة في مكان بعيد. وطبال مسن كبير الشاربين يعلم فتى في السادسة عشرة من عمره كيفية استعمال مقرعات الطبل، بينما كان هذا الفتى يبدو وكأنه فتاة ترتدي لباس الجنود.

وقد عاد بعض العاملين في الخدمة وهم يحملون دلاءً من قماش ينسكب منها الماء عند كل اهتزازاً. بينما كانت الضحكات الصاخبة تتعالى حول أحد القدور، وشم «نيقولا» رائحة حساء الملفوف التي أثارت شهيته. وعشاء الضباط بسيط «قطعة سمك، برغل وجبن هولندي». ومؤونة «نيقولا» الخاصة بقيت مع الحوائج، وهذه كانت قد اختفت بالأمس، مع بقية الرفاق. وأخذ «نيقولا» يتساءل عما إذا كان سيجد خادمه «أنتيب» ذلك العبد الرق المحتال، الكسول والثرثار – وهو أحد أذكى عبيد مليكهم - قد اختاره والد «نيقولا» لكي يرافق النبيل الشاب، عند ذهابه إلى الحرب:» لن تبتعد عنه قيد أنملة عليك أن تسهر على سلامته، وستكون مسؤولاً عنه أمامي لقاء حياتك!» كانت هذه التوصية لا تزال تدوي في أذني «نيقولا»،

ويتصور والده، منتصب القامة، كثيف العارضين، فولاذي النظرات، منتفخ الأوداج، أمام الخدم الذين اجتمعوا على درج المدخل.

وقد وقفت وراءه «ماري» شقيقة «نيقولا». شاحبة الوجه، حزينة، تشعر بالإحباط الشديد، بحيث أنه لا يستطيع أن يفكر بها دون أن يشعر بانقباض في القلب. كانت أمهما قد توفيت سابقاً. وهذا زاد من التقارب بينهما. فكيف حالها الآن؟ وهو بعيد عنها، وهي في «كاشتا نوفكا» تلك الملكية القديمة، بجانب ذلك الأب المهووس، الكثير المخاوف والشكوك؟ والرسائل تحتاج لعدة أسابيع كي تصل إلى روسيا. ومع ذلك، فقد قال «نيقولا» محدثاً نفسه: «غداً، سأكتب لها أيضاً، سأروي لها كل شيء: المعارك، الدخول إلى باريس، وملابس الجنود الرائعة أثناء العرض...»

كان «نيقولا» فخوراً جداً بانتمائه إلى فرقة الحرس الليتواني، ومع ذلك فإنه لم يقم بأي عمل يؤهله ليلتحق بهذه الفرقة. ففي سنة (١٨١٢) كان لا يزال فتى يافعاً، يتابع دراسته في قسم المستجدين الثاني في «سان بطرسبورغ»، عندما روع روسيا خبر استيلاء الفرنسيين على موسكو. وبعد فترة وجيزة، أعلن العميد، مدير المدرسة، أنه بسبب الخسائر التي تكبدها الجيش الروسي، فسوف يعين الطلاب المتفوقين ضباطاً في وحدات الحرس دون الانتظار حتى تنتهي فترة دراستهم. وذات صباح داكن من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، تجمع جميع المستجدين في قاعة الاجتماعات، واصطفوا جنباً إلى جنب قرب الجدران، وأتى الدوق الكبير «كونستنتان» مرتدياً بزة فرسان الحرس، وبدا عريض المنكبين، أفطس الأنف كث الحاجبين. ودون أن يصغي لأحاديث المدير، طلب قطعة من الطبشور ثم مرّ أمام الطلاب الذين كانوا يقفون بلا حراك، وقفة الاستعداد، وأخذ يرسم على صدروهم إشارات رمزية:

لهذا صليب، ولذاك مثلث، وللآخر دائرة أومربع، وفي الحال، بعد الانتهاء من رسم هذه الإشارات، وبناءً على أمر «الدوق الكبير» المرعب، انضمت المربعات إلى بعضها والصلبان إلى الصلبان، وهكذا دواليك. و «نيقولا» الذي زينت صدره إشارة المثلث، علم بأنها تحيله إلى الخدمة في صفوف الحرس الليتواني. ولكم كانت هذه التجارب والاختبارات تبدو له اليوم بعيدة وصبيانية!

كان عليه أن يجهد نفسه في التفكير لكي يتأكد أنه لم يكن في الجيش منذ عشر سنوات، على الأقل.

حملة «بوهيما» معارك «دريسد»، «كولم»، «ليبنزيغ»، عبور نهر «الراين» معركة «ايمس»، وأخيراً معركة باريس.. كثير من الرفاق جرحوا، والبعض منهم قتلوا وكان آخرهم من حيث التاريخ، الفتى «فادييف» الذي سقط وتمدد على العشب النظيف، أمام «بيل فيل»، بعد أن أصيب بطلق ناري في وسط جبينه قليل من الدم سال منه، وجهه شاحب، أصفر كالشمع، أسنانه بدت صفراء أيضاً بين شفتين زرقاوين. قبل ذلك بيوم واحد وحسب، كان يتحدث بأنه سيوصي على بزة جديدة، لكي يعيش حياة مترفة في باريس. وبينما كان «نيقولا» مستغرقاً في هذه التأملات، التقى بعربة مطعم المخيم وقد توقفت تحت إحدى الأشجار، فذكّرته رؤية هذه العربة بأنه جائع. ولكن المسؤول عنها استقبله آسفاً:

- ليس لدي، يا صاحب السعادة، سوى الكعك وبعض الحلوى والسجائر!

وتمتم الملازم «هيبوليت روزنيكوف» متذمراً، وهو يمضغ شيئاً ما، ويجلس على أحد الطبول:

- يمكن تبليط الشوارع بما لديه من الكعك!

ومع ذلك، فقد اشترى «نيقولا» بعضاً منه. وتجمع حولهما ضباط آخرون، كانوا جميعاً سعداء، وليس لديهم أي عمل، ولكنهم كانوا يتذمرون ويشكون من حيث الشكل، وقد عبر عن ذلك الملازم «هيبوليت روزنيكوف»:

- أن نقول إننا استولينا على باريس بعد صراع عنيف وطويل، والباريسيون يأكلون عندما يجوعون وينامون ملء جفونهم في أسرتهم، بينما نحن نخيم هنا في الوحول، وبطوننا فارغة، نتضوّر جوعاً، فهل في هذا شيء من العدل؟

فأضاف النقيب البدين «مكسيموف»:

- لم يبدر من الفرنسيين مثل هذا التردد، وهذا التذمر، عندما دخلوا إلى موسكو!

فقال «نيقولا»:

- لأنهم وجدوا فيها!.. خرائب ونيراناً!. أما نحن، فعلى الأقل، لا يمكن أن يسرقوا منا انتصارنا!

وقال «هيبوليت روزنيكوف» مازحاً:

- أتعتقد ذلك! ولكن، يا صديقي المسكين، لكي تستغل وجودك في باريس، يجب أن تكون جيوبك ملأى بالنقود، وبالكثير من النقود! فهل تقاضيت راتبك، أنت؟!

- لم أتقاضَه منذ شهر!

- إذن؟ بأي شيء يمكنك أن تتمتّع بمسرات ومباهج العاصمة، وزيارة «القصر الملكي»، وارتياد المسارح والمقاهي، والمخادع المضيافة..!

كان «روزنيكوف» يعدد هذه المغريات، بحماس شديد، وقد تورد وجهه وبدا عليه الانفعال، الأمر الذي جعل الجميع يقهقهون ضاحكين. وكان

الظلام قد خيم ببطء، وأخذت الفوانيس تشتعل في المخيم، الواحد بعد الآخر. وكانت الخيمة الرئيسية تشع، على مستوى الأرض، كأنها مصباح ضخم مغطى بالورق المدهون بالزيت. وقرع أحد الأجراس: نداء لقادة الفصائل. وأسرعوا جميعاً إلى مكان التجمع، ونعالهم تخب في الوحل بينما تتأرجح سيوفهم على أفخاذهم فخرج العميد من الخيمة، وفي يده ورقة تلمع كأنها صفيحة معدنية، وقرأ مضمونها، وهو يغالي في تفخيم الألفاظ: «بناء على أوامر الجنرال «أورمولوف» قائد فرقة الحرس الثانية، يجب على فوج الحرس الليتواني أن يعود فوراً إلى باريس، ويتوجه إلى الإقامة في ثكنة «بابل». فسرت تمتمات الفرح بين الضباط الشباب «ودفع «روزنيكوف» «نيقولا» بمرفقه:

- «بابل»! رمز الثروة والغنى، ورمز الغواية والفسق! ما كان لبلاد صارمة ومتزمته كبلادنا روسيا، إن تطلق اسماً كهذا على إحدى الثكنات! إننا لن نتضايق أوننزعج هناك، أيها الأخوة! فهيا إلى الأمام! نحو «بابل»!..

ولم يكد النبأ يبلغ مسامع ضباط الصف وأعوانهم، حتى تعالت هتافاتهم وجلبتهم وعمت المخيم، وأخذوا يتراكضون هنا وهناك وفي كل الاتجاهات ككلاب الرعاة، قالبين القدور، ملوحين بقبضاتهم، شاتمين ومجدفين، ونفذوا خدمات إضافية، وبسرعة جمعوا كل حوائجهم قرب الطريق.

وامتطى «نيقولا» فرسه وسار أمام فصيلته، بينما اندفع الفوج بكامله في السير تحت جنح الظلام. وحملة الفوانيس يسيرون في المقدمة، والبعض الآخر يسيرون بجانب الصفوف، بينما كان ضباب ذهبي اللون يحيط بالفوانيس.

يمكن أن تكون الساعة قد بلغت العاشرة، عندما وصل فوج الحرس الليتواني إلى أمام حاجز «النجمة» كان المدخل بجناحيه وأعمدته الضخمة،

والجبهة المثلثة الشكل التي تعلوه، يشبه، عبر الظلام المعابد اليونانية. كان بعض أفراد الحرس الوطني يجلسون على الدرجات. ولكن مفرزة من جنود «القوزاق» هي التي كانت تراقب وتحرس مدخل باريس. وكانت خيول أفرادها مربوطة في حديد الحاجز.

اجتاز الفوج أرضاً بوراً ومهجورة، تكثر فيها كتل الحجارة الكبيرة. وأنار الطريق حاملو الفوانيس عند المرور بين قواعد وأساسات قوس نصر، الذي يبدو أنه لن ينجز أبداً. كان هنالك أربعة أعمدة ضخمة ترتفع دون جدوى، في الفضاء وكأنها ترمز إلى فشل ذلك الذي أراد أن يهدي هذا الصرح إلى مجد جيشه الذي كان يقال عنه أنه لا يقهر. كان شارع «الشانزيلزيه» يبدأ هناك، واسعاً، طويلاً ومعتماً. على جانبيه وبين الأشجار كانت تبدو النيران التي أشعلها الجنود في العراء.

إنهم جنود «القوزاق» الذين خيموا تحت الأشجار، وكانت ضحكاتهم وأغانيهم تسمع من بعيد.

كان بين رجال الحرس الليتواني بعض المتعبين الذين كانوا يجرون خطاهم، ولاستنهاض هممهم، أمر العميد الفرقة الموسيقية أن تعزف نشيد الفرقة، وعلى أنغام الموسيقا ارتفعت الرؤوس. واجتاز الفوج نهر السين فوق أحد الجسور. وأخذت القصور والمباني تبرز من خلال الظلام وكأنها غير حقيقية، دون عمق أو كثافة «ديكورات» صنعت من الورق المقوى (الكرتون). باريس كلها كانت تغط في نوم عميق، تواري فيه هزيمتها. ومع ذلك، وبسبب الجلبة التي أحدثها مرور الفوج، كانت تشتعل شمعة، هنا وهناك، خلف زجاج معتم، وتفتح نافذة، ثم ينحني أحد الفرنسيين أوإحدى الفرنسيات، بخشية وخوف، على الشارع، وعلى رأس كل منهما طاقية النوم. كان «نيقولا» يرفع نظره نحو سكان المدينة هؤلاء، الذين استيقظوا من نومهم مذعورين ويتصور قلقهم حيال الموكب العسكري

الذي كان يعبر المدينة: «هؤلاء هم الروس، إنهم الروس الذين يمرون!» وتصفق بقوة درفة إحدى النوافذ، ثم تليها أخرى.

وفجأة توقف الفوج أمام بناء مظلم، فتقدم حملة الفوانيس. كان خفير روسي يقف في محرس ما زال يحمل ألوان العلم الفرنسي. وفوق عتبة المدخل قرأ «نيقولا» عبارة: ثكنة «بابل»

وفي الصف تمتم أحدهم بخيبة أمل:

- إنها لا تبدو مفرحة!

٢

في صباح اليوم التالي وبعد التفقد جذب الرائد «مكسيموف» «نيقولا» من ذراعه، وانتحى به جانباً من الباحة، ثم قال له وهو يتناول ورقة من جيبه:

- انظر ماذا تلقيت..

كانت تلك بطاقة سكن، تحمل اختاماً وبعض التواقيع.

وتابع الرائد، قائلاً:

- أيمكنك أن تقرأ ما كتب فيها؟ إنها مكتوبة بالفرنسية، ولم أفهم منها شيئاً!

فقرأ «نيقولا» مضمونها:

- «قصر الكونت السيد «دو لامبرفو»، ٨١، شارع «جرونيل».

فهز الرائد «مكسيموف» رأسه بغضب وقد احمر وجهه:

- الكونت دو لامبرفو! ومن هو هذا الشخص المجهول الذي لا أعرفه؟ إنه شخص طيب ولطيف، دون شك!

ضم «مكسيموف» بتكشيرة ازدراء، شفتيه الضخمتين، اللتين كان لهما لون ولمعان اللحم النيء.

وقال بحدة:

- هذا هو ما أكرهه أكثر من أي شيء في العالم!

وهل يمكنك أن تراني ساكناً لدى «ببغاء» تتكلم بالفرنسية طوال الوقت، دون أن أفهم منها شيئاً؟!

- ولماذا لا يكون ذلك؟ يمكن أن تكون مرتاحاً وسعيداً هناك.

- كلا ياعزيزي. إني عسكري روسي مسن، ولي مزاجي الخاص وعاداتي. وأحب طبخ وطعام بلادنا.. ففي أي ساعة سيقدم لي الطعام، هذا الكونت الذي لا أعرف من أين هو، وماذا سيضع لي في صحني؟ وكيف أستطيع الإجابة على ثنائه علي وعلى ابتساماته لي؟ وبعد كل حساب، إني أفضل البقاء في الثكنة. السرير فيها قاسٍ، هذا صحيح، ولكن الحساء فيها طيب ولذيذ!

فسأله «نيقولا» وقد استبدت به الدهشة:

- وهل ستعيد بطاقة السكن، هذه؟

- نعم، إلا إذا كنت ترغب بأن تأخذها!

قال له «مكسيموف» ذلك وهو يغمزه.

فشعر «نيقولا» وكأن موجة مفاجئة من البهجة والحبور قد غمرته. وصاح فرحاً:

- أيمكن أن تفعل ذلك؟

- وهل يكلفني ذلك شيئاً؟!

وأدار وجهه إلى جهة أخرى، وأطلق على بعد ست خطوات منه، رشقة من اللعاب تحمل لون مضغة التبغ.

فشدّ «نيقولا» على يده، شاكراً بكل تأثر ومودة. تناول منه البطاقة. وضعها في جيبه، وأسرع نحو الغرفة التي كان يقيم فيها. مع ثلاثة ملازمين، والتي تقع في الطابق الأول من الثكنة. ومن حسن حظه، لم يكن رفيقاه هناك، واستغل غيابهما لكي يتأمل هندامه ونفسه ملياً، في قطعة مرآة، كان أحد ضباط نابليون، من المولعين بالأناقة، قد ثبتها، بواسطة أربعة مسامير، على الجدار.

ومن أجل دخوله إلى أحد البيوت الفرنسية وإقامته فيه، كان «نيقولا» يريد أن يكون كل شيء فيه، من رأسه إلى أخمص قدميه، مناسباً، ويعمل لصالحه. ونظرة سريعة كانت كافية لتبعث الطمأنينة في نفسه: القدمان مضمومان، الكتفان صلبان، يده ملقاة بصورة عفوية على قبضة سيفه، كانت سيماؤه تنم في آنٍ واحد عن غبطة النصر وعن الشهامة والتسامح، كما كان من المناسب أن يكون عليه الضابط الروسي في فترة احتلال باريس. والاسمرار الذي كان يغطي بانتظام كل وجهه كان يبرز أيضاً لون شعره الحريري الأشقر وتفاحتي خديه، ذقنه المربعة الشكل، وأنفه الدقيق الأخنس قليلاً عند أرنبته. عيناه لم تكونا كبيرتين، ولكنهما تطفحان ببريق الصدق والاخلاص، وبزته ذات اللون الأخضر الغامق، بذيليها القصيرين، ياقتها الحمراء، وكذلك بطانتها، والمزدانه بصفّين من الأزرار المذهبة، كانت محشوة من الأمام لكي تبرز صدره. وسرواله الأبيض كان يغوص في جزمة طويلة سوداء. وحزام يشد خصره، حتى يكاد يعيق تنفسه، طويل القامة، عضلاته فولاذية، معدته قوية تطحن الحصى. أما قلبه، فخفقانه هادىء، ولكنه حار ينمّ عن نفاد الصبر..

وشمّر عن ساعديه، ارتدى قبعته ذات الريشة السوداء وخرج من الغرفة، منطلقاً لاحتلال المجتمع، بل العالم بكامله.

وبعد ذلك بعشر دقائق، كان يمر من أمام مركز الحرس، فقدم له الخفير التحية. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسير فيها ويتجول بحرية في باريس. وبدا له الشارع الذي سار فيه ضيقاً وقذراً. وكان المارة يلتفتون نحوه بفضول وقد لفتت بزته أنظارهم، ويرددون العبارة نفسها:

- أرأيت الروسيّ؟.. انظر، هذا ضابط روسي وسأل عن الطريق الذي عليه أن يسلكه. فدله عليه بلطف رجل يرتدي بزة زرقاء زاهية اللون:

- أنت الآن في شارع «بابل» استدر إلى اليمين إلى جادة «الأنفليد»، وتابع السير فيها حتى تصل على الساحة، وهناك تجد نفسك عند مدخل شارع «جرونيل»، وليس هنالك مجال للخطأ.! ومع ذلك فقد أخطأ عدة مرات. وأخيراً لحق به صبيان بملابس رثة:

- قرش لكل منا، أيها السيد، وندلك إلى حيث تريد أن تذهب!

فوافق على ذلك، وأخذ الصبيان يتراكضان بجانبه وأنظارهما متجهة نحو ريشة قبعته. الأصغر سناً، كانت عيناه مستديرتين وبارزتين، حاسر الرأس وفمه كبير كفم الضفدعة، وملامح وجه الثاني كان يكتنفها نمش وصهب الشقرة. ولزم كلاهما الصمت في بداية الأمر، ثم سأله الصغير:

- هل حاربتم بشدة في الأيام التي مضت؟

فقال له «نيقولا»:

- بالنسبة لي، كلا أنا لم أحارب، كنت في الخطوط الخلفية. ولكن رفاقي..

فقاطعه الكبير قائلاً:

- إذا كنتم قد ربحتم المعركة وانتصرتم، فلأن نابليون لم يكن هناك!

- ربما كان الأمر كذلك؟!

عندئذ، استدار الصغير، وسار بسرعة إلى الخلف، لكي يرى «نيقولا» وجها لوجه، وقال بأعلى صوته:

- لم ينته الأمر بعد، أتعلم ذلك؟! إنه سيعود ويبدو أنه وصل إلى «فونتنيلبو»!

- هكذا يقال.

- وإذا عاد، ماذا ستفعلون؟

- سنقاتل من جديد.

- أولا تعتقد أن النتيجة ستكون سيئة بالنسبة لكم، هذه المرة؟

فقال «نيقولا» مبتسماً:

- نحن كثيرون جداً.

فقال الكبير، موافقاً:

- هذا صحيح، كل مكان يغص بالروس، بالنمساويين...! أبي يقول إننا قد تعرضنا للخيانة!.. وهو يلتقي بكثير من الناس أثناء عمله في مهنته.. فهو «مجلخ» يعمل في حي «جروكايو» (الحصاة الضخمة) أنا أدعى: «أوغستان»، وهذا أخي «اميل»...

وعندما يمارس أبي عمله في الحي تزدحم عنده الزبائن.. وإذا رغبت أن تشحذ سيفك!..

وضحك، وكأن جرساً صغيراً قد سقط داخل حلقه. وبعد قليل، حرض منظر الصبيين المرافقين للضابط الروسي، صبياناً آخرين على الانضمام إليهم.

فانزعج «نيقولا» من الحاشية غير النظامية التي ترافقه. وخوفه من أن يسخر منه المارة أرغمه على تقطيب حاجبيه والتظاهر بالجدية والصبر، ولكنه مع ذلك كان يشعر أن وضعه مضحك: فقد كان الأولاد يتناقشون بحرارة عنه، وهم يسيرون خلفه:

- أنا أقول لك إنه لا يمكن أن يكون روسياً، لأنه يتكلم الفرنسية!

- إذن، ماذا يمكن أن يكون؟

- ربما كان أحد المهاجرين!

- أنت تمزح! لو كان كذلك، لما طلب منا أن ندله على الطريق! إنه روسي، ورسي حقيقي!

- أرأيت بزته؟! إنه أنيق. وظريف يثير الإعجاب!

ولكن لماذا شعره طويل إلى هذا الحد؟ إنه من المشاة، أو من ضباط المدفعية؟! وماذا يعمل بهذا الذي يحمله بجانبه؟!

كان «نيقولا»، بدافع الكرامة والوقار، يتظاهر بأنه لا يسمع شيئاً. وأخيراً توقفوا أمام باب ضخم مطلي باللون الأخضر، فوقه مصباح ثبت على قاعدة. فمد «إميل» و «أوغستان» يديهما الوسختين.

كان «نيقولا» قد استطاع الحصول على بعض النقود الفرنسية من خازن الفوج مقابل ما يعادلها، بصورة تقريبية، من الروبلات. فوضع قطعة من النقود في كل من اليدين المفتوحتين، وسأل الولدين:

- هل أنتما متأكدان من أن هذا هو البيت؟

فصاح «أوغستان»:

- بقدر ما نحن متأكدان من أن نابليون سيطردكم في القريب العاجل، من بلادنا!

وتفرق جميع الأولاد وهم يصيحون ويتضاحكون فابتسم «نيقولا» ومد يده نحو «مقرعة» الباب فبدا البواب وبعد أن انحنى كثيراً لتحيته فتح قليلاً، وبحذر، إحدى الدرفات، وعندما رأى البزة العسكرية انتابته رعشة، وارتجفت وجنتاه اللدنتان. وبكثير من المجاملة والمداراة شرح له «نيقولا» سبب زيارته. عند ذلك أقتاده البواب، وهو يتنهد ويئن عبر باحة مبلطة حتى درج المدخل المؤدي إلى منزل جميل وواسع مؤلف من طابقين، وجميع نوافذه تغطيها الستائر.

وقال له الخادم المكلف باستقبال المدعوين، بعد أن أدخله إلى الصالون:

- سأخبر سيدي الكونت بقدومك.

كانت جدران هذا الصالون مغطاه بالخشب المدهون باللون الأخضر المزين بخطوط ذهبية. وكان ضوء النهار يتلون فيه بما يشبه اللون الذي

يبدو تحت مياه البحر، ولم يكن فيه سوى بعض قطع الأثاث الأنيقة، المزدانة بالنقوش والمرصعة بشكل جميل، ومقاعد مغطاة بنسيج مزدان برسوم بهت لونها بعض الشيء. وكان هنالك صور غير واضحة المعالم، علقت على الجدران، تحني نحو الأرض ابتساماتها الظريفة ونظراتها الشاردة. وعلى منضدة (بيانو) من الطراز القديم، وضعت باقة من زهور الليلك الجميلة المتفتحة.

وأخذ «نيقولا» يفكر: «كيف سأُستقبل؟ بشكل سيء، دون شك، فكوني روسياً، لا بد أنه محكوم علي بأن لا أحظى بالإعجاب حتى ولا بالقبول، بل وربما أزعجت وكدرت من أقابلهم هنا..»

وكان إحساسه بأنه دخيل يزيد من ارتباكه وانزعاجه، وفجأة انتابه شعور بالندم لقبوله بطاقة السكن:

لقد كان الرائد «مكسيموف» محقاً وعلى صواب: فمكان الضابط الروسي هو الثكنة. «وماذا لو عدت إليها؟! وتعساً للسرير الجيد المريح، وللمائدة الشهية، وللأحاديث باللغة الفرنسية، ولا أسف عليها كلها!..»

وفُتح أحد الأبواب، ودخل رجل مسن، قصير ونحيف، يرتدي ملابس من الزي القديم، كان يبدو كأنه هارب من حفلة للرقص التنكري، ما زالت موسيقاها تعصف برأسه وتسبب له الدوار، وكان شعر مستعار أبيض يعلو جبينه العاجي. وصدارة من الدانتيلا تتدلى تحت ذقنه المعقوفة. كان يرتدي «فراك» اللباس الرسمي الأسود والضيق الداكن اللون، وجرابات سكرية اللون تزينها شرائط فضية.

وقال وهو يثبت المنظار المزدوج على أنفه:

- الرائد «مكسيموف» دون شك!

فأبدى «نيقولا» اعتذاره، وذكر هويته الحقيقية، ثم أكد له أن الرائد «مكسيموف» شديد الأسف لأنه لا يستطيع أن ينعم، هو شخصياً بضيافة

الكونت دو «لامبرفو». فسر الكونت من السهولة التي يتكلم بها محدثه الشاب، معبراً عن أفكاره بلغة فرنسية سليمة، ورجاه أن يجلس، ثم قال له، بأعلى صوته:

- آه يا سيد «أوزاريف»، حقاً لكم كنت أفضل أن استقبلك في منزلي، في ظروف أقل صعوبة وقسوة مما هي عليه الآن، ولكن، أكان من الممكن أن تأتي إلى فرنسا، لو لم تحملك إليها رياح الحرب؟ كيف وجدت بلادنا المسكينة؟

فأجابه «نيقولا» بتحفظ:

- أقل خراباً ودماراً مما كانت عليه بلادنا.

فرد الكونت، وهو يصفق أصابعه في الفراغ:

- أنا لا أتحدث عن الخراب المادي! أقصد الجو.. جو الاستقبال..

فأراد «نيقولا» أن يكون منصفاً، وتمتم بهدوء:

- لقد بدت لي مشاعر السكان حيالنا منقسمة ومختلفة، ولكني، إجمالاً، كنت أتوقع مزيداً من البرود فنزع السيد «لامبرفو» منظاره المزدوج، ورفع نظره نحو السقف:

- لقد عانت الأمة كثيراً، بل أكثر مما ينبغي من حروب نابليون التي لم تتوقف! وبين أنصار الأمبراطور المتحمسين والمتعصبين الذين يرفضون تقبل الكارثة والاعتراف بها، والملكيين الذين يطالبون بإعادة عرش «سان لويس» على الفور، هنالك الجماهير الفرنسية الغفيرة، التي، بصرف النظر عن الاعتبارات السياسية، تبتهج عندما تفكر بأن المجازر قد توقفت وانتهت. وبالنسبة لكثير من الناس، فإن العودة إلى حياة الأمن والسلام، تعوض عن عار الهزيمة. لم يعد أحد يفكر، يريد الناس أن يتنفسوا الصعداء، وبحرية. وفيما

يتعلق بي، فإني لا أكتمك أني بقيت على الدوام مخلصاً وموالياً لآل «بوربون». وبالمناسبة، فإن أصدقائي، وأنا نفسي، قد تأثرنا بشكل خاص لرؤيتنا الجيوش المتحالفة وقد وضع أفرادها على سواعدهم الشارة البيضاء، عند دخولهم إلى باريس، وهي الشارة التي تُعد رمز الملكية الفرنسية!

و «نيقولا» الذي أدهشه هذا الفيض من الكلام الحماسي، لم يستطع أن يمتنع عن القول بأن نطاق الساعد، الأبيض، الذي أضفى عليه السيد «لمروفوكس» أهمية كبيرة، لم يكن بالحقيقة، بالنسبة للمتحالفين، سوى اشارة للتعارف بين الجنود. ويبدو أن هذه الملاحظة قد أحزنت «الكونت» الذي أطرق برأسه، واضعاً أنفه في صدارته، ولكنه بعد قليل، صاح بفرح، وقد رفع رأسه:

- لا بأس بذلك ولا أهمية له! إذ إن نوايا القيصر ليست مجهولة بالنسبة لنا! والتصريح الذي أمر بإعلانه وإلصاق نصه على الجدران في باريس يثبت تماماً أنه لن يتعامل أبداً مع أي كان من أفراد أسرة «بونابرت» وأنه بالمقابل، يحتفظ بكل تقديره للسلالة، وللأسرة الملكية التي بنت فرنسا وحضارتها. ومن جهة أخرى فإن السيد «تاليران» قد دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع، من أجل تشكيل حكومة مؤقتة.

وسيخرج «بونابرت» من باب ولويس الثامن عشر سيدخل من باب آخر.

كان «نيقولا» الذي يجهل كل شيء عن السياسة الفرنسية يصغي بملل إلى ذلك الحديث. وكان هذا الهياج العقائدي يبدو له عديم الأهمية وتافهاً بجانب الأهمية المأساوية لمعارك الحرب. ألم تكن الأحداث المهمة الوحيدة هي أن جيوش نابليون قد طُردت من روسيا، وأن ألكسندر الأول قد دخل إلى باريس منتصراً؟

وبالنسبة لما تبقى، فما على الفرنسيين إلا أن يتدبروا أمورهم بأنفسهم وفيما بينهم. وكما لو أن السيد «دو لامبرفو» قد أدرك أفكار ضيفه، فغير بسرعة مجرى الحديث: قائلاً:

- لسوء الحظ، أيها السيد العزيز، أنت تحل في منزلٍ مهمل، فلأني كنت أخشى أن يحدث قتال في شوارع باريس، أرسلت زوجتي وابنتي إلى «ليموج». وإذا أراد نابليون أن يلتزم الهدوء، فإنهما لن تتأخرا في العودة. ولكني أطلت الحديث، ولا بد أنك في عجلة من أمرك لكي تستقر وترتاح: فهل يسرك أن تتبعني؟

كانت الغرفة التي خصصت لنقيولا تقع في الطابق الأرضي، جدرانها مغطاة بقماش رمادي اللون، والسرير فوقه ناموسية على شكل قبة، يحملها قضيبان من خشب «الأكاجو» المصقول. ومقابل مدخل الغرفة هنالك باب آخر، يؤدي إلى حديقة خضراء كثيفة الأشجار، تحيط بالمنزل. وبينما كان «نيقولا» يتأمل بإعجاب مسكنه الجديد، أتى أحد الخدم، وهو يسرع لاهثاً ومضطرباً، ليخبر الكونت بأن البواب يتناقش مع شخص لا يعرف أحد من أين أتى، يتكلم بلغة غير مفهومة ومخيفة، مهدداً بأنه سيحطم كل شيء، إذا لم يسمح له بأن يلتقي على الفور، بالملازم «أوزاريف» فشعر «نيقولا» بالقلق، وتبع الخادم إلى الباحة، حيث رأى «أنتيب»، بنظراته المخيفة، وشعره المنسدل على جبينه، وقد ضم قبضتيه، ووقف أمام البواب الذي كان يحاول، بحركة مسرحية، أن يبعده ويمنعه من الدخول إلى المنزل.

وصاح «أنتيب» بصوت أجش، عندما لمح سيده:

- آه! سيادتك؟! قل لهذا الكلب الفرنسي أن يعود إلى حجرته! فسأله «نيقولا»:

- ولكن متى وصلت؟ ومن أين حصلت على عنواني؟

- لقد نمنا في الحقول، الليلة الماضية، وصباح اليوم، منذ الفجر، استيقظ الجميع! وسرنا باتجاه «بابل»! وهناك، قال لي الرائد» مكسيموف» أين أنت..

وبينما كان يشرح ذلك، مبدياً كثيراً من الحركات والإشارات، كان «نيقولا» يتفحّصه بحزن، واسى بسبب سوء هندامه. وإذا كان الجنود في الجيش الروسي يرتدون اللباس المناسب والبزات العسكرية النظامية، فإن الجنود الوصفاء (أي خدم الضباط) كانوا يرتدون كل ما يكون في متناول يدهم، وكيفما اتفق، ولا سيما بالنسبة لأنتيب، الذي لم يكن هنالك من هو أغرب هنداماً ومظهراً منه: كان يغطي شعره الأصهب بقبعة «كاسكيت» كثيرة الطيات كجوانب «الأكورديون»، مصفرة اللون، ويرتدي جلباباً أزرق واسعاً جداً، ربما كان قد حصل عليه بعد أن سرقه عن جثة أحد القتلى من الجنود الفرنسيين، وكان يتدلى على كتفيه النحيليين. وقد غاصت قدماه في حذاء ضخم، من أحذية سائقي العربات، ومع ذلك فإنه على ما يبدو، حاول أن يصحح، بشيء ثانوي نظامي، غرابة هندامه: فقد ربط حول ساعده منديلاً جميلاً أبيض. وبجانبه، على الأرض، كان هنالك قفص فيه دجاجتان، كدسة من الخرق تبدو بينها سدادة زجاجة، وثلاث طناجر نحاسية مربوطة ببعضها. وليس هنالك أي شك بأن هذه الأشياء، قد حصل عليها كغنيمة من إحدى مزارع ضواحي باريس. وشعر «نيقولا» بالخجل أمام الكونت «دو لامبرفو» الذي كان يراقب المشهد، وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة.

وقال «أنتيب» وهو يغمز «نيقولا»:

- لدي أيضاً مثل هذه الأشياء، في الثكنة! ولكنك تدرك، يا صاحب السيادة، أني لا أستطيع أن أحملها دفعة واحدة..

فتمتم «نيقولا» متذمراً، وهو يكز على أسنانه:

- يالك من سارق! أنت لص؟!

- المسيح وحده هو الذي لا يسرق: إذ إن يديه مسمرتان!

- وتجرؤ أيضاً على التجديف؟!

- هذه الأشياء، حتى لو أردت التخلص منها فإني لا أعرف لمن أعيدها!

- حسن! أرجعها إلى الثكنة، اعطها لأي كان وحاول أن ترتدي ملابس مناسبة، وأن تصلح هندامك!

- سأفعل كل ما أستطيعه، يا صاحب السعادة ليست الرغبة هي التي تنقصني، ولكنها الوسائل.

سنقيم هنا؟

- نعم

- البيت جميل!

- إنه مبرر إضافي يدفعنا لكي نعيش فيه بشرف!

إذا سمعت أقل شكوى بحقك، سأطردك، وأعيدك للخدمة في الصف، وسأجلدك حتى الموت! فهل فهمت؟! والآن اذهب وأحضر حوائجي!

بعد ذهاب «أنتيب» اعتذر «نيقولا» للكونت عن تصرفات ومظهر وصيفه «أنتيب». ولكن يبدو أن الكونت لم يكن متاثراً بسبب ذلك أو مهتماً به. وقد تلقى البواب الأمر بأن يُعد «أنتيب» من أفراد الأسرة التي تعيش في المنزل. وتم الاتفاق على أن يتناول «نيقولا» وجباته في غرفته، وعلى أن يقدمها له ويخدمه وصيفه.. ومع ذلك، فإن الكونت كان يرغب أن يتناول الضابط الشاب عشاءه معه على مائدته هذا المساء:

- إني سأستقبل بعض الأصدقاء. وسيسرك التعرف عليهم. نحن نتناول العشاء الساعة السادسة. أرجو أن تنضم إلينا.

وأدرك «نيقولا» أن مضيفه يريد أن يقدمه لأصدقائه كحيوان غريب مثير للفضول. كانت شهرة الفرنسيين بولعهم بالسخرية والدعابة جعلته يخشى أن يبدو ثقيلاً وبليداً لهذه الجماعة من الساخرين المحترفين. وفي «سان بطرسبورغ» نفسها لم تتح له الفرصة بأن يخرج ويختلط بالناس. وأخيراً فإنه تغلب على خجله، وقبل الدعوة.

أمضى طوال الوقت، بعد ظهر ذلك اليوم في الخدمة والعمل في الثكنة، حيث كان رجال الفوج يغسلون ملابسهم، ينظفون حاملات أسلحتهم، يفكون ويزيتون أسلحتهم، يعدون أزرارهم ويحصون ما لديهم من ذخيرة وعتاد، استعداداً للتفتيش الافرادي وللاستعراض القادم. وفي غضون ذلك كان «أنتيب» قد نقل حوائج سيده إلى مسكنه الجديد، في شارع «جرونيل» الذي عاد إليه «نيقولا» في نحو الخامسة والنصف، وكان لديه بعض الوقت ليرتاح قبل أن يذهب إلى المائدة وعند ظهوره بين مدعوي السيد «لامبرفو»، كان هؤلاء من الظرف والكياسة، بحيث أنهم حصروا اهتمامهم به في حدود المجاملات العادية. كان من بين المدعوين الكونت والكونتيسة» دومالفير - جي» اللذان يبلغان الستين من العمر، السيد «نواي» أحد أصحاب المصارف وابنه ذو الوجه الأشقر المتطاول، امرأة شابة وظريفة شعرها أشقر وعيناها زرقاوان، وزوجها بارون دو «شارلاز» البطِن الذي كان يمكن أن يكون والدها، وشابان مراهقان بوجهين نضرين وربطتي عنق ضخمتين تلفتان الأنظار بلونهما الأبيض. وبعد فترة وجيزة، شعر «نيقولا» بالارتياح التام، وكان يأسف فقط لعدم تمكنه من متابعة الأحاديث واستيعاب أدق تفاصيلها وخفاياها.

كانت الأسماء نفسها تتردد، من فم وآخر: «تاليران» «كولينكور» «كونت» «دارتوا» «نسيلرود» «مارمون» «بيرتييه» «بيونابرت»، «ماري لويز» «مترنيخ»...

كان جميع الضيوف يتساءلون عما إذا كان نابليون، الذي لجأ إلى «فونتنيبلو» سيتنازل عن الحكم، أخيراً، كما كان ينصحه أعوانه وكبار قادته، على ما يقال، أم أنه سيستأنف لبضعة أيام حرباً، تبدو سلفاً أنها خاسرة، بالنسبة له، وإنما يكون قد فعل ذلك، مدفوعاً بكبريائه، ليس إلا. أما بشأن حكومة فرنسا، المقبلة، فقد كانت الآراء موزعة ومختلفة، فإذا كان بعضهم كالسيد «لامبرفو» لا يرون أمناً وسلاماً إلا بعودة «آل بوربون» لتسنم عرش فرنسا، فقد كان آخرون كالسيد «نواي» صاحب المصرف، يُعدون أن وصاية «ماري لويز» ربما كانت هي الأفضل. وتجرأ أحد الشابين على التلفظ بكلمتي: «دستور جمهوري»».

ودهش «نيقولا» من الحرية التي يعبر بها كل مدعو عن وجهة نظره في مشكلة على هذا القدر من الأهمية والخطورة. فهل كان الأمر، بالنسبة لهم على هذه الحال، في عهد نابليون؟ أو ليس سقوط الحكم الأمبراطوري هو الذي أطلق ألسنتهم وحل عقدتها؟

ويمكن أن يقال أن أبسط المواطنين شاناً، في هذه البلاد لديه كفاءة أي وزير من وزراء الدولة. والسياسة هي قضية الجميع، وشغلهم الشاغل. وبالطبع، فإن نقاشاً كهذا لا يمكن أن يجري أو أن يتصوره أحد في روسيا إذ إنّ القدرة الكلية والسلطة المطلقة التي يتمتع بها القيصر، كانتا تستبعدان أي محاولة لانتقاد تصرفاته وقراراته أو التنبؤ بها. فلا يمكن للمرء أن يكون روسياً دون أن يقدس القيصر، بينما يمكن للشخص أن يكون فرنسياً، وأن يتمنى علناً تغيير الحكومة بل تغيير نظام الحكم أيضاً. وأخذ «نيقولا» يفكر: «أساساً، يبدو أن الثورة التي قاموا بها قبل اثنين وعشرين عاماً، قد وسمتهم كخطيئة أصلية كبرى، وكل حياتهم الآن تعمها الرغبة بالتدخل بالشؤون والقضايا العامة. وهم يكفّرون،

بواسطة الخلافات السخرية والاستخفاف بالعرف والتقاليد، بالهياج والحماسة والثرثرة عن جريمة سفك دماء مليكهم في الماضي غير البعيد.»

واعتذر السيد «لامبرفو» عن عدم تمكنه بسبب الصعوبات التموينية، من أن يقدم لأصدقائه عشاءً أفضل من هذا. والواقع هي أن الوجبة كانت طيبة ودسمة، وقد استغرقت وقتاً طويلاً. كان رب البيت، يقطّع اللحوم، هو بنفسه، ولكن كان هنالك خادمان بملابس بنية أنيقة، يقدمان الأطباق ويسكبان النبيذ. ودهش «نيقولا» من قلة عدد الناس المرتبطين بشخص الكونت. إذ إن رجلا في مثل وضعه، في روسيا، يمكن أن يكون في خدمته عشرة أضعاف هذا العدد. صحيح أن الخدم في فرنسا ليسوا من العبيد الأرقاء، بل ربما كان ينبغي أن تدفع لهم الرواتب والأجور! وهذا يبدو أنه لا يصدق!

ومن وقت لآخر، كان أحدهم يقطع سياق الحديث ويلقي على «نيقولا» سؤالاً عابراً وعادياً:

هل أتيح له الوقت لزيارة باريس؟ وبأي معلم من معالمها سيبدأ زيارته لها؟

وأخيراً، أنحنت نحوه جارته بارونة «شارلاز» الجميلة، وهمست له:

- اجتماع غريب، أليس كذلك؟ كل هؤلاء الناس أتوا إلى هنا ليشاهدوا روسياً حقيقياً، وعندما أصبحوا أمامك لم يجرؤوا على أن يسألوك حسب رغبتهم، وكما كان يحلو لهم أن يفعلوا، ومع ذلك فإني أقسم لك إن في ذهنم ألف أمر مهم يريدون أن يسألوك عنها!

- أيها، مثلاً؟

- حسن، ولكن قبل كل شيء، ما رأيك بنا؟!

- حتى هذا اليوم، يا سيدتي، لم يكن الفرنسيون، في نظري سوى خصوم شجعان وأشداء. افسحي لي الوقت لمعرفتهم وتقييمهم في مجال آخر غير ميادين القتال.

فسألته وهي تبتسم قليلاً:

- أتشعر حقاً بالحاجة لمعرفتهم بشكل أفضل، أم أن هذا ليس سوى مجاملة منك، كمنتصر مهذب؟

فقال لها «نيقولا»:

- أقسم لك يا سيدتي، إني منذ زمن طويل، كانت أغلى أمنياتي هي زيارة فرنسا، ولكني كنت أفضل أن آتي اليها كمجرد مسافر وسائح!

- كان من الممكن أن تكون قد أخطأت، فالبزة العسكرية تناسبك، وتليق بك بشكل مدهش!

فاحمر وجه «نيقولا»: لقد سمع جميع من حول المائدة رأي السيدة «دي شارلاز». ونهضوا لتناول القهوة في الصالون. فصب السيد «دو لامبرفو» في أقداح صغيرة شراباً روحياً غريباً. ودون أن يقصد «نيقولا» ذلك، وجد نفسه جالساً على إحدى الأرائك بجانب السيدة البارونة، التي استأنفت حديثها قائلة:

- وهكذا، فأنت تنوي أن تدرس أخلاقنا وطباعنا أثناء إقامتك هنا، على طريقة «ريومور»[1] الذي ينكب على دراسة حشراته، إني لأرتجف خوفاً من خيبات الأمل التي ستمنى بها!

- إذا حكمت على ذلك اعتماداً على أول تماس لي مع المجتمع الباريسي، فإني لا أتوقع أي خيبة أمل، بل أتوقع السحر والافتتان!

١- Reaumur (١٦٨٣ - ١٧٥٧) فيزياني وعالم طبيعات فرنسي مشهور.

فوجهت له ضربة خفيفة على أصابعه بمروحتها وكأنها ترجوه بألا يضيف على ذلك شيئاً. فساوره بعض القلق من أن يكون قد أزعجها، ولكنها كانت قد طمأنته بابتسامة ساحرة، وقالت:

- بوح بسر مقابل بوح بسر آخر، إني سأتحاشى من الآن فصاعداً الأفكار والأحكام المسبقة، فأنا قبل أن أتعرف عليك، كنت أتصور الروس وكأنهم أناس عديمو الثقافة، متوحشون، فاسدون ودمويون يمضون حياتهم على ظهور الخيل، يأكلون الشموع والقضبان المصنوعة من شحم الأمعاء، نعم، كنت أتخيلهم بعض قبائل «الهون» (Des Hums)[1] وقد تدفّقت علينا من فيافي آسيا! ولم أحتج لأكثر من ساعتين لكي أدرك لأي درجة كنت مخطئة. ولكم يسرني أن تأتي لكي تتناول الشاي في منزلنا! وسأحدد لك الموعد..

عند ذلك، لم يكن «نيقولا» يخشى سوى أمر واحد: وهو أن يبدو سعيداً أكثر مما ينبغي، وقد بذل جهداً كي يوقف دفق البريق، الذي كان يتصاعد إلى حدقتيه. فيا لها من نجاح هذا الذي تلاقيه خطواته الأولى في المجتمع وبدت له البارونة «شارلاز» أكثر ذكاءً وأكثر سحراً وجاذبية منذ أن أولته اهتمامها.

وتمتم بهدوء:

- سأقوم بذلك بكل سرور، ومتى أردت!

١- Des Humo: شعب قديم من القبائل الرحل التي كانت تقيم في السهوب الواقعة في جنوب سيبيريا، وانتقلت إلى أوروبا وغرب آسيا أواخر القرن الرابع. زعيم هذا الشعب هو «أتيلا» المتوفى سنة ٤٥٣ - المترجم -

- ربما يكون علي أن أنتظر عودة السيدة «لامبرفو» وابنتها إلى باريس، فهل تعرف متى ستعودان؟

- كلا.

- بذمتي هذا صحيح! لقد وصلت لتوك إلى باريس وأنا أتحدث اليك وكأنك أحد أفراد الأسرة. السيدة «دو لامبرفو» امرأة ظريفة، وسترى ذلك.. وابنتها ظريفة أيضاً، وإن لم تكن أفكارها تتفق مع أفكاري والحقيقة أني نادراً ما التقي بها، منذ فترة حدادها.

- هل فقدت أحد أعزائها؟

فقالت السيدة «شارلاز» وهي «تبتسم»

- أحد أقربائها، على أي حال: زوجها السيد «دي شامبليت».

فسألها «نيقولا»

- وهل توفي منذ زمن طويل؟

- منذ سنتين، على ما أعتقد..

- وفي أي معركة؟

فرفعت السيدة «شارلاز» حاجبيها، وبدرت منها ضحكة موسيقية:

- آه! يالهؤلاء العسكريين!؟ إنهم لا يتصورون أن رجلاشريفاً يمكن أن يموت إلا وقد اخترقت صدره إحدى الحراب، أو أن قذيفة قد أطاحت رأسه عن جسده. والسيد «شامبليت» لم يشترك بأي حرب، وقد فارق الحياة في سريره وهو في الثانية والأربعين من العمر، بعد أن أصيب بحمى خبيثة وربما كانت دماغية. وكان، كما قيل لي عالم رياضيات ممتاز، وفيلسوفاً مأسوفاً عليه، وإذا رغبت بمعرفة المزيد عنه أبحث في مكتبة مضيفك:

ولا بد أن تجد بين الكتب الموجودة فيها، مؤلفاً أواثنين من مؤلفات «شامبليت»..

وأخفت أسفل وجهها خلف مروحتها وهمست مرة أخرى وهي توجه حدقتيها نحو حاجبيها:

- من جهتي، فإني لم أجرؤ أبداً على قراءة أي منها! وعندما انحنت نحو «نيقولا» وهي تهمس بهذه الجملة، شم عطر «الونيليا» المشهور والبشرة الدافئة، وغشيت أفكاره في الحال سحابة من الضباب. واتى السيد «دو لامبرفو» في وقت غير مناسب، عبر ذلك السراب بشعره الأبيض المستعار وابتسامته الفولتيرية، وقال:

- حسن! أرى أن روسيا لم تلقِ بعد السلاح!

ومعركة فرنسا ما زالت مستمرة..

فاعتبر «نيقولا» هذا التلميح ينم عن أسوأ قدر من فساد الذوق، فقد تسبب بزوال عذوبة وسحر الحديث. واقترب منهم مدعوون آخرون. فنهضت السيدة «شارلاز» بتراخٍ عذب ومثير: كانت جميلة شقراء تشع دفئاً وحرارة. كان أصدقاؤها يلقبونها «دلفين» وكان «نيقولا» يحسدهم لكونهم لهم هذا الحق. وكيف يمكن لمخلوقة متميزة إلى هذا الحد أن تتزوج البارون «دي شارلاز» الذي كان بديناً، بارز البطن شاحب الوجه وأصلع؟ وحاول «نيقولا» من جديد أن ينفرد بهذه المرأة الجميلة، ولكنها لم تفعل شيئاً لمساعدته على ذلك، وظلت الأحاديث، حتى نهاية السهرة، تدور حول أمور عامة.

وعند منتصف الليل، عندما ذهب «نيقولا» لينام اصطدم بجسم «أنتيب» الذي كان كعادته، ينام ملتفاً بغطاء، في الممر أمام باب غرفة سيده، وكان شخيرة، بحد ذاته يشكل وسيلة لإخافة الناس ولمنع أي كان من

الاقتراب من باب الغرفة، وتخطى «نيقولا» الوصيف، محترساً من إيقاظه، ودخل إلى الغرفة حاملاً شمعته، ولكونه كان معتاداً على شظف الحياة في المعسكرات. فقد اعتقد أنه كان يكفيه أن يستلقي على ذلك السرير الجيد، بشراشفه وأغطيته النظيفة، حتى يستغرق حالا في النوم، ولكن لم يحدث شيء من ذلك. فقد كانت السهرة حافلة ومثيرة، وأخذ «نيقولا» يفكر بـ «دلفين» وقد ضم يديه تحت رأسه، وشردت نظراته عبر الظلام، وهو مستلق على ظهره، وقد نفى عنه نفاد صبره كل شعور بالراحة أو بالرغبة بالنوم: «أحقاً أنها قد استلطفتني ،أعجبت بي، وأنها تنوي جدياً الالتقاء بي ثانية؟ ولا بد من أن يكون امتلاك امرأة مثلها أشد إثارة من الدخول إلى باريس، على صهوة حصان. وسُرّ بهذه الدعابة الماجنة، وكأنه قد تعرض للرقية والسحر، فاستغرق بكل ثقله، في الحال، في نوم هنيء وعميق.

٣

منطلقاً على صهوة جواده، منذ بزوغ أشعة الشمس الأولى اجتاز نيقولا الحاجز، عند الساعة الثامنة صباحاً. كان يحمل رسالة تتضمن أوامر تتعلق بالخدمة لمفرزة من جنود الحرس الليتواني، المخيمة على الطريق المؤدية إلى «دير سان جرفيس». وعند مروه في بلدة «بيل فيل»، دهش كثيراً عندما تبين له أنه بعد مرور ثلاثة أيام على توقف القتال، كان هنالك كثير من الجثث لم تدفن، وكل ما هنالك أنها سحبت إلى جانب الطريق، لتسهيل مرور القوافل. وكانت تلك الجثث تبدو متيبّسه، لا مبالية بعد أن جردت من ملابسها وأسلحتها، معرضة لأشعة الشمس وهي مستندة على جدران المنازل. وكانت جثث الفرنسيين تعرف من البقع الزرقاء التي تركتها ملابسهم على قمصانهم بتأثير العرق والمطر. وكان الذباب يتطاير على وجوههم. وهنالك رائحة ثقيلة ومثيرة للقرف تمتزج مع أريج الزهور التي كانت قد بدأت تتفتح، والسكان الذين كانوا قد لجؤوا إلى باريس عند احتدام المعارك، كانوا يجدون، عند عودتهم إلى منازلهم بعض القتلى المجهولي الهوية، وقد ألقوا كيفما اتفق على عتبات أبواب بيوتهم أو في حدائقهم. وكانت بعض الأسر تتجمع بكامل أفرادها أمام أحد المنازل الذي تحطم زجاج نوافذه، واصطبغت درفاتها بلون البارود الأسود وأخذوا يخرجون من تحت الركام والأنقاض بعض قطع الأثاث والأدوات المنزلية كالكراسي والطناجر وغيرها. وما كان لا يزال منها صالحاً للاستعمال كان يحمل على إحدى العربات.

وكان هنالك بعض جنود القوزاق يتجولون على صهوات جيادهم، وقد أمسكوا برماحهم، بين أولئك الناس الذين انحنوا ليجمعوا تلك الأشياء المبعثرة في كل مكان تحت أكداس من الأنقاض. وعند مرور الروس كان يخيم الصمت، ويسود الجو الشعور بالكراهية.

لقد كانت فرنسا كلها، على ما يبدو تكرههم. ومع ذلك ففي دار الأوبيرا، بالأمس هتف جمهور متحمس لزعماء الجيوش المتحالفة، وأنشد المغني «ليس» على لحن: «يعيش هنري الرابع»: يعيش ألكسندر يعيش ملك الملوك، هذا!.. والصحف التي كانت تتغنى فيما مضى بأمجاد نابليون أخذت الآن تكيل له الشتائم وعبارات التهكم، وكان هنالك بعض الملكيين، وأنصار الملكية يحاولون إنزال تمثال نابليون من فوق قاعدته، في ميدان «فندوم».

وقد أخذ بعض الأطفال البائسين يبيعون في الشوارع صوراً كاريكاتيرية للنمر «بونابرت» وصوراً جميلة وجذابة للعاهل الروسي، أو أنهم كانوا ينشدون بعض أغاني الترحيب، وهم يمدون أيديهم، طلباً للصدقة والاحسان:

فليحفظ الله ألكسندر وذريته، إلى أن نمسك القمر بأسناننا!..

كان نيقولا يفضل على هذا التكريم الذي يتسم بالعبودية، الرد الجريء، بل الوقح، الذي تفوه به صبي آخر، من باريس:

بقدر ما أنا واثق بأن «نابليون» سيطردكم عما قريب إلى خارج فرنسا!..

ولا يبدو أن نبوءة الصبي سوف تتحقق. صحيح أن نابليون كان لا زال يرفض التنازل، وجيشه يخيم على بعد بضعة كيلومترات من العاصمة، ولكن سبق لمجلس الشيوخ أن أعلن خلعه عن العرش، وقد تشكلت حكومة مؤقتة على عجل لدعوة لويس الثامن عشر لتسنم العرش، كما

سرت الشائعات بأن العديد من كبار قادة نابليون، وفي طليعتهم «مارمون» سيتحولون مع جيوشهم إلى مناصرة المتحالفين.

وهكذا فلا يكون لدى نابليون أي خيار سوى الاستسلام دون قيد أو شرط. وبذلك تكون تلك المذبحة التي جرت عند أبواب باريس، قد ذهبت سدى ولم تؤدِ لأي نتيجة.

ورأى «نيقولا» أثناء مروره هناك، الحانة التي تناول فيها الشراب الجنود الروس والفرنسيون سوية ليلة إعلان الهدنة، كان المكان مقفراً وقد تناثرت فيه قطع الزجاج المحطم، ولم يعد هنالك مقعد أو منضدة تحت العرائش التي تغطي الباحة. وفي الحقول تحترق أكداس القمامة وينتشر منها دخان كثيف برائحته اللاذعة التي تؤذي الحناجر. وكان بعض جنود الحرس الليتواني يخيّمون بقرب إحدى القرى التي دمرتها الحرب.

وهناك يوجد مستودع للذخيرة والعتاد، لا يمكن أن يترك من دون حراسة. وبعد أن سلم «نيقولا» الرسالة إلى الرائد، قائد المفرزة، وأخذ يهم بأن يأخذ طريق العودة، خرج الملازم «هيبوليت روزنيكوف» من إحدى الخيام، يتخلع في مشيته، طويل القامة، شعره أسود كجنح الغراب، أنفه له شكل المنقار، وعيناه غائرتان في محجريهما، كان يشير بيديه ويصرخ:

- انتظرني أنا ذاهب إلى باريس، لقد حصلت على إجازة!..

ويبدو أنه أقل حظاً من «نيقولا» فقد ألحق منذ ثلاثة أيام بهذه المفرزة التي تقوم بعملها الرتيب خارج العاصمة.

وقال وهو يمتطي صهوة جواده:

- ولكن هذا الوضع سوف يتغير! فبعد الغد سيحل محلي، ملازم فتي، يبدو أنه متحمس للخدمة هنا. ولن أعود إلى الثكنة، كلا يا عزيزي!..

فقد حصلت، أنا أيضاً، على بطاقة سكن!

فساله «نيقولا»:

- وعند من ستسكن؟

فعبس «هيبوليت»، ومط شفتيه، وقال:

- ليس المكان مغرياً: في منزل مهندس معماري أرمل، ليس لديه ابنة، وخادمته عجوز شمطاء في الستين من عمرها! ولكن لا بد أن الفرص من أجل اللهو والمتعة لن تكون قليلة في باريس، فهل قمت هناك بمغامرة ما؟

فقال «نيقولا»:

- ليس الأمر واضحاً بعد، ولكن الأمل قوي جداً!

لقد بالغ في تفاؤله، إذ إن «دلفين» كما كان يسميها في أحلامه، لم تبدر منها إشارة تنم عن الحياة منذ لقائهما في المنزل الكائن في شارع «جرونيل» زد على ذلك، أنه يدرك جيداً، أنها ملزمة، بسبب وضعها الخاص نفسه، على وضع خطة ذات مراحل من أجل تنفيذ مغامرتهما الغرامية. ألا تختلف نساء طبقتها عن بقية النساء لأنهن، بدلا من أن يستسلمن لأهوائهن بسرعة ودون مقدمات، يتذرعن بألف مأخذ وبألف عائق من أجل تأخير ملذات الاستسلام الذي يعرفن أنهن لا يستطعن تحاشيه؟ وثمانٍ وأربعون ساعة من الفراق، كانت عذاباً مقيماً بالنسبة له، ولكن لا شك أنها بالنسبة لها كانت مقدمة وفترة استعداد لتقبّل فكرة كونها يمكن أن تخون زوجها. وبكل أريحية وكرم، منحها مهلة ثلاثة أيام - كلا: بل يومين - لكي ينهي جدله مع ضميره. وبعد ذلك يمكنه أن يقطع الأمل: «هل أحبها إلى درجة تجعلني لا أستطيع الاستغناء عنها؟» هذا ما كان يخشاه وهو يفكر بها.

وسأله «هيبوليت روزنيكوف»:

- أهي جميلة؟

- فأجابه «نيقولا»:

- أكثر من جميلة؟

- وهل هي متزوجة؟

- ويا للأسف!

- هذا أفضل، وبذلك تتجنب كثيراً من المشكلات!

فقال «نيقولا» وهو في الطريق، ممتطياً حصانه:

- إن الأمر يتعلق بامرأة من الطبقة الراقية في المجتمع.

- فصفر «هيبوليت» إعجاباً، وقال:

- هذا يعني أنك، باعتبارك تتمسك بالاستقامة والشرف، فلن تحدثني عنها بعد الآن؟

فقال له «نيقولا»:

- لن أحدثك بشيء عنها بعد الآن!

وانطلقت نظراته كالسهم نحو الأفق.

وفي طريق العودة التقيا بمجموعة من الجنود الروس، وهؤلاء عندما رأوا الضابطين، أسرعوا بالهرب والاختفاء بين أدغال العليق: إنهم من النهابين أو من الفارين من الخدمة، دون شك. وغير بعيد من هناك، وعلى منحدر أحد التلال، كان بعض الضباط الفرنسيين وضباط الحلفاء، يسيرون بخطى وئيدة، وينحنون من وقت لآخر، وكأنهم يلتقطون شيئاً ما كانوا يحصون القتلى حسب جنسياتهم.

ومن جهة قصر: «فانسين»، كانت المدافع تدوي على فترات متباعدة. هذا وإن كانت باريس قد استسلمت، فإن الجنرال «دومسنيل» المحاصر في أحد الحصون كان يرفض الاستسلام. وعند حاجز «منيلمونتان» كانت تبدو وجوه جنود «القوازق» الملتحية، من بين قضبان الحاجز. وأثناء ذلك كان مندوبو المالية قد استأنفوا عملهم في تحصيل ضريبة الدخولية وأخذوا يوقفون جميع العربات ويفتشون كل الحقائب والأكياس.

كان الموت قد توقف عند أسوار العاصمة، وقد بدا تناقض مخيف بين الدمار والأسى اللذين أصيب بهما الريف الذي تناثرت فيه جثث القتلى، وبين منظر الحركة الناشطة في المدينة، حيث لم يكن عدد المتنزهين في يوم من الأيام، أضخم منه في تلك الفترة. وبعد أن تناول «نيقولا» و «روزنيكوف» الطعام في أحد مطاعم ضاحية «التامبل» استأنفا السير نحو مركز العاصمة. وأراد «روزنيكوف» أن يرى فيما إذا كان تمثال نابليون لا يزال فوق قاعدته. وكان لا يزال هناك، ولكنه مغطى بنوع من القماش الذي يستعمل للصر، ولحزم الرزم. ومن تلك الدمية الضخمة كانت بعض الحبال تتدلى حتى الأرض. وإلى جانب قاعدة النصب، جلس رجل يبيع شارات وطنية بيضاء، ولكن قليلاً من الناس كانوا يشترونها منه.

وتابع «نيقولا» و «روزنيكوف» طريقهما متجهين إلى شارع «سان هونوري» الذي كان يغص بالمشاة وبالعربات. جميع أشكال البزات العسكرية الرسمية والوانها كانت تتدافع جنباً إلى جنب في ذلك الشارع الضيق، ممثلة مختلف أسلحة وفرق الجيوش المتحالفة، وكانت المخازن تكثر في هذا الشارع، حيث كان يبدو جنود «القوزاق» بستراتهم الحمراء، أو البيضاء، وسراويلهم الواسعة والمنتفخة، والسيور حول أعناقهم، ورؤوسهم تغوص حتى الآذان في قبعاتهم بكل فخر واعتزاز، وضباط نمساويون بملابس العرض البيضاء، رماحون بقبعاتهم المربعة الشكل جنود من الخيالة، صدورهم مزينة بمطرزات كثيفة ومتطاولة كالسلاسل. بعض الملابس المدنية التي كان يغمرها ذلك الغيض من الكتافيات، الأوسمة، الشرائط الريش، الشرابات والرصائع، بحيث أن النساء لم تعد إحداهن تعرف إلى أين توجه نظراتها.

وكان سيل الجمهور يزداد كثافة بالقرب من ميدان «لويس الخامس عشر» الذي كان قد أصبح منذ وقت قليل، مركز باريس السياسي.

وبالفعل كان القيصر لا يزال يقيم في قصر «تاليران» الذي يقع في زاوية شارع «فلورانتان» وكانت تحرس المنافذ المؤدية إلى هذا المسكن الجميل، سرية من فوج «بريوبراجنسكي». وكان سعاة البريد، الضباط الدبلوماسيون، رجال الشرطة، ومراجعون من جميع الأصناف والألوان، يدخلون، يخرجون يتصادمون ويتبادلون الاعتذار والتحية، عبر دمدمة شبيهة بطنين وبدمدمة خلية نحل تحت أشعة الشمس. وعلى جدران المنازل المجاورة قد ألصقت الإعلانات المتضمنة النداءات الأمبراطويرية. ولكن كان من النادر أن يتوقف أحد المارة ليقرأها: فقد كان معظم الفرنسيين يحفظونها غيباً. وبدلا من ذلك كان فضول الجمهور يتجه نحو شارع «الشانزيلزيه» حيث كان يخيم جنود «القوزاق» هذه اللوحة التي تمثل المشهد المألوف بالنسبة لـ نيقولا، كانت تثير لدى متسكعي باريس الذهول المشوب بالخوف، كانوا يأتون إلى هناك بمجموعات كبيرة، وأحياناً تأتي بعض العائلات بكامل أفرادها، لكي يشاهدوا بكل حرية «القبائل المتوحشة القادمة من الفيافي..» كان ذلك بالنسبة لهم مشهداً تعليمياً لا يكلفهم شيئاً. وكانوا يصيحون سوية وبصوت واحد حيال المنظر البدائي للمخيم الذي أقيم في العراء:

- هذا غريب!.. غير معقول، ولا يصدق في عصرنا هذا!؟..

كانت الأكواخ قد اقيمت من حزم القش تسندها رماح غرزت في الأرض. وفي كل جهة من حولها خيول صغيرة مربوطة، وقد أخذت تأكل قشور الأشجار، وكانت النيران تضطرم تحت قدور المخيم. والملابس العتيقة المغسولة تزين أغصان الأشجار وكأنها بيارق وأعلام قد رفعت هناك. وفي الجو انتشرت رائحة الفرو، الدهن وروث الخيل. وقد تجمعت جميع كلاب الحي حول كدسة من العظام، وكأن الجنود، دون أن يلقوا بالا للمتنزهين الذين يتفرجون عليهم، يتفلون من القمل، يلعبون الورق، ينامون وقد أسندوا

رؤوسهم على سروج خيولهم، أوأخذوا يتفاهمون بالإشارات مع أحد الباعة المتجولين، وقد أخذ يقترح عليهم أن يشتروا بعض ما معه من البرتقال.

وعلى وجه التقريب كانوا جميعاً ملتحين، شعرهم أشعث، وعيونهم مشدودة الأطراف كعيون المغول، وعلى شفاههم ابتسامة ساذجة. وكانت بعض الفتيات، عند مرورهن بالقرب منهم يخفضن بصرهن حياءً. والأمهات يضممن أطفالهن إليهن أما الأزواج فكانوا يبدون منتصبي القامة، محاولين أن يتخذوا وضعاً عسكرياً،- على الرغم من السترة الطويلة، «الريدنجوت» ذات الياقة المخملية، التي يرتدونها، وقبعة التشريفات العالية التي على رؤوسهم. ومن وقت لآخر، كان أحد المدنيين الذي يرغب بنيل حظوة زوجته ورضاها، ينادي أحد هؤلاء «القوزاق» المخيفين. وكان «نيقولا» و «روزنيكوف» يحاولان سماع حوار الطرشان الذي يدور بينهما. وكان النقاش ينتهي أحياناً بتبادل بعض الهدايا، على سبيل التذكار: سلسلة ساعة مقابل ميدالية، علبه سجائر فرنسية فنجان روسي من الخزف. وفي الجانب الآخر من الشارع كان مخيم البروسيين الذي لم يكن يجذب إليه الكثير من المتفرجين.

وبعد أن انعطف «نيقولا» و «روزنيكوف» نحو ممر «الفوف»: (الأرامل)، عبرا نهر السين، على جسر «ايينا» واتجها إلى شارع «الشانزليزيه». كانت ثكنة المدرسة الحربية تقيم فيها بعض وحدات الحرس. وكان عملاقان من عناصر فوج «يافلوفسكي» وعلى رأسيهما خوذتان مذهبتان يقفان للحراسة أمام المدخل، وفي الفناء كان هناك بعض قطع المدفعية الفرنسية، التي كان بعض الضباط الروس يقومون بإحصائها. بينما كان بعض أفراد الحرس الوطني يمنعون الفضوليين والمتسكعين من الاقتراب من براميل البارود. وكانت جادة «الموت بيكيه» تغص بالخيام المدبّبة، ونبرات اللغة الألمانية، كانت تسمع واضحة حتى عتبات البيوت. وكان الشعور بالاغتراب

يزداد حدة، عند الاقتراب من قصر «الأنفاليد» فهنا لم يعد المرء يشعر أنه على ضفاف نهر «السين» بل على ضفاف نهر «الرين»:

أعلام تخفق في الهواء، أصوات الأبواق ضباط بروسيون يروحون ويجيئون، وصدروهم بارزة كصدور طيور الحمام، وجلبة شبيهة بالجلبة التي يحدثها الحديد الذي يطرق على السندان، خوار بعض البقرات التي صودرت لسد حاجة الجيش إليها.. وبعض مشوهي حروب نابليون وقد وقفوا فوق مصطبة تقع خلف الحاجز، وبين مدفعين قديمين وعلى رؤوسهم قبعات رجال الشرطة وشريطة حمراء على صدورهم، وأخذوا يتأملون بحزن وأسى مظاهر الهزيمة والانهيار. وقال «نيقولا» لـ «روزنيكوف» بأنه يرثي لحالهم بسبب التجربة القاسية التي فرضت عليهم، فرد عليه هذا، معترضاً:

- أنت عاطفي وذو أفكار خاطئة: النوع الأكثر خطورة وإثارة للخوف! فهؤلاء المحاربون القدماء هم جنود قبل أي شيء، وكانوا يموتون مللاً من الفراغ الذي يعيشونه في العزلة بعد تقاعدهم. أما الآن فهم سعداء تماماً بمشاركتهم في الحياة الصاخبة في أحد المعسكرات، حتى وإن كان هذا المعسكر معادياً!

وسترى بنفسك ذلك، عندما تصبح في مثل سنهم!..

وترك الصديقان حصانيهما في ثكنة «بابل» وقررا الذهاب إلى «باليه رويال»: (القصر الملكي) سيراً على الأقدام لتمضيه الأمسية هناك. وعند مرورهما بحدائق «التويلري» لاحظا أن ازدحام المتنزهين فيها شبيه بازدحامهم في «الشانزيلزيه»، حتى ليكاد المرء يعتقد أن جميع سكان باريس قد منحوا إجازه لكي يحتفلوا بأحد أعيادهم الوطنية. نساء تطفح وجوههنّ بالسعادة وهن يتأملن أطفالهن وهم يلعبون ويتراكضون بين التماثيل والشجيرات، وصياحهم يشبه زقزقة العصافير وأشخاص مسنون

يستدفئون بأشعة الشمس، وبعض العشاق الذين يبحثون عن خلوة ظليلة. وكان هنالك جندي روسي وأحد أفراد الحرس الوطني يقفان عند كل منفذ من منافذ الحدائق.

وتمتم «روزنيكوف»:

- الفرنسيون لا يبالون بشيء وغير واعين! إن من يراهم يستطيع أن يقسم إنهم هم الذين انتصروا وربحوا الحرب!

- لا شك أن ميزة الشعوب المتحضرة والمثقفة جداً هي أنها لا تشعر أبداً بأنها قد هزمت!

فصاح «روزنيكوف» محتداً:

-.. ذلك لأنك أنت ترى أن الفرنسيين مثقفون جداً؟! وأكثر ثقافة منا، مثلاً؟

وتمهل «نيقولا» بالإجابة على هذا السؤال وهو يفكر، ثم قال أخيراً»

- نعم، يا «هيبوليت» لديهم من الثقافة أكثر مما لدينا، ومن الشجاعة أقل مما لدينا، إنهم أكثر ذكاء منا وأقل شعوراً وعاطفة. ففي بلادنا، الغريزة هي التي تتحكم بكل شيء، أما في بلادهم، فالعقل، هو الذي يفعل ذلك!

وتبين له أنه قد استخدم للتو، العبارات نفسها التي كان يستخدمها والده، عندما كان يريد إثارة السيد «لوسور» مربي الأطفال. عند ذلك كان وجه المربي الفرنسي يحمر، ويذكر «جان جاك روسو» و «راسين»، عند ذلك تنتاب رب البيت نوبة من الضحك الشديد، وتحول «ماري» عينيها الكبيرتين المبللتين بالدموع، أما «نيقولا» فكان يرثي بصمت لذلك الرجل الطيب، السيء الحظ، الذي طردته الثورة من بيته ومن بلاده، وحكمت عليه بأن يعيش تحت سقف منزل أصحابه ينتقدون بلاده. فكيف تكون أفكار السيد «لوسور» في الوقت الحاضر، وقد احتلت فرنسا، وسقط

نابليون، ونظام الحكم الملكي على وشك العودة إلى هذه البلاد. وبعد أن كبر تلاميذه، فقد ظل في خدمة أبيهم، يتحمل الأذى وكل المشقات. ولم يعد الرجلان يفترقان، وقد جمع بينهما شعور بالكراهية يتصف بالبهجة والمرح، وهذا الشعور كان أقوى من الصداقة. كان أحدهما بحاجة لأن يطيع، يخضع ويخاف بقدر ما كان الآخر يشعر بالحاجة للسيطرة وإذلال الآخرين، والتوبة والندم على ذلك فيما بعد.

وكان «نيقولا» يتخيل نقاشاتهما وأحاديثهما، في صالون «كاشتا نوفكا»: «لماذا لا ترحل إلى فرنسا، يا سيد «لوسور» فبفضلنا، أصبحت الحدود مفتوحة بالنسبة لك؟

- لو كنت متأكداً من تمكني من استرجاع أملاكي، لرحلت على الفور!

- إذن، كان لديك أملاك؟ كنت أجهل هذا. كم قرية؟ وكم هي مساحة الأراضي؟ وعدد الماشية التي تملكها؟

- إنّ السخرية التي تنم عنها أحاديثك تجرحني، ياسيدي..!» وهكذا دواليك! وأخذ «نيقولا» يهز رأسه وكأنه يسمع لحناً محبباً يعرفه: «كاشتا نوفكا»، المنزل القديم الوردي اللون، بالواجهة المثلثية التي تعلو مدخله محمولة على أربعة أعمدة، والتي أخذ جصها يتشقق ويتفتت، شجيرات الزيزفون التي يحيط بها النحل وهو يرسل الطنين والدندنة، فستان «ماري» وقد علق طرفه بأشواك العليق، أرجوحة فارغة نصبت بين شجرتين «سماور» غلاية شاي روسية على منضدة ريفية، رائحة الحلوى والفطائر وهي تنضج في الهواء الطلق، رائحة زكية يكاد يشمها حتى اليوم!..» متى سأعود لأرى ثانية كل هذا؟»

وأيقظه صوت «هيبوليت» من أحلامه:

- ما رأيك بباريس؟

فأجابه «نيقولا»:

- إنها مدينة رائعة!

- نعم، بالتأكيد إنها كذلك إذا نظرت إلى الميادين والساحات والشوارع الواسعة، ولكنّ فيها كثيراً من الأزقة الضيقة والمتعرجة. وكثيراً من البيوت القديمة والقذرة وكثيراً من الزوايا والمنعطفات الخفية! ولذلك فأنا أفضل عليها «سان بطرسبورغ»

فهناك، على الأقل، نجد النظام، الصلابة والمتانة وكذلك الهندسة. الصروح والأبنية فيها كلها جديدة تماماً، والجادات الكبيرة والمستقيمة تتقاطع عند زوايا قائمة..

فقال «نيقولا» متنهداً:

- في موسكو الجادت المستقيمة لا تتقاطع مشكلة زوايا قائمة، ومع ذلك فيا له من سحر في تلك الفوضى المشوشة! ولكن ماذا بقي منها اليوم؟

- يبدو أنهم سيعيدون بناء كل شيء عما قريب.

- إنهم لن يستطعوا أن يبنوا أفضل مما كان قائماً!

ودون أن يتشاورا أو أن يتفقا على ذلك، التفتا معاً نحو فتاة شابة ورشيقة تسير بخطى سريعة وهي بارزة الصدر، يهتز رأسها برفق تحت وشاح أنيق من «الموسلين» الشفّاف.

فقال «روزنيكوف»:

- على أي حال، يجب أن ننصف فرنسا ونعطيها حقها، ففي هذه البلاد يوجد أيضاً أجمل وألطف النساء!

أيّد «نيقولا» بقوة هذه الملاحظة. وبعد أن تبادلا الأراء اتفقا على أن للمرأة الفرنسية عينين عاطفيتين وروحانيتين، وأصغر قدمي امرأة في العالم كله، وسحراً ربانياً في المظهر والهندام، ومفاتن متناسقة بشكل رائع، وأن شهرتها كعاشقة ومحبة ممتازة لم تسرقها أو تدّعيها عبثاً. وقد أثارهما هذا الموضوع وهيّجهما كثيراً، لدرجة أنهما وصلا إلى «القصر الملكي» وهما على أتم الاستعداد لتذوق سحر المتنزهات الفرنسيات. ولسوء الحظ، فإنهما لم يكونا الضابطين الوحيدين من جيش الاحتلال، اللذين خطرت لهما هذه الفكرة. فقد كان حشد من البزات العسكرية، منتشراً في الحدائق وتحت أقواس الشرفات. والنساء لا يمكثن منفردات لوحدهن زمناً طويلاً. وجميع من كن في الحي يرتدين التنانير، ولم يتجاوزن الأربعين من العمر، ويتمتعن بمظهر محبب، كل هؤلاء يبدو أنهن قد تواعدن على اللقاء هنا لإغراء العسكريين العاطلين عن العمل.

وكانت تمتمة الأحاديث تتخللها نداءات باعة شراب السوس، الذين يحنون ظهورهم تحت ثقل الآنية التي يحملونها، وأصوات باعة الخمر، المبحوحة، لكثرة ما صاحوا: «تناولوا الخمر، مع طعام الإفطار!» وكان المرء يجد كل شيء في الحوانيت المجاورة للحديقة:

أحذية، مراوح، «بروكات»: (شعر مستعار) أطواق وعقود من اللؤلؤ، أوشحة هندية، وغيرها كثير، مما يصلح لأن يقدم كهدية أو تذكار.

وبعد أن استعرض «نيقولا» و «روزنيكوف» واجهات الحوانيت دخلا إلى أحد المقاهي لكي يرتاحا. فاستقبلا هناك بهتافات الفرح: كان هنالك أربعة ضباط من فوجهما، ودعوهما لتناول شراب «البنش» معهم. ومنذ الكأس الأولى، أخذت المجموعة تحدث بعض الضجيج. وإلى المائدة المجاورة جلس بعض المدنيين الفرنسيين الذين يزينون صدورهم بالشارة الوطنية البيضاء، ووقف هؤلاء ليشربوا نخب المتحالفين الشجعان. ولم يستطع

الضباط الروس عدم مبادلتهم التحية، فشربوا نخب فرنسا.. ويبدو أن هذا التبادل بالأنخاب وبالتحية قد أغاظ بعض رواد المقهى الذين كانوا جالسين قرب الباب. وتجهم وجوههم كان يدل على أنهم «بونابرتيون» أي من أنصار نابليون. كان أحدهم أشيب وعلى إحدى عينيه عصابة سوداء، وفجأة وقف وأعلن بأعلى صوته:

- أرفع كأسي تحية لفرنسا الحقيقية، التي لم تقل بعد، كلمتها الأخيرة!

فنظر الضباط الروس إلى بعضهم. لم يكن هذا التصريح يشكل إهانة أوشتيمة لبزاتهم العسكرية، ومع ذلك فإنه كان يحمل طابع الاستفزاز والتحدي. «وروزنيكوف» الذي لا يتحمل جيداً تأثير الكحول، حملق به بعينين غاضبتين، وصاح:

- ماذا؟ ماذا يقول؟ أيريد أن يمس شرفنا؟!

فقال له «نيقولا» وهو يمسك بذراعه:

- كلا يا «هيبوليت» اهدأ، فالقضية تتعلق بالفرنسيين فيما بينهم.

ولكن «روزنيكوف» كان يبدو أنه قد انتشى بالعبارة التي وجدها، فأخذ يرددها، وهو يضرب المنضدة بقبضته:

- أنه يريد أن يمس شرفنا ويثلمه! لن أتسامح معه! ولن أسمح بذلك!..

وحاولوا تهدئته بتحديه أن يشرب كأساً أكبر وأثقل من سابقاتها تحية للحرس الليتواني. فشرب على الفور وبسرعة ثلاثة كؤوس متتالية، الواحدة بعد الأخرى دون أن يلتقط أنفاسه تقريباً، وحذا «نيقولا» حذوه فأعجب بذلك الفرنسيون الملكيون الذين يجلسون إلى المائدة المجاورة، وهتف أحدهم:

- هؤلاء الروس، أي معدة لديهم!..

وفي غضون ذلك، اضطربت أفكار «نيقولا» واضطربت الرؤية لديه. وكانت تلك اللحظة هي التي اختارها الرجل ذو العصابة السوداء، لكي

يرفع صوته من جديد، ويبدأ بتعداد المعارك التي انتصر فيها نابليون، بلهجة تتسم بالمغالاة والتفخيم:

- أو «ستيرليتز» «ايينا»، «ايلو»، «فريد لاند».

وعندما بدأ يلفظ اسم: «موسكوفا»، وثب «روزنيكوف» عن كرسيه، وتقدم نحوه، مترنحاً:

- أعدْ أيها السيد!

فصاح الآخر، وهو يلوح بهراوة كان يحملها:

- الموسكوفا

وتلقى «روزنيكوف» الضربة عند منبت عنقه، فانهار بهدوء على الأرض، والحقيقة هي أنه كان ثملاً جداً لدرجة أن دفعة خفيفة كانت تكفي لجعله يسقط على الأرض. فشعر «نيقولا» بالرغبة بأن يثأر له. وبإشارة من يده أوعز للضباط الآخرين أن يلزموا أماكنهم، قائلاً:

- دعكم من ذلك! فمني وحدي سينال هذا السيد العقوبة التي يستحقها.

وتقدم بين الموائد، بتباطؤ محسوب، وهو يهز قليلا كتفيه. وكانت بعض الأفكار النبيلة عن التضامن مع الرفاق، عند العدالة والوطنية، تسرّع دقات قلبه.

وعند مروره، كان الناس يبتعدون صامتين ويلتصقون بالجدار.

وأخيراً، أصبح أمام المعتدي الذي أخذ يحدق به بازدراء بعينه الوحيدة التي يشوبها البرود.

فقال «نيقولا» بصوت أثر به الانفعال:

- أستطيع أن أقطّعك إرباً بسيفي، أيها السيد ولكن ذلك يمكن أن يُعد أني قد عاملتك بمزيد من الاعتبار والتقدير. وطريقتك كشخص فظ، تتطلب عقوبة فظة. ألق هراوتك جانباً. ولنتعارك بأيدٍ عزلاء!

وبدلا من أن ينصاع الرجل ذو العصابة السوداء لما طلب منه «نيقولا» رفع ثانية هراوته، واستطاع «نيقولا» بالجهد أن يرد الضربة عن رأسه بواسطة ساعده، فأصابته على عظم كتفه. فكتم صرخة ألم، ووجه لكمة بقبضته اليسرى أصابت ذقن الرجل، ثم ضربه مرة أخرى ومرتين على وجهه ورأى العصابة السوداء وهي تنزلق وتكشف عن ثقب وردي اللون على شكل نجمة، فأمسك بالهراوة وانتزعها من خصمه، وبعد ذلك أمسك كل من الرجلين بعنق الآخر، ولكن «نيقولا» كان هو الأقوى، فانهار الرجل تحت تأثير أصابع «نيقولا» التي تشد على عنقه، وكأنه فقد دماءه وقوته، عند ذلك دفعه «نيقولا» بقوة وقسوة على الجدار، فأحدث اصطدام رأسه بالجدار صوتاً شبيهاً بالصوت الذي تحدثه اليقطينة الفارغة. فحملق بعينه الوحيدة التي اكتنفتها غشاوة. وأخذ يسيل من زاوية فمه خيط رفيع من الزبد المحمر. كان يلهث. وظل «نيقولا» ساكناً، لا يبدي حركة، يرتجف وقد توترت أعصابه، دون أن يستغل تفوقه على خصمه. ومرت بضع ثوانٍ.

ثم التقط «البونابرتي» هراوته، نفض الغبار عن ملابسه وخرج.

فهتف له الملكيون مهنئين. أما «روزنيكوف» فقد أُلقي على وجهه كأس من الماء البارد، أنعشه وأعاد له وعيه. و «نيقولا» الذي سره انتصاره، حاول أن يبدو متواضعاً، مع أنه يستطيع أن يعتز بذلك، لأن الفرنسيين الموجودين قد اتفقوا مع الروس على تهنئته. كان يشعر بطعم سيء للدم في فمه، ذلك لأنه دون شك قد أصيب بجرح في إحدى شفتيه، ومع هذا فإنه لم يكن يذكر أنه قد تلقى ضربة على وجهه.

وطلب الأكبر سناً بين السادة حاملي الشارة الوطنية البيضاء، شمبانيا للجميع.

واعتباراً من تلك اللحظة، لم يعد لدى «نيقولا» عن الأماكن والأحداث سوى فكرة غامضة. وكانت كميات كبيرة من السوائل تمر

عبر حلقه. عشرون شخصاً مجهولين كانوا يضحكون ويصيحون في رأسه. وفجأة دخلت إلى المقهى بعض النساء، وجوههنّ مطلية بالأحمر والأبيض، نظراتهن جريئة، وشعرهن يتضوع عطراً كليلة من ليالي شهر أيار (مايس) في «أوكرانيا». فهل هؤلاء هن من النساء المتحرّرات الشهيرات في باريس؟ أم أنهن من المحتمل، أن يكن من المومسات؟ وأخذت إحداهن، وتدعى «الفيرا» تقبل «نيقولا» بحرارة، وهي توشوش: «آه، يا عزيزي القوزاقي!» وأغاظه ذلك كثيراً، لأنه ليس «قوزاقياً» بل من الحرس الليتواني. وحاول أن يوضح لها خطأها. عندما أصبحا لوحدهما في إحدى الغرف، ولكن الفتاة كانت تصر على القول: «كن عزيزي القوزاقي».

مع ذلك «كن عزيزي القوزاقي!» وأخيراً يئس «نيقولا» من إقناعها وكان زميله «روزنيكوف» في غرفة ملاصقة مع فتاة سمراء ومثيرة، على شفتها العليا زغب أشبه بالشارب. ولأنه لم يكن يجيد التكلم بالفرنسية، فقد كان «نيقولا» يترجم له ويلقنه ما ينبغي أن يقوله، عبر الحاجز الذي يفصل بين الغرفتين. وكان يدمدم بصوت أجش:

- إيه! «نيقولا» ماذا قالت للتو؟ هل تسمع؟

- نعم، لقد قالت إنها تجدك جميلاً وساحراً.

- آه! حسن! شكراً. أتدري أنها لطيفة؟ وأنت، هل الأمر ما زال على ما يرام؟

فقال «نيقولا» متنهداً وهو يساعد «الفيرا» على فك ازرار فستانها:

- على ما يرام!

ولكن الحقيقة هي أن الأمر لم يكن كذلك أبداً. فقد كان متعباً، يشعر بالألم، إذ إن شفته قد تورمت، ورأسه أصبح يشبه كرة من نار، وأخذ يتساءل عما إذا كان معه من النقود ما يكفي لمكافأة الفتاة.

٤

أعاد «نيقولا» قراءة البطاقة بورع، وقبّل التوقيع الذي تحمله: «دلفين» تدعوه إلى المنزل، هذا المساء نفسه، عند منتصف الليل تقريباً، لتناول الشاي على الطريقة الانكليزية «في حفلة مرتجلة تماماً».. وهكذا فإن موعد الاجتماع وتسميته بهذا الشكل جعلاه أكثر تأكداً من انطباعه عن هذه المرأة بأنها عدوة عجيبة للتفاهة والابتذال. وكان السيد «دو لامبرفو» قد تلقى دعوة مماثلة، ولا شك بأنه سيكون هنالك عدد كبير من المدعوين في صالونات البارونة. ولكن ربما يكون أكثر سهولة لشخصين أن يتحدثا فيما بينهما، وسط جمع غفير، من أن يكون ذلك ضمن عدد محدود من الأشخاص. ولا بد أن «دلفين» كانت لديها هذه الفكرة الصائبة. فشكرها «نيقولا» على ذلك. وقلبه يخفق بهجة وحبوراً. ولم يكن يأسف إلا لأمر واحد: وهو أن أحداث اليوم الذي مضى، لم تهيئه أبداً للظهور بين الناس بشكل مرضٍ يكون في مصلحته: فقد كان ورم شفته قد ازداد أثناء الليل، وأصبحت شفته السفلى تشبه ثمرة زرقاء. وعلى خده خدش كبير، وبزته الجميلة تمزقت ياقتها أثناء العراك. وبشأن هذا الأذى البسيط، أقسم «أنتيب» بأنه سوف يصلحه بسهولة. وها هو يتربع على منضدة في وسط الغرفة، يغرز الإبرة ويسحبها بحركة رشيقة، وهو يدندن بأغنية حزينة. أما «نيقولا» فكان يقف أمام المرآة، وأخذ يضع على زاوية فمه كمادات مشبعة بالماء البارد، آملا أن يزول الورم. ومن وقت لآخر، كان يلتفت نحو «أنتيب» ويوجه إليه نظرة متسائلة.

فيهز «أنتيب» رأسه بالنفي. فيتنهد «نيقولا» ويتابع معالجة ورم شفته. وبعد ساعتين من العناء والجهد، كف عن هذه المعالجة.

فقال له وصيفه، مازحاً:

- أنت جميل جداً، هكذا، بالنسبة للفرنسيات، يا سيدي! فهل هن يعرفن وحسب من هو الرجل؟ وكيف ينبغي أن يكون! فعندما ستدخل، الجميع سيقولون:

- آه!

ولكن «نيقولا» لم يكن ليقتنع:

- هذا كلام سخيف! سوف أُسأل عما حدث لي وكيف أصبت بهذا الجرح..

- حسن، عليك أن تروي لهم عند ذلك كيف ضربت صديق نابليون وهزمته، وإذا كان أولئك الناس مسيحيين مؤمنين، فإنهم سيشكرونك على ما فعلت. انظر، إنها أصبحت كأنها جديدة، بزتك! والآن، لم يعد لدي سوى تلميع جزمتك وكي قميصك.

فصاح به «نيقولا»:

- ألم تفعل ذلك بعد؟! ولكن ماذا تنتظر؟ والساعة قاربت العاشرة!.

وركض مسرعاً خلف «أنتيب» إلى مكان غسل وتنظيف الملابس، ومن هناك هربت امرأتان، وهما بملابس العمل، خائفتين من دخول الروسيين. وبعد أن احتل «أنتيب» المكان، تناول مكواة حامية وأخذ يكوي قميص سيده. كان يملأ فمه بالماء، وينثره كالمطر على قماش القميص. وكان وجهه بخديه المنتفختين، صورة رمزية أسطورية للعاصفة. وظل نيقولا يتذمر وقد نفد صبره: فقد كان يخشى إلا يكون جاهزاً في الوقت المناسب.

ولكنه كان جاهزاً تماماً، لدرجة أنه قد بقى لديه ساعة يمضيها كيفما يشاء، عندما وضع قفازه الأبيض وأخذ يتأمل نفسه في المرآة، وفيما عدا شفته المجروحة ولون وجهه المشوش، كل شيء كان لديه، على ما يرام.

وأخيراً استدعاه السيد «دو لامبرفو» وصعدا سوية إلى العربة. كان منزل البارون «دي شارلاز» يقع في شارع «سيفر». وهما في الطريق إلى هناك، قال الكونت لـ نيقولا إنه تلقى صباح ذلك اليوم أخباراً سارة من أسرته. وحتى ذلك الحين، كان البريد المحلّي فقط قد أعيد تنظيمه، ولكن أحد اصدقائه أتى من «ليموج» وحمل له منها رسالة. والكونتيسة وابنتها، بعد أن ارتاحتا لبعض الوقت، عند أقاربهما، تنويان العودة إلى باريس، بعد ثمانية أيام، على وجه التقريب.

وقال «الكونت»:

- إنـي آسف لكوني فرضت عليهما دون جدوى هذه الرحلة إلى الريف، ولكني لم أكن استطيع أن أتوقع أن باريس ستنجو بأعجوبة من ويلات الحرب في الوقت الذي كنا نعاني من القلق والخوف من أن تتعرض لذلك؟!

وكانت زوجتي بشكل خاص، قلقة جداً. و «صوفيا» هي ابنتنا الوحيدة. وكانت البداية الحزينة لحياتها الزوجية قد جعلتنا نشعر نحوها بالمزيد من المحبة والحنان.

وكان «نيقولا» يشعر بحاجة ملحة لأن يلفظ اسم المرأة التي احبها، لدرجة أنه لكي يظهر اهتمامه بحديث الكونت، قال بلهجة رقيقة وعاطفية:

- أعرف ذلك، يا سيدي، فقد أخبرتني السيدة «شارلاز» بالمصاب الأليم الذي ألم بابنتكم.

فقال السيد «دو لامبرفو» وهو يضحك ضحكة مغتصبة»:

- آه! أرى أني قد سبقت على طريق البوح بالأسرار، وذلك لسوء حظي ولحسن حظك فالسيدة «شارلاز» تعرف جيداً ابنتنا. فقد كانتا طالبتين داخليتين في دير واحد..

وكتم «نيقولا» دهشته: لأنه، بالنظر لسنّ الكونت كان يتصور أن ابنته تناهز الأربعين من عمرها، ولكن ها هي تبدو منافسة لدلفين في سن الصبا والشباب. وقد أثارته أيضاً كلمة «الدير»: «دلفين»، تربية الراهبات! هذا أمر لم يكن يتصوره. فبالتأكيد، أن هذه المرأة تكن مجموعة من التناقضات.

وارتجت عربة الكونت عند مرورها فوق إحدى الحفر. وأسرع خادمان يحملان فانوسين لاستقبال الزائرين. وتبع «نيقولا» الكونت الذي كان متأنقاً ومعطراً أكثر من المعتاد. وصعدا على درج رخامي عريض، ووقف الاثنان تحت ضوء مصباح، مبهر. وعند باب الصالون، وقف خادم، آخر يرتدي الشرابات البيضاء، وعلى رأسه «باروكه» رمادية اللون، منتفخ الصدر، وأخذ يعلن الأسماء من فم يشبه باستدارته الأصداف البحرية:

- الكونت السيد «دو لامبرفو»!.. الملازم «أوزاريف»!..

وخطا نيقولا خطوتين إلى الامام. فبدت له «دلفين» متوهجة كعقد من اللؤلؤ والورد والنور المبهر، بجانب زوجها البدين والشاحب الوجه. وقد أحاطت بهما جماعة من الطبقة الراقية، تبين «نيقولا» بين أفرادها بعض الضباط الروس، البروسيين والنمساويين، ومرت به لحظة خشي فيها من منافستهم له. ولكن الضابطين الروس كانا عقيدين مسنين من فوج «سيمنوفسكي»، أصلعين، تغطي صدريهما الأوسمة، ولا يبدو أن لديهما طموحاً أو ميلاً إلى مغازلة النساء، إلى المغامرات الغرامية.

وبعد أن حياهما باحترام ومودة، شعر «نيقولا» بالارتياح.

وأخذت ربة البيت تقوده من مجموعة إلى أخرى، وهي مزهوة بمرافقته. وهو، من جهته، لكي ينجز غوايته لها، كان يحاول جاهداً أن يكون مجاملا في أسلوبه، منطلقاً فرحاً وسريع البديهة في أجوبته. وفجأة صاحت «دلفين» وقد تمعّنت به عن قرب:

- ولكن.. أنت مجروح..!

فأخذ يضحك، وقد استعاد ثقته بنفسه، وروى لها معركته في «القصر الملكي» بلهجة تنم عن الكثير من الطرافة والدعابة لدرجة أن روايته قوبلت بصيحات التحية والاستحسان من جميع الذين سمعوها:

- ظريف! إنه ظريف وفتّان! أيمكن أن يكون لديكم، هناك على ضفاف «النيفا» من الدعابة والذكاء وخفة الدم، أكثر مما لدينا هنا، على ضفاف «السين»؟

وأخذ عدد النساء الجميلات يتزايد حول «نيقولا» و «دلفين» التي كانت تبدو مسرورة بذلك.

وقد اضطرت لأن تتركه وتبتعد عدة مرات لكي تستقبل بعض المدعوين القادمين، ولكنها لم تكن تطيل الغياب أبداً.

وأخذت بعض السيدات المتميزات يستفسرن منه عن أحوال بلاده وطباع سكانها: أحقاً أن نظام الرق والعبودية لا يزال موجوداً في روسيا؟ وهل الأزياء النسائية في «سان بطرسبورغ» هي نفس الأزياء الدارجة في باريس؟ وماذا عن المسارح، الشعر، موائد الشراب والطعام، وماذا أيضاً عن الرقص، وكذلك عن الديانة؟ وكان يجيب كأحسن ما يستطيع. وعندما أتى على ذكر طقوس الكنيسة الأرثوذكسية، اتسعت الحدقات وبدا فيها جميعها بريق الاهتمام. ولأن أعياد الفصح كانت قريبة، فقد روى لهن كيف أن المؤمنين من الرجال والنساء، يتبادلون ثلاث قبلات، بعد قداس منتصف الليل، وهم يرددون عبارة «المسيح قام!»

وأعجبت السيدات الحاضرات بهذه العادة كثيراً، ولكن «دلفين» تدخلت قائلة:

- لا شك أن تبادل القبل لا يجري إلا بين الأقارب المقربين أي بين أفراد الأسرة الواحدة؟!

فقال «نيقولا»

- كلا يا سيدتي، ليس لأحد الحق بأن يرفض قبلة عيد الفصح.

- حتى ولو كانت امرأة تجهلها تقريباً، أو شابة في مقتبل العمر؟..

- إنهن جميعاً، ملزمات بالقبول، كغيرهن من النساء والرجال!

واحتجت بعض السيدات، واعتبرن ذلك من مظاهر التوحش، والتخلف الحضاري. فرد عليهن «نيقولا» قائلاً:

- اطمئنوا، ففي بلادنا، الشخص غير المؤمن وحده، هو الذي يمكن أن يضمر سوء النية في هذه المبادرة التي تعبر عن الأخوة.

فسألته «دلفين»:

- ومتى تحتفلون بعيد الفصح؟

فأجابها «نيقولا»:

- ليلة السبت - الأحد، القادمة. نعم، وبصورة استثنائية تماماً، فهذه السنة يتطابق عيد الفصح الأرثوزكسي مع عيد الفصح الكاثوليكي!

- إيه، هذا حسن! إني أنتظرك هنا، في منزلنا، الأحد القادم، الساعة الثالثة، وستكونون معنا، أيتها السيدات، أليس كذلك؟

- فأجبنها، وقد بدرت من بعضهن ضحكات خفيفة ومغتصبة:

- طبعاً، هذا أمر مؤكد...

فأضافت:

- إني أعتمد عليكن جميعاً. سيكون الحفل مسلياً جداً، وسنرى فيما إذا كان لدى السيد «أوزاريف» الجرأة لكي يعلن لنا قيام المسيح... على الطريقة الروسية

فبدا الاضطراب على عشرة وجوه نسائية، مزدانة بالريش وبالحلي الشبيهة بالتاج فوق الشعر:

- «دلفين»، أنت غير قابلة للإصلاح...

- أيها السيد، ماذا تظن؟...

فعلقت إحدى السيدات بقولها:

- إن هذا في منتهى الغرابة...

أما «نيقولا» فقال، وهو يقرع الأرض بنعليه في وقفة عسكرية:

- إني أقبل الرهان، أرجو أن تحضرن إلى هنا، في التاسع والعشرين من آذار (مارس).

فقالت له «دلفين»:

- كيف يكون ذلك في ٢٩ آذار؟ أنت أخطأت، فنحن اليوم في الخامس من نيسان (ابريل).

فاعتذر «نيقولا». أين كان عقله؟ هنالك دائماً ذلك الفرق العبثي وغير المعقول بين التقويمين: الغربي والشرقي إذ إن التقويم في البلدان الغربية يتقدم ويسبق التقويم الروسي باثني عشر يوماً[١]

وسألته «دلفين»:

- ما هو إذن بالنسبة لأبناء وطنك، تاريخ دخول الجيش الروسي إلى باريس؟

١- في القرن التاسع عشر، كان الفرق بين التقويم الغريغوري والتقويم اليوليوسي اثني عشر يوماً. وقد تغير، فأصبح ثلاثة عشر يوماً، في القرن العشرين. – المترجم

فأجابها «نيقولا» باعتزاز:

- التاسع عشر من آذار (مارس) سنة ١٨١٤، يا سيدتي.

فقالت، والابتسامة نابعة من أعماق عينيها:

- حسن إذن، أيها السيد، إني أرى بعداً ساشعاً بين التاسع عشر من آذار حسب تقويمكم، والتاسع عشر منه حسب تقويمنا. ففي التاسع عشر من آذار، بالنسبة لنا، هُزمتم في المعركة التي جرت عند ضفاف نهر «الأوب»، وفي ٣١ منه، تكرمتم بإنقاذنا. وبهاتين الطريقتين المختلفتين لحساب الزمن، سيجد الفرنسيون والروس صعوبة كبيرة من أجل اللقاء!

فقال «نيقولا»:

- الزمن ليس سوى عرف واصطلاح، يا سيدتي، وأي عرف أو اصطلاح لم يستطع أبداً مقاومة المشاعر والعواطف الصادقة!

وكان هذا الرد قد تبادر إلى ذهنه بصورة عفوية، بحيث أنه كان عليه أن يتماسك لكي لا يبدو أنه معجب كثيراً به بقدر ما أعجب به الجالسون بجواره. وكان الجميع بغاية البهجة والسرور، وقد بدا الحبور والامتنان على وجوه السيدات. وقال «نيقولا» في سره: «حسبي أن أبقى على هذه الدرجة من الحظوة حتى نهاية هذه الحفلة!»

وحفلة «الشاي على الطريقة الانكليزية» لم تكن في الواقع سوى عشاء فاخر، رافقته جميع المشروبات المعروفة، بما فيها «المنقوع البريطاني المغلي» العديم الطعم. وقد توزع المدعوون في صالونين، حول ست موائد تزينها الزهور. و «نيقولا» وقد انفصل عن «دلفين» وجد نفسه أقل سروراً في هذه المرحلة من برنامج الحفلة، ولكنه بما اكتسب من ثقة وجرأة ظل متألقاً على حساب جارتيه، اللتين لم تكونا شابتين ولا جميلتين؛ وقد بهرهما بسحره، فباحتا له ببعض الأسرار، ومما روتاه له: إن البارون «دي شارلاز»

الخصم الصريح اليوم لنابليون، مدين له بلقبه وثروته، التي جناها بفضله يوم كان متعهداً لتقديم المؤن للجيش. أما الكونت «دو لامبرفو» الذي دمرته الثورة، فإنه لم يستطع إلا بصعوبة بالغة استعادة بعض البحبوحة، بفضل الرساميل التي تمكنت زوجته من استرجاعها من إيطاليا. وقالت جارته الجالسة إلى يساره: «فرنسا منقسمة على نفسها: فالطبقة النبيلة القديمة والطبقة النبيلة الجديدة تحسد إحداهما الأخرى وتغار منها وتكرهها!» وقالت السيدة التي تجلس إلى يمينه: «ومن النادر أن نجد هاتين الطبقتين مجتمعتين، كما هي الحال الآن، في منزل واحد، ولكن البارونة «دي شارلاز» امرأة ساحرة!» وأيد ذلك «نيقولا» وهو يتناول الطعام، حيث كانت تمر أمامه مختلف أنواع الأطعمة: أفخاذ خرفان، ضلعات حملان، طيور بالمرق، وبعد تناول الحلوى والفاكهة، تناول «نيقولا» قطعة من «الجيلاتي» المعطرة، فكانت كأنها طاقية قطبية قد غطت الأطعمة في معدته. وأسف كثيراً لأنه لم يحصل على كأس «فودكا» لتدفئة جميع هذه المأكولات الفرنسية. ولكن الشمبانيا والخمور العذبة، فيما بعد جعلته يشعر بخدر وثقل في رأسه. وعند تناول المدعوين للقهوة، اتجهت الأحاديث نحو السياسة، ولم تتح له سوى القليل من الفرص للتدخل، وبدأ يشعر بالملل. وأخذوا يتحدثون عن مقالة النقد التي نشرها، في ذلك اليوم، وحظيت بالاهتمام، كاتب فرنسي، هو السيد «دي شاتوبريان» تحت عنوان: «عن بونابرت وآل بوربون»، وقال الذين قرؤوا المقالة إنها تنم عن العبقرية، وإن آخر أنصار نابليون، بعد اطلاعهم على هذه المقالة التي تتضمن عرضاً متقناً وموثقاً، سوف ينفضون من حوله. وهو بعد أن لجأ إلى «فونتنيبلو» مع بعض جنوده الأوفياء، وقد أصبح «كريهاً» تنازل عن الحكم لابنه، ولكن المتحالفين لم ينخدعوا بهذه اللعبة، التي يقصد منها كسب الوقت. فقد أصبح من المؤكد أنه قد تقرر أن مجلس الشيوخ في جلسته التي سيعقدها

في اليوم التالي أي في السادس من نيسان (ابريل) سيدعو بصورة رسمية «لويس الثامن عشر» لاعتلاء العرش. أما الكونت «دارتوا» فكانت باريس تهيء له استقبالا فخماً، وقد روت إحدى السيدتين المسنتين المجاورتين لـ نيقولا، ما يلي وهي تصف له بعض مظاهر الاستعداد لهذا الاستقبال الحافل:

- لقد سجل أبناء أخي أسماءهم للمشاركة في فرقة الفرسان، التي تذهب لاستقبال صاحب السعادة، وهؤلاء الشبان يتجهزون جميعهم على نفقتهم الخاصة: وهذا يكلف الفرد منهم ما يقرب من ألف ومائتي ليرة، وهذا ليس مبلغاً ضخماً. والضباط سوف يعتمرون خوذات ريشها أبيض، ويضعون على سواعدهم أوشحة بيضاء، طرزت عليها بخيوط ذهبية ثلاث زهرات من الزنبق[1].وعندما أفكر بهذا الاستقبال، أخشى ألا يستطيع قلبي الضعيف تحمل انفعالاتي وفرحتي الكبرى!

فقالت لها «دلفين» وهي تقترب منها وفي يدها فنجان قهوة:

- إذن كيف سيكون حالك عندما ستهتفين مرحبة بعاهلنا جلالة الملك شخصياً؟!

وسألها «نيقولا»:

- متى سيصل الكونت «دارتورا» ويدخل إلى باريس؟

فأحنت «دلفين» رأسها قليلا بحركة تتسم بالغنج والدلال، وسألته:

- هل ينبغي أن أجيبك حسب التقويم الفرنسي أم حسب التقويم الروسي؟

فأجابها «نيقولا»:

١- زهرة الزنبق هي شعار الملكية في فرنسا. - المترجم -

- بل حسب التقويم الفرنسي، فأنا لا أريد معرفة أي تقويم غيره الآن.

فقالت له «دلفين»

- يوم الثلاثاء، الثاني من نيسان (ابريل) أي بعد يومين من موعد الزيارة التي وعدتني أنك ستقوم بها بمناسبة أعياد الفصح الأرثوزكسية.

وحتى نهاية الحفلة، ظل «نيقولا» يعيش الفرحة التي أتاحتها له هذه الحفلة. حتى إنه كان لطيفاً مع البارون «دي شارلاز» وأخذ يتودد إليه. ولم يكن هذا الأخير، خلافاً لما يوحي به مظهره، مغفلا ولا غيوراً. بل كان يبدو مسروراً بالنجاح الذي حققته زوجته حيال الضابط الروسي الشاب. وقال وهو يمسك بذراع «نيقولا» بكل ألفة ومودة:

- ينبغي أن تعود إلينا مرة أخرى، وأن تأتي لزيارتنا من وقت لآخر!

فأخذ «نيقولا» يفكر: «حقاً إن الفرنسيين أكثر تطوراً وتقدّماً منا، نحن الروس. فالزوج الروسي يمكن أن يكون قد تحداني ودعاني للمبارزة!» ولكن هذه الملاحظة كانت مجانية، لأن «نيقولا» لم يتح له الوقت ولا الفرصة ليعيش مع المجتمع ويختلط به، في بلاده.

وعند الساعة الثالثة صباحاً، كان «نيقولا» الذي اصطحبه الكونت «دو لامبرفو» بالعربة إلى المنزل رجلا يهذي متحدثاً عن سعادته القصوى.

☆☆☆

في ليلة السبت - الأحد، حضر الجنود الروس القداس الاحتفالي بعيد الفصح المجيد الذي أقامه كهنة أورثوذكس في وسط المعسكرات، في باحات الثكنات، في كنائس صغيرة، أقيمت على عجل، وحتى في الكنائس الكاثوليكية. وفي صباح اليوم التالي، تجمع جيش الحلفاء والحرس الوطني على شكل مربع في ميدان لويس الخامس عشر، لإقامة صلاة: «تسبيحة الشكر».

وقد أقيم المذبح في المكان الذي أعدم فيه لويس السادس عشر. وبعد أن استعرض القيصر وملك بروسيا، الجيش، صعدا، دون أن يرافقهما أحد إلى المنصة المقدسة، ومنذ بداية الصلاة، كشف جميع جنود أفواج المشاة رؤوسهم ووضعوا إحدى ركبهم على الأرض باستثناء عناصر الحرس الوطني. وظل الفرسان على صهوات جيادهم، ولكنهم كانوا حاسري الرؤوس وقد خفضوا سيوفهم. وكان «نيقولا» يتمتع بغرابة ذلك المشهد: ففي قلب باريس، على مقربة من نهر السين، وفي الجهة المقابلة لحدائق «التويلري»، كان بعض الكهنة الملتحين، الذين يقيمون القداس والصلاة باللغة السلافية القديمة، بين خفق الأعلام وبريق الأيقونات.

كانت الشمس تسطع في أعالي السماء، وسحابات زرقاء تنتشر من المباخر التي يؤرجحها الشماسون ونوّاب الكهنة. وأفراد الجوقة العسكرية، ينشدون الأناشيد بأعلى صوتهم. وأعلنت انتهاء الاحتفال، مئة طلقة وطلقة من أحد المدافع. وقد استغرق الوقت أكثر من ساعة حتى استطاع فوج الحرس الليتواني، تتقدمه فرقته الموسيقية، أن يأخذ، بدوره طريقه إلى الثكنة.

وكان الجنود مستائين، لأنهم، خلافاً للعادة، لم يتلقوا بيضاً مسلوقاً وملوناً بمناسبة عيد الفصح المجيد. أما الفودكا التي وزعت عليهم، فكانت، على حد قولهم، مصنوعة في بروسيا، وناتجة عن تقطير البطاطا. وعلى أي حال، فقد كانت تحتسى كالماء وتظل باردة في البطون. ومن دون البيض الشعائري التقليدي، وبفودكا كهذه، فإن عيد الفصح، لم يعد عيداً أورثوزكسياً! كانت أفكار جميع الرجال تلتفت نحو روسيا، حيث يحتفل بقيام السيد المسيح، حالياً، وسط مظاهر الفرح، الوفرة والرخاء، وإحياء التقاليد العريقة. والضباط أنفسهم كانوا يشعرون ببعض الحنين إلى ذلك.

وربما كان «نيقولا» وحده، بين كل عناصر الفوج، هو السعيد تماماً: كان يفكر، وقد نفد صبره، إلى لقائه القريب مع «دلفين» فهل ستكون على أحسن حال كما كانت في تلك الأمسية، التي تحدّته فيها لأن يقبلها «على الطريقة الروسية»؟

ولم ينتظر سوى بعض الوقت، لكي ينظف له «أنتيب» بزته، ثم انطلق مسرعاً نحو شارع «سيفر».

استقبلته «دلفين» في صالون صغير. كانت تجلس بين امرأتين، سبق لـ نيقولا أن رآهما في منزلها، واستجمع جرأته وقال: «المسيح قام!» ثم أخذ ينتظر متوقعاً أن ينهار السقف، ولكن «دلفين» رفعت وجهها نحوه برقة وأناقة بريئتين، كزهرة تتجه نحو الشمس: فمس برفق خديها بطرف شفتيه، ثلاث مرات، وابتعد وقد احمر وجهه لشدة انفعاله.

وقالت لصديقتيها:

- هيا! «ماربيت»، هيا! «زيلي». عيداً سعيداً..

ولكن صديقتيها، وهما أقل جرأة منها، فقد رفضتا أن يقبلهما، وذلك بدافع من الغنج والدلال. وأتى البارون «دي شارلاز» على صوت ضحكاتهم، وعندما عرف ما كان يجري، أراد من «نيقولا» أن يعانقه باسم المسيح. وكان هذا الرجل المسن يكشر، يضحك وقد بدا وجهه لامعاً وعيناه صغيرتين وهو يفتح ذراعيه، وعندما انصاع «نيقولا» لما طلبه منه البارون خشي من أن تسخر منه السيدات الحاضرات، ولكن نظرة حارة من البارونة طمأنته وشجعته.

واحتجزوه لتناول طعام العشاء. وهذه المرة لم يكن هنالك سوى اثني عشر مدعواً. وعند مغادرتهم المائدة، جذبت «دلفين» «نيقولا» نحو إحدى النوافذ، وقالت له:

- نحن لم نستطع أن نرى بعضنا كما ينبغي، وبالكاد، فقد أتيحت لنا الفرصة لكي نتبادل بضع كلمات! وسوف أخبرك متى أستطيع أن ألتقي بك بشكل أكثر هدوءاً واطمئناناً.

فنظر إليها وهو يكاد لا يعرفها: كانت عيناها زائغتين، وكأن غمامة من الدموع قد اكتنفتهما، على خديها لطختان ورديتان، وشفتها السفلى ترتعش. وحتى قبل أن يعثر على ما يمكنه أن يجيبها به، كانت قد ابتعدت عنه. وعندما انضم إليها بين مجموعة المدعويين، كانت قد تماسكت، واستردت روعها. وكان مظهرها طبيعياً جداً، لدرجة أن «نيقولا» أخذ يتساءل عما إذا كان قد فهم جيداً ما وشوشته به، قبل قليل.

☆☆☆

تنازل نابليون ووافق على الانسحاب، والاعتزال في جزيرة «البا». والكونت «دارتوا» يستقبل استقبالاً باهراً عند دخوله إلى باريس. ولويس الثامن عشر يستعد لمغادرة انكلترا ليعود إلى فرنسا، و «نيقولا» ينتظر ماذا ستقرره «دلفين». وفي اليوم نفسه الذي وصل فيه «السيد الكونت دارتوا» شقيق الملك، غادر القيصر قصر السيد «دي تاليران» لكي يقيم في «الأليزي - بورون» مع هيئة أركان حربه. وكانت حراسة القصر تؤمنها مختلف أفواج الحرس الليتواني، كل منها بدوره. وبعد فترة وجيزة، استدعي «نيقولا» للقيام بهذه الخدمة، مع سريته تحت إمرة الرائد «مكسيموف». وبعد أن جرى التبادل بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف ألحانها، تمركز «حراس ليتوانيا» في ساحة الشرف، من الجهة اليمنى، بينما كانت عناصر الحرس الوطني تشبك أسلحتها في الجهة اليسرى. وكانت عدم مهارة هؤلاء الجنود الفرنسيين غير النظاميين وكثرة أخطائهم، تثير سخرية الجنود الروس.

وكـان «نيقـولا» يـضطر أحيانـاً للتـدخل لكـي يمنـع رجالـه مـن توجيـه عبارات السخرية إلى أولئك الحراس الذين يقفون في الجهة المقابلة.

وبعد أن نظمت شؤون الحراسة، ووقف الخفراء في مواقعهم، ظهر الأمير «فولكونسكي»، رئيس هيئة أركان حرب القيصر، على درج المدخل ونادى الرائد «مكسيموف» بإشارة آمره من يده. وعند عودة هذا العسكري المسنّ إلى مركز الحراسة، كان بادي الاضطراب، وأخذ يتمتم متذمراً:

- يا لها من قصة غريبة وقذرة! فالقيصر ينتظر الجنرال البولوني «كوسيوزكو»، ويريد أن يستقبل بالتحية والتكريم اللذين يقدمان لكبار القادة من رتبة «فيلد مارشال» (مشير).

وستحلّ بنا مصيبة إذا تركناه يمر دون أن تقرع له الطبول!

ولكن كيف يمكننا أن نعرفه؟ فأنا لم أره، في حياتي!

- ولا أنا، أيضاً!

هذا كل ما قاله لي الأمير أن «كوسيوزكو» أخنس الأنف! ويا لها من علامة مميزة! والآن، مثلك مثلي، علينا أن نفتح العينين جيداً! فأنت لا ترغب أن تعاقب بالتوقيف الشديد، بعد إدانتك بأنك قد ارتكبت خطأ جسيماً، أليس كذلك؟

كان «نيقولا» يتصور المأساة: «دلفين» تدعوه إلى منزلها ليلتقي بها على انفراد، في موعد غرامي، وهو يمنع من الذهاب إليها، لأنه لم يقدم التحية والتكريم، في الوقت المناسب للجنرال «كوسيوزكو»! لذلك، قال لرئيسه:

- اعتمد علي، لن يدخل إلى هنا أي رجل أخنس الأنف دون أن اتبينه!

وهكذا فقد بدأ العذاب: فمبوجب النظام المعمول به، كان يحق لأمراء الأسرة المالكة، وحدهم أن يصلوا في عرباتهم حتى درج مدخل قصر «الأليزي». وكان على الآخرين أن يتركوا عرباتهم عند الباب الخارجي، ويجتازوا الباحة سيراً على الأقدام حاسري الرؤوس.

فوقف «نيقولا» أمام مركز الحراسة وأخذ يتفرس بقلق شديد وجوه الزوار، وعند مرور هؤلاء، عرف بعضهم:

كانوا كبار القادة برتبة ماريشال: «نيي»، «مارمون»، «بيرتييه»، الجنرال «دوساكين»، البارون «دي ستين»..

أما الشخصيات التي كان يجلها فكان يعتمد على فطنته وغريزته لتقييم أهميتها. وكانت الساعات تمر وتنقضي ببطء شديد، دون أن يبدو أي أنف أخنس، في الأفق، فهل يمكن أن يأتي هذا البولوني الشيطاني، وحسب، لينتهي هذا العذاب؟!

وعند الظهر، وبعد أن بدا «نيقولا» متعباً، أخذ يفكر بالتخلي عن المراقبة. وفجأة، وبينما كان ينظر عبر الباب المفتوح نحو ضاحية «سان هونوري»، رأى عربة صفراء تحمل رقماً كبيراً، وقد توقفت على بعد خطوتين، من الباب، في الشارع. ونزل من العربة، بتثاقل، رجل مسن، يرتدي بزة عسكرية زرقاء، ياقتها بنفسجية اللون، مطرزة بخيوط ذهبية. وعلى جنبه يتدلى سيف صغير يشبه لعبة الأطفال، وكان ساعده المطوي يضم إليه قبعة مقرّنة تزينها ريشات سوداء، وحتى قبل أن يميز «نيقولا» ملامحه، داهمته قناعة قوية:

إنه «كوسيوزكو»! فأسرع إلى مركز الحراسة، وأعلن بأعلى صوته:

- لقد وصل!

فأصلح الرائد «مكسيموف» هندامه وبكّل أزرار سترته على عجل وصاح بقوة:

- اخرجوا، جميعكم!

وبعد ذلك بدقيقة واحدة، كان الضابط المسن الذي يرتدي البزة الزرقاء يعبر من المدخل الرئيسي. وسرية الحراسة التي اصطفت على الجانبين تقدم له السلاح، بينما كانت الطبول تقرع عند مروره. وردّ على التحية بإشارة من يده.

وأخذ «نيقولا» يفكر، وقد استبدّ به القلق:

المهم أن يكون الذي أتى هو القائد المنتظر! أما إذا كان زائراً عادياً، فيا لتعاسي! إني سأعاقب بالتوقيف الشديد!.. وبدا الأمير «فولكونسكي» من جديد على درج «الأليزي» وقد استرعت انتباهه الضجة التي حدثت. فهل سيدهش، ويستاء؟ كلا! لقد انفرجت أسارير وجهه الصارم عن ابتسامة ترحيب بالقادم الكبير، ومدّ نحوه ذراعيه. ودون أن يرف جفن للرائد «مكسيموف» همس، قائلاً:

- لقد كان «حزرك» صحيحاً، وفي محله!..

فاعتقد «نيقولا» أن الحظ يبتسم له لدرجة أنه لم يفاجأ أويدهش عندما رأي «أنتيب» يقف، عند الساعة الثانية، في الجانب الآخر من الشارع، وقد شبك يديه خلف ظهره، فلم يكن هنالك مجال للشك: لقد أرسلت «دلفين» بطاقة إلى المنزل الذي يقيم فيه، والكائن في شارع «جرونيل» و «أنتيب» بكونه ذلك الخادم الأمين، أتى بها ليسلمها لسيده. وخلافاً للتعليمات العسكرية، خرج «نيقولا» من الباحة مسرعاً واتجه نحو وصيفه، وسأله:

- ماذا تعمل هنا؟

- أتيت لأرى أين يقيم القيصر، يا صاحب السعادة.

- وهذا كل ما هنالك؟!

- إن هذا يكفي، بل وأكثر مما ينبغي لخاطئ بسيط مثلي!

- ألم تجلب لي شيئاً؟

- أي شيء؟ ولماذا؟ فهل أنت جائع؟

- كلا، أيها الأبله!.. ألم يكن هنالك رسالة لي في المنزل؟

- كلا، لم يصل أي شيء من روسيا.

- ولا من أي مكان آخر؟

- كلا، أيضاً. آه! ولكن، إليك هذا الخبر: لقد وصلت للتو إلى المنزل زوجة الكونت وابنته. وإلى كل مكان أخذ الخدم ينقلون الحقائب وهم يتراكضون في الممرات..

ورفع «نيقولا» ذراعيه، عالياً، وهو يشعر بخيبة الأمل، وقال للوصيف:

- هيا! انصرف، ولا تبق هنا!

وعاد إلى الباحة وقد أحنى رأسه، مفكراً.

☆☆☆

وعندما عاد «نيقولا» إلى منزل الكونت «دو لامبرفو» وجده هادئاً، كما تركه في الصباح عندما ذهب إلى قصر «الأليزي - بوربون». كان الكونت وحده يجلس في الصالون واستقبل الشاب بشيء من التكلف. وسأله «نيقولا» عما إذا كانت زوجته وابنته قد وصلتا بالفعل.

فتمتم، قائلاً:

- نعم، نعم، إنهما هنا، وقد قامتا برحلة ممتازة. وأنا أشكرك..

فقال نيقولا:

- أمل أن تتاح لي الفرصة قريباً لكي أقدم لهما تحياتي واحترامي.

- بالتأكيد! ولكنهما الآن تخلدان إلى الراحة، فهما متعبتان جداً..

فأدرك «نيقولا» بأن عليه ألا يلح على هذا الأمر، وكان يهم بالانسحاب، عندما فتح باب الصالون أمام امرأة بدينة بعض الشيء، في الخمسين من عمرها، عيناها سوداوان، تحيط بهما خصلات من شعرها الأشيب، فأخفى السيد «دو لامبرفو» حركة تنم عن المفاجأة والدهشة واقترب من زوجته وقدم لها «نيقولا»

فقالت الكونتيسة:

- لقد سبق لي أن سمعت عنك الكثير من زوجي، أيها السيد.

وأخذت تنظر اليه بشكل ينم عن مزيج من الصداقة والخوف. وقد تبادر إلى ذهن «نيقولا»: «إن بزتي العسكرية هي التي تدهشها وتخيفها!» ولكي يطمئنها أخذ يحدثها عن حسن الضيافة التي لقيها في هذا المنزل وعن القلق الذي يشعر به إذا ما طالت إقامته فيه، وقال:

- إني لا أريد أن أزعجكم!

فقالت السيد «دو لامبرفو» بأعلى صوتها، وهي توجه نحو زوجها نظرة تطلب فيها النصيحة والمشورة:

- أنت لا تزعجنا أبداً، أيها السيد، لا سيما وأن المنزل واسع، وكل منا يستطيع أن يعيش فيه كما يحلوله..

وهذه الملاحظة أوقعت «نيقولا» في الحيرة. فهل كانت تقصد بها إفهامه بأن عليه أن يبقى في ركنه، أوعلى العكس من ذلك تماماً، أنها تُعد دعوة ليأخذ حريته ويتمتع بها؟ وظل محتاراً يشك في الأمر، وابتسم وشكر الكونتيسة. وعندما حاول أن يعرف فيما إذا كانت السيدة «شامبليت» قد استراحت بعد تعبها من الرحلة، عمد الكونت، مرة أخرى، إلى تغيير مجرى الحديث، وكأنه لا هو ولا زوجته يرغبان بالحديث عن ابنتهما أمام أحد الغرباء. وكل هذا كان ينم عن سر خفي. ولكن «نيقولا» كان مشغول الفكر أكثر مما ينبغي بالحب، بحيث أنه لا يستطيع الاهتمام بشؤون الآخرين لمدة تزيد على عشر دقائق. لذلك فقد استأذن من مضيفيْه، وذهب فتناول طعام العشاء، كالعادة، في غرفته، يخدمه «أنتيب» الذي كان يجلب له الأطباق من المطبخ، وكان الممر طويلاً جداً، لدرجة أن الوصيف مهما أسرع، كان عند وصوله، هو الذي يشعر بالحرارة، بينما الطعام يكون هو البارد. وبعد أن انتهى «نيقولا» من تناول وجبته، أخذ يطلع على بريده، ويكتب بعض الرسائل. وبدأ برسالة إلى والده، عندما سمع وقع خطوات في ناحية السقف فأدهشه ذلك، ورفع رأسه، متسائلاً:

- ما هذا؟

فقال له «أنتيب»:

- ابنة الكونت تقيم في الغرفة التي فوق غرفتك.

- وهل رأيتها؟

- كلا، إنها لم تظهر بعد، هل أنت بحاجة لي أو لأي شيء، يا صاحب السعادة؟

فصرفه «نيقولا» ليذهب وينام في الرواق. أما هو فلم يكن يشعر بالنعاس. كانت شمعتان ضخمتان تشعان على منضدته، وعرضاً على الصفحة البيضاء، كان ظل ريشة الإوزة يتحرك ببطء. لو أن «نيقولا» كان يكتب رسالة إلى «دلفين» لما تردد لحظة في اختيار الكلمات. ولكن ماذا يقول لأب بعيد جداً، وهو ممّن يصعب فهمهم؟: «آمل أن تكون على الدوام بصحة جيدة، وأن الملكية لا تسبب لك كثيراً من المتاعب والهموم. هل استطاع «فيدو تنكو» إقامة مصنعه الخاص بتحضير القنب والكتان من أجل صناعة الحبال، الذي كان ينوى إقامته قرب البحيرة؟..»

وفوق، في الطابق الأعلى، كانت السيدة «شامبليت» تمشي، تتوقف، تستأنف المشي، وتقترب من النافذة.

☆☆☆

وفي الأيام التالية، لم تتح أيضاً لـ نيقولا الفرصة لكي يلمح ابنة الكونت. كانت السيدة «شامبليت» وأمها تنزويان في جناحهما الكائن في الطابق الثاني. والكونت نفسه، كان يبدو منذ بعض الوقت، وكأنه يتحاشى أي لقاء مع الشاب. وأخذ «نيقولا» يتساءل:» ما سبب ذلك؟، أي خطأ أو قصور، بدر مني؟» كان يتعزى ويواسي نفسه، مفكراً بأن «دلفين»، على الأقل، توليه ثقة متزايدة على الدوام. فقد دعته إلى شرفتها في الأوبيرا لحضور

مسرحية: «أوديب في كولون». وبالطبع سيكون زوجها حاضراً هناك، ولكن «نيقولا» لم يكن يقلقه حضوره، بل كان لديه انطباع بأن هذا الرجل اللطيف كان على استعداد لتشجيعه على متابعة تنفيذ مشروعه.

وربما كانت، بالنسبة لبعض المسنّين أفضل وسيلة لإرضاء الزوجة وتكريمها هي أغماض العين وغض النظر عن انحرافها، وأخطائها؟! ومهما كان الأمر، فإن «نيقولا» عندما وصل، الساعة السابعة مساءً إلى شرفة دار «الأوبيرا» ببزته العسكرية الأنيقة، استقبله الزوج والزوجة بطريقة واحدة تنم عن الصداقة، بل وعن الامتنان أيضاً.

وكان برفقتهما الكونت والكونتيسة «دي مالوفيرجوي». ولكي لا يزعج أحداً، ظل «نيقولا» واقفاً خلف المقاعد. كان يرى رقبة «دلفين» الشقراء وكتفيها العاريين. وكانت تشير، في آخر القاعة إلى الشرفة الخاصة بنابليون، سابقاً، التي كان «النسر» فيها مغطى بستائر من الجوخ مزدانة بالمخمل الأزرق الذي طرزت عليه زهور الزنبق.

وكان هذا التغيير قد أجري على عجل وبصورة مرتجلة، قبل ذلك بيومين، من أجل استقبال الكونت «دارتوا».

وقالت «دلفين» وهي تلتفت نحو «نيقولا»، وكأنها تدعوه ليكون شاهداً على مصيبة حلت بها:

- إني ما كنت أستطيع أن أتعزى ولا أن أتقبل العزاء لو فاتتني هذه الأمسية الرائعة! إن حياتي عبارة عن إعصار تتقدم فيه الأمور الثانوية والتافهة على الأمور المهمة والرئيسية. ولم يعد لدي حتى وقت للتفكير وللتنبؤ بما سيحدث في المستقبل..

فقال البارون:

- كثيرون من الناس يمكنهم أن يؤكدوا لك، أن ذلك في زمننا هذا، يُعد فرصة ومن دواعي حسن الحظ!

كانت القاعة تغص بالرواد، وأخذ باعة الصحف ومؤجرو المناظير المقربة يتجولون بين الصفوف في القاعة السفلى العامة. وقدأنيرت المصابيح. وفجأة سكن الجمهور وصمت، عندما أخذت الكمنجات تئن والموسيقا الصاخبة تدوي، ثم أخذ أحد المزامير يتأوه منفرداً. وطوال عرض المشهد، لم يستطع «نيقولا» التفكير بالحب إلا مع الموسيقا. إنه عذاب شخصي أن تحتفل الجوقة الموسيقية والمغنون بكل أبهة، وإن كانوا في ظاهر الأمر، مكلفين بالتعبير عن آلام ومصائب العجوز الأعمى «أوديب» الملتحي، المحروم والمنفي. وبعد «الأوبريت» جرى عرض لمشهد من الرقص الإيمائي بعنوان:

«نينيا»، أوالمجنونة بسبب الحب.

وأسدلت نهائياً الستارة الحمراء عند الساعة التاسعة والنصف وسط الهتافات المدوية.

كان شارع «ريشلبو» بجانب دار «الأوبرا» يغص بالعربات التي كانت مصابيحها تبدو كنقاط مضيئة في ظلام الليل. وعلى درج المدخل أخذ المنادون يستدعون سائقي العربات. وكان هنالك بعض حملة الفوانيس، التي تحمل أرقاماً، يعرضون خدماتهم على الأشخاص الذين يعودون إلى منازلهم سيراً على الأقدام. وصعد «آل مالوفير جوي» إلى عربتهم الصفراء اللون، التي انطلقت بهما بعد أن تبادلا عبر بوابة العربة، مع «آل شارلاز» بعض العبارات الودية.

وتقدمت عربة السيد «شارلاز» في الحال، بعد ذلك. فأراد «نيقولا» أن يستأذن بالانصراف، بدافع التقدير والتحفظ، ولكن البارون، أظهر استياءه، وقال:

- ما هذه الفكرة؟! يجب أن تصعد معنا!

فجلس «نيقولا» على المقعد الذي يدير ظهره للدواليب، وهو موزع الشعور بين السرور والانزعاج. وقبالته، كانت تجلس «دلفين» بفستانها، والزوج

الضخم الجثة، والمترهل، بملابسه السوداء وصدارته البيضاء، وهو مستغرق في التفكير. كانت العربة تسير بسرعة معتدلة. وعند كل اهتزاز، كانت ركبة «نيقولا» تمس ركبة المرأة الشابة.

وكان يدخل أحياناً شعاع من الضوء إلى العربة، عند ذلك، وفي لمح البصر، كان وجه «دلفين» يبدو عبر الظلام، باسماً، ساحراً وغامضاً كاللغز. وعطرها يملأ العربة المغلقة النوافذ، و «نيقولا» لا يكاد يسمع الحديث الذي يدور أمامه وهو مستغرق في استنشاق ذلك العطر. وفجأة تنبه وأصاخ السمع، عندما قال البارون بلهجة حاسمة:

- أؤكد لك، يا صديقتي الطيبة، إني لا استطيع التصرف بشكل آخر، فقد وعدت السيد «نواي» أن أمر عليه لمقابلته هذا المساء نحو الساعة العاشرة، بعد خروجي من دار «الأوبيرا». لأن علينا أن نتحدث في أمور العمل.

فسألته «دلفين»:

- ألا يمكنك أن تقابله غداً، في المصرف؟

- إنه هناك مشغول على الدوام، ويزعجه كثيراً المطالبون بالقروض وأصحاب الحسابات!

فتنهدت «دلفين» وأشاحت بوجهها إلى جهة أخرى.

واستأنف البارون الكلام، قائلاً:

اطمئني، لن أفرض عليك مشقة مرافقتي.

فقالت «دلفين»:

- أشكرك، وأعترف لك بأني متعبة جداً!

فأمسك البارون يد زوجته، ألصق عليها شفتيه، وأنهى حديثه، قائلاً:

- إذن سنفترق أمام باب منزل عزيزنا: «نواي» وأنت تعودين مباشرة إلى المنزل، ثم توصل العربة السيد «أوزاريف» إلى شارع

«جرونيل» وبعد ذلك تأتي لكي توصلني إلى المنزل، أيضاً.
وقد أعطيت تعليماتي بهذا الشأن للسائق.

فتمتم «نيقولا»:

- ولكني أستطيع العودة سيراً على الأقدام!

فرد البارون:

- تكون بذلك قد أخطأت، لأني أضع تحت تصرفك أربعة دواليب جيدة. وعلاوة على هذا، عليك أن تعرف أني سأشعر بالقلق إذا تركت امرأتي تعود بالعربة وحدها، في الليل إلى المنزل. ووجودك معها، أعتبره ضماناً لأمنها وسلامتها.

كانت نبرة صوته ساخرة. فشعر «نيقولا» أنه يتعرض لخدعة. وهكذا فإن السيد «شارلاز» بتقبله لرغباته، يزيل من ذهنه الوهم بأنه يقوم بغزوة غرامية صعبة. ولكن ربما كان هذا الترتيب قد اتخذ بتحريض من دلفين؟! ومن الممكن أن تكون متفقة على ذلك مع زوجها، وإن كانت قد تظاهرت بالدهشة، وبالمفاجأة، عندما أخبرها زوجها أنه سيذهب لمقابلة صديقه؟ على أي حال، فإن الوضع كان مربكاً بالنسبة لرجل يتحلى بالشرف والاستقامة.

وقال البارون:

- ها أنا قد وصلت.

وطبع قبلة ثانية على أصابع زوجته، شد على يد «نيقولا»، كما لو أنه يشكره على ما سيقوم به، ونزل من العربة بعد أن ساعده السائق على ذلك، واتجه وهو يعرج قليلاً نحو بيت، بابه الكبير كان مفتوحاً. وعندما عاد السائق، قالت له «دلفين»:

- نعود إلى المنزل. يا «جيرمان». ولكن لا تسرع كثيراً، لأن ارتجاج العربة يزعجني.

ثم التفتت نحو «نيقولا»، وأضافت بصوت عذب:

- اجلس بقربي، يا سيد. تبدو وأنت جالس على مقعدك هذا كأنك محكوم بعقوبة تنفذ بك الآن!

وعندما احتل «نيقولا» مكانه بجانب «دلفين» دخل في سحابة من السعادة. ولم يقوَ على التفوه بكلمة، وكأن تبيّنه لحظه الحسن ولفرصته المواتية، قد سبب له الشلل: كان يتأمل جارته، عبر الظلام، بحدة مضنية، ويكاد يلتهمها بنظراته.

وسارت العربة بهدوء، والحصانان يسيران الهوينا. كان وقع جوافرهما، وصرير نوابض العربة تتداخل في أحلام «نيقولا» وتدفعه إلى الاعتقاد أنه ذاهب في رحلة لا نهاية لها مع المرأة المحبوبة. وبعد برهة طويلة، تجرأ على أن يتمتم:

- لقد كانت هذه الأمسية رائعة، أليس كذلك؟

وبدلاً من أن يتلقى جواباً، شعر بحرارة لطيفة تقترب من كتفه، فأفقده هذا التماس، وعيه، وقال:

- أحبك!

وطرقت سمعه صرخة مكتومة تعبر عن الدهشة، أكثر من تعبيرها عن الرفض أو الغيظ. وارتجت العربة، ودون أن يتحرك «نيقولا» وجد نفسه مع امرأة لاهثة ومنحنية على صدره. وكان تقريباً متأكداً بأنها تبكي، وقد سحره هذا القدر من الرقة.

وكرر ما قاله لها، ليتشجع في المضي في مشروعه:

- أحبك، يا «دلفين»!

فلم تجب، وظلت تتنهد وترتعش. وأخذ أحد الحصانين يصهل مطولاً وبقوة، فاعتبر «نيقولا» ذلك إشارة مفرحة، فأحنى وجهه، بحث عن مصدر أنفاسها، وقبل شفتيها، فتخبطت وقاومت قليلا عندما ضمها إليه، ثم

قبلته، هي أيضاً، وهي تمسك رأسه بين يديها الاثنتين. وعندما تركته. كان يشعر بطعم الدم على لسانه: فقد عضته: كان ذلك رائعاً! وأراد أن يضمها إليه ويعانقها ثانية، ولكنها دفعته، هذه المرة، بذراعيها الممدودتين وقالت وهي تئن وتتنهد:

- كلا!

فسألها، هامساً:

- ولكن، لماذا، يا «دلفين».

- ليس لنا الحق بأن نفعل هذا!

فلم يفهم كيف فكرت بهذا الامتناع بعد أن قدمت له شفتيها بكثير من الرغبة والحرارة.

فصاح:

- «دلفين»، كوني رحيمة واشفقي علي!

فقالت له:

- آه، يا سيدي، لكم أود أن أفعل ذلك! ولكني لست حرة! ويمكن أن تحتقرني لو استسلمت، ووافقت على ما تطلبه مني!

فغمغم:

- أبداً، وعلى الاطلاق! كيف يمكن أن تظني؟..

فهزت رأسها بأسى:

- لقد سرقت منّي قبلة في لحظة من ضعفي. وأريد أن أنسى ذلك تماماً. ولكن شريطة أن تعدني بأنك ستنسى ذلك أنت أيضاً. ولنعد أصدقاء، كما كنا، وإلا فإني لن أستطيع أن أراك ثانية.

كان التحول من نشوة الحب إلى البرود الأخلاقي سريعاً جداً لدرجة أنه قد أخل تقريباً بتوازن «نيقولا». فالذي يتحدث إليه الآن من داخل العربة هو

ملاك الحكمة فأخذ «نيقولا» يفكر: «إنها وفية!: هذا فظيع، وهذا يدعو إلى الإعجاب! إنه يجعلني أضاعف حبي لها!»

وتمتم:

- اتركي لي، على الأقل، بعض الأمل!

فقالت وهي تلوي أصابعها:

- كلا! كلا! لا تمعن في تعذيبي، فعندما أستعيد هدوئي، وصوابي، سوف أشرح لك الأمر، ولكن في الوقت الحاضر، دعني، بل أهرب مني، فأنا أتوسل إليك أن تفعل ذلك!.. والله يحفظك!

وقد أثارت هذه الكلمات الأخيرة حماسة «نيقولا».

فهو يكاد يكون جاثياً على ركبته في العربة، ويشعر بأن قبضة سيفه تنغرز بين أضلاعه. وأخذت شفتاه تنتقل بسرعة وحرارة على يدي «دلفين» المسدلتين. كانت تبدو وكأنها قد فارقت الحياة. وتوقفت العربة.

فقال «نيقولا» وهو ينتنهد:

- أوصلنا، الآن؟!

- لا بد من ذلك، يا صديقي اللطيف.

فرافقها إلى باب المنزل، وسألها:

- متى سأراك ثانية؟

فوضعت إصبعها على شفتيه، وبدت متألقة وهي تمر تحت أحد المصابيح، ثم اختفت. وأغلق الباب الثقيل في وجه «نيقولا» فهل كان هذا انتصاراً أم هزيمة؟ لم يكن يستطيع التفكير لكي يعطي رأيه بذلك. كان سائق العربة ينتظر تعليماته.

فقرر «نيقولا» بشهامة أنه لا يستطيع استخدام عربة الرجل، الذي كاد أن يغوي زوجته، ولذلك قال للسائق:

- سأدبر أمري، وأعود إلى المنزل بوسائلي الخاصة.

وانطلق، سيراً على الأقدام، عبر الظلام الدامس.

كانت جميع نجوم السماء تتلألأ على يأسه. وعند وصوله إلى منزل السيد «دو لامبرفو» كان لا يزال يتساءل عما إذا كان يستطيع متابعة العيش في الحيرة التي أوقعته فيها «دلفين».

وأقبل البّواب، الذي كان يبدو نائماً وهو واقف، لكي يفتح له. في الطابق الأرضي، هنالك نافذتان يبدو منهما الضوء، ويبدو الضوء أيضاً من ثلاث نوافذ في الطابق الأول. وأخذ وقع خطى «نيقولا» يدوي في الرواق الواسع، ذي الأعمدة المغطاة بمعجون المرمر، وكأنه يمشي في كنيسة خالية.

وهنالك مصباح صغير ينير المكان، وضع على منضدة صغيرة. قرب الباب، تحت صورة رجل يبدو حزيناً، - يرتدي ملابس من طراز وزيّ «لويس الخامس عشر»، ويمسك بيده كتاباً. وفجأة اجتاز المنطقة المضاءة خيال رشيق أسود وأسرع نحو الدرج، ودون أن يكون قد رأى أبداً السيدة «شامبليت»، فإن «نيقولا» لم يشك بأنها كانت هي التي عبرت، وكان يأمل أن تلتفت لكي يلمح أخيراً وجهها. ولكن المرأة أسرعت دون ان تتوقف أو تلتفت، حتى أعلى الدرج، ثم اختفت عبر الظلام. وكان هذا الهروب مغيظاً وغير معقول، واجتاز «نيقولا» الرواق، وهو يشعر بالمزيد من الفضول والحيرة، وتحاشى جسم «أنتيب» النائم في الممر، ثم فتح باب غرفته، فسمع، فوق رأسه وقع خطوات خفيفة، تحدث صوتاً على أرضية الغرفة، المغطاة بألواح خشبية.

٥

همس له «أنتيب»:

- سيدي! سيدي، أتريد أن تراها؟

فسأله «نيقولا»، وهو يلقي ريشته جانباً:

- من هي؟

كان يجلس إلى منضدته، يكتب رسالة إلى «دلفين» لن يرسلها لها، ولكن عباراتها الشاعرية كانت تثير أشجانه.

فأجابه «انتيب»:

- ابنه الكونت، إنها في المكتبة هي ووالداها. ومن الحديقة يمكن رؤيتهم جيداً. تعال بسرعة!

فتردد «نيقولا» قليلاً، ولكن فضوله، وحب الاطلاع لديه دفعاه، فخرج بهدوء وراء وصيفه. كان هنالك غبش أزرق يخيم على أوراق الأشجار. وكان الممشى الرئيسي يؤدي إلى تمثال لآله الحب يشدُّ قوسه فوق حوض صغير للماء، وبدلا من أن يتجه «أنتيب» نحو الحوض، اقتاد «نيقولا» في ممر ضيق، يعود بمن يسير فيه، نحو المنزل. وبدت إحدى النوافذ خلف سياج من نباتات الزينة الداكنة. كانت الحصيات ترسل صريراً خافتاً تحت وقع خطوات «أنتيب» بجزمته الضخمة، والتفت نحو «نيقولا»، ودله على مقعد حجري، قائلاً:

- اصعد فوقه، يا سيدي!

فانصاع «نيقولا» لطلب الوصيف، الذي صعد بعده، ومد ذراعه نحو النافذة:

ماذا قلت لك؟ انظر، ها هو الأب! ها هي الأم! وها هي ابنتهما!

وحملق «نيقولا» فرأى امرأة شابة تجلس بين السيد والسيدة «دولا لمبرفو» ترتدي ثياباً سوداء وقد أحنت جبينها فوق كتاب كان بيدها. فهل كان البعد هو الذي جعلها تبدو جميلة إلى هذا الحد؟ تحت شعرها الفاحم السواد المسرّح إلى الأعلى، كان وجهها شاحباً، بارز الوجنات. فأخذ «أنتيب» يتلمظ بلسانه، وكأنه تناول جرعة طيبة من الخمر:

- أنا أرى أنها جميلة جداً، ولكنها نحيلة بعض الشيء، أليس كذلك يا سيدي؟

فقال «نيقولا»:

- هذا صحيح!

كان يفكر في أمر آخر. وبعد أن تأملها لفترة قصيرة، نزل عن المقعد وعاد إلى غرفته، وهناك أخذ يدور حول نفسه، ثم توقف وضم ذراعيه، وقرر فجاة أن يوجه رسالة إلى «دلفين» حقاً، لم يكن وارداً أن يرسل لها الرسالة الشاعرية الحارة التي كان قد كتبها في البداية. فهي يمكن أن تتأثر من رسالة شكر ومجاملة، بشكل كافٍ دون أن تسيء هذه الرسالة إلى سمعتها أو أن تجعلها عرضة للاتهام.

وكتبها دون توقف، ودفعة واحدة:

سيدتي العزيزة، دعيني أشكرك مرة أخرى على تلك الأمسية اللطيفة التي لم تعد ذكراها تفارقني، فأنا مدين لك وللسيد «دي شارلاز» بأجمل وقت أمضيته في باريس. وخشيتي الوحيدة هي أن أكون قد أزعجتكما بتواجدي في شرفتكما، وإني لآمل ألا تنقما علي زمناً طويلاً بسبب ذلك. واسمحي لي يا سيدتي العزيزة، أن اعتبر نفسي خادمك المتواضع والمطيع.

«نيقولا أوزاريف»:

وبدت الرسالة كإحدى روائع الدبلوماسية الغرامية. وطوى الورقة وختمها بعد أن غمس خاتمه بالشمع الحمر، وأمر» أنتيب» أن يحملها على الفور إلى المرسلة إليها.

فاعترض الوصيف واحتج، قائلاً:

- ولكني لن استطيع أن أجدها! كيف تريد مني أن أسال عن طريقي إلى هناك، باللغة الفرنسية؟

فقال «نيقولا» وهو يدفعه نحو الباب:

- تدبر الأمر بنفسك! وعندما تصل إلى هناك، انتظر قليلاً قبل أن تعود. فربما يكون هنالك، جواب لرسالتي!

وعندما بقي وحده، عاد إلى الحديقة وصعد على المقعد، كانت درفة النافذة مفتوحة قليلاً، ولأن الظلام كان قد بدأ يخيم، فقد أشعلوا أحد المصابيح في الداخل. وكانت السيدة «شامبليت» لا تزال هناك بين والديها، ولكنها هذه المرة كانت واقفة وقد أدارت ظهرها إلى النافذة. وسمع بعض عبارات الحديث، عبر حفيف أوراق الأشجار التي تحركها الرياح، وظن أنه سمع كلمة «روسي» فأصاخ السمع:

كانت السيدة «دي شامبليت» تقول:

إني متأكدة أنه كان يمكنك أن ترفض إقامة هذا الروسي في منزلنا!

فرد السيد «دو لامبرفو».

- ولكنه كان يحمل بطاقة سكن!

- يا لها من ذريعة! ألا نكاد نظن أن ليس لك الكثير من المعارف والعلاقات، وأنك لست واسع الاطلاع؟!

فأنا يمكنني أن أذكر لك مئة شخص من بين الناس المرموقين الذين تدبروا أمرهم لكي يتخلصوا من هذه المضايقة!

ولذلك عليك أن تعترف أنه لم يكن يغيظك أن تؤوي في منزلك أحد ممثلي جيش الاحتلال!

فانتفض «نيقولا» وقد فار دمه غضباً. فيا له من احتقار يتجلى في كلام هذه المرأة الشابة! وكيف تجرؤ على التحدث هكذا وبهذه اللهجة عن شخص لا تعرفه، وعن بلاد هي أعظم مجداً من جميع بلدان العالم؟ لكم كان يود أن يرد عليها. وكان صوت الكونت هو الذي ارتفع متسماً بالرغبة بالتهدئة والترضية:

- إن أردت أم، لا يا «صوفيا» فإن هذا الشاب ذو طباع ظريفة، وأمك التي رأته يمكنها أن تعطي رأيها به!

فقالت السيدة «دو لامبرفو»:

- هذا صحيح، يبدو أنه شريف جداً.

فصاحت السيدة «دي شامبليت»

- هذا لا ينفي أنه أجنبيّ وأجنبي حارب في صفوف الأعداء، ضد جيشنا!

فأخذ «نيقولا» يشد على قبضتيه حتى يكاد يقصف مفاصلهما وهو مسمر في مكانه: ففي روسيا، لا يمكن أن تتكلم فتاة مع والدها بهذه اللهجة! وماذا تعرف هذه، وهي في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها، عن السياسة؟! حقاً، لقد كان طبيعياً أن يشعر بعض الفرنسيين بأن وطنيتهم قد جرحت بسبب وجود الجيوش المتحالفة فوق أرضهم. ولكنّ ما أبداه القيصر حيالهم من الأريحية والكرم الخارقين، يجب أن يحث المغلوبين على إبداء مظاهر الامتنان، بدلا من إبدائهم مظاهر الحقد والكراهية، هذا ما كان يريد أن يقوله «نيقولا» بأعلى صوته، وهو يقف على مقعده.

واستأنفت السيدة «دي شامبليت» الكلام قائلة:

- أنت حر، يا أبي بأن تسكن وتؤوي من تشاء، ولكن من جهتي أنا فإني لم أعد أشعر أني في بيتي، في منزلنا هذا، طوال وجود هذا الضابط هنا، لذلك فأنا سأنزوي وأرجو إعفائي من الظهور.

فأخذ «نيقولا» يفكر:

- يا لها من امرأة مزعجة! أرجو إلا يرضخ والداها وألا يوافقا على رأيها!»

وظل لبعض الوقت لا يسمع سوى الهمس والتمتمة، ثم قال الأب:

- يمكنك أن تفعلي ما تشائين يا «صوفيا» وأن تتصرفي كما يحلو لك فأنا لم يسبق لي أن أرغمتك على أي شيء أبداً. ولكن لا تأملي مني أن أطلب من هذا الشاب مغادرة المنزل.

فقالت السيدة «دي شامبليت» بحدة:

- إن هذا يؤسفني!

قالت ذلك وابتعدت عن النافذة. وفكر «نيقولا» في بداية الأمر وقد جُرِح كبرياؤه أن يغادر بكرامة بيتاً حيث اعتبر غير مرغوب فيه، ثم فكر بأنه إذا تصرف بهذا الشكل فإنه يكون قد حقق تماماً أمنية السيدة «شامبليت». والحالة هذه، فليس لديه أي مبرر لكي يتراجع أمام هذه المخلوقة المتكبرة والمتسلطة. وهو لا يقيم في هذا المنزل بصفة شخصية، بل باعتباره ضابطاً في الجيش الروسي. والبزة العسكرية التي يرتديها يحق لها أن تُحترم من قبل الجميع. وهو يعرف كيف يثبت ذلك! ومع حركة تنم عن التحدي، اتخذ قراره، وقال: «سأبقى!»

وهناك، كانت الأصوات قد صمتت، وأخذت بعض الظلال تتنقل حول المصباح. وصفق أحد الأبواب. وبقي الوالدان وحدهما، ولا شك بأنهما سيتحدثان الآن عن طباع «صوفيا» الصعبة وعن الاحتياطات التي يجب

اتخاذها من أجل عدم إثارتها. وقال «نيقولا» في سره: «يا لهما من مسكينين!»، وشعر نحوهما بمزيد من المودة بعد أن رآهما يتشاجران مع ابنتهما. وبكل هدوء، عاد إلى غرفته، وأغلق الباب الذي يطل على الحديقة. وفوقه لم يكن شيء يتحرك. ولكن ذلك الصمت كان حياً مسكوناً ومعادياً: «إنها تفكر بي وتكرهني، حتى دون أن تعرف من أنا!» واستعرض ذكرياته، لكي يحاول أن يتبين إنه حتى ذلك اليوم، لم يلق سوى المودة والتعاطف أينما ذهب. وكان صدقه، صراحته وبساطته، تجعل أكثر الناس عدوانية وسوء نية، يلقون أسلحتهم أمامه. ونزع جزمته، استلقى على السرير، ووجه نظره نحوالسقف حيث كان المصباح يرسم دائرة من الضوء الأصفر، وأخرجه من سباته وقع أقدام مدوية ودخل «أنتيب» إلى الغرفة مسرعاً، كان يلهث ويتصبب عرقاً، ومع ذلك فقد كان مبتهجاً، مشرق الوجه:

- سيدي، لقد انجزت المهمة! ذهبت إلى هناك، سلمت الرسالة وجلبت رسالة أخرى! خذ!

وفض «نيقولا» الرسالة، بأصابع عصبية، وتناول صفحة من الورق المصقول اللماع، وأخذ يقرأ وهو في غاية البهجة والنشوة:

السيد العزيز:

لا شك في أنك لا تجهل أن ملكنا المحبوب، سيدخل باريس يوم الثالث من أيار (مايو) المقبل. وجميع الفرنسيين الحقيقيين يرغبون من كل قلوبهم أن يستقبلوه بالتحية في ذلك اليوم. ومن حسن حظي أن لي بين صديقاتي إحدى الخياطات: «أدريين بولي» وهي تسكن في منزل يقع عند زاوية شارع «سان دونيس» وجادة «الشانزيليزي» حيث يمر الموكب.

وقد دعتني للجلوس إلى إحدى نوافذ منزلها لمشاهدة الموكب عند مروره من هناك، فهل يسرك أن تشاركني في تلبية هذه الدعوة البسيطة جداً؟

وفي هذه الحالة، تذكر جيداً العنوان، واذهب إلى هناك في الساعة الحادية عشرة صباحاً يوم الثالث من أيار ولا تنسَ أن تتلف هذه الرسالة فور قراءتك لها.

اعتمد على تكتمك، بقدر اهتمامي بحضورك.

«دلفين دي شارلاز»

وبعد أن قرأ الرسالة عشر مرات كي يحفظ غيباً كل كلمة فيها، حرقها نيقولا في لهيب إحدى الشموع بصورة احتفالية، وهو يطير فرحاً وسعادة، أمام «أنتيب» الذي كان يرسم على صدره إشارة الصليب ويحملق مندهشاً.

لم يهنأ «نيقولا» بالنوم في تلك الليلة، واستيقظ وهو مشوش الذهن. كان يريد ألا يفكر إلا برسالة «دلفين» ولكنّ ذكرى الكلام المزعج الذي سمعه الليلة الماضية عندما كان في الحديقة كانت تهيمن على أفكاره وتمنعه من التمتع بفرحة لا تشوبها شائبة. وفي هذا الصباح، كان يشعر، أكثر من الأمس بالمذلة، كما لو أنه كان، بدافع من الجبن، قد امتنع عن طلب تصحيح الخطأ والاعتذار عن تلك الإهانة التي وجّهت إليه، كان يعلم جيداً أنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يعترف في الوقت نفسه بأنه قد اختبأ ليسترق السمع ويصغي سراً لأحاديث مضيفيه، ولكن الوضع الزائف وغير الطبيعي الذي كان يجد نفسه فيه حيالهم كان يبدو له لا يتفق مع حبه للاستقامة وتعلقه بها. وذات يوم، أو في يوم آخر، سيكون عليه أن يشرح ذلك أمام الكونت والكونتسية، أو على الأقل أمام ابنتهما. وبهذا القرار الذي اتخذه أعاد بعض الهدوء إلى ذهنه، وبعد أن اغتسل، حلق ذقنه وارتدى ملابسه، عاد، بالفكر إلى أكثر الباريسيات تفهماً وأناقة، التي جازفت بكل شيء، وحددت له موعداً ليلتقي بها على انفراد.

وبها أيضاً كان يفكر ويحلم وهو يتعامل مع رجاله في باحة الثكنة. ولأن أي خطر كان قد استبعد بعد تنازل نابليون ورحيله إلى جزيرة «الب» فقد عاودت الجيوش تدريباتها الأساسية في قواعدها. وإن كانوا أبطالاً أم لا، فالجنود لم يعد لهم من عمل سوى السير بانتظام وبخطى موزونة، وتقديم السلاح بشكل جماعي ومتقن. وبالنسبة لـ نيقولا فإنه كان يشعر بمتعة بقيادة هذا العدد الكبير من الشباب الأشداء الذين تبدو على وجوههم ملامح الفلاحين الروس (الموجيك) وأن يقول في سره إنه هو نفسه رئيسهم، خاضع لسحر وفتنة مخلوقة ضعيفة وشقراء، وزيادة على ذلك، فهي فرنسية. وهنالك فكرة أخرى كانت تجعله أكثر تفاؤلاً: فقد أصدرت السلطة العسكرية قراراً منحت بموجبه الضباط الذين يقيمون عند الأهالي تعويضاً يومياً، قيمته ستة فرنكات للنقباء وثلاثة فرنكات للملازمين. الأمر الذي اعتبر مصدراً للثروة والغنى! وهكذا فقد تخلص «نيقولا» من متاعبه المادية، والتفت بكليته إلى الحب والغرام.

وعند عودته إلى منزل آل «لامبرفو» خطرت له فكرة القيام بمبادرة لم يكن قد فكر بها قبل ذلك: فقد نصحته «دلفين» أن يقرأ مؤلفات «شامبليت» الفلسفية، ولم يكن قد أعار هذه النصيحة أي اهتمام، في بداية الأمر، ولكنه في الوقت الحاضر كان يدفعه الفضول لمعرفة أراء ونظريات الرجل الذي كانت أرملته تبدو عنيدة ومتشددة إلى هذا الحد. فربما كانت آراء الزوج قد تأثرت بها الزوجة؟!

كانت المكتبة في الطابق الأول. ولها على فسحة الدرج العليا، باب مزود بألواح زجاجية. وبعد أن ألقى نظرة عبر الزجاج ليتأكد من أنّ الغرفة خالية، دخل «نيقولا» بسرعة كمن يدخل خلسة إلى مكان يحظر عليه الدخول إليه. كانت تفوح رائحة الجلد الهادئة والزكية في هذه الغرفة التي يغري جوها بالتأمل والتفكير. كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها وخضرة الحديقة

تمتد بين الجدران على شكل انعكاسات مرتعشة. ودار «نيقولا» حول المكتب، واستعرض بنظره صفوف الكتب الكثيرة. ولحسن الحظ كانت تلك الكتب مرتبة حسب أحرف الهجاء: وبين اسمي «شمفور» و «شبولان» اكتشف اسم «شامبليت». كان له ثلاثة مؤلفات صغيرة الحجم ومكسوة بغلاف جديد من الجلد، وكما يفعل اللص تناولها «نيقولا» بخفة وأخذها إلى غرفته، وبعد أن أغلق الباب، جلس إلى منضدته وأخذ يستعرض غنيمته:

«رسائل عن تقدم الذهن البشري، الذي لا يتوقف»..

«الطبيعة، العدالة والضمير».. الجمهورية السعيدة، أو اثنا عشر سبباً ومبرراً للاعتقاد بأن الحرية والمساواة هما المبدآن الضروريان لتحقيق الرفاهية العالمية..

وأدرك «نيقولا» من قراءته للأسطر الأولى بماذا كان الأمر يتعلق، وماذا كان يقصد المؤلف أن يقول بما كتبه، وهو دون أن يكون ملحداً تماماً، فهو يتجاهل تعاليم الكنيسة، ولا يتحدث عن الله إلا بالتعبير عنه بتسميات غريبة: مثل «المحرك العظيم» أو «القوة الخلاقة الأولية» وقناعته التي يتحدث عنها ويردد ذلك باستمرار هي أن جميع بني البشر يولدون أحراراً، متساوين ويتصفون بالفضيلة، وأن النظام الاجتماعي الظالم يمنعهم من التوصّل إلى التقدم وإلى الألفة والوفاق. وفي كل ذلك تبدو بوضوح آراء «جان جاك روسو» و «ديدرو»، مع شيء من أسلوب «فولتير» وتذكّر «نيقولا» القراءات المملّة التي كان يفرضها عليه أستاذه السيد «لوسور» الذي كان أحد ضحايا الثورة، وهذا لم يمنعه من إعلان إعجابه الشديد بمؤلفي الموسوعة. لكن، ويا للأسف!

لم يكن شامبليت يملك الموهبة التي كانوا يتحلون بها. كان فكره ضبابياً غامضاً ولغته باهتة. وعلى غلاف الكتاب الذي يحمل عنوان: «الطبيعة، العدالة والضمير»

كانت تبدو صورة للمؤلف: فهو بشع، ذو جبين محدّب، وأنف معقوف، وفم بارز مكور. فكيف استطاعت ابنة الكونت «دو لامبرفو» وهي شابة حسنة القامة والتكوين أن تتزوج شخصاً يكبرها بخمس عشرة أو عشرين سنة، وله هذا المظهر المنفر؟! فهل أرغمها والداها على هذا الزواج؟ ولكن الطريقة التي تتكلم بها لا تسمح أبداً بالاعتقاد بأنها يمكن أن تكون قد أطاعتهما بأي شيء. فهل أغراها ذكاء زوجها لدرجة أنها لم تعد تراه على شكله الحقيقي؟ وكان هذا النوع من التقدير ليس من عادة امرأة لم تكد تبلغ سن الرشد أن تقوم به. كان هنالك لمحة موجزة عن سيرة حياة الكاتب تحت الصورة وتبيّن منها لـ نيقولا أنّ المركيز «دي شامبليت» (المولود في ٣ شباط «فبراير» سنة ١٧٧٣)

كان قد نشر في وقت مبكر من سنّه بعض الأعمال العلمية والسياسية وأنه قد أثبت على الدوام، على الرغم من منبته الأرستقراطي أنه مدافع متحمس عن قرارات المجلس التشريعي، وبعد ذلك عن الجمعية التأسيسية التي تلت هذا المجلس، على أن صداقته مع «الجيرونديين» (وهو التجمع السياسي الذي تشكل أثناء الثورة)جعل لجنة «السلامة العامة» تقرر أن توجه له الاتهام سنة ١٧٩٣. وقد ألقي عليه القبض وزج به في السجن في اليوم نفسه الذي بلغ فيه الحادية والعشرين من العمرولم ينج من المقصلة إلا بفضل رد الفعل الذي حصل في يومي ٢٧ و ٢٨ تموز «يوليو» سنة ١٧٩٤. وفي مختلف الأطوار والمراحل التي مر بها نظام الحكم في فرنسا: في عهد Le Directoire ثم «Le Consulat «وبعد ذلك في عهد» Le Mpire» استمر يعمل بالقلم وبالكلام في سبيل مثل أعلى، لم يكن ليتردد أن يصعد رافع الرأس، من أجله، فيما مضى درجات منصة الإعدام. «وعلى الرغم من هذه الخاتمة الجيدة، فقد اعتبره «نيقولا» شخصاً مملاً ومنفراً. وبعد أن قرر عدم متابعة قراءة الكتب كلها، ذهب، عندما اقترب موعد تناول طعام العشاء، ليضع هذه الكتب في مكانها.

وفي هذه المرة أيضاً، فإنه قبل أن يدخل إلى المكتبة، ألقى نظرة عبر لوح الزجاج: كل شيء يبدو هادئاً في الداخل، فاجتاز «نيقولا» العتبة بخفة الظل واتجه إلى داخل الغرفة. وكان يهم بوضع الكتب على الرف في الخزانة، عندما التفت وقد شعر بحفيف قماش غير بعيد عنه، ورأى امرأة تقف تاركة مكانها على أريكة ذات مسند عالٍ ومستقيم، فتمتم، وقد أذهلته المفاجأة:

- السيدة «دي شامبليت» دون شك؟

فقالت:

- نعم.

فقال «نيقولا» وهو يضم قدميه، في وقفة استعداد عسكرية:

- الملازم «أوزاريف»

ولكنه تكلم في الفراغ، لأن السيدة «دي شامبيلت» لم تكن تصغي إليه، بل كانت تنظر إلى الكتب التي يمسكها بيده.

وكان وجهها شاحباً بارداً، ينم عن نضارة مأساوية.

واستأنف «نيقولا» الكلام، قائلاً:

- إني شديد الأسف لإزعاجك، يا سيدتي، كنت أريد إعادة الكتب، وهذا كل ما هنالك.

فقالت بلهجة جافة:

- وممن طلبت الأذن بأخذها؟

فرد بعناد:

- لم أطلب أذناً من أحد، لأن الجميع في هذا البيت، منذ أن رجعت إليه أخذوا يتهربون مني!

فردت وهي تبتسم بازدراء:

- إننا لم نوجه لك الدعوة، ولست أحد ضيوفنا، على حدّ علمي!

فأنحنى نيقولا قليلاً، في شبه تحية، وقال:

- لقد كان والدك من الطيبة والكرم بحيث جعلني أنسى ذلك.

- وهل تنوي البقاء زمناً طويلا في منزلنا؟

وعندما رآها عن قرب، بدت له أكثر جمالا مما كان يظن: ممشوقة القوام، سمراء، عنقها طويل أملس، شفتها العليا قصيرة بعض الشيء، عيناها سوداوان، اتسعتا بتأثير الغضب، وأخذتا تشعان بنظرات ملؤها الغطرسة والكبرياء.

فأجابها، باعتزاز:

- بقدر ما سيظل الجيش الروسي محتلا لباريس!

فهزت السيدة «دي شامبليت» كتفيها قليلاً، وبشكل غير ملحوظ.

وكان «نيقولا» يخشى ألا يستطيع المحافظة عى هدوئه وبرودة أعصابه حتى النهاية، ومع ذلك فقد استأنفت الكلام:

إني رجل عسكري، يا سيدتي، ولست أنا الذي قررت المجيء إلى فرنسا ولست أنا الذي أقرر متى أغادرها. وعلاوة على ذلك فلو لم يهاجم نابليون بلادنا، لِمَ كنا حملنا السلاح أبداً ضد بلادكم..

فقالت:

- أوافقك على ذلك، بل وأدرك أيضاً أنّ علينا أن نتحملكم، لأنّ هذا الأمر هو نتيجة الانكسار والهزيمة، ولكن لا تطلبوا منا، زيادة على ذلك أن نكون ودودين، وأن نعاملكم بلطف!

- ولكن، من حسن حظ فرنسا أنّ هنالك كثيراً من الناس يختلفون عنك في تفكيرهم!

- هؤلاء الذين يعاشرونكم ليسوا من الناس الذين يستطيعون إقناعي بآرائهم وتصرفاتهم!

- وهل هذا هو رأي السيد والدك؟

- والدي رجل مسن، وقد ظل وفياً للتقاليد ومتمسكاً بها، وبالنسبة له، لا شيء يحسب له حساباً، في هذه الحرب التي خسرناها، سوى عودة الملك، ويتناسى كل شيء ما عدا هذا!

وترددت لحظة، ثم غمغمت:

- إنه يسبب لي الخجل!

وفجأة، شعر «نيقولا» بالشفقة على السيدة «دي شامبليت». فبعد أن تغلب عليها، أخذ يأسف لما وجهه لها من ضربات، وأصبح تقريباً يتمنى مصالحتها، وإن كان بصورة مؤقتة، وهذه المعركة الكلامية، بدلاً من أن تباعد بينهما، فقد بدا له أنها أوجدت بينه وبينها احتراماً متبادلا في عدم التفاهم، ومودة عبر الخلاف. وقال أخيراً:

- سيدتي، إني أتقبل أن تكرهيني بسبب البزة العسكرية التي أرتديها، والبلاد التي أتيت منها، والقتلى الذين تبكينهم.

ولكن إذا كان يجب على الفرد أن ينصهر ويذوب في الأمة أثناء الحرب، وأن يتبع دون تبصر وعلى العمياء رؤساءه، أليست أولى حسنات السلم أن يستعيد كل فرد طريقة عيشه التي يفضلها، ومبررات وجوده الخاصة به؟ وعندما كنت أقاتل، كان الفرنسيون، دون تمييز أو استثناء، يبدون لي، كعرق من البشر أعداء لنا أما الآن، فإني لا أرى بينهم سوى رجال ونساء وأطفال مماثلين تماماً لأولئك الذين تركتهم وراء ظهري، في روسيا، لا أفضل ولا أسوأ منهم..

وتوقف، لكي يرى تأثير حديثه على وجه السيدة «دي شامبليت» التي لم يبدر منها ما يدل على التأثر أو الاعتراض على ما قال، كان رأسها منتصباً فوق عنقها الطويل، وفمها منفرجاً قليلاً، تتنفّس بصعوبة، وقد شردت نظراتها بعيداً.

واستأنف حديثه، قائلاً:

- هذا التحول، آمل أن تعرفيه عما قريب، أنت أيضاً.

وعلاوة على ذلك، فإني إما أن أكون مخطئاً جداً، أو أن كتب السيد «شامبليت» تدعو إلى الأخوة والتآخي بين الشعوب..

فقطبت المرأة حاجبيها واحمر وجهها، وقالت بصوت مخنوق:

- دعك من هذا، أيها السيد

- لا يمكنك أن تنقمي علي إذا قدرت أعمال زوجك حق قدرها!

- أرجوك ألا تحدثني عنها أبداً، وهذا كل ما هنالك!

فقال «نيقولا»:

- إني آسف لذلك يا سيدتي، علي إذن ألا أعتمد إلا على نفسي لكي أقنعك.

- بماذا؟

- بأني لست غولاً! والضابط الروسي الذي تكرهين، هو في العشرين من عمره، له أب وأخت يقيمان في منزل ريفي قديم، على بعد ألفين وخمسمائة كيلومتر من هنا، وهو يحبهما وقد انقطعت أخبارهما عنه منذ زمن طويل. وهو يأمل عندما يعود إلى بلاده أن يتمتع بهواياته ومسراته الهادئة والمسالمة كالمطالعة، الصيد البري وصيد السمك، والتنزه في الغابة..

وكان قد اقترب من خزانة الكتب، وهو يتكلم، لكي يضع الكتب التي كانت معه في مكانها على الرف في تلك الخزانة، وعندما التفت، كانت السيدة «دي شامبليت» قد غادرت الغرفة.

٦

يوم الاثنين، الثاني من (أيار- مايو) عندما وصل «نيقولا» إلى الثكنة، وجد رفاقه حائرين واجمين: مجاملةً لـ «لويس الثامن عشر» فقد أصدر الجنرال «دي ساكين» حاكم باريس العسكري، أمراً بأنّ أي بزة عسكرية من الجيوش المتحالفة لن تظهر في الشوارع طوال اليوم التالي، يوم دخول الملك إلى العاصمة، فالعناصر سوف تحتجز في ثكناتها، أما الضباط فعليهم أن يبقوا في المساكن التي خصصت لهم، وكل قائد وحده، عليه أن يتابع، شخصياً تنفيذ التعليمات التي يتلقاها، بكل دقّة.

وبالنسبة لأكثرية رفاق «نيقولا» من الضباط، لم يكن لهذا الإجراء سوى بعض الأضرار والمساوىء الثانوية، أما بالنسبة له، فكان عبارة عن انهيار برج عالٍ جداً، وفي أعلاه تقف «دلفين»، وقرأ، وقلبه يقرع بشدة، من الغيظ، عشر مرات الأمر السخيف المعلن على باب المكتب، ولو أنه كان هنالك مؤامرة ضدّ حبه ومشروعه الغرامي قد حاكها جميع قادة جيوش الاحتلال، لما جعلته يثور ويغضب أكثر مما فعل. فكيف يمكنه أن يخبر «دلفين» بما حصل؟ وكيف يشرح لها ذلك؟ وكيف يستطيع أن يحصل منها على موعد آخر؟ وفي غمرة يأسه، وزع على جنوده بعض العقوبات التي لم يستحقوها، دون أن يتوصل إلى تعزية نفسه بأنه هو نفسه ضحية عقوبة ظالمة. وعندما رآه رفيقه «هيبوليت روزنيكوف» ولاحظ انفعاله وعصبيته جذبه جانباً وسأله عن سبب استيائه وغضبه. فروى له «نيقولا» كل شيء، عند ذلك انفجر رفيقه ضاحكاً:

- أليس هنالك سوى هذا؟ ولكن، يا عزيزي، أنت لا تتمتع بالتصور وسعة الخيال! لقد منعت من التجول في الشوارع ببزتك العسكرية، ليكن ذلك! ولكن إذا ارتديت ثياباً مدنية فلن يقول لك أحد أيّ شيء.

فتمتم «نيقولا»:

- أنا ارتدي ثياباً مدنية؟ وانتابه شعور بالعار، كما لو أنّ «روزنيكوف» قد اقترح عليه أن يفر من الجيش.

فردّ عليه. هذا الأخير:

- قسماً! لن تكون أول ولا آخر من يفعل ذلك! وهذه إحدى مزايا الإقامة في منازل السكان: فليس هنالك أي رقابة!

لقد اشترى «تومانسكي» بالأمس مجموعة كبيرة من الملابس المدنية، لكي يستطيع التجول بحرية في شوارع المدينة. و «اتوشاكوف» أيضاً، فعل مثله. وقد دلني هذا الأخير على مخزن جيد جداً تباع فيه ملابس مناسبة ورخيصة، أتريد عنوانه؟

فقال «نيقولا» بحدة»

- كلا!

كان يخشى من أن ينساق في طريق يؤدي إلى صفقة شيطانية.

فبدرت من رفيقه الذي كان يحاول إغراءه، ابتسامة خفيفة:

- وأي خطورة في ذلك؟ إنه لأمر جيد، على الدوام أن يحصل المرء على جميع المعلومات التي قد يحتاجها.

والمخزن موجود في أول شارع «سان ميّري»، «ويدعى: «من أجل سعادة أصحاب محافظ النقود الصغيرة»، هل ستظل متذكراً هذا العنوان؟

فأحنى «نيقولا» رأسه. لقد وقع خياره على أمر، ولكنه لم يكن قد وافق عليه نهائياً، كان ما يزال يعاني من صراع داخلي.

كانت الساعة قد بلغت الخامسة بعد الظهر، عندما وصل، والمخاوف تتنابه، إلى المخزن الذي دله عليه زميله. وقبل أن يجتاز عتبة المخزن، ألقى حوله نظرة تنم عن القلق، كما لو أنه كان يخشى من أن يفاجئه أحد وهو يدخل إلى مكان مشبوه وسيء السمعة. وصاحب المحل، الذي كان بديناً وبشوشاً، لم يدهش أبداً من أنّ ضابطاً روسياً قد أتى ليطلب منه ملابس مدنية تناسب جسمه. ويكاد المرء يجزم أنّ جميع ضباط جيش الاحتلال لم يكن لهم أي متعهد يقدم لهم هذه الملابس، سواه. وعبر تحية من هنا، وانحناءة من هناك، اقتاد «نيقولا» إلى آخر المخزن، حيث عُلقت عشرات الملابس المتنوعة بقماشها وألوانها. وعلى حدّ قول البائع، فإنّ هذه الملابس «الرخيصة» هي جديدة تقريباً، وعلى أي حال، فقد نظفت وكويت، بعد أن أتته من أناس متانقين، متغندرين ومهووسين بتبديل الملابس بسرعة وعلى الدوام، ومن بعض السادة النبلاء الذين حل بهم الإفلاس، ومن أبناء بعض العائلات، الذين امتنع ذووهم عن إعطائهم ما يحتاجونه لتأمين معيشتهم.

وقال التاجر:

- انا لا أعرض هذه الملابس إلا على الخبراء الذين يعرفون قيمتها، ولا شك أنك ستدهش إذا علمت أني كثيراً ما أبيع منها لرجال السياسة ورجال المال والأعمال، ولبعض الأجانب المشهورين، وإلى الممثلين الذين يعملون في دار الأوبيرا والمسرح الفرنسي. وبالنسبة لك فإني أرى أن تأخذ ملابسك. من اللون البني أو الرمادي الداكن، مع صدارة مقلمة يميل لونها إلى الأخضر الفاتح أو إلى الأصفر الصيني الغامق.

وجذب ستارة لتحجب «نيقولا» وينفرد وحده أمام المرآة، وتركه ليخلع ملابسه، وعاد وذراعاه مثقلان بالملابس. وبعد أن ارتدى «نيقولا» بسرعة الملابس الرمادية ووضع ربطة العنق البيضاء، وأحاطت بصدره الصدارة

الحريرية الخضراء المقصبة، أخذ يحملق بتلك الصورة الطارئة والتي لم يكن يتوقعها لمظهره. حقاً لقد كانت الملابس غير منسجمة تماماً مع جسمه ومنفرجه عند بطنه، ولكن التاجر ضمّ القماش من الخلف، فتق جانباً من الخياطة، وألغى طيةً، وبدا اللباس جاهزاً. ومع ذلك فقد أتى خياط أحدب، وأخذ الطقم إلى القسم الخلفي من المخزن لكي يثبت الإصلاحات التي أجريت عليه. وبعد أن انتظر «نيقولا» نحو ساعة، استطاع أخيراً أن يحكم على النتيجة. وفي غضون ذلك، كان التاجر قد باعه قبعة مصنوعة من جلد القندس، عصا من النوع الأنيق، حذاءً ظريفاً ومنديلين من القماش القطني الرقيق (الباتستة). وأمام هذا «الزبون» الذي باعه التاجر كل ما يحتاجه من ملابس، من رأسه حتى أخمص قدميه، وقف هذا التاجر وقد ضم يديه، وأخذ يؤكد له انّ هذه الملابس هي أفضل ما عنده، وأنها تحفة رائعة. وعلى الرغم من توسلاته له لكي يبقى مرتدياً إياها، فقد خلعها «نيقولا» وارتدى بزته العسكرية لكي يعود إلى المنزل. ولأنه كان يحمل رزمة ضخمة تحت إبطه، فقد تحاشى المرور في الشوارع التي يكثر فيها المارّة.

☆☆☆

كانت لحظة محرجة، بالنسبة لـ نيقولا، تلك التي كان عليه، في صباح الثالث من أيار (مايو) أن يجابه نظرات «أنتيب» الناقدة، الذي صاح، قائلاً: عندما رآه في ملابسه الجديدة:

- فرنسي حقيقي إلى أين تذهب، وأنت هكذا بهذا الهندام، يا سيدي؟

- هذا لا يعنيك!

- ولكن، ألا تعلم، يا سيدي، إننا، نحن الروس، قد حظر علينا الخروج اليوم؟

- نعم.

- وإذا عرفك أحد ما؟!..

- لن يعرفني أحد!

- فحوّل الوصيف نظراته، وقال:

- أتوسل إلى الرب أن يلقي حجاباً على أعين الناس الشرفاء!

كان قد حان موعد الذهاب، فتناول «أنتيب» الفرشاة ونظف ثياب سيده، ثم باركه راسماً، كيفما اتفق، إشارة الصليب حوله، ورافقه إلى خارج الغرفة.

لم يكن «نيقولا» قد رأى السيدة «دي شامبليت» بعد الحديث الذي دار بينهما في المكتبة، وخشي أن يلتقي بها وهو يرتدي هذه الملابس، عند منعطف الممر، والحقيقة هي أنه لم يكن لديه أي دافع لنيل تقدير هذه المرأة، ولكنه كان ينزعج لو أنه شعر بتراجعه أمامها. والحال هي أنه وقد تخلى عن بزته العسكرية، كان يشعر أنه قد تشوّه وأصابه عيب شديد.

ومن يدري فيما إذا كانت «دلفين» نفسها لن تستغرب وتصاب بخيبة أمل، عندما يبدو أمامها بهذه الملابس المبتذلة؟ واجتاز الباحة، بلا عائق، وانضم بجرأة إلى حركة وجلبة الشارع.

وكان لديه انطباع وهو يمشي بين الناس الذين يُعدونه أحد ابناء وطنهم، أنه قد تغير، ولم يعد هو «نيقولا» بالذات، كان جسمه يتحرك بيسر وسهولة في هذه الملابس اللينة. وتغطي رأسه قبعة خفيفة بشكل غير واقعي. وقدماه سريعان كأن لهما أجنحة. وفخذه الأيسر يستغرب عدم شعوره، عند كل خطوة، باحتكاك غمد السيف. ولكن هذه الرفاهية بالذات، كانت تقلق «نيقولا»: ألم يخن الجيش والقيصر، ليسرع للقاء امرأة؟ ألم يضحِ بالانضباط في سبيل المتعة؟ وبالشرف من أجل الحب؟ كل هذا أو ما يقرب منه؟ فهل ستدرك «دلفين» عن أي شيء تخلى، وتقدّر مدى تضحيته؟

ولأنه كان يخشى أن يصل متأخراً، فقد سرّ كثيراً عندما وجد عربة متوقفة قرب رصيف «اورسي».

بجانب وزارة الخارجية. كانت العربة قديمة. غطاؤها وسخ ومائل إلى الخلف، وفي مقدمتها كدن حصان هزيل، وعلى مقعدها قبع السائق الذي يناهز عمره المئة سنة، ومع ذلك فقد أخذ يقسم بأنه سينطلق بعربته كالصاعقة.

وسارت العربة بسرعة. ولم تكد العجلات تدور بضع دورات، حتى التفت السائق نحو «نيقولا» وقال:

- من دواعي سرورنا، أننا لم نعد نرى أحداً منهم في الشارع!

فسأله «نيقولا»:

- عمن تتحدث؟

- عن كل أولئك الموجودين هنا، والذين يجب أن يكونوا في مكان آخر، أكلة شحم أمعاء الماشية، وسارقو الدجاج:

«القوزاق»، «البروسيون» و «النمساويون»، فأنا أعتبرهم من طينة واحدة! أليس هذا صحيحاً، يا سيدي؟

فبدت الشتيمة لـ نيقولا أكثر قوة، لأنها غير متعمدة. وكانت عقوبته على خلعه بزته العسكرية هي عدم تمكّنه من الردّ على من يشتمون الجيش في حضوره ألم يكن هنالك إذن أي شيء في هيئته، في سيماء وجهه، يمكن أن يميزه عن بقية السكان؟

- إني أراهن أنك ذاهب لمشاهدة الموكب، هذا ما قاله أخيراً، سائق العربة.

فقال «نيقولا»:

- فعلاً، هذا صحيح!

- سيكون المشهد جميلا جداً، لقد رفعت الرايات واللافتات في كل مكان. وأنا، من جهتي: «ملك، أو بلا ملك، فالأمر سيّان،

إنـي أؤيـد الـسلام، الحـوار، وحـسن المعاشـرة، والفرنـسيون
سوف يتفاهمون فيما بينهم، على الدوام!»

وكان لا يزال يتكلّم، عندما أمره بالتوقف في شارع «ساندونيس» بعض رجال الحرس الوطني الذين كانوا يضعون الشارة البيضاء على قبعاتهم:

«يمنع على العربات أن تتابع سيرها من هنا!» فدفع «نيقولا» للسائق أجرته وتابع طريقه سيراً على الأقدام، بين جمهور يرتدي جميع أفراده ملابس العيد.

وفي الساعة الحادية عشرة بالضبط، كان يقرع باب منزل السيدة «ادريين بولي» الخياطة التي تقيم في الطابق الثالث من منزل تفوح فيه رائحة زهرة القنبيط. ويبدو أن المرأة البدينة التي فتحت له الباب كانت قد أُخبرت بزيارته، لأنها، دون أن توجه إليه أي سؤال، حيته بانحناءة بسيطة، وقالت:

- السيدة لم تأتِ بعد، هلا أردت أن تتبعني..

واجتاز الغرفة التي تعمل فيها الخياطة، ورأى هناك وهو يمشي وراء المرأة، فوضى غريبة من الأقمشة وبكرات الخيطان المتناثرة هنا وهناك، دون أن يكون في الغرفة أحد، ثم سار في ممر ضيق. وقد أزاح كتفه لكي لا يلامس الجدار، ووصل إلى غرفة، جدرانها مغطاة بقماش قرمزي اللون. كان يتوقع أن يجد فيها بعض الأشخاص الذين أتوا مثله لمشاهدة مرور الموكب، وقد فوجيء، بسرور، أنه كان وحده في الغرفة. والأمر الذي كان يلفت النظر في الحال، هو وجود سرير عريض مغطى بستار من الموسلين المطرز، وموضوع فوق منصّه يصعد إليها بواسطة درجتين.

وهناك حاملة مصباح من الطراز المصري مركزة قرب كرسي مدّاد. وعلى مكتب صغير وضعت محبرة على شكل إناء يوناني، وبعض أدوات الكتابة.

وقالت السيدة «أدريين بولي» وهي تشير إلى نافذة مفتوحة في الزاوية التي تقع بين الشارع وجادّة «الشانزيليزيه»:

- ها هي أفضل نافذة في المنزل!

وانسحبت بعد انحناءة ثانية. فأخذ «نيقولا» يتساءل كيف استطاعت خياطة بسيطة أن تزوّد بيتها بهذه المفروشات الغالية الثمن. فليس هنالك أي شك بأن الباريسيات ينفقن كثيراً من النقود على زينتهن وعلى أثاث بيوتهن. ووضع قبعته وعصاه على صوان صغير، ثم نزع قفازيه وأخذ يسرّح شعره أمام مرآةٍ إطارها مزين بصور ملائكة الحب. وكان شعره الأشقر والطويل يغطي أذنيه. فمنذ أن بدأت الحرب، أتبع جميع ضباط الجيش الروسي، الشباب، هذه الطريقة «الأسدية» في تسريح شعرهم والاحتفاظ به. وما كاد «نيقولا» ينتهي من إصلاح زينته ومن تأمل نفسه بإعجاب، حتى فتح الباب من جديد، ودخلت «دلفين»

فصاح بصوت تنم نبرته عن امتنان جنوني:

- آه! أنت؟!

كانت تغطي كتفيها بوشاح من الكشمير وقد أحنت رأسها بحياء تحت قبعة مطرزة بالشرائط، فتبادر إلى ذهن «نيقولا» عندما رآها، أنها تتمتع بإغراءٍ شيطاني يترافق مع رقة وسحر الملائكة. وبينما كان يقبل يديها، رفّ جفناها، وقالت وهي تبتسم بعذوبة:

- كيف تبدو هكذا، أنت، أيها السيد؟!

فشرح لها أسباب تنكره بهذا الزيّ، وشكرته على مخالفته لأوامر رؤسائه ليأتي كي يلتقي بها، وعلاوة على ذلك فهي ترى أن هندامه جيد بهذا الشكل، وكل ما هنالك، هي أنها كانت تتمنى أن يكون لون الصدراة أقلّ زهواً وانفتاحاً، وأضافت:

- سأدلّك على المخزن الذي يشتري منه زوجي ملابسه. فأسف قليلا لكونها تشير إلى البارون «دي شارلاز» في حديثها، ولكن لا شك أن ذلك كان دليلاً على الاضطراب عند امرأة تراودها ذكرى زوجها في ظروف لا علاقة له به..

وقالت بصوت عذب مغرد:

- يا له من طقس رائع!

فقال:

- نعم، إنه فعلاً رائع!

- سيكون وضعنا جيداً، قرب هذه النافذة!

- بالتأكيد.

- إني أسفة لأنّ زوجي لم يستطع مرافقتي!

فبدت هذه الإشارة الثانية إلى السيد «دي شارلاز» أكثر فظاظة وإزعاجاً من الأولى، بالنسبة لنقولا.

فقال وهو يكتم فرحته:

- إن هذا يدعو، بالفعل، للأسف الشديد، وأضاف، بلهجة تنمّ عن عدم الاهتمام:

- هل تعلمين فيما إذا كانت السيدة «بولي» قد دعت أشخاصاً آخرين؟

- لو أنها فعلت ذلك لدهشت كثيراً من تصرفها، فالنافذة لا تتسع إلا لاثنين!

فأدرك أنها غفرت له نهائياً قبلته التي اختلسها منها في العربة، وصاح:

- آه! يا سيدتي، كيف أستطيع ان أشكرك؟

- ليس أنا الذي يحق له أن يشكر، بل الذي يجب أن يقدم له الشكر هو ملكنا الطيب والمحبوب، الذي أتاحت لنا عودته المشمولة بالعناية الإلهية، أن نلتقي هنا. تعال بسرعة، فأنا لا أريد أن يفوتني أبسط مشهد يبدو في الاحتفال!

وجلسا جنباً إلى جنب، قرب النافذة. وكان الشارع يغصّ بالجماهير الصاخبة. وكانت القبعات، وهما ينظران إليها من الأعلى تبدو كسدادات

متعددة الألوان، تتأرجح بحركات بطيئة. وكان رجال الحرس الوطني قد انتظموا في صفين متقابلين على جانبي الجادّة التي سيمر فيها الموكب. وعلى واجهات البيوت علقت الرايات واللافتات البيضاء. وقوس النصر الكائن في ضاحية «سان دونيس» اختفى إلى النصف تحت الكثير من الأعلام، والأغصان الخضراء واللوحات التي تحمل الشعارات وعبارات الترحيب. ومن القوس تدلى تاج ملكي، يستند على أكاليل جدلت بالشرائط وزينت بأزهار الزنبق. وكان صخب الحشود المزدحمة تتخلله أصوات ونداءات باعة المشروبات والسكاكر.

وكانت «دلفين» تتأوه وتقول:

- آه! فليأت! ولا يدعنا ننتظر ونمل!

وعندما راقبها «نيقولا» وعن قرب، لاحظ أنّ على كميها الواسعين ثلاث زهرات زنبق طرزت بخيوط بيضاء، وأن زهرة زنبق أخرى، من الذهب المنقوش تشكل مشبكاً لشعرها، وأنّ المنديل الذي تستعمله كمروحة عبر انفعالها، يحمل هو أيضاً زهرة زنبق في كل زاوية. كانت تبدو متذمرة وقد نفد صبرها، فأمسك يدها وشد عليها برفق، ولكن أي مداعبة لم تكن تلهي المرأة الشابة عن حماستها السياسية. ومع مرور الوقت، كان جو الشارع يزداد ازدحاماً وضجيجاً، وهنا وهناك، كان بعض السادة الأشداء، قبعاتهم مزدانة بريشة بيضاء، ويحملون هراوات، وقد أخذوا يخطبون في الشعب، وكانت أصواتهم تمتزج بألحان «أرغن» صغير متنقل يعزف: لحن: «عاش هنري الرابع!» ودقت إحدى الساعات معلنة الثانية عشرة. وفجأة، سرى في الجو ارتجاج متقطع وقوي: إنه الناقوس الكبير يقرع في مكان بعيد، وتجاوبت معه أجراس كثيرة أقل حجماً وقوة منه.

فصاحت «دلفين» بصوت حاد:

- لقد وصل!

وسـالت مـن عينهـا دمـوع الفـرح. وأخـذ رجـال الحـرس الـوطني يرصـون صفوفهم لكي لا تخترقها الموجات البشرية. وأثناء ذلك، أخذ «نيقولا» يتذكر دخـول الجـيش الروسـي إلى بـاريس، وأعتقـد بأنـه لا يوجـد مـن النـاس اليـوم للترحيب بالملك «لويس الثامن عشر» أكثر مما كان هنا من الناس، قبل ما يقـرب مـن شـهر، لتحيـة الملـوك المتحـالفين. وامتنـع عـن إبـداء هـذه الفكـرة لدلفين، خوفاً من أن يكدرها، وفضلا عن ذلك، فإنها ما كانت لتسمعه، بسبب الضجيج من جهة، ومن جهة أخرى، لأنها كانت منصرفة بكليتها، وملتفتـة نحـو الـضاحية، تنتظـر تجليـاً سماويـاً، أعجوبـة بـل معجـزةً. واسـتغل «نيقولا» وضعها هذا، ليضمها إليه. فلم تخطر لها الفكرة ولم يتح لها الوقت لكي تمتنع أو تدافع عن نفسها. فقد تعالت الأصوات من ألوف الحناجر:

- ها هو!.. ها هو!.. لا تتدافعوا!..

كـان «نيقـولا» وهـو منحن علـى «دلفـين» يستنـشق بنـشوة عارمـة عطرهـا الرائع ورأى كما في الحلم، عربة مكشوفة تجرها ثمانيـة أحصنة بيضاء، تمر تحت قوس النصر، وبدا فيها رجل بدين، بارز الوجنتين، يرتدي معطفاً أزرق اللـون، كتّافيّاتـه مذهبـة، أخـذ يـردّ علـى التحيـة والهتافـات، رافعـاً، بطريقة تنم عن الملل، قبعته الضخمة المثلثة القرون.

وبدت «دلفين» مبتهجة إلى أقصى حدّ، وأخذت تتمتم:

- إنه هو! إنه هو بالضبط! آه! يا إلهي، ما أسعد هذا اليوم! وبجانب مليكنا الطيب، ابنة أخيه، وقبالته أمير كوندي والدوق «دي بوربون»!

فقال «نيقولا»:

- نعم، نعم!

ولامس خدّها بطرف شفتيه، تحت جانب القبعة، المائل واستأنفت الكلام:

- أوه! انظر، انظر بسرعة إلى هذين الفارسين الجميلين اللذين يسيران خبباً بجانبي العربة! هل تعرفهما؟

فأجابها «نيقولا»:

- كلا!

وفي الوقت نفسه طبع لها قبلة عند منبت عنقها.

فهمست بصوت خافت:

- إنهما: الكونت «دارتوا» وابنه الدوق «دي بري».

فقال «نيقولا» وهو يبحث عن فم «دلفين»:

- إنّ مظهرهما زاهٍ.

وانطلق صوتها، مدوّياً، في وجهه:

- عاش الملك!

فاضطرب كما لو أنه تعرض لطلقة مدفع، وابتعد عن المرأة الشابة التي كانت تتلوى وتضرب الأرض بقدميها وتصرخ من فرط سعادتها:

- عاش الملك! عاش امراؤنا!

كانت العربة الملكية تمر تحت النافذة، وخلفها ماريشالات وكبار قادة النظام الإمبراطوري السابق على صهوات جيادهم وقد انضموا، على عجل، إلى النظام الملكي، وجميعهم يحملون على صدورهم وسام جوقة الشرف.

وكان رجال الحرس الوطني يقدمون السلاح. بينما كانت الموسيقا العسكرية تُسمع من بعيد، والأجراس تقرع، والقبعات تتطاير في الهواء، والزهور تنثر. وبحركة خرقاء، قذفت «دلفين» من النافذة منديلها الموشى بأزهار الزنبق، فسقط على قبعة امرأة بدينة ترتدي فستاناً بنفسجياً، دون أن تشعر به لانشغالها بمشاهدة الموكب.

وعبر الضجيج، تجرّأ «نيقولا» وأخذ يتمتم:

- أوه! «دلفين»، يا حبيبتي!

ولكن «دلفين» ظلّت تصرخ:

- عاش الملك! عاش الملك! عاش أمراؤنا!

عندئذ، أخذ «نيقولا» يصرخ، هو أيضاً، وقد أثاره المشهد ودغدغه الحب:

- عاش الملك! عاش أمراؤنا!

و «دلفين» من جهتها، وقد سحرها المشهد استسلمت أخيراً لـ نيقولا، وقدمت له فمها، وأخذا يترنحان سوية مع هتافات الجماهير.

☆☆☆

وفي طريق العودة إلى منزل آل «دو لامبرفو» في نحو الساعة الخامسة مساء، كاد «نيقولا» يرقص في الشارع.

آه! يا لهؤلاء الفرنسيات!.. لكم أحبته «دلفين» وبأي حماسة وأي خبرة! هو الذي كان يتصور أنه لم يعد غرّاً في مجال الحب والمتعة، فقد تجلى له اليوم فقط الكشف عن مفاتن المرأة. وبين عناقين، طلبت منه أن يقص شعره: «لماذا هذا الشعر الكثيف، الطويل، الذي يغطي عنقك وأذنيك، وما جدواه؟ ربما كان هذا الزي دارجاً في روسيا بالنسبة للرجال، ولكنه غير دارج في فرنسا. وستبدو أكثر جمالا لو أتبعت نصيحتي!»

فوعدها أنه في لقائهما المقبل، بعد يومين، ستراه وقد قصّ شعره وسرّحه على الطريقة الفرنسية. ومكان اللقاء، لا بدّ من أن يكون، هذه المرّة أيضاً، في منزل السيدة «أدرييف بولي». وكان «نيقولا» قد لاحظ أنّ «دلفين» كانت تبدو هناك وكأنها في بيتها. حتى أنها، على ما يبدو، تحتفظ ببعض الملابس الداخلية وأدوات الزينة الشخصية، في بعض الأدراج. فهل استأجرت هذه الغرفة في منزل خياطتها لكي تلجأ إليها في علاقاتها السرية؟ ألا يمكن ألا يكون هو، سوى عشيق بين عشاق آخرين، في قائمة

طويلة؟ وقد أزعجه هذا الأفتراض كثيراً، لدرجة أنه فضل عدم التوقف عنده، والكف عن التفكير فيه. وكان لديه إحساس بأنه إذا أراد أن يظل سعيداً مع «دلفين» عليه قبل كل شيء أن يمتنع عن هذه التساؤلات. ولكن، هل يستطيع الاكتفاء بالمتعة الجسدية؟ ألا يبدو أنه سيحشر في هذه القضية، آماله، غيرته وشرفه وحبه للعظمة والسمو وباختصار، أنقى وأطهر ما في روحه؟

وفجأة، أسرع راغباً بالعودة إلى ارتداء بزته العسكرية.

***

أغلق الباب بقوة، فرفعت «صوفيا» رأسها.

وسألتها أمها:

- أيكون هذا أبوك وقد عاد الآن؟

فتمتمت «صوفيا» وهي تضع كتابها جانباً:

- سأرى من القادم.

واقتربت من النافذة. كانت السيدة «دو لامبرفو» جالسة على أريكة كبيرة وأخذت تعمل بسنارتها في حياكة بعض قطع الزينة للموائد والجدران. وهي تحب أن تتابع هذا العمل مساءً في غرفتها، بينما كانت ابنتها تقرأ لها بعض المؤلفات الأدبية، بصوت عالٍ.

وقالت الأم:

- إيه، من هناك؟

فأزاحت «صوفيا» الستارة. كان هنالك رجل يسير في الباحة متجهاً نحو درج باب البيت، وعرفت أنه الملازم الروسي.

ولكن لماذا كان يرتدي الملابس المدنية؟ ولم تكد تلقي على نفسها هذا السؤال، حتى تبادر إلى إنارة ذهنها جواب مؤثر:

بالتأكيد، إنما بسببها ارتدى «نيقولا» الملابس المدنية.

فلا بدّ أنه قد تأثر بالحديث الذي تبادلاه في ذلك المساء، وأنه بعد أن علم أنها تتقبل بصعوبة وجود ضابط أجنبي في منزلهم، قررّ ألا يرتدي البزة العسكرية إلا في أوقات الخدمة. وهذا القدر من المجاملة والتجاوب لدى رجل في مقتبل العمر يدل على طباع نبيلة وخلق كريم، وكانت قد تبينت ذلك من خلال حديثه معها في المكتبة، وقد تأكّدت من ذلك الآن.

وسألتها أمها دون أن ترفع نظرها عن عملها:

- ألا تقولين شيئاً، يا صوفيا؟

فأجابت «صوفيا» بصوت خالٍ من أي نبرة:

- إنه الملازم «أوزاريف».

فتمتمت السيدة «دو لامبرفو»:

- آه!

واسترخت على الأريكة. وكأنها قد أدركها النعاس وظل وجهها مغلقاً لا يبدو عليه أي تأثّر. فهي ترى أنّ من الحكمة عدم التطرّق مع ابنتها إلى موضوع أدّى إلى اختلاف في الرأي بين أفراد الأسرة، قبل ذلك ببضعة ايام. وانتظرت «صوفيا» برهة لتتبين ردود فعل أمها، ثم عندما خيب أملها صمت أمها الذي طال أمده، عادت إلى كرسيها وفتحت كتابها من جديد: كان عنوان الكتاب: «كورين، أو «إيطاليا» بقلم «مدام دي ستايل». وهي وإن كانت تكاد تحفظ ما فيه غيباً الا أنها تحب إعادة قراءاته لاستعادة ذكرى الزمن الذي كانت فيه فتاة يافعة تبكي للمصائب التي حلت بالشاعرة المتحمسة التي هجرها اللورد القاسي «نيلنيل». ومع ذلك، فإنها، هذه المرة، فقدت بسرعة سياق الحديث وتسلسل الأحداث في القصة. كانت تسمع صوتها هي، يدوي في الغرفة دون أن تفهم الجمل التي تقرؤها.

فاللورد «نيلنيل» لم يعد انكلزياً، بل روسياً. كان يرتدي لباساً رمادياً وصدارة خضراء. ودهشت لأنها تذكرت جيداً هذه التفاصيل من هندامه، في حين أنها لم يتح لها سوى الوقت الكافي لتلمح الملازم «أوزاريف» في الباحة. ولحسن الحظ، فإنه لم يرفع نظره نحو نافذة الطابق الأول. لأنها كان يمكن أن تموت خجلا لو أنه لمحها واقفة تنظر إليه عبر زجاج النافذة.

وتوقفت عند إحدى العبارات، فقالت لها أمها:

- ألست متعبة قليلاً، يا «صوفيا»؟

فقالت «صوفيا»:

- إني أعتقد، بخاصة أن هذه الرواية لم يعد لها، بالنسبة لي طابع الجدة، وهي لم تعد تشدني إليها. وسأختار رواية غيرها من المكتبة.

- لا داعي لذلك يا ابنتي، فالوقت متأخر..

- بلى، يا أمي. وسأعود بعد قليل.

وبحركة طبيعية نهضت وخرجت إلى الممر. ولو أنّ أحداً ما سمح لنفسه بأنّ يقول لها، بأنها تستخدم استبدال الكتاب كذريعة لكي ترى الملازم «أوزاريف» مرة أخرى، لكان أثارها بعنف وشدة: فلم يكن هنالك أيّ التباس أو ريبة في نواياها: فهي ذاهبة لتجلب كتاباً، كما فعلت بالأمس، وكما يمكن أن تفعل غداً.. ومع ذلك، فإنها عندما اقتربت من المكتبة، شعرت بأمل غريب يعذبها، وازدوجت في مكانها: كان جانب من ذاتها يكذب على الآخر. ودفعت الباب، كانت الغرفة خالية. وليس هنالك سوى دقات الساعة، عبر الصمت الذي يخيم على المكان. فوضعت «صوفيا» الكتاب على المكتب، واقتربت من النافذة، ثم ألقت نظرة على الحديقة: كانت ظلال الأشجار قد تطاولت. ولون المرجات الصغيرة أصبح أخضر داكناً. ولا أحد يتنزه في المماشي. فلا بد أنّ الملازم «أوزرايف» قد أوى إلى

غرفته. بينما كان وصيفه يدندن أغنية روسية في الجانب المخصص للخدم ولعملهم، في المنزل. و «صوفيا» وقد نسيت لماذا أتت إلى المكتبة، جلست على إحدى الأرائك، وانتابها حزن دون أي سبب معروف.

واكتشفها والداها في هذا الوضع، بعد نصف ساعة.

فقد عاد السيد «دو لامبرفو» من قصر «التويلري» الذي أسرع بالذهاب إليه مع بعض أصدقائه لتحية الملك، عند عودته من كنيسة «نوتردام» وللتأكيد على ولائهم وإخلاصهم له. وكان لديه الكثير من القصص المؤثرة عن الحماسة التي أثارتها عودة الملك، في أوساط الجماهير. وعلى المائدة، أثناء تناول طعام العشاء، قال بأن أملاً كبيراً ينفتح أمام الشعب الفرنسي بفضل حكمة عاهله الملك «لويس الثامن عشر»، وأريحية القيصر. وصوفيا التي كان هذا النوع من الأحاديث يزعجها فيما مضى أخذت بشيء من التسامح، تصغي إليها الآن.

وقال الكونت، وهو يقطع جناح «فروج»:

حتى أولئك الذين أبدوا بعض الريبة والحذر، في بداية الأمر، من قيصر روسيا، تأثروا وخجلوا اليوم، حيال ما أبداه من حلم ورأفة. تأملي، يا صديقتي العزيزة، إنه لكي يجنب ملكنا المحبوب مذلة رؤيته لجنود أجانب يوم دخوله إلى العاصمة، فقد أمر بأن يحتجز جميع جنود الجيوش المتحالفة، في ثكناتهم. وأنا لم التق بأي ضابط روسي، نمساوي أو بروسي. خلال تجولي في باريس..

فغطت غشاوة عيني «صوفيا»، وضعفت يداها، فسندتهما على المائدة إلى جانبي صحنها: هكذا إذن!، لم يكن مجاملة لها قد خلع «نيقولا» بزته العسكرية! فهل كانت على درجة من السذاجة ومن الحمق كي تنسب له نوايا تتسم برقةٍ كهذه؟ وقالت في سرها: «لقد كان انطباعي الأول هو الصحيح»: هذا الرجل لا يخرج عن كونه أحد الأشخاص الروس!»

وبينما كان والداها يثرثران ويتحدثان في موضوعات شديدة البعد عنها، كانت هي تحلم وتفكّر في الفراغ الهائل والمطلق الذي يكتنف حياتها. فمنذ سنتين، عندما توفي زوجها، وهي تعيش في خمول، ذهني وجسدي، يبدو أنّ ليس هنالك أي شيء يمكن أن يشفيها ويخرجها منه. ومع ذلك فإنها لم تكن تشعر نحو السيد «دي شامبليت» إلا بإعجاب قريب من الاحترام. كان قد استمالها إليه بواسطة أفكاره واستبقاها عن طريق معاملته لها برقة ولطف. وعندما فقدته شعرت أنها حرمت من صداقة لا تعوضّ، ولكن دون أن يؤثر ذلك في عاداتها كامرأة. فقد كانت في سرها ممتنّة منه لأنه نادراً ما كان يضاجعها، أو يعاشرها كزوجة. وهكذا فإنها، على الأقل، يمكنها أن تفكر به الآن دون أن تشوب نقاء ذكراه أي شائبة شهوانية أو أي صورة جسدية. وتقول عن نفسها إنها عنيدة، هادئة، باردة، غير قادرة على معرفة عذاب الحب، ولواعجه المحببة لدى الروائيين الذين كانوا يحظون بالإعجاب في ذلك العصر. وهذه الفكرة أقامت الوفاق بينها وبين قدرها، واقتنعت به، وأبحرت، من جديد، على بحيرة من اللامبالاة. وغيّر الخادم الصحون، وجلب كؤوساً من شراب الليمون. وكانت «صوفيا» تضع ملعقتها في الشراب العذب والمثلّج، عندما تعالت بعض الفرقعات. فوضعت السيدة «دو لامبرفو» يدها على صدرها. أما الكونت، فقد ألقى منشفته جانباً، وقال:

- إنها الأسهم النارية، تحيةً للملك! هيا إلى الحديقة فمن هناك نراها بشكل أفضل!

نهضت «صوفيا» وتركت المائدة وتبعت والديها، وعندما لمحت الملازم «أوزاريف»، وهو يسير في الممشى، لم تشعر بالارتعاش، وقالت في سرّها: «إيه! وماذا في ذلك، كنت أتوقع هذا! وهو أمر طبيعي جداً!» كان قد ارتدى بزته العسكرية. واعتبرت ذلك دليلا على الصدق والصراحة.

وأراد والدها أن يقدّم لها الضابط ويعرّفها عليه، ولكنها قالت، بكل وضوح.

- لقد سبق لنا أن تعارفنا.

وفوجيء الوالدان بهذه الفكرة التي أربكتهما وأخذا يتحدثان فيما بينهما. كانت الأسهم النارية تدوي في الجو وتنثر مطراً من الشرارات الصفراء. وخرج جميع الخدم من البيت، فشجّعهم السيد «دو لامبرفو» بعطف على الاقتراب والتقدم في المشى:

- تعالي، يا «مارييت» تعال يا «لوبان»... تعالوا جميعكم، فأنتم لا تستطيعون أن تروا شيئاً، وأنتم في الركن الذي تقفون فيه.. وفرنسا لا تستقبل ملكاً، كل يوم!... فاصطفّ الخدم خلفه، على مسافة كافية للتعبير عن الاحترام. وكانت «صوفيا» تسمعهم يتهامسون:

- ما أجمل هذا المنظرّ يخيل للمرء أنّ نجوماً تتفجر وتقفز في الجو!..

وكان وصيف «نيقولا أوزاريف»، يرسم إشارة الصليب على صدره بعد كل انفجار. يا له من متوحش حقيقي! ألا يرون أنه ينام في الممرّ، على الأرض، أمام باب غرفة سيده؟ ولا بدّ أنّ هذا الأخير نفسه، هو أيضاً عقليته بدائية ومتخلفة حتى يسمح بمثل هذه الممارسات! وأخذت تراقبه خلسة. كان التوهج في الجو يضيء وجهه: كانت تعابيره طفولية ووحشية في آن واحد. وكان يبدو كطفل منذهل أمام إحدى الحرائق، وفي النهاية قرّرت: «إنه من عرق آخر، هذا أمر مؤكد، لا يمكن إنكاره! حتى وإن كان يتكلم بالفرنسية فهو يفكّر بالطريقة الروسية. «ودوّى انفجار قوي جعلها تنتفض. ومن بين الخدم، صرخت امرأة من شدة الخوف الذي انتابها، بينما ضحك بسذاجة، أحد الرجال، قائلاً:

- أوه! هذا أجمل من كلّ ما سبقه!

وفي الأعالي كانت تنفتح مظلّة من النيران، فتلمع انعكاساتها على زجاج النوافذ. وبدت الأشجار مغطاة بدانتيلا سوداء على خلفية كالفجر المتوهج.

وقال الكونت، وهو بادي السرور:

- إنّهم يتقنون عملهم. إني آسف يا سيد «أوزاريف» لعدم تمكّنك من مشاهدة الموكب الملكي..

ولأنّ «نيقولا» الذي كان يقف حائراً، ظلّ صامتاً، فقد قالت» صوفيا»، بصوت رخيم:

- لماذا تظن يا أبي أنّ الملازم قد حرم نفسه من التمتع بذلك المشهد؟

- لأنه، كما سبق لي أن قلت، يا ابنتي، لم يكن لدى أي ممثل للجيوش المتحالفة الحق بأن يظهر اليوم في الشوارع.

فقالت «صوفيا»:

- إنّ أي ضابط، حتى وإن كان روسياً، لن يجد أبداً أي صعوبة في تجنّب الأنظمة والتهرب منها.

فوجّه «نيقولا» نحوها نظرة مشجعة، وقال:

- لديك يا سيدتي موهبة سعة الاطلاع، وبالفعل، فإنّ بعض رفاقي وأنا، كنّا نشعر برغبة شديدة لنعيش تلك الأوقات العظيمة، ولذلك فقد عمدنا إلى ارتداء الملابس المدنية لكي ننضمّ إلى جماهير بني وطنكم. فإذا لامنا رؤوساؤنا على ذلك، فهذا من حقهم، ولكن أيّ فرنسي، وأي فرنسية يمكن أن ينقم علينا بسبب ذلك؟

فقال الكونت:

- أيها السيد، إنّي أهنئك، وآمل أن تكون قد احتفظت بذكرى طيبة لدخول الملك إلى باريس.

فقال «نيقولا»:

- إنها ذكرى رائعة!

كان صوته يرتعش، عرفاناً وامتناناً: كان يفكر بقبلات «دلفين».

وقال السيد «دو لامبرفو»

- اسمح لي أن أبتهج بذلك، باعتباري أحد المواطنين الفرنسيين.

وتبادلا تحية المجاملة. وكانت الأسهم النارية الأخيرة تنفجر مدوّية من جهة جسر «لويس السادس عشر» على شكل باقة ضخمة بيضاء تتخللها نقوش وخيوط بلون الزمرّد والياقوت. وعندما انطفأت تلك الأسهم، وأظلمت السماء، عاد الخدم إلى عملهم.

كان الجو تلك الليلة بارداً، فضمت «صوفيا» وشاحها على كتفيها. وفي تلك اللحظة أخذت تتساءل فيما إذا كانت ستخطر على بال والدها الفكرة السخيفة بدعوة الملازم «أوزاريف» لتناول القهوة معهم في الصالون. ولكنّ السيد «دو لامبرفو» كان أكثر أهتماماً بمشاعر ابنته، السياسية، من أن يبدر منه عرض مثل هذا. وقد اكتفى بالاستناد على ذراع الضابط الروسي لمتابعة السير في الممشى الرئيسي. وسارت «صوفيا» وأمها خلفهما. وكان الحصى يصطك تحت أقدامهم. وقد أخذ الرجلان يتحدّثان بصوت خافت. فماذا يمكن أن يقول كل منهما للآخر؟ وبجانب الكونت الذي كان قصيراً، بدا «نيقولا» طويلا جداً بساقيه الطويلتين، بجذعه المشوق وقامته النحيفة ومنكبيه العريضين اللذين كانا بالكاد يتحركان على إيقاع خطواته. وافترقوا أمام المنزل، فقال «نيقولا»:

- أتمنى لك ليلة سعيدة، يا سيدتي.

كانت لكنة سلافية خفيفة تضفي على أقل ما يتفوه به من الكلام، سحراً وجاذبية. وحاولت «صوفيا» أن تجد كلمات محبّبة لتردّ بها على تحيته، ولكنها كانت، هذه المرة أيضاً كلمات فظة، هي التي بدرت من شفتيها:

- هل للضباط الروس الحق بالتجول غداً في الشوارع؟

فأجابها «نيقولا» بلهجة ساخرة:

- نعم، يا سيدتي، إلا إذا كانت باريس تنتظر ملكاً آخر!

فصاحت «صوفيا»

- لا سمح الله!

كان لديها انطباع أخذ يقوى شيئاً فشيئاً بأنها قد تغيرت ولم تعد هي نفسها بالذات، وأنّ كلامها مزّيف، وأنها تسيء التمثيل.

واستأنفت الكلام:

- إجمالاً، لم تكن قد تركت سوى أربع وعشرين ساعة إلى لويس الثامن عشر، ليتوهّم فيها أنه في بلده وفي بيته! وهذا قليل!

فقال «نيقولا»:

- سنفعل ما هو أفضل من هذا، بعد شهر أو شهرين، وأنا أمل ذلك.

- وكيف سيحصل هذا؟

- بانسحابنا نهائياً من هنا.

فتمتم السيد «دو لامبرفو» وهو يربّت على كتف الشاب:

- كثير من الناس سيأسفون لذهابكم!

وضمّت «صوفيا» أطراف فستانها، وأسرعت عائدة إلى الصالون، تتبعها أمها، وانضم إليهما الكونت، بعد قليل. وظلّ «نيقولا» وحده في الحديقة، فأشعل سيجاراً صغيراً وأخذ يدخّن بلذةٍ، وهو ينظر إلى النجوم.

٧

عندما غادر «نيقولا» صالون المزّين، شعر أنّ رأسه خفيف، وأنّ قبعته أصبحت كبيرة. ولأنّه من عادته أن يبقي شعره طويلاً، فقد أخذ يفكر بحزن بخصلات شعره، الشقراء التي تركها مرمية على البلاط. ألا يبدو مضحكاً بعد أن قص شعره على الطريقة الفرنسية، وانكشف صدغاه، سالفان صغيران على خديه وخصلات قصيرة على جبينه؟ فأوضحت لـ «دلفين» خطأه، وهي ترتمي على صدره، نشوى بالإعجاب:

لقد عمل بنصيحتها، وأصبح أكثر جمالاً وإغراءً، مما كان عليه في السابق، وهو يستحقّ التمتع بكل الملذّات.

وبعد فترة من الوقت، لاحظ أنّ بعض رفاقه اتبعوا الطريقة نفسها في قص شعرهم، واستنتج من ذلك أنهم، هم أيضاً، قد انصاعوا للمطالب وللنصائح النسائية. وفي الحال، أصبح قص الشعر بهذه الطريقة، دليلاً، في أوساط الضباط الروس، لمعرفة من منهم له خليلة فرنسية. و «هيبوليت روزنيكوف» الذي اتّبع هذا الزيّ بدافع حبه لصاحبة محل لبيع الحلوى يقع في شارع «كليري»، كان يقول ضاحكاً إنّ معظم الباريسيات لهنّ عقلية وروح «دليلة»، (التي قصت شعر زوجها «شمشون» الذي كانت تكمن فيه قوته، وسلمته بعد ذلك إلى بني وطنها). وبينما كان يُسرّ «نيقولا» بما يرويه له رفاق في السلاح عن مغامراتهم الظريفة، كان هو يحافظ على سرية مغامرته، لأنه كان يعتقد أنّ ليس هنالك أي وجه للشبه بين العلاقات العادية والمبتذلة التي كان يكتفي بها الآخرون، وبين الحب المشبوب الذي لا مثيل له والذي يشعر به، هو.

كانت خدمته في الثكنة قد أصبحت خفيفة ولا تستغرق وقتاً طويلاً، ولذلك كان يستطيع أن يهرب كل يوم، عند الظهر ليلتقي بدلفين في الغرفة المغطاة نوافذها بالستائر القرمزية.

كانت تنتظره هناك، بكل روعتها وسحرها وفي الموعد بالضبط وهي تنبض بالشهوة والقابلية. وكانت اللذة تبدأ منذ أن يطأ عتبة الباب. كانت هذه المرأة بحاجة شديدة للحب ولممارسته، لدرجة أن «نيقولا» كان يخشى، أحياناً من عدم استطاعته أن يكفيها وأن يشبع رغباتها ويروي غليلها. وبين عناق وآخر كانت تزداد هياجاً ورغبةً. بحيث أنهما لا يكادان يجدان وقتاً للكلام ولتبادل الأحاديث. وكان ذلك يدوم ساعتين وأحياناً ثلاث ساعات، ثم ترتدي «دلفين» ملابسها، وهي يانعة، مورّدة، بريئة ومرتاحة، فتقبل «نيقولا» على جبينه، ثم تذهب مسرعة نحو أحد الاستقبالات التي تقيمها الطبقة الراقية في باريس. فيبقى «نيقولا» جالساً على جانب السرير، مأخوذاً بهذا الحظ السعيد الذي وأتاه، على الرغم من شعوره بضعف في ساقيه. وأخيراً، فقد اقتنع بأنّ «دلفين» تعيش حياة مزدوجة، وأنّ هذه الغرفة هي المكان المعتاد لمواعيدها ولقاءاتها مع من تريد، وأنّ عليه ألا يبدو غيوراً بشأن ماضيها ولا مستقبلها. ومع ذلك فإنه كأنه يأسف لتلك الفترة التي كان لا يكاد يعرفها أثناءها، حيث كانت تخفي رغبتها خلف ستار من السرية والكبرياء. ومنذ اليوم الذي استسلمت له فيه، لم تعد ترى أنّ هنالك أي جدوى من إخفاء طبيعتها الحقيقية. ولكي يواسي نفسه عن كونه يحظى معها بكثير من إشباع الشهوات الجسدية، والقليل جداً من الأحاديث كان «نيقولا» يقول في سرّه إنه لم يكن لديهما الوقت الكافي للتواصل العاطفي وتبادل عبارات الودّ والمحبة. وعند عودته، مساءً إلى منزل الكونت «دو لامبرفو» كان يحصل لديه انطباع بأنه يشعر في آن واحد بالرضى والإشباع وبالخيبة:

فجسمه لم يعد يطلب شيئاً، ولكنّ روحه كانت متعطشة للغزل وللمناجاة الشاعرية.

وذات يوم، تناول مؤلفات «فونتان» (Fontones) من المكتبة، قرأها وأعجب بها، وأعادها ولكن دون أن يلتقي بالسيدة «شامبليت».

فبعد الردود الجافة التي تبادلاها أثناء حفلة الأسهم النارية، لم تعد تبدو، للعيان. وقد أسف «نيقولا» لذلك، لأنه كان يرغب النيل، مرة أخرى من غرور هذه المرأة المتعالية. ومن جهة أخرى، فقد تحدّث عنها، عرضاً إلى «دلفين»، فقالت له هذه وهي تنفجر ضاحكة: «لا يدهشني أبداً، يا حبيبي أن تبدو لك «صوفيا» مقطّبة الحاجبين، منقبضة الأسارير! فهي عاجزة عن إبداء أبسط المشاعر الإنسانية. إنها آلة مفكّرة، متعصّبة لذكائها! ومنذ أن فقدت زوجها وأصبحت أرملة، أخذت تخلط الفلسفة السامية بالسأم الوضيع، والفضيلة الظافرة، بالعجز الفطري. وبيني وبينك، فإنّ مخلوقة كهذه لا ينبغي أن يكون لها الحق بإرتداء الفساتين النسائية. لأنها، بالحقيقة لن تجد من يطلب منها أن تخلعها!» وقد دهش «نيقولا» في الحال، من دقة وصحة هذا النقد. وحيال انبساط أساريره، طلبت منه «دلفين» رأيه كرجل في مثل هذه المسالة، وأجابها بلهجة تنمّ عن الصدق: «بالنسبة لي، حتى لو أني أجبرت على ذلك، فإني لن أستطيع..» وفي الحال، انقضت عليه، وأشبعته بالقبلات، وهي تصيح: «هلاّ سكتّ»؟!

لا يمكن قول ذلك عن أي امرأة! واعتباراً من ذلك اليوم، كثيراً ما كانت تسأله عن أحوال وتطورات علاقاته بـ «صوفيا»، ولأنه لم يكن لديه ما يرويه لها. كانت تبدو خائبة الأمل.

وذات يوم، عندما التقى «بدلفين»، بعد الظهر، دهش عندما لاحظ، أنّ وجهها أكثر حيوية من المعتاد. وأعتقد أنّ ذلك يعود لنفاذ صبرها وتعطشها

للحبّ، ولكنه ما كاد يضمها بين ذراعيه، حتى أفلتت منه، وقالت، بشكل غامض وغريب:

- أصغ اليّ أولاً، يا «نيقولا»: لديّ خبر مهم، سأبلغك إياه! فهمس في أذنها، وهو يقبل يديها:

- أي خبر؟

- سوف تنتقل!

فنهض مندهشاً:

- وكيف يحصل ذلك؟

- على أبسط وجه: ستأتي لتقيم في منزلنا.

فقال، متلعثماً:

- ولكن.. ولكنّ هذا مستحيل!

- ولماذا؟

- زوجك!

- لقد حدثته البارحة عن ذلك: فهو سوف يُسرّ باستقبالك!

ولم يعرف «نيقولا» في بداية الأمر، بماذا يجيب. لأنّ «دلفين» وإن كانت قد عودته على التصرّف بكل حرية، فإنّ جرأة اقتراحها سببت له صدمة قوية. فقد كان الجانب الفروسي والبطولي لديه يتمرد ويثور ضد السهولة في الحب. وكان ينظر إلى خليلته، ويلاحظ على ملامحها تعابير تنم عن الجشع وتكاد تكون مبتذلة، لم يكن قد تبينها فيما مضى. فقال:

- حتى ولو وافق زوجك، فإني لا أستطيع قبول ذلك.. فهذا.. هذا غير معقول، ولا يمكن تصوره أخلاقيّاً!

فقالت «دلفين» بموضوعية:

- لن نفعل شيئاً أكثر ولا أقل مما نفعله هنا.

- ولكن هناك سنفعله تحت سقف بيته!

- يا لها من قضية! هل تظن أنّ زوجي يجهل ماهية علاقتنا وماذا يشكل أحدنا بالنسبة للآخر؟

فصاح، بأعلى صوته:

- هل قلت له ذلك؟

- لقد تبيّن له ذلك في عينيّ.

- وماذا بعد؟

- قرأت في عينيه أنّ ليس لديه شيء ضدّ ذلك..

لقد أحرزت تفوقاً. فمنطقياً، لن يكون ذنب «نيقولا» أشدّ سوءاً فيما إذا التقى بها في منزلها، منه في التقائه بها هنا، لأنّ البارون، في الحالين، موافق على ذلك.

ومع هذا، فقد اعترض، قائلاً:

- كلا، يا «دلفين». كل هذا غير معقول! فكّري بسمعتك! ماذا سيقول أصدقاؤك ومعارفك، إذا أُقمتُ في منزلكم؟

- ألا تقيم في منزل آل «دو لامبرفو» الذين لديهم ابنة في سن يمكن أن يجعلها عرضة للاتهام! ومع ذلك فإنّ لا أحد يستنكر إقامتك في منزلهم! هكذا ردّت «دلفين» بحدّة.

- ليس هنالك مجال للمقارنة: فأنا أقيم في منزل آل «دو لامبرفو» بصفتي ضابط في الجيش الروسي!

- وبنفس الصفة سوف تقيم في منزلنا: إنه مجرد تغيير في العنوان. وبطاقة السكن تغطي كل شيء. وتبدو وكأنك فرضت علينا من قبل السلطات العسكرية. وفيما تبقى، يتعلق الأمر بنا، وينبغي أن نحرص على التكتّم.آه! كم سنكون سعيدين، عندما تصبح كل الأوقات ملكنا، في النهار، كما في الليل!

وبمزيد من الحب، تكوّرت بين ذراعيه، لدرجة أنه تخلّى عن شيء من تصلبه وعناده.

واستأنفت الكلام، بلهجة التوسّل:

- هل من الممكن أن تفضل العيش مع هؤلاء الناس الذين لا يشكلون شيئاً بالنسبة لك، على العيش معي، أنا، التي أتمسك بك بكل قواي؟

اعترف «نيقولا» في سرّه، أنها هنا، على صواب أيضاً فيما قالت: فهو سيقع في تناقض شديد مع نفسه إذا حشر نفسه في منزل لم يعد أصحابه يرغبون بإقامته معهم، في حين أنّ هنالك منزلا آخر يتمنّى أصحابه بحرارة، أن يأتي ليقيم معهم. وبدعوتها له للسكن عندهم، تتيح له «دلفين» مغادرة منزل آل «دو لامبرفو» وهو مرفوع الرأس، وبذلك يمكنه أن يعطي درساً في آداب السلوك لـ صوفيا، وهو أمر ليس أقل جوانب هذا الحل، أهميةٍ بالنسبة له. وأخذ يتصوّر، ماذا سيقول لها، في نهاية الأمر، وفجأة تخلّى عن تردّده، وحزم أمره، وقال، وهو ينحني على «دلفين»:

- اتّفقنا، سأذهب للإقامة عندكم!

فتعلقت بعنقه، وشكرته بقبلة لا نهاية لها.

وعندما تركته، بعد ممارسة الحب، داهمته الوساوس إذ كان لا يزال في قرارة نفسه انطباع بالعار مستقراً هناك. لم يكن مرتاحاً ولا معجباً بنفسه في هذه المغامرة. وقد رافقته إلى شارع «جرونيل» أفكار تجرح زهوه. وبعد أن تناول طعامه أخذ يفكر بأفضل طريقة يلتقي بها بـ صوفيا، ومبدياً بعض الجرأة، أرسل لها بطاقة مع وصيفه: «سيدتي، أكون ممتنّاً لك لو استطعت منحي بضع دقائق من وقتك كي أتحدث معك.. وعاد «أنتيب» حاملاً الجواب:

«أنتظرك في المكتبة».

فذهب إلى هناك فرحاً، وكأنه يقوم بهجوم في مبارزة بالسيوف، تتوقد في ذهنه الرغبة بالاستفزاز، بالتلاقي وبالطعن جيداً وبسرعة. ولكنه عندما رأى وجه «صوفيا» الهادىء. بردت حماسته

سألته، وهي تشير إلى أريكة قريبة من التي تجلس عليها:

- ماذا لديك تريد أن تقوله لي؟

فظلّ واقفاً لكي يبرز بشكل أفضل الطابع العدائي لزيارته، وقال:

- إني سأغادر منزلكم، ايتها السيدة!

فخيّم الصمت، كانت «صوفيا» تفكّر، وأخيراً، فتحت قليلا شفتيها، وقالت:

- هل أخبرت أبي بذلك!

- ليس بعد!

- إني لا أفهم لماذا تبلغني أولاً قراراً، يعني أهلي أكثر مما يعنيني أنا!

فأجاب بحمق، وقد شعر بأنها قد هزمته على أرضه، وفي المعركة التي أثارها، هو نفسه:

- لأني أعلم أنك أكثر استعجالا منهم، لرؤيتي وأنا أذهب!

فقالت، وهي تبدو وكأنها تبذل جهداً:

- حقاً، يمكن أن تكون لديك هذه الفكرة. وهل ستفعل ذلك قريباً؟

- غداً، دون شك.

فتقلّص حاجبا «صوفيا» وبدا في عينيها بريق، ثم تلاشى؛ وتمتمت:

- وهكذا فلن تكونوا قد أقمتم طويلا في باريس، إلى أين يذهب فوجكم؟

- إنه لا يذهب إلى أي مكان، وهو لا يتحرك. أنا الذي... ولم يكمل عبارته. كانت «صوفيا» تتأمله، موجهة له نظرات تنمّ عن العتاب الشديد واللوم المؤلم، وقالت، متلعثمة:

- هل تعني أنك أنت الذي اتّخذت هذا القرار، وأنك بمغادرة منزلنا، أنت لا تنصاع لأوامر رؤسائك؟..

فارتعش «نيقولا» متأثراً بعذوبة هذا الصوت. وفجأة، أخذ يشعر بأنه لم يعد متأكداً بأنه يتصرّف بدقة ودهاء، وكان شعوره بخشونته وعدم لباقته، يزعجه ويضايقه كثيراً، فقال، أخيراً:

- من الأفضل أن أرحل، وأنت تعلمين ذلك جيداً!

فضمّت يديها في باطن فستانها، وأحنت جبينها بشكل لم يعد وجهها سوى مثلث شاحب يعلوه حاجبان أسودان رسما بدقة ووضوح، وكانت وهي منطوية على نفسها تبدو وكأنها تصلي، وأخيراً سألته:

- إنك تفعل ذلك بسببي، أنا، أليس كذلك؟

فأجابها:

- نعم، يا سيدتي!

عند ذلك رفعت رأسها بحدّة وعنف، وبرقت عيناها:

- أيها السيد، أرجوك أن تبقى!

فانتابته دهشة شديدة، وصوفيا، نفسها بدت وكأنها قد فوجئت بما تجاسرت على قوله، وظلّت خلال بضع ثوانٍ تبدو مسمّرة عبر ضوء المصباح الذي لم يكن بعيداً عنها، في موضعه على المكتب، ثم قالت أيضاً، وقد استعادت حيويتها:

- لقد أخطأت بحقك، يا سيدي، وقد بدر مني حيالك تصرف يتسم بالخشونة والرعونة.. ولكن ليس من السهل السيطرة على

بعض المشاعر، بواسطة العقل.. وسأكون حزينة جداً إذا بقيت ناقماً عليّ بسبب الإهانة التي وجهتها لك..

وأبي وأمي سيُعدانني مسؤولة عن رحيلك..

وظلّ صامتاً، وقد داهمه انفعال خانق، لم يدرك آنذاك أسبابه الرئيسية: وسألته:

- وأين تنوي الذهاب؟

كان «نيقولا» يوشك أن يجيبها:

إلى منزل البارون «دي شارلاز» ولكنّ الجملة تجمدّت في حلقه، لأنه شعر بالخجل.

وغمغم، متهرباً من قول الحقيقة:

- لا أدري إلى أين سأذهب. ولكنّ الغرف ليست قليلة العدد في باريس..

واعتباراً من تلك اللحظة أدرك إنه لم يعد يؤمن بأنّ مشروعه ضروري. فهذا المشروع الذي لم تكن لديه الجرأة على إعلانه، لماذا تكون لديه الجرأة على تنفيذه؟

وقالت، وعلى فمها ابتسامة حزينة:

- ألا تريد، حقاً، أن تجلس؟

فغمغم:

- بلى، بلى!

وبعد أن جلس على إحدى الأرائك، أخذ يشعر شيئاً فشيئاً بأنه أقل استعداداً لمغادرة هذا المنزل.

وقالت «صوفيا»:

- ليس لديك أي مبرر لتركنا، فقد تعلّق والداي بك، وأنا، من جهتي كما ترى، فقد استسلمت، وها أنا ألقي السلاح. فلا تجعلني

أبدو آسفة لكوني أقل زهواً، بعد أن كنت قد بالغت بذلك، دون شك، فيما مضى!

كان «نيقولا» يصغي، متأملاً «صوفيا» ويفكّر بإنه إلا إذا كان قاسياً وفظاً، فإنه لا يستطيع أن يرفض لهذه المرأة الجميلة والنبيلة العفو الذي تطلبه. ولكن ماذا يمكنه أن يقول لدلفين، لكي يبرر هذا التبدل؟ وبجرأة مرحة، طرد هذا الهم عن باله.

كلّ أمر له وقته: إذاً، سيتفحص الجانب الآخر من المشكلة.

وتمتمت «صوفيا»:

- إيه؟ إنك لم تجب على سؤالي!

فأجابها «نيقولا» بأعلى صوته:

- بعد أن سمعت ما قلته لي، يا سيدتي، فأنا لم أعد أريد الرحيل، وحسب، بل إني آسف، وخجل جداً، لأني فكرت بذلك.

فأحنت «صوفيا» رأسها. وأمضت عشر دقائق وهي تصارع طباعها، وكأنها تصارع أمواجاً هائجة وعاتية. فهذه، ربما هي المرة الأولى في حياتها، التي تحقق فيها النصر عن طريق الاعتراف بأخطائها. أما لماذ كان بقاء «نيقولا» في المنزل، له كل هذه الأهمية في نظرها، فتفسير ذلك بسيط جداً: فهي سعيدة جداً لأنها صححت خطأ، وأزالت مظلمة.

وبعد أن أصبحت على وفاق مع ضميرها، شعرت أنّ حالتها النفسية قد تحسنت. كان «نيقولا» يتأملها بإعجاب شبيبيّ.

بينما كان يتبادر إلى ذهنها هي: «إني أكبره بسنتين، ياله من فتى!»

وسألته فيما إذا كان لا يزال مسرروراً من إقامته في باريس، وعما إذا كان يشتاق لروسيا ويأسف لمغادرتها. فأجاب بحماسة، بأن لباريس، بالنسبة له، جاذبية وسحراً يزدادان قوةً على الدوام، ولكنه لم يتوصّل بعد، لتكوين فكرة عن «العقلية الفرنسية». وقال:

- عندنا، في روسيا، الناس الذين يبدون في ظاهر الأمر مختلفين جداً عن بعضهم، لديهم مبادئ مشتركة غير قابلة للنقاش. وعندما أفكر ببلادي، أرى روسيا واحدة، رسمت بدقة ووضوح، أمّا عندما أفكر ببلادكم، فأرى ستاً وثلاثين فرنسا تتناقش وتتخاصم فيما بينها، دون أن أعرف أيها من بينها هي فرنسا الحقيقية، ويحتمل أن تكون جميعها. ولكن بالنسبة للشخص الروسي، فمن الصعوبة بمكان أن يتفهّم ذلك وأن يعيشه. وهكذا، فأنت يا سيدتي، يبدو لي أنك تتبنين الرأي الذي يتبناه معظم أبناء وطنك، بينما لو سألتني، أنا ورفاقي في الفوج، عن المشكلات الكبرى، لأجبناك، جميعاً، بالطريقة نفسها، أي بأجوبة متماثلة، وتكاد تكون واحدة!

فسألته، وهي تبتسم من سذاجته:

- وماذا تعني بالمشكلات الكبرى؟

- الدين، الخير والشر، حسّ الحياة، الإيمان بخلود الروح، الطريقة المثلى لحكم الشعوب..

وكان يراقبها بدقة وإلحاح، وهو يتكلم، كما لو أنه أراد أن يعرف فيما إذا كان، على الرغم من تربيته الفرنسية استطاع إفهامها أهمية بعض الكلمات. وأدركت، من جهتها، أنه متلهّف لمعرفتها بشكل أفضل، وقالت:

- أليست ميزة المشكلات الكبرى، هي بالضبط، إثارة النقاشات الحادّة والحماسية؟ فعندما يصبح الجميع متّفقين على فكرة مّا، فإنها تفقد بعض قوتها، تتلاشى وتختفي.

فصاح «نيقولا»:

- كلا، أبداً، وعلى الإطلاق! تأملي الديانة، على سبيل المثال، أليست مدينة بتألقها العجيب لخضوع عدد كبير من المؤمنين يتزايد على الدوام.

فقالت:

- المؤمنون الحقيقيون ليسوا أولئك الذين يؤمنون، بغباوة ودون تبصّر، بل أولئك الذين يتساءلون ويناقشون.

ولولا وجود بعض أصحاب الأذهان القلقة والمتمردة، الذين يعانون ويتألمون وهم يتعبدون. ويصلون ولكنهم يشكّون، إلى جانب القطيع الكبير من أفراد الرعية، الطيعين، لكانت الديانة المسيحية قد أعياها الضجر..

وسألها باهتمام كبير، الأمر الذي جعلها تضطرب:

- هل أنت من أولئك الذين يتساءلون ويشكّون؟

فقالت:

- أوه! كلا!

- ألا تؤمنين بالله؟

- أنا أؤمن بالإنسان.

- إني لا أفهمك. يكفي أن نفكر لحظة لكي نشعر بأنّه يوجد فوقنا قوة عجيبة ترشدنا، تقودنا وتقاضينا على تصرفاتنا..

فقالت «صوفيا»:

- ترشدنا وتقودنا، ربما كان يحصل هذا، ولكن أن تقاضينا وتحاكمنا على تصرفاتنا، فهذا يبدو لي أنه من غير المحتمل أن يحصل.

- وأين الفرق بين الحالتين؟

- إيه! الفرق واضح: فالقيادة والإرشاد نشاط آلي، بينما المحاكمة والمقاضاة، نشاط ذهني. أليس هنالك شيء من العبثية

واللاعقلانية، أن تدّعي، من جهة أنّ العالم يهيمن عليه وجه سماوي، لا يمكن إدراكه أو الوصول إليه، فهو خارق للعادة و «فوق طبيعي»، وأن نريد من جهة أخرى أن نجعل من تصرفاته تفسيراً يرضي عقولنا القاصرة والمسكينة؟

ألا تجدّف وتشتم «ذلك» الذي تضعه فوق كل شيء، عندما تعزو له منطقاً مطابقاً لمنطقنا؟ أولا تظن أنّ الكنيسة قد أنقصت من شأن «اللغز الكبير» عندما أحاطته بأبهّات مسرحية، ألا تعتقد أيضاً أنّ كلّ فرد منا، ينبغي له أن يستطيع الصلاة لله تعالى، على طريقته، وأنّ أجمل المعابد لا يساوي السماء ذات النجوم؟

وهذا الكلام ذكّر «نيقولا» بصفحة كان قد قرأها في كتاب: «الطبيعة، العدالة والضمير». ولكنّ نظريات «شامبليت» المملة ترتدي، عندما تمر عبر فم أرملته، سحراً مثيراً. وكانت حماسة النقاش قد لوّنت خدّي «صوفيا»، وبدت لها غمازتان عند طرفي فمها. وكانت الرغبة بالإقناع تشعّ في عينيها وتجعلها أكثر حدّة وإثارة وهي متحمسة مما كانت عليه وهي هادئة ومرتاحة.

وكان «نيقولا» يتأملها بفضول وكأنها نار ملتهبة، ولا يفكر إلا بإذكاء اللهيب لكي يراه وهو يستعر بمزيد من القوة والشدة، وقال:

- ألاحظ أنك تفكّرين كما كان يفكّر بعض بني وطنك في زمن الثورة.

- أنا لا أنكر هذا!

- أنت أصغر سناً من أن تكوني قد عرفت تلك الفترة التي سادها جنون القتل والجرائم، والعداء للأديان السماوية. ولكن، لا بدّ أن يكون ذووك أو أصدقاؤك قد رووا لك..

وقالت وهي تهز كتفيها قليلاً:

- إنهم لم يقصّروا في ذلك.

- وعلى الرغم من هذا..

- نعم، وعلى الرغم من هذا، فإني أعتقد أنّ أملا ضخماً قد أثار الجنس البشري. أمّا الأخطاء، والجرائم، والأعمال السافلة التي تفكر بها، فإنها لا تعيب المثل الأعلى الذي استخدم كذريعة من أجلها. أنا أكره الجلادين، وأرثي للضحايا، ولكن ألم يكن عجيباً وخارقاً للعادة، إنه منذ أن حدثت تلك المذبحة، لم يعد العالم يستطيع العيش كما كان يعيش في الماضي؟ وإنّ كلمةً، مجرّد كلمة واحدة أخذت تساور الأذهان والضمائر:

ألا وهي: «الحرّية»

فقال «نيقولا»:

- ولكنّ نابليون لم يكن يقيم لها وزناً.

فردّت «صوفيا»:

- وهذا هو الذي أدّى إلى ضياعه. ففي أيامنا هذه، لم يعد يسمح لأحد بأن يصبح طاغية مستبداً. وعلى الشعب بمجموعه أن يشارك بواسطة نوّابه، في صياغة القوانين. ولا يجوز بعد الآن أن يُضحّى بالعدد الكبير من الناس في سبيل مطامع أقلية تتمتع بالحظوة والامتيازات، ولا أن يضطهد الأقوياء الضعفاء، ولا أن يتخذ القادة العسكريون وزعماء الحروب، القرارات التي تتعلق بمصير الأمة، دون أن يستشيروا أحداً..

وشعر «نيقولا» فجأة بالقلق حيال هذه الثورية الجريئة، كانت تتمادى وتذهب بعيداً جداً في مجال الهدم والتخريب: فالعروش تتزعزع، والكنائس تخلو من المصلّين، والطرقات تزدحم بالقرويين الذين يزرعون الرعب بما يحملون من

مناجل ومذاري، كسلاح يهاجمون به الناس. وحاول تهدئه هذه المرأة الشابة، شارحاً لها أن هذا التعطش للحرية، هو مرض غربي، وأنّ في روسيا، على سبيل المثال، الناس كانوا سعداء جداً تحت سيطرة القيصر المطلقة والأبوية.

- حتى القرويّين والفلاحين، أي العبيد الأرقاء؟

هكذا صاحت «صوفيا» مستغربة.

- حتى هؤلاء، فماذا يفعلون باستقلاليتهم؟ إنهم مرتبطون بالأرض ومتعلقون بها، ليس عليهم أي مسؤولية، وبالتالي، فإنهم لا يحملون أي همّ. ومنذ ولادتهم، يعرفون أنهم لا يستطيعون أن يأملوا شيئاً آخر. ولذلك فهم قانعون، لا يتألمون ولا يعانون من أي شيء، وبعد كل هذا، فإنّ التفاوت وعدم المساواة هو أحد قوانين الطبيعة.

- على بني البشر أن يقوموا بإصلاح هذا القانون!

- لقد حاولتم القيام بذلك في فرنسا: فحدثت ورطة كبرى وارتباك شديد!

فهزت «صوفيا» رأسها، بصورة تنم عن الشك: «هذا الرجل متخلف عنها بما يقرب من قرنين، ومع ذلك فهو يبدو طيباً، ذكياً ومنفتحاً.»

وتمتمت:

- إنّ كلا منّا بعيد جداً عن الآخر!

وبدا وكأن هذه الجملة قد حيرّته. فتمتم، هو الآخر:

- كلا، كلا هل رأيت وصيفي «أنتيب»؟ إنه عبد رق مرتبط بشخصي. هل يبدو لك أكثر بؤساً من بوّابكم أو سائسكم وهما مواطنان حرّان؟ والسعادة الشخصية هي مسألة تتعلق بالطباع، بالحظ وبالغرض، بالصحة، بالديانة، ولكنها لا تتعلق أبداً بالسياسة.

فأوشكت أن تغتاظ وتغضب، ولكنه لم يترك لها مجالاً لذلك، وتابع كلامه بصوت حار، مقنع ومطمئن، مشدداً بصورة غير ملحوظة على حروف «الراء» (R):

- إني متأكد، من إنك لو كنت قد عرفت بشكل أفضل حياتنا نحن الروس لوافقت على أنها متعقّله تسودها الألفة والمودة. ولقد خطرت لي فكرة: عليك أن تحضري حفلاً دينياً أورثوذكسياً. والحفل الأكثر مدعاة للتأثر هو القداس الذي يقام كل يوم أحد في «مصلّى» القيصر أي الكنيسة الصغيرة الخاصة به، في قصر «الأليزيه بوربون» ويمكن أن يقبل حضور الأجانب، بناء على دعوة توجّه إليهم..

فقالت «صوفيا»

- في الحقيقة، إني لن أكون هناك في مكاني المناسب!

- لا تظني ذلك، فكثير من الناس المتميزين يلتقون هناك بهذه المناسبة. والجميع متفقون على امتداح الأناشيد والتراتيل الدينية وعلى الإعجاب بها. وستتاح لك ايضاً مشاهدة امبراطورنا..

فهزت رأسها بقوة.

وسألها بلهجة تنمّ عن الحزن:

- ألا ترغبين بذلك؟

ولأنها لزمت الصمت، قال أيضاً:

- إني لا ألحّ على ذلك.. لقد فهمت..

كانت دقات الساعة تعكّر صفو الصمت والسكون. وشعرت «صوفيا» بأنها أمضت زهاء ساعة مع الرجل، وقد أقلقتها فكرة اللقاء به على انفراد. ولا بدّ أنّ والديها لا يزالان في الصالون الصغير، حيث تركتهما.

فماذا سيظنّان بشأن غيابها الطويل؟ ونهضت وهي تنوي تجنب أسئلتهم والتملّص منها.

فصاح «نيقولا»:

- الآن؟ وبهذه السرعة!

كان يبدو وكأنه قد أصيب بخيبة شديدة، لدرجة أنها شعرت برغبة بالضحك، ولكنها تماسكت، وقالت:

- الوقت متأخر!

- ولكن ما زال لدي كثير من الأمور، أريد أن أحدثك عنها، يا سيدتي، يجب أن أراك ثانية، ومن كل بدّ!..

- لدينا الوقت الكافي لذلك، بما أنك لن ترحل، هذا ما قالته وهي تمدّ له يدها.

٨

حاول «نيقولا» عبثاً أن يشرح الأمر لدلفين وأن يقنعها بأنّ السيد «دو لامبرفو» يبدي كثيراً من الأريحية والحماسة لكي يستبقيه، وأنه لذلك، وفي هذه الحالة، لا يستطيع الذهاب للإقامة في منزل آخر، دون أن يُعد جاحداً وناكراً للجميل، ولكنها رفضت أن تسمع مبرّراته وأعذاره، وانزعجت واستاءت كثيراً وقالت له إنها سوف تبلغه عندما تصبح مستعدةً لمقابلته من جديد. وعند سماعه هذه الكلمات، أظهر من الندم أكثر مما كان يشعر به، في حقيقة الأمر، وهذا ما سمح لخليلته أن تغادر الغرفة بكل وقار وعزة نفس. وسمع «نيقولا» حفيف ثوبها وهي تجتاز عتبة الباب، فاندفع مسرعاً خلفها، كي يستوقفها: «دلفين»! دلفين! هذا غير ممكن!.، ولحقها إلى الممر، محاولا أن يثنيها عن الذهاب، ولكنها قالت: «كلا، أيها السيد، عليك أن تنتظر حتى أغفر لك خطيئتك!» ومخاطبتها له بلهجة رسمية وبصيغة الجمع، جعلته يتسمّر في مكانه. وقد خفض ذراعيه، يائساً. وعندما ابتعدت، عاد أدراجه، وجلس على جانب السرير، الذي بقيت أغطيته على حالها لم تُمسّ، وأخذ يهيء نفسه لفترة من البؤس، وحزم أمره على ذلك، فشعر ببعض الارتياح. وعلى أي حال فإنّ النقاش كان أقلّ حدة مما كان يتصور. ويومان أو ثلاثة أيام من الفراق ستكون كافية لتهدئة غيظ «دلفين». وعاد إلى منزل آل «دو لامبرفو»، مرتاح البال.

وهناك حصل له انفعال ثانٍ في ذلك اليوم. إذ إنّ السيد «دو لامبرفو» كان قد أرسل له في غيابه بطاقة دعوة لتناول طعام العشاء، مساء ذلك اليوم نفسه.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يدعى فيها لتناول الطعام على مائدة الكونت، بعد عودة «صوفيا» إلى المنزل. وليس هنالك من شك بأنها هي التي طلبت من والديها أن يوجها له هذه الدعوة، كما كانت قد أرغمتهما فيما مضى على التهرب منه. وقد أعجبته هذه الفكرة وأرضت غروره. فقد كان بحاجة لاستعادة الثقة بنفسه، ولكسب بعض النجاح في مجال الزهو والغرور. وبينما كان يتفقّد هندامه أمام المرآة، أخذ يتساءل عن طبيعة عواطفه ومشاعره، وتبيّن له أنه لا يشعر بأي محبة أوعطف نحو «صوفيا»، ولكنه لن يستطيع أبداً أن ينقاد إلى إزعاجها واغاظتها. وقد سرّه هذا الحل الذي توصل إليه، وأخذ ينتظر، مغتبطاً، الموعد الذي سيذهب فيه للقاء مضيفيه.

كان يظن أنه سيلتقي بعدد كبير من الناس في الصالون، ودهش عندما لم يجد هناك سوى «صوفيا» ووالديها، وقد هيّؤوا له جواً حميمياً من أجل وجبة يتناولونها سويّة، فتأثر لذلك أشد التأثر: تلك المائدة التي أعدّت بكل بساطة، لأربعة أشخاص، ذكرته بمنزل أهله. فبعد عدّة شهور من الحروب ها هو ينعم بحرارة الجو العائلي، وكما لو أنّ السيدة «دو لامبرفو» أرادت أن تزيد من تأثره واضطرابه. عندما أخذت تسأله بلهجة محببة وودّية عن حياته وطريقة عيشه في روسيا. فأخذ يستعيد ذكرياته وهو منقبض الصدر، ويتحدّث عن والده، عن أخته، عن السيد «لوسور» عن جيرانهم في الريف، عن غابة السندر وعن النهر الصغير الذي يكثر فيه السمك، حيث كان يذهب للصيد عندما كان يافعاً وكان يشعر أنّ هذا الحنين لا يتفق مع الروح العسكرية، وأنه يكاد يفقد اعتباره وجاذبيته في نظر «صوفيا» بإبدائه مزيداً من الحساسية ورقة المشاعر. ولكنّ كل ذكرى كانت تجذب وتستدعي الأخرى، وكانت الكلمات تتزاحم في فمه. ومع استمراره في الحديث كان يزداد رغبة بإقناع سامعيه بأنه لم يكن إنساناً مهجراً، متشرداً، يرتدي بزّة عسكرية، بل إن لديه، هو أيضاً، مأوى ومنزل وعائلة

بعيدة ولكنها حية تماماً تذكره وتتمسك به. وكان السيد والسيدة «دو لامبرفو» يصغيان اليه بمودّة وتعاطف، أما «صوفيا»، فكانت تبدو غائبة، شاردة الفكر، وهي تجلس متصلبة على كرسيها، تأكل بهدوء وبأطراف أسنانها دون أن تتفوه بكلمتين، ممّا حمل «نيقولا» على التساؤل فيما إذا كانت، حقاً، هي التي أرادت أن يُدعى إلى هذا العشاء. وفجأة شعر بعجزه عن متابعة حديثه، فصمت وقد فترت همته.

عند ذلك حوّل الكونت الحديث نحو ميدان السياسة: تحضير الميثاق، المفاوضات حول معاهدة الصلح، مناورات «مترنيخ» التي تنمّ عن الكراهية، ردود «ألكسندر الأول» الرائعة التي رفض فيها أن تُجزّأ أو أن تُذلّ فرنسا، وكانت كل هذه الأخبار، إن كانت حقيقية أو كاذبة، تطرق مسامع «نيقولا» دون أن تتوصّل لإثارة اهتمامه: كان يراقب «صوفيا» محاولا أن يجذب نظرتها نحوه. وأثناء تبديل الخدم لبعض أطباق الطعام، التقت نظراتهما، فأحمرّ وجهها قليلاً، وفي تلك اللحظة، قطع صوت «الكونتسية» حبل الصمت:

- هنالك معروف، نريد أن نطلبه، أنا وزوجي، منك، فقد قالت لنا ابنتنا إنّ بإمكانك الحصول على بطاقات دعوة لحضور الحفل الديني الذي يقام في قصر «الأليزيه بوربون».

وأنا أعترف بأنه يُشرفنا، إذا سُمح لنا بهذه المناسبة أن نرى قيصركم، عن قرب!

فظلّ «نيقولا» خلال برهة قصيرة، منذهلاً، حائراً:

لم يكن يعتقد أبداً أنّ «صوفيا» يمكن أن تروي ما يدور من أحاديث بينهما، إلى والديها! وهل كان عليه أن يفهم أنّ الوالدين وحدهما، هما اللذان يرغبان بالذهاب إلى الكنيسة الروسية أم أنه يستطيع أن يأمل أن تكون ابنتهما سوف ترافقهما، بعد أن غيرت رأيها؟

فقال، متلعثماً:

- طبعاً، وبكل سرور، يا سيدتي! منذ الغد سأهتم بهذا الأمر.كم بطاقة دعوة تريدون؟ اثنتين؟

فقالت «الكونتسية»، وهي تبتسم:

- كلا، ثلاثة، أيها السيد، إن لم نكن قد بالغنا بالطلب..

- إطلاقاً!.. إطلاقاً!.. بل على العكس من ذلك!..

كان يشعّ فرحاً، وقد تصاعدت إلى دماغه بهجة عارمة مضطرمة. ومن جديد حاول أن يلتقط نظرات «صوفيا» ليعبر لها، بنظرة عن امتنانه الشديد. ولكنها حتى الانتهاء من تناول الطعام، ظلّت تتجاهل ما كان يريد أن يقوله لها.

***

في صباح اليوم التالي، بعد اجتماع التفقّد، أسرع «نيقولا» في الذهاب ليطلب ثلاث دعوات لحضور قداس يوم الأحد المقبل. وحسب رأي رفاقه في الفوج، فإنّ الأمير «فولكونسكي» رئيس هيئة أركان القيصر، هو الذي ينظّم قائمة بأسماء الشخصيات الأجنبية التي يسمح لها بحضور الحفل ويعطي بطاقات الدخول. وكان «نيقولا» بالحقيقة متأثراً من إزعاج رجل له هذه الأهمية، ولكنّ تذكّره للوعد الذي قطعه لمضيفيه كان يمكن أن يجعله يلجأ إلى من هو أهم منه لو أن الأمر يتطلب ذلك، وأجاب الحاجب، الذي كان في الرواق، عندما سأله عن السبب الذي من أجله يريد مقابلة «صاحب السعادة».

- من أجل قضية شخصية وملحّة.

- صاحب السعادة مشغول جداً.

- سأنتظر، لديّ ما يكفي من الوقت.

- اسمك؟

- «نيقولا ميكايلوفيتش أوزاريف» ملازم في الحرس الليتواني.

فاقتاد الحاجب «نيقولا» إلى صالون مفروش بسجاجيد قديمة، حيث كان بعض المراجعين ينتظرون دورهم. فلاحظ أنّ جميعهم متقدمون في السنّ، على صدورهم كثير من الأوسمة، ويتأبّطون حقائب جلديه. فشعر بينهم بالحرج بسبب صغر سنه. وحالما كان يفتح أحد الأبواب، كان نيقولا يقف بصورة عفوية، وقفة الاستعداد لأن الذي كان يدخل أو يخرج، في معظم الأحيان، هو أحد كبار القادة. وكانت الاجتماعات واللقاءات تتوالى بإيقاع سريع والجرس الفضي يرنّ باستمرار، في المكتب الذي يعمل فيه الأمير.

وفي الحال، يسرع أحد أمناء سره، مجتازاً غرفة الانتظار، وذراعاه مثقلان بالأوراق، أو أنّ بعض المراسلين والسعاة هم الذين كانوا يظهرون ويختفون خلال لحظة لا تستغرق سوى الوقت اللازم لتأدية التحية العسكرية. وعند الظهر، كان الصالون لا يزال يغص بالناس. فخشي «نيقولا» أن يكون قد نُسي وطلب من الحاجب أن يذكّر الأمير «فولكونسكي» به.

فسأله الحاجب:

- ألا تريد، حقاً، أن ترى أحد مساعديه؟ فردّ «نيقولا» بشدّة، معتقداً أنّ هذا الحاجب يريد أن يمنعه من مقابلة الأمير:

- لو كنت أنوي ذلك لما انتظرت ساعتين، لأبلغك رغبتي!

وبعد عشر دقائق، اقتيد إلى غرفة واسعة جداً، والأضواء فيها قوية، لدرجة أنها بهرت نظره. كان الأمير يجلس خلف مكتب مزدان ببرونزيات ضخمة. وبدا وجهه ممتلئاً وورديّ اللون حاجباه أسودان كثيفان، حدقتاه جاحظتان وذقنه ضخمة وعارضاه الكثيفان والأشعثان يحيطان بخدّيه.

وكان انعكاس النور الآتي من إحدى النوافذ يلمع على أعلى جبينه، وقد أمسك ريشة إوزة كانت ترتجف في يده، ودون أن يتوقف عن الكتابة، سأله:

- إيه! ماذا تريد؟

و «نيقولا» الذي تحوّل إلى تمثال، استطاع بصعوبة أن يحرك شفتيه.

فانتهره الأمير:

- ماذا؟ ارفع صوتك!

فكرّر «نيقولا» طلبه، وفجأة تصاعد أمامه عشرون نجماً متلألأً: فقد نهض الأمير «فولكونسكي» بكل قامته، مبرزاً صدره الذي تتلألا عليه الأوسمة، وقد برزت الصاعقة من عينيه، وصرخ بصوت ثاقب:

- أتهزأ بي؟

- كلاّ، يا صاحب السعادة، لقد قيل لي..

- أتعرف جيداً مع من تتكلم؟

- نعم، يا صاحب السعادة..

أنا أعالج هنا مشكلات الدولة، أقود وأنظّم حركة الجيوش. والقيصر ينتظرني بين لحظة وأخرى لأقدّم له تقريراً بهذا الشأن، وتأتي أنت لتزعجني بقصصك المتعلقة بالدعوات لحضور القداس! توجه بطلبك هذا إلى ضابط الخدمات، إلى البواب، إلى الحاجب، إلى أي كان، ولكن ليس لي أنا؟ إنّ هذه وقاحة أيها السيد، وقاحة شديدة! سأصدر أمري باحتجازك على الفور! أعطني سيفك!..

وحيال فورة الغضب الشديدة التي أبداها الأمير، فقد «نيقولا» أنفاسه ولم يستطع أن يلتقطها، وشعر ببرد قارس يهبط على كتفيه، وبيدين مرتجفتين نزع سيفه وقدّمه للأمير، وفي الوقت نفسه كان يفكّر بـ صوفيا بالكونت وبالكونتيسة، الذين سيشعرون بخيبة شديدة! وبدلاً من بطاقات

التكريم، سيحمل لهم نبأ عقوبته! وبدلاً من أن يتاول الأمير السلاح الذي كان «نيقولا» يقدّمه له فوق ذراعيه الممدودين، أخذ يسير في كل الاتجاهات، عبر الغرفة الواسعة.

وأخيراً، صاح به، كما لو أنّ سيف «نيقولا» كان شيئاً قذراً:

- ضع هذا، على المكتب!

وفي تلك اللحظة، قرع أحدهم الباب، فصاح الأمير: «ادخل!»

فدخل أحد أعوانه وأبلغه أنّ «صاحب الجلالة» مستعدّ لاستقباله. فانفرجت أسارير الأمير. شمرّ كميّ بزته، رفع رأسه وتناول عن المكتب إضبارة ملأى بالأوراق. بينما ظلّ «نيقولا» يقف صامتاً في وسط الغرفة، وسيفه بين يديه. وقال الأمير، مزمجراً، وهو يمر بالقرب منه:

- انصرف! ولا تجعلني أراك بعد الآن، أبداً!

وخرج، مسرعاً. فاقتاد أحد الحجّاب الزائر السيء الحظ، وأعاده إلى غرفة الانتظار. وبعد أن نجا «نيقولا» بأعجوبة من العقوبة الانضباطية، أخذ يستردّ روعه، شيئاً فشيئاً.

ولكن ما العمل للحصول على بطاقات الدعوة؟ فهو لا يرضى أن يعود إلى المنزل، فارغ اليدين! لذلك تنازل عن كبريائه واستشار الحاجب بشأن ذلك. فصاح الرجل:

- لماذا لم تقل لي هذا، منذ البداية، يا صاحب السعادة سأصطحبك في الحال إلى مكتب المساعد المكلّف بهذه الأمور!..

- ولكنّ الأمير «فولكونسكي»..

لا بد أنك تعرف جيداً أنه لا يهتم شخصياً بقضية كهذه!..

وأمين سره هو الذي ينظم الجداول ويسلم البطاقات.

كان «نيقولا» موزع المشاعر بين الفرحة بالتوصل إلى الهدف، والخجل من كونه تصرف بمثل تلك السذاجة، والمساعد الذي استقبله في غرفة لا

زينة فيها ولا سجاد، ويجلس وراء مكتب صغير وبسيط، لم يبد أي صعوبة في تسجيل أسماء: الكونت، الكونتسية وابنتيهما على لوحة جميلة من الورق المقوى الأبيض، المزدانة بالشعار القيصري.

وقال المساعد وهو يسلّم بطاقات الدعوة لـ نيقولا:

- طبعاً، ستكون مسؤولا أمامي عن صحة وحقيقة كرامة وشرف هؤلاء الأشخاص.

فقال له «نيقولا» بحماسة واضحة:

- سأكون مسؤولاً عن ذلك، لقاء روحي، ولقاء حياتي!

فابتسم المساعد، ورفع يده بهدوء، وكأنه يعني بإشارته، أنه لا يطلب منه كل هذا.

***

قبل ساعة من موعد بداية الاحتفال الديني، كان «نيقولا» بملابس العرض الزاهية، موجوداً في قصر «الأليزية - بوربون». حيث حُوّل أجمل صالوناته إلى «مصلّى» أي إلى كنيسة صغيرة أرثوذكسية، ولكنّ الأبواب كانت لا تزال مغلقة.

وكان هنالك جمهرة من الضباط، ومن رجال الحاشية يتزاحمون في الرواق المؤدّي إلى المعبد. وعلى تموّج البزّات العسكرية الرسمية الخضراء، الزرقاء، البيضاء، والحمراء، كانت تتلألأ الكتافيات المذهّبة الكثيرة. وكل ياقة مطرزة كانت تضم عنق رجل مشهور، وكل صدر مغطى بالأوسمة، يشكل كتاباً لتاريخ من المجد. وكانت بعض النسوة المتأنقات قد جمعن حولهن بعض ملازمي الحرس. بينما أخذ بعض الدبلوماسيين يتهامسون فيما بينهم قرب إحدى النوافذ. وكانت روائح العطور والبخور تفوح في الجو. و «نيقولا» الذي وجد نفسه تائهاً وكالضائع بين كل

«أصحاب السعادة» هؤلاء، أخذ يتسلّل بين بعض المجموعات، ثم ينسحب، ويحيي البعض، منتظراً بفارغ الصبر اللحظة التي ستظهر فيها «صوفيا» ووالداها. وكانوا قد وعدوه بأنهم لن يتأخروا في الحضور. وإذا وصلوا بعد وصول القيصر، فلن يسمح لهم بالدخول إلى الكنيسة. وبينما هو في ذروة خوفه، شعر فجأة بفرح شديد، لأنّ أمنيته قد تحققت: فها هو الكونت، الكونتيسة وابنتهما، يتقدمون في الرواق، وعيونهم تبحث عنه. وكم كانت «صوفيا» جميلة، في فستانها الذي يحمل شيئاً من طابع الحداد، والمصنوع من التّفتة الحريرية، بلونها البنفسجي الفاتح، ومزين بتطريزات دقيقة سوداء! وعلى عنقها الطويل، الناعم واللّدن، كان رأسها الصغير ينحني قليلاً، متوجاً بالزهور والشرائط، وفوقها غلالة رقيقة من «الموسلين» رمادية اللون وحلق مرصعة بالأحجار الكريمة، مدلاة من أذنيها، ترتعش وتلامس خديها عند كل حركة تبدر منها. كانت تتحلى بنظرة العذراء البيزنطية، التي تتصف بالعذوبة والغموض. ومن حولها تصاعدت موجة من عبارات المديح والإعجاب، وسمع «نيقولا» بوضوح بعضاً منها:

- إنها فاتنة!.. رائعة.. أنمساوية هي؟.. أم فرنسية؟... أتعرف اسمها؟.. من الذي دعاها؟..

فشعر بزهو جنوني، وترك الآخرين، وأمام جميع تلك الشخصيات المرموقة التي لم تكن تصدّق ما تراه عيونها، تقدم هو الذي لا يعد وكونه مجرد ملازم في الحرس الليتواني، واستقبل بتحية حارة أجمل امرأة بين النساء الموجودات هناك، وكان يفكّر بأنّ لا بدّ من أن يكون كل منهم يحسده ويتساءل إلى أيّ حدّ تصل علاقته بها وإلى أيّ مدى تبلغ سيطرته عليها.

وشعر بفرح شديد يفوق فرحه بترفيعه إلى رتبة أعلى في الجيش. وعندما انتبه، قرأ على وجه «صوفيا» تأثرها الشديد من تواجدها بين هذا العدد الكبير من الناس.

فلا شك أنها، على النقيض من دلفين لا تميل كثيراً إلى الاختلاط بالناس ومعاشرتهم. وكان «نيقولا» ممتناً منها لهذه الانعزالية وإن كانت تنم عن بعض الجفاء نحو المجتمع. وبالمقابل، كان الكونت والكونتيسة يبدوان في جوّهما المعتاد، وأخذا يطلبان من «نيقولا» أن يذكر لهما أسماء أهمّ الشخصيات الموجودة.

ودون أن يكون هو ذلك الخبير الذي يعرف الجميع، فقد استطاع أن يذكر لهم اسم الماريشال «باركلي دي تولي»، الجنرال «ديساكين» الكونت «بلاتوف» زعيم إحدى مناطق القوزاق، الأمير «لوبوخين» مرافق القيصر. وفجأة، حبس أنفاسه عندما فتح باب الصالون على مصراعيه، وبدا تلألؤ الأيقونات والأضواء التي تشع من الشموع الكثيرة المشتعلة. وتوقفت الأحاديث، وأنحنت الرؤوس، وأخذ الحشد يتحرك.

فهمس الكونت في أذن «نيقولا»:

- من هو هذا الشخص الذي يقف على عتبة الباب، وشعر بالاضطراب: إنه الأمير «فولكونسكي» الذي يقف، شخصياً، عند مدخل الكنيسة، لكي يستقبل المدعوّين. وبناءً على تعليماته، كانت جميع السيدات تجتمع إلى يسار الممرّ الرئيسي، والسادة يتجمعون إلى يمينه، وكانت طريقته هذه، المحببة في ترتيب الأمور، تدل على أنه خبير في شؤون التشريفات والاحتفالات، ولكنّ «نيقولا» كان يعرف تماماً ماذا يختفي وراء هذه اللباقة وخلف هذا التهذيب: فما زالت صرخته المخيفة تدوّي في أذنيه:

«لا تدعني أراك بعد الآن، أبداً!» وتبادر إلى ذهنه العقوبة: «لو عرفني الكونت لوقعت في ورطة كبيرة...! الفضيحة، السيف الذي سأسلّمه أمام جميع هؤلاء الناس...» فهمس في أذن الكونت:

- إنه رئيس هيئة أركان جيشنا. وهو سيدلّكم على أماكنكم، وأنا سأترككم الآن، وسألحق بكم فيما بعد..

وبتواضع مصطنع، انسحب واختفى وراء مجموعة من القادة، وانتظر حتى دخل جميع المدعوين المرموقين وجلسوا في الكنيسة، وابتعد الأمير «فولكونسكي» عن الباب، وعند ذلك فقط، دخل «نيقولا» بين مجموعة من صغار الضباط في الحرس الليتواني، واندسّ في الصف الأخير بين الحاضرين. ومن مكانه، كان يستطيع أن يلمح، بعيداً، أمامه إلى اليسار بقعة بنفسجية اللون: أنها قبعة «صوفيا».

☆☆☆

وعندما انتهى القدّاس، انتشر جمهور المدعوّين، من جديد في الرواق. والقيصر هو أول من خرج وتبعه رئيس هيئة أركان حربه وبعض كبار القادة. ولأنّ «نيقولا» لم يعد يخشى أن يصيبه شيء من قبل الأمير «فولكونسكي» فقد أسرع لينضمّ إلى «صوفيا» ووالديها.

وهمس إلى «صوفيا»

- كيف وجدته؟

فسألته «صوفيا»:

- من؟

فدهش «نيقولا» من هذا السؤال:

- إيه!.. القيصر، بالطبع!..

كانت تعلم أنه يأمل أن يتلقى منها جواباً حماسياً، ولكنها لم تستطع أن تلبي له هذه الرغبة. فعند مرور القيصر لم تشعر سوى بتأثر عادي وعابر، يعود إلى إشباع الفضول، وقالت:

- إنه جيد جداً!

لم يكن هذا كافياً، فقطّب «نيقولا» حاجبيه، وقال:

- أرى أنك لا ترينه بالنظرة نفسها التي نراه بها نحن!

- ومع ذلك فهو ليس رجلا أسمى، ومثالياً كاملاً.

- إنه في نظر رعاياه، ممثل الله على الأرض.

- وتؤمن بذلك حقاً، أيها السيد؟

فأجاب «نيقولا» ببساطة وهدوء:

- نعم، بالطبع، فأنا لن أكون روسياً، إذا فكرت بطريقة مختلفة.

وهذا التأكيد لو صدر عن شخص آخر. لبدا لـ صوفيا كدليل على بلاهة سياسية، لا حدود لها، لكنها وهي تراقب «نيقولا» كانت، بدلاً من ذلك، مستعدة للرفق به. والاشفاق عليه لسذاجة آرائه.

وكل ما كان يمكن أن يسبب لها صدمة منه، كان يحظي بالمعذرة الناجمة عن كونه أجنبياً، وهذا ما كان يجعلها تعتقد أنّ تلاقي أفكارهما، مهما كان هذا التلاقي نادر الحدوث فهو يبدو استثنائياً.

أمّا السيدة «دو لامبرفو» فقد قالت:

- من جهتي، فقد سحرني! إذ إنّ إمبراطوركم، يتمتع بالحقيقة، بقوام وهيبة وجاذبية، لا يمكن أن تنسى أبداً!

فقال «صوفيا»:

- بالطبع، يا أمي، هذا إذا قارنته مع «لويس الثامن عشر».

وقال الكونت:

- هيا! دعكم من ذلك، فالملوك ليسوا ممثلين عليهم أن يجمعوا وينالوا أصوات وإعجاب الجمهور!..

واندفعوا مع تيار الزائرين فوصلوا بعد قليل إلى باحة القصر، وهناك أتيحت الفرصة لـ نيقولا. مرة أخرى، لتحية بعض الضباط، وكان مسروراً بذلك، ومرتاحاً لرؤيتهم إياه بجانب صوفيا.

كانت عربة الكونت تنتظر في الشارع، فدعا هذا الأخير «نيقولا» لمرافقتهم، وهم في طريقهم إلى المنزل أخذوا يتحدثون عن الاحتفال الديني، الذي خلب لبّ الكونت والكونتيسة، بل وابنتهما أيضاً، وإن كانت أكثر تحفظاً في تقييمها له: كانت معجبة بالزينات والأيقونات، بملابس الكاهن الفخمة، والتراتيل الدينية، التي كانت تردّدها فرقة المنشدين، ولكنها علقت على الاحتفال كما لو كانت تفعل ذلك، في تعليقها على تمثيلية مسرحية. ونسب «نيقولا» عدم الإيمان الخطير هذا، إلى طفولة مضطربة بسبب الثورة، وإلى فترة الشباب التي كرّست وانقضت مع زوج متقدم في السن، متساهل وملحد.

واعتقد «نيقولا» أنّ «صوفيا» كانت ضحية فترة تاريخية، وتربية معيّنة، وزواج غير موفق، ولكنها تتمتع بمعنويات عالية، وبروح طيبة، وكان يشعر برغبة شديدة لمساعدتها ومحاولة إنقاذها مما هي فيه. وبينما هو يهتز قليلا في العربة، أخذ يشعر بالأسف لكون وجود الكونت والكونتيسة، يمنعه من التحدث مع المرأة الشابة بكل صراحة وحرية وبالطريقة التي كان يود أن يتحدث إليها بها. وعندما وصلوا إلى المنزل، انفصل «نيقولا» عن مضيفيه، معبراً لهم عن امتنانه، بينما أخذوا هم يشكرونه على المسرّة التي أتاحها لهم.

بعد ظهر ذلك اليوم، أمضى «نيقولا» وقتاً شعر خلاله بالكآبة والضيق، لم يكن لديه أي عمل، فأخذ يتنزه متسكعاً في المدينة، ثم التقى بزميله «روزنيكوف» فذهبا معاً لتناول كأس في مقهى «القصر الملكي»، ولأنه لم يكن لديه ما يقوله له، فقد أصغى إليه وهو يحدثه عن مشاريعه وطموحاته. و «هيبوليت روزنيكوف» الذي كان فيما مضى بسيطاً في تصرفاته وأساليبه، أخذ يبدي، بعد إقامته في باريس ميلا إلى الأناقة، إلى العناية الفائقة بمظهره الشخصي: فهو الآن يضع زيتاً على شعره القصير

الأسود ليصبح أكثر لمعاناً، يتطيب بالعطور، يصقل أظافره، ويلقي على جميع النساء نظرات ناعمة كالمخمل. ومع أنه ليس جميلاً، فإنّ ثقته بنفسه كانت شديدة، لدرجة أنّ رفاقه أطلقوا عليه لقب: «هيبوليت الجميل». وعلى الرغم من أنه يبدو بهذه الخفّة، فقد كان شديد الاهتمام بعمله، وكانت تسحره وتخلب لبه كتافيات مرافقي كبار القادة. وكان على استعداد لعمل أي شيء من أجل الالتحاق بهيئة أركان الأمير «فولكونسكي». وكثيراً ما قال لـ نيقولا:

- سأتوصل إلى ذلك، وسترى. عن طريق الواسطة والعلاقات الشخصية أو من دونها، لا أهمية لهذا! يجب على أحدنا أن يعرف ماذا يريد، في هذه الحياة، وأنت ما هو هدفك الذي تسعى إلى تحقيقه؟

فيجيبه «نيقولا» بمرارة:

ليس لي أي هدف!

وعاد إلى شارع «جرونيل» الساعة الثامنة مساءً، دون أن يكون قد تناول طعام العشاء. فاقترح عليه «أنتيب» أن يقدم له شيئاً من اللحوم الباردة، الجاهزة عادة على الدوام فرفض ذلك بازدراء. لم يكن جائعاً وكان منقبض الصدر. وعبر - الباب - النافذة، لغرفته كان يدخل الأريج المنتشر في الحديقة التي يكتنفها الظلام. وفي طرفها الأخير، قرب الحاجز، تنتصب بقعة شاحبة بين مجموعتين من نباتات الزينة الداكنة.

انه تمثال «آلهة الحب». فابتسم «نيقولا» لهذا الرفيق والأنيس القديم لوحدته، وسار في الطريق، متحاشياً أن تحدث خطواته على الحصى أيّ صوت.

وعندما وصل إلى القرب من التمثال، جلس على مقعد حجري وأخذ يتأمل المنزل. كانت نوافذ غرفة الطعام ما تزال مضيئة.

ثم لمع ضوء عبر نوافذ الصالون، وآخر عبر نافذة المكتبة. فهل ذهبت «صوفيا» إلى هناك لتأخذ كتاباً؟، تبادرت إلى ذهن «نيقولا» الفكرة الخرقاء باللحاق بها إلى هناك. ولكنّ نافذة أخرى كانت قد أضيئت في الطابق الأول: لقد عادت «صوفيا» إلى غرفتها، ومرّ بسرعة شبح حجب أشعة المصباح. واسدلت الستائر مخفية الأسرار.

وأخذ «نيقولا» يحملق في الظلام، والنجوم تتلألا في السماء، لم يكن يشعر برغبة في النوم، بل كان يتمنى أن يبقى هناك، مستغرقاً في التفكير، منتظراً طلوع الفجر، واستيقاظ العصافير على الأشجار، وأن يبرّد خديه ندى الصباح.

ونبهته من تأملاته حركة خفيفة، فرفع رأسه وظنّ أنه لا يزال غارقاً في أحلامه: كانت «صوفيا» أو طيفها تسير في الممشى، متقدّمة نحوه. وبالطبع كانت تعتقد أنها لوحدها في الحديقة! فخرج بحذر من الظل القاتم الذي تحدثه أغصان الأشجار فوق المقعد. فلم تبدر من المرأة حركة تنمّ عن المفاجأة، وتابعت تقدمها نحوه، كما لو أنهما قد تواعدا على الالتقاء هناك. فهل نزلت عمداً كي تلتقي به؟ لقد بلبل أفكاره هذا الافتراض، وبذل جهداً كي يقول:

- إنها أمسية رائعة، أليس كذلك؟

فتمتمت:

- نعم، إني كثيراً ما أحضر إلى هنا، في فصل الصيف، لكي أمضي بعض الوقت جالسة على هذا المقعد، قبل أن أصعد إلى غرفتي.

- لقد أخذت إذن مكانك! وأزعجتك!

فقالت:

- كلا، بل ابقَ.

فجلس بقربها على المقعد.

واستأنفت الكلام، قائلة:

- إني لم أكف عن التفكير في الاحتفال الديني الذي حضرناه صبيحة هذا اليوم كل شيء فيه كان جميلاً، غريباً وخلاباً وليس من الضروري دائماً أن يكون المرء مؤمناً لكي يتأثر بذلك. وإني لأتساءل عمّا إذا كنت أردت، بدعوتك إياي مع والدي لحضور هذا القدّاس الأرثوذكسي، أن تهديني إلى الإيمان بالله أم بروسيا!

وكانت تبتسم وهي بين جادة ومازحة.

فقال:

- لقد أردت فقط، إفهامك بأننا لسنا متوحشين تماماً!

- لو كنت بحاجة للاقتناع بذلك، لما التفت إلى كهنتكم ذوي اللحى الكبيرة، بل إلى بعض المؤمنين من أتباعهم!

وقد أثارت الجرأة التي اتسم بها هذا الحديث القلق والاضطراب لدى الاثنين كليهما، لدرجة أنهما لزما الصمت خلال فترة طويلة. كان «نيقولا» أثناء ذلك يسمع قلبه وهو يدق بعنف لم يعهده من قبل. ونهضت، فجأة:

- لقد تأخر الوقت! يجب أن أعود إلى غرفتي..

و «نيقولا» الذي أسف لقرارها هذا، تمتم، مرتبكاً ببعض عبارات الاعتراض، بينما كان يفضل التعبير بصورة شاعرية عن مشاعره، ومن جهتها فقد ارتاحت لكونه لم يحاول استبقاءها، وابتعدت بسرعة، هاربة، كي تتخلص من اضطرابها، بقدر تخلصها من الاضطراب الذي أدركت أنها تركته يعاني منه.

وعند مدخل الطابق الأول، فوجئت بأمها وهي تقف هناك، كانت السيدة «دو لامبرفو» قد ارتدت مئزر الحمّام، وعلى رأسها وشاح رقيق من

الدانتيلا، ووجهها مغطى بمعجون التجميل، ولم يمنعها ذلك من أن تبدو شديدة الوقار. كانت تحمل شمعداناً، وقالت، بلهجة حاسمة:

- لديّ كلمتان، أريد أن أقولهما لكِ.

ودخلت إلى غرفة ابنتها، وضعت الشمعدان على المنضدة، رفضت أن تجلس، وبعد أن ضمت يديها الصغيرتين على شكل كرة، فوق بطنها، وأبدت في عينها بريق الأمومة العذب والحنون، تابعت بلهجة أكثر هدوءاً

- رغماً عني، رأيت للتو إنك لحقت هذا الشاب إلى الحديقة! فهل كان هذا ضرورياً جداً، يا صوفيا؟

كانت الملاحظة غير متوقعة أبداً، بحيث أنّ «صوفيا» دهشت في بداية الأمر، ثم غضبت، وتوهج خداها، وقالت وهي تلهث:

- إني لا افهمك، يا أمي، فمنذ بضعة أيام فقط، كنت تلومينني لكوني لا أعامل السيد «أوزاريف» بشيء من اللطف والمودة، والآن..

- الأن، يبدو لي أنك أخطأت بالافراط بما هو نقيض وألومك بشأنه، وإني لأتساءل ماذا يكون هذا الشاب قد ظنّ عندما ذهبت إليه، الآن..

فصاحت:

- كنت أجهل أنه كان موجوداً هناك.

وأتى الردّ على شفتيها بصورة طبيعية جداً، بحيث أنّ كذبتها بدت في تلك اللحظة وكأنها الحقيقة بعينها وبكل قوتها. ثم تصورت نفسها وهي تتفرس في الحديقة، عبر النافذة، وكيف اكتشفت بقعة داكنة قرب المقعد، ونزلت على الدرج، وأخذت تسير بخطى وئيدة في الممشى والسعادة تغمرها. وعند ذلك استولى عليها الغضب، لم تكن قد غضبت من نفسها، بل من أمها التي ترغمها على التصنع، والتكتم في بعض شؤونها الخاصة.

واستأنفت الكلام كان بإمكاني طبعاً أن أعود أدراجي عندما لمحته ولكني أعترف أنّ فكرة القيام بذلك لم تخطر ببالي أبداً. فأنا لم أعد طفلة ولي الحق أن أتصرف على هواي وكما يحلو لي...

فأرسلت السيدة «دو لامبرفو» تنهيدة تنمّ عن خبرة كبيرة، وقالت:

- ليس للمرأة أبداً الحق بأن تتصرّف على هواها وكما يحلو لها. والخوف من اكتساب السمعة السيّئة، يساهم في آن واحد بالعمل على إخضاعنا وعلى حمايتنا والمحافظة على سلامتنا. وفكرة لومك بشدة على تصرفك هذا وعلى سلوكك بصورة عامة، لم تخطر ببالي أبداً، ولكني أرغب أن يكون ذلك أكثر توازناً، فأنت تندفعين بأسرع مما ينبغي، إلى أبعد مما ينبغي في مجال الكراهية، كما في مجال المودّة والعطف.

اتبعي التعقّل في حياتك، تحظين بمزيد من السعادة..

- وبأيّ سعادة هزيلة تعدينني، لقاء ذلك؟

فردّت الكونتيسة، وهي ترفع رأسها:

- بالسعادة التي عرفتها مع أبيك

فقالت «صوفيا»:

- اسمحي لي يا أمي، فأنا لا أرى أيّ جدوى لهذا الحديث. فهل يحلو لك أن توبخيني كما توبخ إحدى الطالبات في مدرسة داخلية، لأني تبادلت عشر كلمات مع ذلك الرجل، في الحديقة؟

فقالت الكونتيسة:

- كان قد خيّم الظلام!

فسألتها «صوفيا»:

- هل اللقاء هو الذي أزعجك أم الظلام؟

- إنه اللقاء في الظلام، يا ابنتي.

فهزّت «صوفيا» كتفيها بعصبية. ولأنها معتادة على الهيمنة على والديها، فإنّ ردّ فعلها الطبيعي كان هو الردّ على أيّ انتقاد بطريقة تضخم بها العيب أو الخطأ نفسه الذي تلام عليه. وكان يكفي أن ترجوها أمها بأن تكون أكثر بعداً وتحفظاً حيال الضابط الروسي، حتى تشعر برغبة شديدة كي يبدو وقد ضاعفت من مظاهر توددها إليه. وقالت:

- إني آسفة لإزعاجك ومخالفتك، ولكني أخبرك أني أنوي الخروج، في أحد الأيام المقبلة مع الملازم «أوزاريف» لمرافقته في زيارته لبعض معالم باريس..

كانت قد اختلقت ذلك في تلك اللحظة، وسرت بالمفاجأة التي ظهرت أعراضها في عيني أمها وعلى فمها وذقنها. فالسيدة «دو لامبرفو» وقد تجاوزتها الأحداث، لم تستطع سوى أن تتمتم:

- طيش.. إنّ هذا طيش ووقاحة.. آه يا صوفيا، أتجدين متعة في تعذيبي؟ ألا تريدين أن تفكّري بصورة جدية بمستقبلك؟ صدقيني لقد حان الوقت لكي تكوّني..

- وماذا تريدين أن أكون، يا أمي؟

فصاحت السيدة «دو لامبرفو» وهي تضم يديها على شكل عش ينبض بالحياة:

- أسرة، وبيت، فقد توفّي زوجك العزيز منذ سنتين، وهي مدة كافية للحزن والحداد. وليس لديك ولد وهذه نعمة في مثل هذه الظروف، أنت جميلة، وهذه ميزة لا تتحسّن مع مرور السنين..

فقالت «صوفيا» بلهجة حاسمة، وهي تقهقه ضاحكة:

- ومع ذلك، فإني أرفض أن أتزوج ثانية، وماذا في ذلك ممّا يصعب فهمه؟ ألا يخيل لنا أنّ مبررات وجود المرأة هي الزواج والإنجاب، وليس سوى ذلك؟

فانتفضت السيدة «دو لامبرفو»، حيال هذا الكلام، إن لم يكن حيال الفكرة بالذات، وقالت:

- صوفيا، إنّ قراءاتك تعشش في دماغك. وأنت توجهين إهانة قاسية لبنات جنسك.

- إلا لأني أرغب بالحصول على حريتي؟ لست أنا الوحيدة التي ترغب بالتحرّر

فاضطربت السيدة «دو لامبرفو» ووقفت حائرة: لقد تذكرت أنها قرأت فيما مضى أفكاراً ثورية جداً تتعلق بهذا الموضوع في كتابات صهرها. وفي هذه الحالة بالطبع، لم يعد هنالك مجال لكي تلوم ابنتها على ذلك. لأنه من المقبول عادةً أن تشاطر الزوجة زوجها آراءه، حتى ولو كانت خاطئة. وعلاوة على ذلك، فهي نفسها، كان يحلو لها أن تردّد في الصالونات أحاديث الكونت «دو لامبرفو» السياسية بكل يُسر وحماسة بحيث كان الناس يظنون أنها تفعل ذلك عن إيمان واقتناع، بينما لم يكن يدفعها إلى ذلك سوى الطاعة والانصياع لزوجها.

وأمسكت «صوفيا» ذراع أمها برفق، وصاحبتها إلى الباب، وقالت لها أيضاً:

- لا تقلقي يا أمي. فأنا مرتاحة ومسرورة جداً من مصيري ومن وضعي الحالي، بحيث أني لا أستطيع تشجيعك على ما تبنيه من آمال ومشاريع بشأن مستقبلي، وأكثر ثقة بعقلي من أن أجعلك تقلقين من أجلي وأرجو ألا يمنعك موضوع السيد «أوزاريف» من النوم، لأنه لا يمنعني، أنا نفسي، من أن أنام

ملء جفوني. وينبغي أن يكون من دواعي الراحة والسعادة للأهل أن يكون لهم ابنة مثلي!.

وانصرفت السيدة «دو لامبرفو» مرتاحة البال، بعد أن غيّرت رأيها لكثرة ما لاطفتها ومازحتها ابنتها، وبالإضافة إلى ذلك فمن طبيعتها عادةً ألا تدوم مخاوفها وألا يستمر قلقها، أبداً أكثر من ساعة.

***

٩

كان هنالك من ينتظر الجواب. وتناول «نيقولا» الرسالة مرة أخرى، وأعاد قراءتها، وهو يمشي في غرفته، في كل الاتجاهات. وفي كل خطوة يقلّص ربلة ساقه. و «أنتيب» الواقف قرب الباب أخذ ينظر إلى سيده الذي بدا كعاصفة هائجة في تحركها.

كانت الكتابة اللؤلؤية تتراقص أمام عيني «نيقولا»:

«هل أكون قد أخطأت، أم أكون قد أصبت، إذا أعفيتك بهذه الساعة من العقوبة التي استحقيتها تماماً؟ إني أنتظرك غداً، نحو الساعة الثالثة في المكان الذي تعرفه. وحامل هذه الرسالة شخص موثوق. سلّمه بطاقة تتضمن كلمة واحدة: «نعم!» ولا تنقم علي إذا كان تصريح رضاي هذا لا يحمل أي توقيع. ففي معظم الأحيان مجرد رائحة العطر تكون أفضل من اسم يكتب في أسفل الصفحة..»

وقرّب «نيقولا» الورقة من أنفه واستنشق رائحة عطر «الونّيليا» المشهور، فها هي «دلفين» تأتي إليه بكليتها، في هذه النفحة المعطرة. ومع ذلك فإنه لم يكن متأثراً: كان إلحاح هذه المرأة يزعجه. وأخذ يشعر بأنه قد تسلّق عالياً جداً، وأنه يطلب منه أن ينزل الآن. وبعد أن دار عشر مرّات حول المنضدة، جلس، قطب جبينه وأخذ يكتب مؤرجحاً، كل كلمة على طرف ريشته قبل أن يلقيها على الورقة:

«سيدتي العزيزة»

لقد تأثرت كثيراً لرفقك بي وحسن التفاتك إليّ، وهذا يجعلني أشعر بمزيد من الخجل، لكوني يستحيل عليّ الحضور في الموعد الذي تقترحينه عليّ.»

وفكّر بطريقة تنم عن الرجولة والقسوة: «إنه جواب جاف جداً وهي ستفهم ماذا يعني هذا!» وختم الرسالة. ففتح «أنتيب» الباب. كان يقف في الممر خادم «دلفين»، وهو رجل مسنّ، نحيل الجسم، شاحب الوجه، يرتدي حلّة زرقاء أزرارها فضّية وقال «نيقولا» وهو يسلّمه الرسالة:

- هاك الجواب!

فوجّه إليه الرجل نظرة تنمّ عن كونه أميناً متحمساً، وأحنى ظهره وانصرف. و «نيقولا» الذي ارتاح وانبسطت أساريره، تناول كتاباً وهو ينوي أن يقرأ الشعر ويتناسى كل شيء. وبعد نصف ساعة، أدرك أنّ سروره كان مبكراً أكثر مما ينبغي وأنّ أوانه لم يحن بعد: فقد عاد خادم «دلفين» وهو يحمل رسالة أخرى معطّره كالأولى: «هل تفضّل أن تلتقي في يوم آخر؟ يمكنني أن أكون حرة من أجل ذلك يوم الاربعاء أو يوم الجمعة.» ودون أن يتردّد، كتب «نيقولا»: «إننا، على ما يبدو مصابون بسوء الطالع سأكون مشغولاً أيضاً في اليومين اللذين أشرت إليهما. «فانصرف الخادم المسنّ ذو الحلّة الزرقاء، حاملاً الرفض الثاني. وانقضت ساعة، بعد ذلك، ثم رآه «نيقولا» يبدو من جديد لاهثاً، حزين النظرات، وبين أصابعه المرتعشة مغلّف.» «متى إذن؟»

كانت «دلفين» تسأله، في صرخة عاشقةٍ مقهورة لخيبة أملها. فشعر «نيقولا» بسبب ذلك بشيء من السأم والغرور، ولم تسعفه الشجاعة على الإجابة بقوله: «ولا في أي يوم على الاطلاق!» فقد دفعه التهذيب والرأفة على اتباع أسلوب المواربة وتلطيف الكلام: «إني، حتى الآن: لا أدري متى أستطيع

الحضور، يا سيدتي العزيزة، فعملي يستغرق كل وقتي، وعندما يتاح لي الوقت لمقابلتك، سوف أخبرك، فأرجو معذرتي. «كان الخادم قد استردّ أنفاسه، وهو يقف خلف الباب. ولأنّ «نيقولا» كان متأكداً من أن مشواره هذا سيكون الأخير، فقد منحه إكرامية. ولكن كان هذا الرجل يبدو وكأنه قد تحوّل إلى كرة تطير بين مضربين. فلم يمرّ وقت طويل، حتى برز على عتبة الباب، وقد ألصق قبعته على بطنه، والعرق يتصبّب على جبينه، وأخذ يلهث من التعب: فليس هنالك من شك أنه قد طلب منه أن يركض مسرعاً، ولم يقوَ على التلفظ بكلمة، بل قدّم لـ نيقولا ورقة مطوية أربع طيّات ومختومة بشمع بنفسجي اللون: «أيها القاسي، أي لعبة تفرض عليّ؟

هل تأمل أن تمسّ كبريائي وتحقق فوزك؟ أم أنّ عليّ أن أفهم أنّ قلبك الذي يبدو في ظاهره طيباً وكريماً، هو بالحقيقة قاسٍ ومتجمد بتأثير ثلوج «الشمال»؟ فوجّه «نيقولا» نظراته نحو خادم «دلفين» كانت عينا الرجل تردّد، على طريقتها الخاصة، ما جاء في الرسالة. وإذا كانت هذه الحركة من الذهاب والإياب، ستستمر، فهو سينهار، ويسقط من التعب، في طريقه بين المنزلين. وبشكل يدعو إلى الاستغراب فإنّ «نيقولا» كان يرثي للخادم، في هذه القضية، أكثر مما يرثي للخليلة التي لم تعد تثير اهتمامه، وبدافع من الرافة المسيحية، تمتم:

- ليس هنالك من جواب!

فلمع بريق من الامتنان في عيني الخادم العجوز، واستدار وانصرف. وبذلك انتهت حالة التأهب في ذلك النهار.

وفي اليوم التالي، بدلا من أن يذهب للقاء «دلفين»، كرّس «نيقولا» كل وقته للحكمة والتفكير، وكرجل تخلّص من متطلّبات الجسد، أخذ يحلو له أن يذهب لزيارة متحف «اللوفر»، وهو يفكر: «كان يمكن أن أكون الآن بين ذراعي خليلتي، وها أنا أتأمل بعض اللوحات، فيا لها من قوة في

الطباع والإرادة!» ويروى في الأوساط الروسية أنّ القيصر «ألكسندر الأول» قد تدخل شخصياً لمنع المتحالفين من أن يسترجعوا من أروقة هذا المعرض بعض اللوحات والتماثيل التي كان قد حملها إليها «بونابرت» كغنائم حرب.

وهذا ما حمل «نيقولا» على أن يجمع في إعجابه بين مليكه والأعمال الفنية التي حماها وحافظ عليها. وكان، وهو يمشي في قاعات تغصّ بالناس، متأملا على الجدران مناظر الأمجاد الحربية والعسكرية، ومشاهد الأجساد النسائية العارية المأخوذة من الأساطير القديمة، والمناظر الطبيعية الخلابة، وصور الأمراء المنصرفين إلى التأمل والتفكير، كان يشعر أنه أكثر فأكثر استعداداً لكي لا يحبّ في الحياة، سوى ما هو نقي، طاهر، عظيم وجميل. وعندما كانت إحدى اللوحات تثير اهتمامه بشكل خاص، كان يسجل اسمها لكي يطلع «صوفيا» عليه: فهو لا بد أن تتاح له الفرصة لكي يتحدث إليها عن زيارته لمتحف «اللوفر»!

وعند خروجه من المتحف، كان مأخوذاً بروعة ما شاهده، فمرّ عبر حدائق «التوليري» لكي يستنشق الهواء الطلق. وفي الممشى الذي تظلله أشجار البرتقال، التقى بـ «هيبوليت روزنيكوف» وبعض ضباط فوجه، وقد جلسوا على كراسي مشكلين دائرة: كانوا يناقشون مشروعاً يقضي باستئجار عربتين في اليوم التالي والذهاب في مجموعة لزيارة قصر «ماليزون» حيث تقيم الأمبراطورة السابقة «جوزفين». ولأنّ «نيقولا» قد اتهم من قبل «روزنيكوف» أنه كان يتصرّف في الفترة الأخيرة، «كانعزالي متعجرف»، فقد قبل، بدافع من روح الزمالة، الانضمام إلى المجموعة. كانت أجرة العربة في الساعة تبلغ فرنكين. وسيكون عدد الذين سيساهمون في دفع النفقات للقيام بهذه الزيارة المقدسة ستة أو ثمانية. أو لم يعط القيصر المثال لضباطه، بقيامه بزيارات كثيرة للأمبراطورة المعزولة ولابنتها، الملكة «هورتانس» كانت تلك الظاهرة تبدو طيبة في الأوساط

الروسية وهي أنهم على الرغم من حنقهم من نابليون وازدرائهم له، فإنهم كانوا يحترمون ويقدرون أفراد أسرته. وتحدد موعد اللقاء في اليوم التالي، الساعة الثامنة صباحاً، في ساحة «الأنفاليد».

وقد تعهد «هيبوليت الجميل» بتأمين وسائط النقل والمواد والمأكولات اللازمة لتلك النزهة الريفية.

وعندما وصل «نيقولا» في الساعة المحددّة إلى مكان الاجتماع، وجد هناك عربتين قديمتين يحيط بهما نحو عشرة ضباط بملابسهم العادية التي يرتدونها أثناء الخدمة. وكان وصيف «روزنيكوف» يحمل سلة ضخمة تحوي المأكولات، وتبدو منها سدادات الزجاجات. كان الطقس جميلاً والجو حاراً، وخلال الضحكات تكدّس الضباط في العربتين، وقد سُمع صرير نوابضها وهي تلتوي تحت ثقل حملها. والأحصنة الهزيلة، وقد أوقظت على حين غرّة رفعت آذانها وهزّت أكفالها، وبدأت السير بخضوع دون أن تنتظر أمر السائق.

لم يعد هنالك مخيمات تحت أشجار جادة «الشانزيلزيه» ولم يمكث هناك «القوزاق» سوى خلال الأيام الأولى للاحتلال.

أي في الوقت الذي كان يخشى فيه من أن يقوم نابليون بهجوم معاكس. والآن هم لا يقيمون في الهواء الطلق، بل في الثكنات.

وإذا كان الضباط الروس يشاهدون في مكان، فإنّ الجنود كانوا محتجزين بشدة، ولا يظهرون في أي مكان، وهو تدبير حكيم.

لأنه منذ انتهاء الحرب، أخذت أعداد متزايدة من الجنود الفرنسيين تتدفق باستمرار نحو العاصمة، من بعض مناطق الحدود. وكان هؤلاء الجنود العائدون لا يعرفون شيئاً عن تطورات الحملة على فرنسا ولم يشتركوا في المعارك التي دارت عند أبواب باريس ولم يستطيعوا أن يفهموا كيف يمكن أن يكون الأمبراطور قد تنازل عن الحكم ليسلمه لمفلس

سيء من آل «بوربون»، (على حدّ قولهم). ولم يكن يمرّ يوم لا تندلع فيه المشاجرات في الأحياء الشعبية بسبب الخلافات السياسية. وكان جميع الضباط الذين يشغلون إحدى العربتين متفقين في الرأي على أنّ الأمور سوف تزداد سوءاً، بعد توقيع معاهدة الصلح وعودة طلائع الأسرى الفرنسيين إلى وطنهم. وقال الرائد: «مكسيموف»، بكل صراحة:

- عندما ألقي نظرة على ما يحدث في باريس، أفضل كثيراً أن أكون روسياً، كما أنا على أن أكون فرنسياً.

وحالما سنرحل من هنا ستندلع الثورة من جديد، وسيقطعون عنق ملكهم الذي يحمل الرقم الثامن عشر، كما فعلوا بملكهم الذي كان يحمل الرقم السادس عشر. ولا ينبغي أن نحقد عليهم بسبب ذلك، فقد أصبح هذا، هوساً لديهم، بل عادة سيئة بالنسبة لهم!

فتمتم: «هيبوليت روزنيكوف»، الذي كان - أو يريد أن يقنع نفسه - بأنه عاشق:

- لا تتحدث عن الرحيل! لأنه يبدو لي أني سأودع شبابي عندما أغادر فرنسا.

وعندما سمع «نيقولا» هذه الكلمات، - شعر بانقباض في قلبه-.

فصاح «مكسيموف» بقوة:

- يقول ذلك وهو لم يبلغ الثانية والعشرين! ولكن أيها الغرّ المسكين، أنت إذن تتصور أنه لا تنبت فتيات جميلات إلا في باريس؟ فالعيون الجميلة والنهود الصلبة، والأرداف المكوّرة والمتناسقة، تنبت في كل مكان على وجه الأرضّ وفي روسيا أيضاً، ستجد بائعات حلوى يستقبلنك بالترحاب! لا سيما عندما ترتدي بزتك الزاهية، مع ما تتمتع به من بنية قوية وجميلة!

فاحمرّ وجه «هيبوليت الجميل» ذي الشعر الأسود المدهون بالزيت، وانفجر ضاحكاً، وهو يقول:

- هل أنت مطلع على ذلك؟

- كلّ من في الثكنة لا يتحدث إلا عنه! وعلاوة على ذلك فإني أهنّئك بشأنه، لأنّ على العسكري أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من نساء الجماعة الذين هزموا في الحرب وأن ينزع عنهن ملابسهن، ولكن شريطة ألا يأسف لفراقهن عندما يستأنف فوجه السير!

والرائد «دوباخين» الذي كان يجلس بجانب الرائد» مكسيموف» أيد هذا الكلام بإيماءة من رأسه، وهو شخص نحيل، شاحب الوجه، مصاب بقصر النظر، كثيراً ما يتهامس زملاؤه بأنه «ماسوني»، وقال:

- إن ارتداء البزّة العسكرية يعني القبول بالعيش يوماً فيوماً، دون الارتباط بأي شيء ولا بأي شخص، مع الاحتفاظ بأمل واحد وهو أن يكون لديه ذكريات زاهية ومجيدة عن الحملات التي شارك بها والمعارك التي خاضها تعزّيه فيما بعد عن كونه تجول في أماكن كثيرة، وكعابر سبيل على الدوام.

فصاح: «مكسيموف»:

- لست مرحاً! أيمكن أن تشعر منذ الآن بعقلية الشيوخ والمسنين؟ إذا كنت قد أصبحت هكذا، فإنني لن أرافقك وسأنتقل إلى العربة الثانية!

فوّجه «نيقولا» نظرة تنم! عن التأثر إلى الرائد «دوباخين» الذي كان يجلس قبالته، لأنه عبّر بكلمات قليلة عن الضيق الذي يعاني منه هو نفسه: عن شعوره بأنّ المكان، والناس، السماء الزرقاء وكل ما يراه الآن وكل ما يحبّه، قد أتيح له لزمن قصير جداً، وأنّ السعادة التي يتمتع بها منذ

وصوله إلى فرنسا ليست ثابتة ولا تستند على أساس متين، وأنه يعيش حلماً أخذ يقترب من نهايته.

وأستأنف «مكسيموف» الكلام:

- حدثنا عن صديقتك، بائعة الحلوى! كيف هي؟ صفها لنا!

فقال «هيبوليت روزنيكوف»:

- إنها شقراء جداً، وأكثر شقرة من الحلوى التي تبيعها!

- وأكثر حرارة منها؟

- آه! في السرير، إنها شيطانة حقيقية!

- ما اسمها؟

- لن تصدقني إذا قلت لك إنّ اسمها «جوزفين»!

فقهقه الضباط ضاحكين، وشاركهم «نيقولا» في الضحك، والمرح الصاخب، وهو أساساً لا يطيق أن توجّه الإساءة أمامه إلى أي امرأة. وهذا الشعور الجديد كان مزعجاً ومربكاً بالنسبة له.

وبعد أن اجتازت العربتان حاجز «رسم الدخول» اتجهتا نحو نهر السين بين سياجين من الأشجار الضخمة الكثيرة الأوراق. وبدا النهر محاطاً بالمروج الخضراء وبأشجار الصفصاف ذات الأوراق الداكنة. وبين أجمات الأشجار الكثيفة كانت تتلألا بيوت صغيرة تكتنفها الزهور وتغطيها أسطحة وردية اللون. وكانت بعض القوارب الكبيرة، تنساب على سطح الماء، بحملها الثقيل. وبعد أن اجتازت العربات جسر «نويتي»، أبطأت الأحصنة بالسير عند صعودها المرتفع. وفي إحدى العربتين كان الضباط يتابعون مزاحهم وضحكهم. وسأل الرائد «مكسيموف» «نيقولا» فيما إذا كان قد قام بمغامرة ناجحة يمكنه أن يروي لزملائه بعض ملابساتها.

فأجاب بجفاء وأسى:

- «كلا!»

وثلاث مرات، أوقف السائق العربة لكي يريح أحصنته وأخيراً وصلت العربتان إلى طريق ضيق يقع خلف قصر «ماالميزون» و «هيبوليت روزنيكوف» الذي كان قد حصل مسبقاً على بعض المعلومات المتعلقة بإمكان زيارة المكان، اقتاد المجموعة نحو مدخل ثانوي، حيث كان يقف بستاني عجوز، شديد الحساسية بالنسبة للبزة العسكرية وللإكراميات السخية. فشرح لهم بأنّ العديد من ضباط الجيوش المتحالفة سبق لهم أن أتوا لزيارة هذه الحدائق الكبيرة. وكانت مفرزة من الجنود الروس تتولّى حراسة الباب الرئيسي. وقال البستاني:

- كثيراً ما نشاهد قيصركم هنا، وهو يبدي نحونا مودّة عظيمة. ومع ذلك، فأنا أوصيكم بألا تقتربوا من القصر، وألا تحدثوا كثيراً من الصخب والضجيج..

فوعدوا بأن يكونوا متعقلين وهادئين واندفعوا بخفة وسرعة دورية استطلاع، تحت ظلال الأشجار التي تحيط بطريق يبدو أنه يحيط بالحديقة من كل جوانبها. وفعلاً، دون علم منهم، اتجهوا مباشرة إلى وسط الحديقة. وعندما وصلوا إلى الممشى المؤدي إلى مدخل المراسم، سمرّهم في أماكنهم صوت قرع الطبول، وهناك أمام الباب الرئيسي، كانت بعض البزات العسكرية تتحرك وتنتظم في صفين، وعرف «نيقولا» أنّ الجنود من فوج «سيميو نوفسكي» عندما تبين له عن بعد أنّ ياقاتهم زرقاء.

وبرزت من سحابة من الغبار عربة فخمة، تجرها أحصنة جميلة ومرقطة، ومرت أمام رجال الحرس الذين قدموا السلاح لراكبها.

فسأل «هيبوليت روزنيكوف»:

- من هذا؟

فتمتم الرائد «مكسيموف»:

- ألم تعرف العربة؟ إنه القيصر، القيصر وقد وصل إلى هنا!..

وقال أخيراً الرائد «دوباخين»

- لم يبق علينا سوى الرحيل من هنا، يا أصدقائي!..

وكأنهم فوجئوا بعاصفة قوية دون أن يكون لديهم أي حماية، فقد عادوا أدراجهم متراكضين. والأمبراطور عندما دخل من الباب الكبير، لم يكن أمامهم إلا الخروج من الباب الصغير. ورافقهم البستاني إلى العربتين، وكان يبدو كالتاجر المنزعج لكونه لم يستطع إرضاء زبائنه:

- إني شديد الأسف لهذا الظرف الطارئ.. وأرجو أن تعودوا مرة أخرى، أيها السادة..

وبعد ان صعدوا إلى العربتين أخذوا يمزحون ويتحدثون عن الخطر الذي نجوا منه. وشعر الجميع، فجأة بالجوع والعطش.

فطلب «روزنيكوف» من سائق العربة أن يتّجه نحو حديقة «سان كلو». وهناك، في فسحة بين الأشجار، جلس الضباط المتنزهون على شكل دائرة، وبسطوا مأكولاتهم، على العشب الأخضر، وهي مؤلفة من لحم الفروج، والخنزير، والنقانق الجافة. ولأنّ «روزنيكوف» لم يستطع العثور على «فودكا» من النوع الجيد، فقد أحضر بدلا منها نبيذاً فرنسياً الذي اعتاد على تناوله آنذاك، جميع ضباط جيش الاحتلال. ولكن اثنتي عشرة زجاجة لم تكفِ ثمانية ضباط! واتهم منظم الرحلة بأنه أساء تقدير كفاءة رفاقه واستعدادهم لتناول المشروبات.

وكان المتنزهون، الذين فكوا أزرار بزاتهم وأرخوا نطاقاتهم يجلسون بارتياح على العشب الأخضر، ويقطعون اللحوم بسكاكينهم يأكلون بأيديهم دون حاجة لملعقة أو لشوكة، ويشربون من فم الزجاجة، يتحدثون ويضحكون كلهم في آن معاً، وشعر «نيقولا» وهو بينهم أنه قد استعاد طريقة العيش في المخيمات.

إنهم في مكان ما من أوربا، في فترة استراحة بين معركتين. لقد كان الرائد «دوباخين» محقاً: إنّ لهذه الحياة التي تتسم بالقوة وبالرجولة والتشرد سحرها وفتنتها. وعند الانتهاء من تناول الطعام، أي في وقت التحلية، أنشد «روزنيكوف» بصوت رخيم وبطريقة مغنّ يتقن الغناء أغنية عسكرية ظريفة جداً. وكجوقة من المنشدين أخذ الجميع يرددون بعده لازمة الأغنية. وطلب الرائد «مكسيموف» من سائقي العربتين أن يغنيا، هما أيضاً، ولأنهما أكلا وشربا جيداً فقد قبلا، فعلمهما «نيقولا» الكلمات الروسية، فكانا يرددانها مشوهة، طافحة بالأخطاء، وعند كل خطأ، كان يقهقه الضباط ضاحكين.

وكان «روزنيكوف» يدمدم متأفّفاً:

- أوف! ما أجمل هذا! آه لو كان فقط برفقتنا بعض الفرنسيات الصغيرات!

فعلق على ذلك «مكسيموف» قائلاً:

- يالها من فكرة! كان يمكن أن نتصنع الجدّ، ونتعامل معهن وفيما بيننا بصورة رسمية، ولن يعود الأمر عند ذلك مسلياً، ولا مرحاً، على الإطلاق!

وعند الساعة الثالثة، أمر الرائد «دوباخين» بالتجمع:

ستذهب المجموعة لزيارة قصر «سانكلو». واستقبل الضباط في الرواق، خادم يرتدي حلّة رسمية. ولأنه لم يعد له سيد هناك، فقد أخذ يشغل وقته ويكسب عيشه بالعمل كدليل للزوار الأجانب. وهذا المنزل، الذي كان منه، ومنذ عهد قريب، نابليون يملي إرادته على العالم، لم يعد آنذاك سوى متحف، يخيم في أرجائه الصمت والبرود. وفي المكتب، بقيت جميع المفروشات وقطع الأثاث، وكذلك التحف والأواني المزخرفة، في أماكنها. وبدعوة من الخادم، جلس «نيقولا» على أريكة الأمبراطور، لمس محبرته

وريشته، ثم اقترب من نافذة مفتوحة تطلّ على ضفاف نهر «السين» المنخفضة وعلى البعد بدت حجارة، ودخان وبريق أنوار باريس..

وقال الرائد «مكسيموف» وهو يتنهد:

- يا له من منظر رائع! إني لأتساءل عن أيّ شيء ذهب يبحث في روسيا، في حين أنّ لديه هذا المنظر الرائع تحت نظره!

وكانت هذه العبارة هي خاتمة المطاف. كان «روزنيكوف» يرغب بمتابعة الرحلة إلى قصر «فرساي»، ولكن لم يكن هنالك وقت للقيام بذلك، وقد أخذ سائقا العربتين يتذمران، والأحصنة قد أنهكها التعب. وفي العودة كانت المجموعة أقل مرحاً مما كانت عليه في الذهاب. كان الجميع يفكّرون بمصير نابليون، المذهل، فهو الذي كان سيداً على ما يقرب من نصف أوروبا، أصبح الآن سجيناً في إحدى الجزر. وقد أخذت الجماهير تزور باحترام الأماكن التي دمغها بخطواته.

وأخذ أعداء الأمس يجعلون منه أسطورة الغد. وقال «نيقولا» في سره: «إني أعيش الحقبة الأكثر إثارة في التاريخ! فالبشرية لا يمكن أن تعرف في القرون المقبلة، حرباً أكثر اتساعاً وعنفاً وضحايا، من هذه الحرب التي انتهت للتوّ. وربما سيُعدنا أبناؤنا، أو أحفادنا أننا كنا آخر المقاتلين في هذا العالم!» وكما كان في كل مرة يفكّر بالمستقبل البعيد جداً، فقد ضاعت أفكاره في الضباب: على الرغم من الجهد الجدّي الذي بذله، فإنه لم يستطع أن يتصور نفسه عجوزاً.

وعند عودته من تلك النزهة، وجد على مكتبه بطاقة من «دلفين» تدعوه فيها بصورة رسمية لتناول طعام العشاء، يوم الأحد الأخير من الشهر الجاري. وبدافع من التبرّم، تناول ريشته وكتب رسالةً رفض فيها الدعوة. ولأنّ الجيوش المتحالفة ستضطر في يوم قريب إلى مغادرة باريس، فقد أصبح ضنيناً بأوقات فراغه. ولم بعد يريد أن يبدد وقته ولا عواطفه. وبعد أن تناول

طعامه على زاوية المائدة، لوحده، أرسل «أنتيب» ليحمل الرسالة، وخرج إلى الممر، لكي ينشّط ساقيه.

كان يشعر بحزن غامض يسحق قلبه. ولمح «صوفيا» عبر باب الصالون الموارب، وهي تتناول القهوة مع والديها، في ذلك المساء، فدعي لتناول القهوة معهم، عند ذلك، أسرع بالدخول. كانت الأسرة تبدو في اضطراب سياسي شديد: فقد علم السيد «دو لامبرفو» للتو، من أحد أصدقائه الدبلوماسيين، بما يمكن أن تتضمنه موادّ معاهدة الصلح التي سيتم التوقيع عليها قريباً. وبموجب هذه المعاهدة، ستتخلّى فرنسا عن جميع المناطق التي احتلتها منذ سنة ١٧٩٢، بحيث تجد نفسها على وجه التقريب، ضمن حدود النظام الملكي السابق، ولن تطالب بدفع أي تعويضات حربية. ومن جهته كان السيد «دو لامبرفو» يرى أنّ «تاليران» قد تخلّص من الورطة، بثمن زهيد.

أما «صوفيا» فكانت حانقة، فهي مع شجبها لنابليون وكراهيتها له، تطالب بالاحتفاظ بالمناطق التي احتلها، وقالت إن الأمير «دي بينفان» ليس له الحق بأن يتخلى دون أي تعويضات عن القلاع والأماكن الحصينة في ألمانيا وفي بلجيكا، التي لا تزال تحتلها القوات الفرنسية.

وبينما كانت تبدي حماساً شديداً بشأن هذه الأمور، تدخل «نيقولا» بلطف وهدوء، متسائلاً:

- وهل تعتقدين أنّ سعادة فرنسا تتوقّف على اتساع مساحتها؟

فأدهشت هذه الملاحظة سامعيه، والسيد «دو لامبرفو» نفسه بدا عليه أنه تلقى صدمة في مشاعره الوطنية. فأدرك «نيقولا» أنه عبر بطريقة جعلتهم يسيئون فهم فكرته، ولذلك استأنف كلامه، قائلاً:

- أقصد بما قلت أن من رأيي أن فرنسا ليست بحاجة لأن تتوسع وتهدّد وتستخدم السلاح لكي يحترمها الجميع، وإنما بالفكر وليس بالقوة يمكنها أن تفرض نفسها على جيرانها

بشكل أفضل. تأملوا جيداً على المصور، بلادكم، كما كانت فيما مضى، والتي ستبقى لكم، فهي صغيرة جداً: نفلة بأربع وريقات على طرف أوروبا، ولكن لا يمكن تصور أوربا من دون هذه النفلة ذات الأربع وريقات، ومن دونها لن يكون لأوربا حضارة، ولا معرفة، لا تراث ولا تقاليد، لا خيال مبدع ولا سحر فيما إذا اختفت هذه النفلة فجأة...

فابتسم السيد «دو لامبرفو» وتمتم:

- هذه آراء ونظرات شاعر، أيها السيد، ومع ذلك فإني أشكرك.

أما «صوفيا» فإنها لم تضف شيئاً، ولكنها ثبتت على «نيقولا» نظرة مشرقة، الذي قال أيضاً، بعد أن تغلب بصعوبة على تأثره وانفعاله:

- وفي نهاية الأمر، إن كانت هذه المعاهدة حسنة أو سيئة، فستكون أولى نتائجها تحرير فرنسا وتخليصها من الجيوش التي تحتل أرضها وعاصمتها!

فقال السيد «دو لامبرفو»:

- لم يتقرر بعد شيء بشأن ذلك، على حد علمي!

فقال «نيقولا» متنهداً:

- لا شيء! نحن في حيرة من أمرنا، وأمر التحرك والرحيل يمكن أن يصدر غداً، أو بعد شهر... من يدري؟

وبدا له أن وجه «صوفيا» أخذ يشحب. وخرجت من الصالون دون أن تبدي أي اعتذار. وبقي «نيقولا» بعد ذلك بضع دقائق مع الكونت والكونتيسة، ثم عاد إلى غرفته، قلقاً، بائساً، ومع ذلك كان يراوده أمل غامض. ولم يكد يضع مصباحه على المنضدة، حتى سمع صوتاً يناديه، من الحديقة:

- أيها السيد، أيها السيد!...

ففتح الباب - النافذة، ووجد نفسه أمام «صوفيا» التي كان ينيرها ضوء خافت من الأشعة المنبعثة من الداخل، فبدت وهمية، غير حقيقية ومعينة واضحة في آن واحد، مع ظلها المفرط في الطول الذي يمتد وراءها على الطريق.

وسألته:

- أتعتقد بشكل جدي بما قلته قبل قليل؟

- بشأن أي موضوع؟

- بشأن فرنسا، وموهبتها ومركزها في العالم...

- طبعاً، وبكل تأكيد.

فخفضت ناظريها، كما لو أنها أرادت ألا تراه خلال ثانية واحدة، ثم رفعت بصرها وهمست:

- لكم أود أن أقدمك لبعض أصدقائي كي تتعرف عليهم.

فقال:

- إن هذا يسرني جداً!

- إنها حلقة صغيرة من الأصدقاء كان زوجي يلتقي بهم فيما مضى، وأنا نفسي أذهب عن طيب خاطر للالتقاء بهم، لأنهم يتمتعون بأكثر الأذهان حدة وطيبة وثقافة، في عصرنا هذا. وهناك لا إكراه ولا مضايقات، وكل منا يتحدث بكل صراحة وحرية ويفتح مكنونات قلبه أمام الآخرين. ولكن جميع تلك الشخصيات، وإن اختلفت كثيراً من حيث المولد والنشأة، من حيث الثروة والمؤهلات، فإن لديها فكرة واحدة مشتركة:

إلا وهي حب الحرية!

فشعر «نيقولا» بأن عليه أن يكون حذراً، لأنه يُجذب نحو منزلق. فما شأنه بالحرية الفرنسية، وأي علاقة له بها؟

فقال، متهرباً، بأسلوب مهذب:

- حسن جداً، حسن جداً!

فاستأنفت الكلام، قائلة:

- إن والديّ، بالطبع، يلومانني على علاقتي مع هذه الجماعة، فهما من جيل آخر، ولا يمكنهما أن يتفاهما معنا. ولكن بالنسبة لك، فأنا واثقة أن التحدث مع هؤلاء الرجال المتميزين سيكون مؤثراً ومثيراً! ولأنها لم تتلق جواباً، فقد أضافت بلهجة حاسمة:

- لا ينبغي أن تغادر فرنسا قبل أن تتعرف عليهم!

فقال، وقد دهش من شدة حماستها لما تقول:

- إني أثق بك.

- هكذا، فإني أعتمد عليك إذن بشأن الذهاب، بعد غد؟

- نعم، يا سيدتي.

- الساعة الخامسة، في منزل السيد «بواتوفان» شارع «يعقوب»، فوق مكتبة «الراعي الأمين»، سأسبقك إلى هناك، لأن السيدة «بواتوفان» طلبت مني أن أساعدها في استقبال الأصدقاء. أوه! سيكون الأمر بغاية البساطة...

وساوره وسواس أخير:

- كيف سأقدم نفسي، وكيف سأبدو ببزتي؟ ألا تخشين، من أن تكون هذه البزة العسكرية...؟

- إنها تستقبل من قبل أصدقائي كأحسن ما تستقبل به في أي مكان آخر.

فاطمأن عند سماعه هذه الملاحظة الدقيقة. وماذا عليه أن يخشى من جماعة يتقبلونه باعتباره ضابطاً روسياً؟ وفضلا عن ذلك، فهو ليس بعيداً

عن الاعتقاد بأن بزته العسكرية تطهر الأوساط التي تدخل إليها، كما تعيد الصفاء إلى المياه العكرة على ما يقال، بعض أنواع البلور الصافي، أو حتى نُدف الثلج.

★★★

كان آل «بواتوفان» يقيمون في الطابق الثاني من منزل واجهته سوداء. والأمر الذي يلفت النظر، منذ الخطوات الأولى في تلك الشقة، هو عدم وجود أي رواق أو ممشى. والغرف وهي صغيرة ومنخفضة الأسقف، كانت تبدو منتظمة في صفوف. وفي هذه الحجيرات المنفتحة إحداها على الأخرى، كان يتدافع أناس كثيرو العدد، لدرجة أن «نيقولا» شعر بالحرج والرهبة، فليس هنالك أي كتافية، أي أوسمة ولا أي سيف. والرجال جميعهم يرتدون الملابس المدنية، البرجوازية، ذات الياقات المخملية. وكان هنالك خادمان متعبان يقدمان للضيوف كؤوس الشراب، على صوان يحملانها وهما يتجولان في الزحام. وعلى الرغم من النوافذ الكبيرة المفتوحة، كانت الحرارة هناك أشد من الحرارة في الشارع. كانت وجنات النساء موردة، وقد أخذن يتحدثن بأصوات حادة ويحركن المراوح أمام صداراتهن. ولأنه لم يكن يوجد أحد ليعلن اسم «نيقولا» عند المدخل، فقد أخذ يتجول كيفما اتفق في ذلك الزحام، باحثاً عن «صوفيا» وقلقاً لأنه لم يرها. وكانت مفروشات المنزل المتواضعة، وملابس الخدم الحائلة اللون، وطراز الأثاث القديم العهد، كل ذلك كان يدل على أن مستوى آل «بواتوفان» الاجتماعي هو أدنى بكثير من مستوى «آل لامبرفو» أو «آل شارلاز». وكان هنالك كتب في الزوايا، على الأرض المغطاة بالخشب، على الرفوف، على الاسكملات، وعلى الكراسي. ولا شك أن صاحب البيت لم يكن من عادته أن يستقبل عسكريين أجانب، لأن نظرات المدعوين اتجهت كلها

نحو «نيقولا» معبرة عن دهشة لا تتسم بالمودة. كانت بعض الوجوه تتجهم، والأحاديث تتوقف عند مروره. فشعر بالحرج وأنه يكاد يثير فضيحة، وغضب كما لو أن «صوفيا» قد اقتادته إلى كمين أو أنها دبرت له مكيدة، وبينما كان يوجه لها في فكره أشد اللوم وأبشع التهم، بدت أمامه مبتسمة وقالت له:

- تعال!

فذاب خجلا وحناناً، وأسلم لها قياده نحو عجوز كبير، وجهه متغضن، هو السيد «بواتوفان» كان شعره الأبرش والطويل ينسدل على كتفيه، وفي حدقتي عينيه الزرقاوين بريق طفولي، وقد أحاط به بشكل ينم عن الاحترام نحو عشرة أشخاص. وبعد أن انتهت عملية التعارف، استؤنفت الأحاديث بمزيد من الحماسة كما لو أن «نيقولا» لم يكن موجوداً. وإن كانت الصحف لا تزال تلزم الصمت ولا تتطرق لموضوع دستور فرنسا الجديد، فإن السيد «بواتوفان» كان يعتقد أنه يعرف أن هذا الدستور سوف يستوحى من مبادئ «مونتسكيو» الخيّرة، وأنه سيضمن على الخصوص الحرية الفردية، حرية الصحافة، وحرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية. وهذه النظرة المتفائلة كانت تغيظ شاباً نحيلاً متحمساً، تبدو في وجهه أحياناً تشنجات عضلية لا إرادية، وصاح هذا الشاب، بأعلى صوته:

- لا تبتهجوا كثيراً قبل الأوان! فإن من يريد أن يحكم الفرنسيين يجب عليه أن يعرف جيداً تاريخ فرنسا. ولويس الثامن عشر هو أحد العائدين بعد غياب طويل، وأحد الناجين هرباً بين جماعة النظام القديم، وهو لم يتعلم شيئاً في المنفى. ومهما قال ومهما أعلن، فلن يكون هنالك أمن أو سلام إلا بالعودة إلى الوراء!

فانحنى «نيقولا» نحو «صوفيا» وسألها:

- من هذا السيد؟

فهمست في أذنه:

- إنه شاب متميز، ولكنّ به شيئاً من الخبل، اسمه: «أوغستان ففاسور» ويدير مكتبة «الراعي الأمين» التي رأيتها تحت المنزل.

فقال «نيقولا»:

- لا أحب العنف الذي يبديه، إنه يثير لدينا انطباعاً بأنه يريد أن يحطم كل شيء دون أن يستطيع إعادة بناء أي شيء!

وأمنت «صوفيا» على قوله، بإيماءة من رأسها، وقالت:

- لقد وصفته بدقة ببضع كلمات.

فأعادت هذه الملاحظة الطمأنينة لـ نيقولا، وشعر فجأة برغبة شديدة بالاشتراك بالمناقشات المتعلقة بنظام الحكم الجمهوري، والأفكار والحجج التي ترد بشأن هذا النظام. وبعد أن حدج «أوغستان ففاسور» بنظرات ساخرة، قال:

- أيعني هذا، كخلاصة للكلام، أن الدستور حتى ولو كان مطابقاً تماماً لما تحب وتشتهي، ستُعده سيئاً لأنه من عمل أحد الملوك؟

فانتفض «أوغستان ففاسور» ورد، قائلاً:

- نعم، بالتأكيد، أيها السيد! لأن كل ما يكون جيداً وممتازاً في وثيقة من هذا النوع يمكن أن يبقى حبراً على ورق، إذا عمدت الحكومة إلى تشويه وتزوير روح النصوص عندما تطبقها. وأي جدوى لإعلان حقوق الإنسان والمواطن، عندما تتجاهله حكومة «الوفاق الوطني» في أعمالها وتصرفاتها؟ وما فائدة دستور العام «الثامن» عندما لم يتقيد به نابليون ولم

ينظر اليه بالحسبان؟ ولماذا نبتهج منذ الآن بالدستور وبالقوانين الجديدة التي وعدنا بها، ونحن لا نعلم بعد بأي طريقة ستقدم لنا وكيف ستطبق علينا؟ وإذا كان في مجال الآداب، يجب تناسي شخصية الكاتب، عند تقييم أحد أعماله، ففي المجال السياسي تكمن قيمة الإعلان في الثقة التي يوحي بها الشخص الذي يعلنه!

- ومن المؤكد، أن لا ثقة لك بلويس الثامن عشر!؟

فأجاب «أوغستان» بعد أن قهقه بضحكة رنانة:

- لست أنا وحدي، ولا نحن كلنا، الذين لا نثق به، فالقيصر، بخاصة، يعطينا المثال بوجوب اتباع الحذر والتبصر بكل تعقل وحكمة في هذا الموضوع. فهو وحلفاؤه يشكون كثيراً بنوايا ملكنا، الحسنة التي أعلن عنها، لدرجة أنهم يرفضون الرحيل قبل أن يعرفوا المصير الذي يخبئه لنا!

- وما الذي يخشونه، حسب رأيك؟

- إيه! قسماً إنهم يخشون أن يفقد صاحبنا «البوربوني المسن» صوابه ويتصرف بشكل يؤدي إلى اندلاع الثورة من جديد، بعد أن يبدو محافظاً أكثر مما ينبغي! إنهم يدعونه إلى اتباع «الليبرالية» وإلى شيء من التحرر والتقدم. وعليك أن تعترف أن الوضع عند ذلك يصبح شائكاً وحرجاً!

فتمتم «نيقولا»:

- إني لا أدري لماذا يصبح الوضع هكذا!

- على رسلك، أيها السيد، فهذا أسوأ بالنسبة لك! أما بالنسبة لي، فإني معجب بهؤلاء الأمراء الكبار، الغيورين جداً على نظام حكمهم الاستبدادي في روسيا، في النمسا وفي بروسيا،

ويضغطون على لويس الثامن عشر بأن يقيم في بلاده مؤسسات برلمانية حقيقية وجادة، وأن ينشر الحرية والمساواة وأن يطبق مبدأ التمثيل الوطني، ويجعلون من أنفسهم أبطال هذه الأمور في فرنسا، ألا تعتقد أنهم لو فعلوا ذلك في بلادهم لاعتبر عملهم هذا، قدحاً في الذات الملكية؟ وجريمة شائنة يعاقبون عليها؟!

فقال «نيقولا»:

- إنه من الطبيعي أن يكون لكل بلد النظام الذي يتفق مع تاريخه، مع وضعه الجغرافي، مع مناخه ومع العبقرية الخاصة بجنسه...

- إنك لن تؤيدني، مع ذلك، إذا قلت إن العبقرية الخاصة بالجنس أو بالعرق تبرر العبودية التي يعيش فيها الكثيرون من أبناء وطنك!...

ونيقولا الذي اضطرب لهذه الصدمة، أخذ يتساءل عما إذا كان يوجد رد آخر على مثل هذه الإهانة، سوى الصفعة. وأخذ يضم قبضتيه ويشد عليهما وهو يبحث عن كلمات يرد بها، بينما كان غضبه يحتدم ويتزايد. وقد اتجهت نحوه النظرات الساخرة، وكاد ينفجر غيظاً، عندما سمع صوتاً عذباً، إلى يساره، يقول:

- يا سيد «ففاسور»، يبدو لي أنك نسيت التاريخ الذي تم فيه تحرير آخر العبيد في بلادنا!

فارتعش «نيقولا» من السعادة: فها هي «صوفيا» تتبنى قضيته وتدافع عنها دون أن يطلب منها ذلك.

وتابعت بهدوء وهي تبتسم:

- لقد حصل ذلك بتاريخ الرابع من آب (أغسطس) سنة ١٧٨٩! أي أنه لم يكد يمر عليه نحو ربع قرن من الزمن! وليس هنالك ما يدعو

للفخر، بالنسبة لأمة مستنيرة! أما عبودية الزنوج، وعلى الرغم من كل آراء ومبادىء فلاسفتنا، فإنها لا تزال قائمة وموجودة! ومع ذلك تريد أن تعطي دروساً بالتحرر إلى وطن بطرس الأكبر، هذا الوطن الذي لم يخرج من ظلمات القرون الوسطى إلا منذ قرن، على وجه التقريب؟ أترك لروسيا وقتاً كي تلحق بنا على طريق التقدم! فأنا متأكدة أن أفكارنا ستعبر عما قريب، حدود الشمال. وهناك، كما هي الحال هنا، فإن العقول المولعة بالعدالة، بالمساواة وبالاستقلالية، سوف تدعم وتؤيد قضية الفرد حيال الدولة. كانت تلتمس بنظراتها تأييد «نيقولا» وموافقته على ما قالت. وهو وإن كان لا يشاطرها هذه الآراء المخربة، لم يستطع أن يفعل أقل من أن يتمتم:

- ولكن هذا أمر مؤكد!... لأن من المستحيل التفكير بأن روسيا ستظل بمنأى عن... عن التحرك الإنساني العظيم الذي تشيرين إليه!

وهذا التصريح، الذي لم يكن، هو نفسه يتوقعه، استقبل بموجة من الرضا والاستحسان. وأشرق وجه «صوفيا» وشعرت كأن رجاءها قد استجيب. وظل «أوغستان ففاسور» حائراً، يعض شفتيه. أما السيد «بواتوفان» فقد قال:

- هذا كلام يكسبك رفعة وشرفاً، أيها السيد، هل أنت عسكري محترف؟

فأجابه «نيقولا»:

- كلا، لقد دعيت إلى الخدمة، عندما نشبت الحرب.

وحصل لديه انطباع، بأنه بسبب بعض الظروف والمصادفات التي رتبها القدر، فهو سيصبح أول ضابط ثوري في الجيش الروسي. وأخذ بعض

الحاضرين، بشكل مفاجيء، يحيطونه بالابتسامات وبمظاهر التكريم. وكان يعيش في جو من سوء التفاهم المزعج. وسأله السيد «بواتوفان» بشكل ينم عن شيء من التواطؤ، عن أوضاع الفلاح الروسي، الحالية. فكان على «نيقولا» أمام الجماعة الحاضرين المتعطشين والمتشوقين للعدالة الاجتماعية، أن يرثي لحال الفلاحين الروس، ففعل ذلك وهو يشعر بشيء من الحرج. وكانت» صوفيا» تشجعه، مولية إياه انتباهاً خارقاً للعادة. ومن جهته هو، فقد كان يتأملها، ومن أجلها تقبل العار، بقوله:

- إن معظمهم، بالحقيقة، في غاية البؤس... نعم، فالسيد الملاك يستطيع أن يوقع عليهم عقوبات جسدية، وأن يرسلهم كي يخدموا في الجيش مدة خمس وعشرين سنة... والعبد يشترى في روسيا مع الأرض أو من دون الأرض... أما الأسعار؟... أوه! أعتقد أني أتذكر أن الرجل من هؤلاء العبيد يساوي مبلغاً يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة «روبل» في «سان بطرسبورغ»... أما في الريف، فالأسعار أقل ارتفاعاً...

وكانت تسمع من حوله، أصوات تنم عن الدهشة والغيظ:

- أتسمعون؟! يا للفظاعة! آه! يا لهم من أناس مساكين!

وسأله أحدهم:

- ولكن، أنت نفسك، هل لديك عبيد؟

فأجابه «نيقولا»:

- ليس أنا، ولكن أبي...

- وكم عددهم؟

- نحو ألفي نفس، على وجه التقريب.

وبدا أن كلمة «نفس» هذه، قد أقلقت بشكل غامض يصعب تفسيره، جميع الحاضرين، وشوشت أفكارهم. وكان «نيقولا» يشعر، شيئاً فشيئاً

أنه يزداد تأرجحاً بين سروره بإحداث كل هذا التأثير الكبير بما يبديه من معلومات، وبين الندم وتبكيت الضمير الذي يلحقه بسمعة وطنه، في الأوساط الفرنسية. وقال:

- كل هذا مؤسف ومؤلم! ولكنها العادة... وهي عادة قائمة ومستقرة بقوة...

فتساءل السيد «بواتوفان»:

- ولا أحد يثور أو يتمرد؟

فقال «نيقولا»:

- بلى، يحدث أحياناً، ومن وقت لآخر، هياج شعبي يقوم به بعض القرويين، ولكنه يقمع بسرعة وبقوة!

وقال «أوغستان فغاسور»:

- أعرف سبب ذلك: إنهم ينقصهم التعليم، والقيادة الحكيمة والحاسمة...

فهز «نيقولا» رأسه، وقال معترضاً:

- حتى وإن أصبحوا متعلمين، ولهم قيادة جيدة، فإنهم لن يريدوا قلب نظام الحكم الذي يضطهدهم. وأكثرهم جرأة وشجاعة يناضلون أحياناً ضد السيد، الملاك السيء، ولكنهم لا يذهبون أبداً إلى أبعد من ذلك...

- هل يخافون من القيصر؟

- كلا، أيها السيد، إنهم يحبونه ويحترمونه، ولا يلومونه على بؤسهم أكثر من لومهم الله لأنه خلقهم. فهذا بالنسبة لهم مسألة إيمان.

فقطب السيد «بواتوفان» حاجبيه وغمغم:

- ومع ذلك، ينبغي أن نأمل أنهم سيشعرون، شيئاً فشيئاً بأن لهم حقوقاً، وأن السلطات العامة، من جهتها...

فقال «نيقولا» بسرعة:

- نعم، ينبغي أن نأمل ذلك...

وقطعت السيدة «بواتوفان» سياق الحديث، عندما جلست إلى «المعزف القيثاري» وكانت كالتفاحة في اتساقها ولمعانها، وتحلق الجميع حولها. ويبدو أن هذا الفاصل الموسيقي، الترفيهي، كان أحد التقاليد المتبعة في مثل هذه الاجتماعات. وجلست فتاة شابة قرب نبتة خضراء، وأخذت تغني بخمول وبصوت رتيب:

أيها العصفور الجميل، إذا أتيت

من البلاد، التي فيها الناس يحبون...

أخذ «نيقولا» يسترد قواه بعد معركة مضنية، وهو يقف خلف الأريكة التي تجلس عليها «صوفيا»، التي كانت تلتفت من وقت لآخر، وتلقي عليه نظرة تبدو وكأنها تشكره بها وفي الوقت نفسه تطلب منه شيئاً ما. ولم يرد بعد ذلك، وحتى نهاية الأمسية أي ذكر للسياسة. وعندما أخذ «نيقولا» و «صوفيا» يستعدان لتوديع آل «بواتوفان»، طلب منهما هؤلاء الحضور يوم الأحد التالي، بعد تناول طعام العشاء:

ربما يكون بين ضيوفنا «بينجامين كونستان» و «مدام دي ستايل»...

فاعتذرت «صوفيا» عن الحضور، على الرغم من هذا التوقع المغري: لأنها في ذلك اليوم مدعوة إلى مكان آخر، أما «نيقولا» فلم يكن لديه أي رغبة بالعودة من دونها وبمفرده إلى صالون، كان يعتقد أنها تشكل فيه، بالنسبة له، الإغراء وعامل الجذب الرئيسي. وفي العربة التي عادا فيها معاً إلى المنزل، لامته على عدم تآلفه، وقلة تحليه بالروح الاجتماعية، قائلة:

- لقد أخطأت برفضك الدعوة. كان عليك أن تفكر جيداً: «مدام دي ستايا» و «بينجامين كونستان»!... لن تتاح لك فرصة أخرى لكي تراهما...

فرد، قائلاً:

- إن رؤيتهما، دون أن تكوني معي، لا تهمني!

وقد تلفظ بهذه الجملة بمزيد من السرعة، لدرجة أنه دهش من ذلك، وكأنها صدرت عن شخص ثالث، كمداخلة في الجدل والنقاش. وشعر بحنان شديد الغليان يتصاعد في ذهنه ويغمر الجزيرات الأخيرة في عقله، وأحس أنه وصل إلى تلك الدرجة من التأثر والانفعال، التي عندما يبلغها لا بد له من أن يرتكب حماقة ما. وتابع كلامه، قائلاً:

- ألا تستطيعين، حقاً، التحرر من ذلك الموعد؟

فأجابته:

- كلا، فقد وعدت منذ مدة طويلة صديقتي السيدة «دي شارلاز» أن أحضر مع والدي حفل العشاء الذي تقيمه يوم الأحد...

فلم يستطع أن يلتقط أنفاسه. ولو أنه تلقى سطلا من الماء البارد على رأسه لما أزال سكره وجعله يصحو أكثر مما فعلت عبارتها: «صوفيا» في منزل «دلفين» وهو سبق له أن رفض الذهاب إلى هناك! ولا شك أن هكذا أفضل. ولكن السحر قد زال. وظل يتجنب النظر إلى المرأة الشابة وهو مستغرق في صمت مخادع.

وأضافت، هي، قائلة:

- وعلاوة على ذلك، فأنا أعتقد أنك تعرفهم.

فغمغم:

- من؟

- «آل شارلاز» فقد حدثني أبي أنكما قمتما بزيارتهم معاً، عندما كنت أنا وأمي في «ليموج»

- فعلاً، هذا صحيح...

- فيما مضى، كنت ألتقي بدلفين كثيراً. ولكن، بعد أن تزوجت، أخذ مصير كل منا وجهة مختلفة عن وجهة مصير الأخرى...

وظلت الجملة معلقة، لم تكتمل بالنسبة لـ نيقولا، فقد كان شارد الذهن، يطلب في سره من أحصنة العربة أن تزيد من سرعتها، وبدت وكأنها قد انصاعت لطلبه، فها هو باب منزل آل «لامبرفو» يفتح على مصراعيه، وتدخل منه العربة مسرعة.

وحالما تناولت «صوفيا» العشاء مع والديها، صعدت إلى غرفتها. كانت تشعر بالحاجة لأن تخلو إلى نفسها، لكي تستعيد في ذاكرتها تفاصيل زيارتها لآل «بواتوفان». والحقيقة هي أنها من كل ما رأته وسمعته عندهم لم تتذكر سوى وجه وحركات وأحاديث «نيقولا أوزاريف». كانت تفكر به وبسيمائه التي تنم عن الصدق والقوة، وبنبرات صوته الجادة والوقورة، بشعره الأشقر، بزرقة عينه التي تشبه زرقة البحر، وبخاصة عندما يوجّه نظراته إلى جهة الضوء، وكل ذكرى كانت هكذا تستعيدها تزيد من اضطرابها وقلقها حيال نفسها. فلم يسبق لها طوال حياتها أن شعرت بمثل هذا الاضطراب. كانت سعادتها تشبه ضيقاً في التنفس. وقالت في سرها: «أحبه!»، قالتها بمزيد من الخشية وكأنها تكتشف أنها مصابة بمرض مميت. وبالفعل كانت هذه، بالضبط، أسوأ مغامرة يمكن أن تحدث معها! شخص أجنبي! ضابط في الجيش الذي يحتل باريس! آجلا أم عاجلاً، فهو سيرحل!... والحكمة تقضي بمقاومة هذا الانجذاب. وبقدر ما تستطيع المقاومة والابتعاد بقد ما يصبح الفراق والانفصال أقل صعوبة وتمزقاً. وفي تلك اللحظة، أدركت أنها تفكر كما لو أنها كانت تعرف مشاعر

وعواطف «نيقولا» كما تعرف مشاعرها وعواطفها بالذات ومع أنه لم يسبق له أبداً أن صرح لها أنه مولع بها، ولكنها كانت تقرأ ذلك، في كل لقاء يتم بينهما، في عينيه. وكم من مرة، خلال تلك اللقاءات، كان قد ضمها بين ذراعيه، دون أن يكون جسماهما قد اقترب أحدهما من الآخر! وقرع الباب، فارتعشت، وهي تفكر برجل شاب، مزهو، يرتدي بزة عسكرية معادية. كانت تلك وصيفتها. فقالت لها:

- كلا، سأخلع ملابسي بنفسي.

وابتعدت الخطوات، ولم يكن لـ صوفيا من رفيق، سوى صورتها التي تعكسها المرآة. ولكنها كانت تتحاشى النظر إليها: فهي تخشى أن تجد نفسها أكثر جمالا من أن تعيش في العزلة. وبأي ثمن، عليها ألا تحن أو تميل إلى «الزوجين» اللذين يمكن أن تكوّنهما مع «نيقولا». وقد هنأت نفسها لأنها رفضت بإصرار رجاءه بالتخلي عن دعوة «دلفين» لها لتناول طعام العشاء: «نعم، هكذا أفضل. أفضل بكثير!»، واقتربت بصورة تلقائية من النافذة المفتوحة. كان الظلام قد خيم على الحديقة. وفجأة تبينت شكلا أسود، قرب المقعد الحجري. إنه «نيقولا» وقد وقف عبر الظلام، لا يبدي حراكاً، وكأنه ينتظر. وفوجئت «صوفيا» بفرحة عارمة، فأرادت أن تقفز، أن تسرع نحوه، وتلقي نفسها على صدره وبين ذراعيه، ولكنها غيرت رأيها، وعدلت عن ذلك. فقد حصل لديها تركيز شديد في الطاقة، وتحولت أفكارها لتصبح كالحديد. وبكل عزم وتصميم، أغلقت النافذة. فوصل صوت صدمة المغلاق وهو يطوى إلى دماغها وأحدث فيه ألماً.

١٠

عند الساعة الحادية عشرة، بدأ المدعوون بالانصراف. ورغبت «دلفين» أن تستبقي «صوفيا» ووالديها لمزيد من الوقت، مع بعض الأصدقاء المقربين. ولكن إذا كان السيد «دو لامبرفو» يريد عن طيب خاطر تمضية المزيد من الوقت، فإن زوجته وابنته كانتا تودان العودة بسرعة إلى المنزل.فوجبة العشاء التي استمرت فترة طويلة، والثرثرات التافهة أتعبتهما كلتيهما. وعلاوة على ذلك، فإن «صوفيا» كانت تشعر بالتعب وبالملل، أكثر من أمها.

وقال لها الكونت في العربة العائدة بهم إلى المنزل:

- إنك تنتمين إلى جيل حزين يا ابنتي. وفيما مضى، كان الأشخاص الذين في مثل عمرك، يجري الزئبق في أوردتهم. وتمضية ليلة بيضاء، دون أن يغمض لهم جفن لم تكن تخيفهم!

فتنهدت زوجته:

- ذكرياتك تضفي الجمال على كل شيء يا صديقي. فأستأنف السيد «دو لامبرفو» كلامه، وقال:

- على أي حال، لقد وجدت «دلفين» أكثر جاذبية من أي وقت مضى. وأعتقد أنها على تفاهم تام مع ذلك العقيد الشاب في الجيش الملكي، الذي كان يجلس في الجهة المقابلة لها، على المائدة، واليوم الذي يصبح فيه قلبها غير مشغول بأحد، ستبدو وقد تقدمت بها السن عشر سنوات! ومن حسن الحظ

أن البارون يحبها كثيراً لدرجة أنه لا يتمنى لها مثل هذا الانحطاط!...

فقالت السيدة «دو لامبرفو» بحزم:

- عليك ألا تكثر من اللغو والتحدث عن الترهات!

فهي لم تكن ترضى أن يروي زوجها الأحاديث الإباحية، بعد تناول وجبة دسمة، والأحاديث نفسها لو رويت قبل الطعام، مع الشعور بالجوع، يكون لها بعض النكهة، ولكنها تبدو لها فظّة أثناء عملية الهضم.

ولأنّ الكونت يعرف نقطة الضعف هذه، عند زوجته، فقدألحّ بدافع من المشاكسة:

- إني أتكلم بجدية تامة، يا عزيزتي! وكياسة مضيفتنا، وملاطفاتها، هي كل ما يميزها..

وكانت «صوفيا» تسمعهما يتناقشان باللامبالاة نفسها التي تسمع بها صوت سقوط المطر. ومع اقتراب العربة من المنزل، أخذت أفكارها تصبح أكثر إلحاحاً عليها وازعاجاً لها. فهي، منذ يومين، تتحاشى الالتقاء مع «نيقولا». ومساء ذلك اليوم، ذهبت مع والديها لتلبية دعوة السيدة «شارلاز» قبل أن يعود من الثكنة. فهل ستأوي إلى سريرها دون أن تراه ثانية، أم أنها ستجده واقفاً في زاوية الرواق أمام المكتبة، أو في الحديقة تحت نافذتها؟ كان قلبها يدور، ويركض مع عجلات العربة.

استيقظ أحد الخدم ليستقبل الأسرة في الرواق. ولاحظت «صوفيا» وجود مصباح مشتعل عند منفذ الرواق المؤدّي إلى غرفة «نيقولا». وسمعت وقع بعض الخطوات. فانكمشت. إنها لم تخطيء في توقعها، إذ إنّ قامة طويلة برزت من الظلام.

فصاح الكونت:

- ها أنت! ألم تنم بعد؟

فقال «نيقولا»:

- كلا، هل أمضيتم أمسية ممتعة؟

- ممتازة! أكل من غير جوع، وشرب دون شعور بالعطش، وكلام لا نقول، ولا نعني به شيئاً، ومغازلة نساء لا نحبّهن أبداً، أليس ذلك في زمننا هذا، منتهى الظرف واللباقة؟ ولكن، أنت، يا عزيزي، ماذا جرى لك؟ يبدو لي، منذ بعض الوقت أنّ الجيش قد استأثر بك واحتجزك عنا!..

فأبدى «نيقولا» ابتسامة لا تنمّ عن الفرح، ووقعت عيناه على «صوفيا». فأخذ يصرح لها بشيء عبر الصمت، ولكنها لم تفهمه. فلم يسبق لها أبداً أن رأته مضطرباً، حائراً إلى هذه الدرجة. وخشيت أن يبوح بسرّه أمام الجميع.

وقال «نيقولا»:

- لقد سمعت للتو خبراً مهماً جداً، بالنسبة لي.

فقال الكونت:

- آه؟ تعال إذن.. علينا ألا نبقى هنا، عرضة لتيار الهواء..

ودخلا إلى الصالون، حيث أشعل الخادم مصباحين. وتطاولت الظلال، وتكسرت رؤوسها على السقف. وجذبت السيدة «دو لامبرفو» ابنتها لتجلس قربها على إحدى الأرائك.

وتمتم «نيقولا»:

- بعد ظهر هذا اليوم، تلقى فوجي الأمر بالتحرك. سنغادر باريس بعد أربعة أيام، أي في الثالث من حزيران (يونيو)، عند الفجر.

فبدا لـ صوفيا أنّ رأسها أخذ يفرغ مما فيه، وأنّ هدير المياه المنبعثة من أحد الينابيع قد ملأ الجو وأخذ يظفي على جميع الأصوات التي تحيط بها.

وكانت رغبتها الوحيدة، عبر هذه الفوضى، هي أن تحتفظ بالهدوء على وجهها.

وغمغم السيد «دو لامبرفو»:

- كان هذا متوقعاً، وقد سمعت أنّ الأمبراطور «أليسكندر» نفسه، يستعدّ أيضاً للرحيل...

- نعم، غداً، ستقوم جميع أفواج الحرس بالعرض للمرة الأخيرة في باريس، أمام جلالته. وسنذهب بعد ذلك، على فترات متقاربة، إلى «شيربورغ» حيث تنتظرنا هناك بعض البواخر الروسية لكي تقلّنا إلى «كرونستاد»..

كان وهو يتكلم، يراقب» صوفيا» بانتباه ينمّ عن التوسّل. ولكم كان يودّ لو أنها تعبرّ بنظرة رداً على الحزن الذي كان يكابده! ولكنها بقيت هادئة الأعصاب مغلقة الوجه، متباعدة، كما لو أنّ ما كان يقوله لا يهمها ولا يعني شيئاً بالنسبة لها. وقد جرحته هذه اللامبالاة. وتبادر إلى ذهنه: «آه! لقد كنت مخطئاً! فهي لا تكنّ لي أي عاطفة حارّة. كان حضوري يسليها سابقاً، أما الآن، وأنا أهمّ بالرحيل، فقد تحولت عني وأخذت تتجاهلني..

كان فستانها الأبيض العاجي مبقعاً بعقد من المخمل البنفسجي، والضياء يتصاعد من كتفيها العاريين نحو وجهها: وكل هذا السحر، وكل هذا الجمال، أيمكنهما حقاً أن يحتويا روحاً قاسية؟

وبدا السيد «دو لامبرفو» أكثر إنسانية من ابنته، عندما قال:

- إني شخصياً، شديد الأسف لكونك ستغادرنا قريباً!

ومع ذلك، فإني أتصور أنك بعد اغترابك طوال شهور عديدة، لا بد أن تكون سعيداً بالعودة إلى وطنك.

وأضافت الكونتسية على ما قاله زوجها:

- ولا بدّ أن يكون والدك وأختك ينتظران عودتك بفارغ الصبر!

فقال «نيقولا»:

- هذا مؤكّد، حتى أنّ التفكير بهما هو الذي سيواسيني عن فراقكم عندما أغادر منزلكم..

كان صوته خافتاً، ينمْ عن الضيق.

واستأنف الكونت الكلام، قائلاً:

- قلت لي إنّ موعد السفر هو يوم الثالث من حزيران (يونيو)؟

- نعم، يا سيدي.

- إذن يسرّنا أن تتناول معنا هنا طعام العشاء يوم الاثنين من حزيران، وسيكون ذلك على أبسط صورة.

كان تأثر «نيقولا» أشد من أن يسمح له بالكلام، لذلك فقد وافق بإيماءة من رأسه، وبعد أن استجمع قواه، تمنى ليلة سعيدة للكونت، والكونتسية، ألقى نظرة مأساوية على «صوفيا» وخرج مسرعاً. وبعد ذلك بقليل، تركت «صوفيا» والديها وصعدت إلى غرفتها. والسيدة «دو لامبرفو» وقد بقيت وحدها مع زوجها في الصالون، همست له:

- ألم تلاحظ؟

فسألها الكونت:

- ماذا؟

- صوفيا..

فقال:

- نعم، كان يمكنها أن تبدو أكثر لطفاً مع هذا الشاب المسكين..

فصاحت الكونتيسة:

- أحقاً؟ حسن، ولكن، ليس هذا رأيي! أو أني مخطئة جداً، أو أنّ الوقت قد حان تماماً لكي ينصرف صديقك الروسي من هنا!

☆☆☆

الجنود الذين تجمّعوا منذ الساعة التاسعة صباحاً على طريق «نويّي»، لم يبدؤوا العرض إلا عند الظهر تماماً. وكان القيصر، والدوق الأكبر «كونستتان» وامبراطور النمسا وملك بروسيا، يتلقّون التحية، في ساحة النجمة. أربعون ألف رجل يتحركون مشاركين في العرض، وكان نيقولا وهو يسير في طليعة فصيلته متصلب العنق، ثابت النظرات، وكأنّ في ساقيه نوابض.

وعندما وصل الفوج إلى قبالة القيصر، هتف أفراده سوية وبصوت واحد:

- الصحة والسعادة لجلالتك الأمبراطورية! مرحى! مرحى! هورّاه! هوارّه!

وكقصف الرعد زعزعت هذه الأصوات الروسية أحجار باريس. ثم استؤنف قرع الطبول من جديد، لكي يسير الجنود على ايقاعها.

وعندما عاد «نيقولا» إلى الثكنة، يغطيه الغبار متعباً وعطشانً، أخبره الرائد «دوباخين» بنبأ أدهشه: لقد توفيت الأمبراطورة «جوزفين» بعد مضاعفات وعكة أصيبت بها بسبب البرد. وقد نشر النبا هكذا حرفياً في صحيفة: «المناقشات»، ولكن لكي يتحاشى الصحفي ذكر علاقة المتوفّاة بنابليون، لم يسمّها الا: «بأم الأمير أوجيبن». وأعاد «نيقولا» بحزن قراءة النبأ، فقد تذكّر زيارته القريبة العهد، لحدائق قصر «مالميزون» ولكم كان سعيداً، خالي البال آنذاك، وهو يضحك بكل بهجة وسرور مع رفاقه! وبعد مرور بضعة أيام، كل شيء قد أظلم وانهار في هذا العالم! وكانت الصحف لا تزال تتحدث عن انتهاء المباحثات الدبلوماسية، وعن رحلة الأمبراطور «أليكسند» المقبلة إلى انكلترا، وعن وداع الجنرال «دي ساكين» لباريس، وكان نيقولا يتبين بين أسطر هذه المعلومات الموجزة الفرحة التي تعمّ فرنسا كلها لرؤيتها جيوش الاحتلال ترحل عن أراضيها.

وفي اليوم التالي، الواقع في ٣١ أيار (مايو)، الساعة الخامسة بعد الظهر، أعلنت طلقات المدفعية عن توقيع معاهدة الصلح.

فخرج «نيقولا» مع اثنين من رفاقه من الثكنة، مسرعين إلى ساحة «قصر- بوربون»، حيث، كما قيل لهم، سيتلو أحد المنادين إعلاناً موجهاً للشعب، ووصلوا إلى هناك وسط الفوضى والازدحام الشديد، ولمحوا من بعيد، كثيراً من العقبات العسكرية، والعديد من الرايات والأعلام التي تزينها أزهار الزّنبق، وسمعوا عبر سور كثيف من الرؤوس، صوتاً قوياً ينادي:

- يا سكان باريس، لقد عقد للتو الصلح بين فرنسا والنمسا وروسيا وانكلترة وبروسيا. والمعاهدة التي تضمن ذلك وقعت بتاريخ ٣٠ أيار (مايو). ابتهجوا بنبأ هذا الإنجاز الحسن الذي يحقق جانباً من السعادة التي تنتظركم في ظل الحكومة الأبوية التي سيشكلها الأمير الذي أعادته إلينا العناية الآلهية.»

واتجه الموكب الرسمي نحو جادّة «سان جرمان»، بعد أن حظي بكثير من الهتافات، وقذف العقبات في الهواء، والحركات والإشارات الحماسية تحية له. وفي صفوف الجماهير، لم يكن أحد يعير انتباهه للضباط الروس، لاعتقاد الجميع، أنهم قد رحلوا!

وعاد «نيقولا» مع رفيقيه إلى الثكنة. كانت الباحة تغص بالحقائب، بالسلال وبمختلف الأمتعة. وكان بعض الخفراء يتولّون حراسة صف من العربات ملأى بالحوائج. وفي الأبنية، حيث كانت جميع النوافذ مفتوحة أخذ الجنود يفرغون غرفهم من محتوياتها، ينفّضون ملابسهم، ويلمّعون أسلحتهم وهم يغنّون. فهم فرحون على الأقل، بالعودة إلى بلادهم. ولم يكونوا قد عرفوا من باريس، سوى جدران الثكنة، وبعض الشوارع الفسيحة، حيث كانوا، في أيام الأعياد والاحتفالات، يسيرون في

الاستعراض بخطوات موزونة على إيقاع الموسيقا، بمظهرهم الرائع وأدمغتهم الفارغة. وكثيراً ما كان «نيقولا» يغبطهم على بساطتهم. لو أنه فقط استطاع أن ينسى «صوفيا»! وبقدر ما كانت تتهرب منه، بقدر ما كان يتأكد له بأنه لن يحب سواها حتى آخر يوم في حياته.

ويوم الثاني من حزيران (يونيو) في موعد العشاء الوداعي، ارتدى «نيقولا» بزّة الاحتفالات، آملا أن يدهش مضيفيه بروعة هندامه. ولكنه عندما رأى «صوفيا» قبالته، على المائدة، خذلته طاقته العصبية التي كانت تشد أزره حتى تلك اللحظة.

كان عليه أن يبذل جهداً لك يتناول الطعام ويشارك في الأحاديث. وعندما كانت تلتقي نظراته مع نظرات المرأة الشابة كان يتلقى منها ما يشبه طعنات الخناجر، والبرود التي أظهرته له فيما مضى، أخذ يبدو الآن عداءً مكشوفاً، وقد تذكر أنه رأى هذا الوجه القاسي عندما التقى بها للمرة ألولى، في المكتبة، لدرجة أنه قد خيّل له أنها تلومه اليوم على رحيله، كما لامته فيما مضى، على قدومه. واللحظة الأكثر مشقة وحرجاً، كانت لحظة تناول الحلويات، بعد الانتهاء من تناول الطعام.

فقد أعتقد السيد «دو لامبرفو»، وهو يرفع كأس الشمبانيا، أنه من الضروري أن يلقي كلمة يحيي فيها تفاهم الناس الطيبين، عبر حدود بلدانهم. وقال إن هذه الحرب وإن كانت دامية، فيمكن القول أنها عملت على تقارب الشعوب. وأنهى خطابه بتحية الجيش الروسي، وبخاصة الضابط، الذي يشعر هو، كرّب بيت، أنه نال حظوة بإيوائه تحت سقف منزله. فشكره «نيقولا» على كل ما قدمه له، وعلى ما عمله من أجله، قائلاً:

- إني طوال إقامتي في باريس، كنت أشعر أني أعيش في جو عائلي، مع أسرتي، وذلك بفضل عنايتك، وكنت معجباً بفرنسا قبل

أن أعرفها، والآن لست معجباً بها وحسب، بل إني أحبها أيضاً..

واحمرّ حتى أذنيه. وهو يقول ذلك، لأنّ في تصوره، لم تكن فرنسا وصوفيا يشكلان سوى كيان واحد. ولكنّ المرأة الشابة بدت لا مبالية بهذا التصريح، الذي ربما غاب عنها معناه، وظلّت تنتظر، جميلة وصامتة نهاية الوجبة بملل واضح.

ومهما بدا ذلك غريباً، فإنّ أمها كانت أكثر تأثراً وانفعالا منها. أمّا الكونت، وهو الخصم اللدود لإطالة أمد فيض العواطف، فقد عمد، من جهته إلى إضفاء بعض المرح على عملية الوداع، قائلاً:

- إيه! أين المشكلة؟! أنت لن تسافر إلى القمر، ولا إلى المجهول، يا صديقي الشاب! وفي أحد الأيام، أو في يوم آخر، سوف تتاح لك الفرصة لتعود إلى فرنسا!

فتمتم «نيقولا»:

- كلا، يا سيدي، إني لن أعود.. لن أعود أبداً، وعلى الإطلاق!

كان يشعر بتقلّص شديد في حلقه، وكأنّ غشاوة قد غطّت عينيه. فتناول كأسه، أفرغه جرعة واحدة، وهو آسف لأنه لم يستطع أن يقذفه كي يتحطم على الجدار، كما هي العادة في حفلات السكر التي يقيمها الضباط.

٭٭٭

كانت باريس لا تزال مستغرقة في النوم عبر ضباب الصباح الباكر. والشوارع المقفرة كانت تبدو واسعة، بشكل غير طبيعي. وبين صفّين من واجهات المنازل المغلقة النوافذ، كان أفراد الحرس الليتواني، يسيرون بصفوف متراصّة جنباً إلى جنب، مؤلفة من خمسة رجال. وكان «نيقولا» و

«روزنيكوف» يسيران على صهوتي جواديهما في طليعة فصيلته من رماة القنابل. وبعيداً أمامهما، كان علم الفوج يتأرجح في غلافه المصنوع من الجلد الأسود، وكانت المزامير والأبواق والطبول تعزف ألحاناً مرحة، طافحة بزقزقة العصافير وتدحرج الجروف الثلجية، التي تتجاوب فيما بينها. وأحياناً، يحدث كما حدث يوم دخول الجيوش المتحالفة إلى باريس، أن تفتح إحدى النوافذ، ويطل وجه رجل استيقظ من نومه، لينظر في الفراغ. ولكنّ الأمور قد تغيرت، وحلّ الأمل مكان الخوف. والفلاحون الطيبون الذين يغادرون أسرّتهم، كانوا يهتفون وهم يتنفّسون الصعداء: «انتهى كل شيء..! الروس يرحلون! سفراً سعيداً!.. رافقتهم السلامة!.. كان «نيقولا» يعتقد أنه يسمع هذه الهتافات الجماعية. ولأنّ «صوفيا» لم تستطع أن تجد كلمة حلوة في لحظة الفراق، فقد كان مقتنعاً أنّ باريس كلها تكرهه وتطرده.

وبعد أن اجتاز الفوج الجسر، انعطف نحو ميدان «لويس الخامس عشر»، ثم سار صعوداً في جادة «الشانزيلزيه»، متجهاً نحو ساحة النجمة. والمرحلة الأولى تنتهي في «سان جيرمان». كانت السماء قد أخذت تستعيد زرقتها. وفوق أعمدة «قوس النصر» خيمت سحابة طويلة بيضاء منفتحة على شكل أجنحة، يتطاير ريشها عبر أشعة الشمس. وكان «هيبوليت الجميل» يستنشق بغبطة وسرور نسيم الصباح البارد. وأثناء توقف الموسيقا العسكرية عن العزف، أخذ يدندن بنبرة روسية مخيفة، أغنية «هنري الرابع» التي يحبّها الملكيون الفرنسيون كثيراً:

يا غبرييلّ الفاتنة،

أصبت بألف طعنة، عندما ناداني المجد في أعقاب آلهة الحرب..

فكيف يستطيع هذا الرجل أن يكون سعيداً، في حين أنه، هو نفسه يعترف، بأنه يفارق خليلة له، تركها في باريس؟ إذن، أما أنه لم يكن قد

أحبها حقّاً، أو أنّ لديه قدرة فائقة على التماسك والنسيان. وكان «نيقولا» يشعر بحاجة شديدة للتحدث عن العواطف، لدرجة أنه سأله:

- هل رأيتها البارحة؟

- من؟

- بائعة الحوى الشابة.. «جوزفين»..

فراق قاس، ويوم بائس مشؤوم!

كأني قد فارقت الحياة

عندما حُرمت من الحب..

وكفّ «هيبوليت روزنيكوف» عن الغناء، وقال:

- أوهّ، كلا، يا لها من مسكينة! لقد ودعتها منذ ثلاثة أيام، عبر الدموع والوعود التي تؤيِّدها الايامين المغلظة. ولكن، كما تعلم، فحالما تتنهد المرأة وتبكي، فإني أهرب بسرعة.. وهل تستطيع أن تعرف كيف أمضيت الساعات الأخيرة في باريس؟

فقال «نيقولا»:

- بالقيام بمغامرات وبغزوات أخرى!

فصاح «روزنيكوف»:

- إنك لم تحزر أبداً. وسأبوح لك بسرّ خطير، ولكن، قبل ذلك يجب أن تعدني بأن تحفظ لسانك!

- أقسم لك بأني سافعل ذلك!

فتلفّت «هيبوليت» حوله، كالمتآمر، وهمس في أذن «نيقولا»:

- لقد حضرت بالأمس جلسة أحد المحافل الماسونية الفرنسية!

- وهل أنت ماسوني؟

- لم أكن ماسونياً، ولكنّ الرائد «دوباخين» جرّني إلى هناك. وقد تبيّن لي أنّ الأمر مهم جداً!..

- ولماذا؟

- للنجاح وللوصول لما نريد، ويبدو أنّ الدوق الأكبر: «كونستنتان» ماسوني، وكذلك العديد من الجنرالات وكبار القادة، وبعض مرافقي القيصر هم ماسونيون أيضاً. ولأني أريد أن أحترف الخدمة في الجيش.. آه! لكم كنت أودّ أن تسمع بأذنيك أي مديح كان الأخوة الفرنسيون يكيلونه لقيصرنا في المحفل الذي استقبلنا فيه!..

وأصغى «نيقولا» لبقية الحكاية، وهو شارد الذهن. فقد كانت اهتمامات زميله «هيبوليت روزنيكوف» تبدو له ساذجة وتافهة.

وعند اجتياز حاجز «النجمة» شعر بضيق شديد لإدراكه أنّ الأمل قد انقطع وأنّ ليس هنالك أي حل لمشكلته.

وصاح «روزنيكوف»:

- وداعاً يا باريس!

وكزّ «نيقولا» على أسنانه وكأنه يريد السيطرة على ألم جسديّ. وعندما تبادر إلى ذهنه بأنه لن يرى «صوفيا» بعد الآن أبداً، تدفق اليأس إلى ذهنه، بعد أن كبته زمناً طويلاً. وماذا يعمل على ذلك الطريق بين كل هؤلاء الرجال بملابسهم العسكرية، بينما تبعده كل خطوة يخطوها، عن مبرر وجوده على قيد الحياة؟ وألقى نظرة إلى الوراء. كان الجيش يسير على عرض الطريق ببطء منتظم.

كانت الحراب تلمع، والدخان يتصاعد فوق أسطحة المنازل، ويبدو أنّ النهار سيكون مشرقاً. و «صوفيا»؟ ألا تزال نائمة؟ هل شعرت به وهو يرحل؟ هل هي تفكر به، على الأقل؟ وعلى الرغم من البرود الذي تصنعته، كان يرفض أن يصدق أنها غير مولعة به: «لا يمكن أن أكون مخطئاً إلى هذه الدرجة! لا بد أنّ هنالك سوء تفاهم فظيع!

وها أنا أذهب دون أن أشرح لها الأمر، ودون أن أتفاهم معها، ودون أن أعرف فيما إذا كانت لا تزال تحبني، أو لماذا لم تعد تحبني!..»

واقترب الفوج في مسيرته من قرية «نويّي»، وبناء على أمر أصدره قائد الفوج، غنى المنشدون إحدى أغاني المسيرة، التي نظمت ولحنت في بداية الحرب:

لنغنِّ كيف جذب «كوتوزوف» الفرنسيين إلى بلادنا لكي يرقصوا في موسكو.

بونابرت لا يحب الرقص، لقد فقد أوسمته وأربطة ساقه، ها هو يصرخ: عفواً!..

وناول أحد الجنود بندقيته إلى جاره، ودون أن يخرج من الصف، أخذ يرقص، وقد طوى ركبتيه، وضمّ ذراعيه على صدره. وأخذ رفاقه يشجعونه بالصفير، بالضحك وبالهتافات المدوية. وقد جذب هذا الضجيج بعض الفرنسيين، فوقفوا عند أبواب منازلهم، لمعرفة ماذا يجري هناك. ومن وقت لآخر، كان «هيبوليت روزنيكوف» يدعي أنه لمح فتاة جميلة تقف قرب نافذة أحد المنازل:

- وهذه الشقراء، هل رأيتها؟ انظر! هيا، انظر بسرعة!

ونيقولا الذي تضايق من تعليقات وأحاديث رفيقه، المرحة طلب منه، في نهاية الأمر، أن يسكت، فدهش «هيبوليت» في البداية، ثم استاء، ولم يتبادل الاثنان الكلام، بعد ذلك طوال المسيرة.

وضاحية «سان جيرمان» التي وصل إليها الفوج، تتقدمه الجوقة الموسيقية، الساعة الثانية بعد الظهر، كانت تغص بالجنود الروس من مختلف الأسلحة، القادمين من باريس ومن المناطق المجاورة لها. وكانت العربات العسكرية تزدحم في الشوارع، بحيث كان على الفوج أن يتوقف عند أول تقاطع. وبعد عشرين دقيقة من الانتظار، تلقى «الحرس الليتواني»

الأمر بأن يعود فوجهم أدراجه ويذهب لإقامة مخيمه في أحد الحقول الريفية. وهناك، في إحدى القرى القريبة، صودرت لمصلحة الفوج، بعض السقائف والحظائر والمستودعات. وكان الجنود ينفرزون ويغوصون في القش والتبن وهم يتذمرون معبّرين عن سخطهم:

أين هي الثكنات التي وعدوهم بها؟! إنه لمن المؤكد، مرة أخرى، أنّ جنود «بريوبر جنسكي» وجنود «سيميو نوفسكي»، ستقدم لهم خدمات أفضل من هذه الخدمات التي تقدم لهم.

أما «نيقولا» و «روزنيكوف» اللذان زودا ببطاقة سكن، تصعب قراءة ما كتب عليها، فقد زارا ثلاث مزارع، قبل أن يكتشفا في واحدة منها، مستودع الأدوات الذي خصص لهما.

فألقى «أنتيب» المعاول والرفوش خارج المكان، وأقام فيه بسرعة سريرين بواسطة بعض الألواح الخشبية، وغطى السريرين بقماش الأكياس. ثم صاح:

- ستنام عليه، مرتاحاً تماماً كالسرير الذي كنت تنام عليه في المنزل الكائن في شارع «جرونيل»، يا سيدي!

ومن شدة حزن «نيقولا» شعر بانقباض في صدره:

هذه ليلته الأولى، بعيداً عن «صوفيا»! ولكي يروّح عن نفسه انضم إلى بقية الضباط المجتمعين أمام خيمة قيادة الفوج المنصوبة إلى جانب الطريق. وهناك علم أنه بناءً على أمر معاكس، فإن الفرقة الأولى من الحرس، وحدها، هي التي ستذهب إلى «شيربورغ» لتبحر من هنالك، أما الفرقة الثانية، التابع لها «الحرس الليتواني» فستعود على روسيا عن طريق البرّ. وقد سُرّ «روزنيكوف» ورفاقه كثيراً بهذا النبأ، لأنّ جميع الأفواج التي ستسلك طريق البر، سوف تتجمع أولاً، في برلين، على ما يقال، للمشاركة في الاحتفالات التي يقيمها ملك بروسيا.

وعلّق على ذلك «هيبوليت الجميل»، قائلاً:

- من جهتي، سأكون سعيداً جداً بمقارنتي حسناوات برلين بحسناوات باريس.

فأولاه «نيقولا» ظهره، وابتعد، فهو لم يعد باستطاعته أن يتحمل أي مزاح أو دعابة. ولحق به وصيفه ليخبره بأنّ وجبة عشاء ستقدم للضباط في باحة المزرعة، فرفض «نيقولا» الذهاب إليها: إنه لم يكن جائعاً. وحتى حلول الظلام، ظل يتجول في الحقول، حيث كانت تشتعل هنا وهناك نيران المخيم. كانت إحدى الفصائل تتناول أسلحتها لتذهب وتتسلّم الحراسة، بينما أخذ بعض الضباط يلعبون الورق مستخدمين أحد الطبول كمنضدة.

وهنالك ساع عائد عبر الحقول، على ظهر حصانه المتعب. وكان حلاق الفوج يحلق أحد الرؤوس، وهذه الصور التي سبق لـ نيقولا أن رآها مئة مرة أثناء الحرب بدت له اليوم وكأنها تمثل وتصور حياة شخص آخر. وأخذ رنين الأجراس، المعتاد، يتردّد في زوايا المخيّم الأربع: الحساء، التفقّد، ومنع التجوّل.. وبعد التفقّد، فتش «نيقولا» المستودع الذي كان يقيم فيه أفراد فصيلته، ثم أسرع، وكأنه أصيب بالحمى، بالعودة إلى كوخه الخشبي. و«هيبوليت روزنيكوف» الذي كان واقفاً أما الباب، يدخن سيجاراً استقبل صديقه، بصيحة ساخرة:

- أعائد أنت لتنام منذ الآن؟

فأجابه «نيقولا»:

- كلا، إني مسافر!

فاشرأب «روزنيكوف» قليلاً، وحملق في وجه صديقه:

- كيف يحصل ذلك، ولماذا تسافر؟

فأجابه «نيقولا» بحمية

- يجب أن أعود حتماً، هذه الليلة إلى باريس!

- ألديك إذن بذلك؟

- كلا.

- أتنوي أن تطلب إذناً؟

- كلا ، بالتأكيد ، لأنّ طلبي سيرفض. سأسرج حصاني وأذهب دون أن أخبر أحداً.

فصاح «روزنيكوف»:

- هذا عمل جنونيّ!

- اطمئنّ، سأعود غداً عند الفجر، وسأحضر الاجتماع الصباحي.

- وماذا لو اكتشف أمرك، أو ألقي القبض عليك وأنت في الطريق؟

- لا يهمني ذلك!

- أنت تنسى الخطر الذي تعرض نفسك له: فعمل طائش من هذا النوع يمكن أن يُعد بمثابة فرار من الخدمة!

- لا تضخم الأمور باستخدامك الكلمات الكبيرة! كل شيء سيتم على أحسن حال!

فالقى «روزنيكوف» سيجاره بعيداً ، وسأله:

- وهل حسبت على الأقل كم من الوقت، سيستغرق ذهابك وإيابك؟

- سبع ساعات.

- بمطية قوية ومرتاحة، ولكنّ مطيتك ضعيفة ومتعبة!

- لقد ارتاحت «كيتّي» تماماً اليوم بعد الظهر ولأني أنا الذي أمتطيها ، فإني أعرف ماذا يمكنها أن تفعل.

فغمغم «روزنيكوف»:

- ليكن الله معك وأنا أراهن أنّ كل هذا من أجل امرأة

- نعم.

- لم أكن أعتقد أنك مغرم إلى هذا الحد

- وأنا أيضاً لم أكن أعتقد ذلك. قال هذا «نيقولا» وانتقل بشكل مفاجىء من الإحباط إلى حالة من البهجة القصوى.

كان القرار الذي اتخذه يكبت لديه حاجة للتجاوز، وشعر أنه قد أصيب بجنون العظمة، ودون أن يترك لروزنيكوف المجال للمزيد من الاعتراض، دخل إلى الكوخ وخرج منه ومعه أمتعته، وركض مسرعاً نحو الحظيرة، حيث كان اثنان من حراس الإسطبل، نائمين على الأرض، أمام صف من الخيول المربوطة هناك.

✯✯✯

كانت «صوفيا» تفرد شعرها قبل أن تأوي إلى سريرها، عندما أتت وصيفتها «ايمليين» ونقرت الباب بخفة، وتسللت إلى الغرفة، حيث كان الباب موارباً:

- سيدتي! سيدتي! هنالك شخص يسأل عنك ويريد مقابلتك!

فسألتها «صوفيا»، متلعثمة؛ وقد تبادر إلى ذهنها حدس داخلي مفاجىء:

- ومن هو هذا الشخص؟

- ذلك السيد الروسي... الملازم..

فضغطت «صوفيا» بيديها الاثنتين على قلبها وقالت:

- هل أنت واثقة من أنك لست مخطئة؟

- إني واثقة من ذلك، يا سيدتي! لقد رأيته عندما وصل.

فهل أخبر والديك؟

- هذا، بخاصة، ما ينبغي ألا تفعليه! أين هما الآن؟

- في غرفتيهما.

- وهو؟

- إنه تحت، وهو ينتظرك، هل أدخله إلى الصالون؟

- نعم... أو بالأحرى، كلا.. إلى المكتبة.. هيا اذهبي بسرعة.

فأسرعت ايميلين، وأصلحت «صوفيا» على عجل ملابسها، وعندما نظرت إلى المرآة وهي تعيد ترتيب شعرها لاحظت أنها شاحبة، مضطربة، ومتهيّجة جداً، لدرجة أنّ وجهها المتألق قد أثار الرعب في نفسها: «من أين رجع؟ وبأي وسيلة؟ وكم استغرق ذلك من الوقت؟ وكيف يمكنني أن أشك بعد الآن بحبه لي؟» وبعودته المفاجئة يكون قد عاكسها في مشاريعها، وعقّد كل شيء، ومع ذلك، فإنها كانت تطفح ضمناً، بالامتنان للعمل الجنوني الذي ارتكبه. ودون أن تفكّر إلى أبعد من هذا انطلقت خارج الغرفة، مسرعة نحو المكتبة. كان قد سبقها إلى هناك، بقامته الطويلة وجزمته التي يغطيها الغبار، ووجهه الملتهب. وكان هنالك مصباح على حامله، يضيء من الأسفل ذقنه المربعة وعينيه الخضراوين. ودون أن يجرؤ على التلفظ بكلمة، أخذ يتأمل «صوفيا» بقوةٍ من التوسّل كتلك التي يظهرها الأخرس في نظراته.

فتمتمت:

- ماذا حدث، أيها السيد؟ كنت أعتقد أنك في «سانجيرمان».

- كنت لا أزال فيها، منذ أربع ساعات.

وراودها شعور بالأمل:

- وقد أعادوك إلى هنا، من أجل خدمة تؤديها؟

- كلا، يا سيدتي، بل إني سأعود بعد قليل، وفرسي تعرج قليلاً والطريق طويل.

ولم تعد تعرف إن كان من الفرح أم من الغمّ، أخذ هكذا قلبها ينقبض، وغمغمت:

- إذن.. لماذا؟...

وكان هذا ما لا ينبغي أن تقوله: فهو يتضمن دعوة لإعطاء الجواب الذي كانت أكثر ما تخشاه.

وردّ، قائلاً:

- كنت بحاجة لأن أراك ثانية!

وعلى الرغم من أنها أثارت هذا الاعتراف، فقد تظاهرت بأنها دهشت منه.

واستأنف كلامه، قائلاً:

- نعم، لقد افترقنا بصورة غريبة جداً، وبشكل ينمّ عن البرود الشديد..

- أبداً، وعلى الإطلاق!

- اوه! بلى، يا سيدتي! لقد تغيّرت حيالي منذ بضعة أيام، لا تنكري ذلك. فهل أخطأت معك أو أسأت إليك دون قصد مني؟

وقبل أن تستطيع الإجابة على سؤاله، فتح باب المكتبة خلف ظهرها، فالتفتت غاضبة: إنهما والداها! فمن الذي أخبرهما؟

وبديا مضطربين وخائفين. وقال السيد «دو لامبرفو»:

- يا لها من مفاجاة! أيمكنني معرفة السبب الذي حقق لنا السرور بهذه العودة السريعة؟

وبخطوتين، أصبحت «صوفيا» أمام والدها، وقالت بصوت متقطع:

- سأشرح لكما الموضوع فيما بعد، أمّا الآن، فإني أتوسّل إليكما أن تتركاني لوحدي مع السيد..

فقالت السيدة «دو لامبرفو» متلعثمة:

- ولكن، يا «صوفيا» يا ابنتي، هذا ليس ممكناً!

ما تطلبينه منا الآن..

فكررت «صوفيا» ما قالت:

- أرجوكما أن تدعاني بمفردي!

وعبّرت نظراتها عن سلطة قوية بحيث أن الكونتيسة تسمرت في مكانها. أما الكونت، من جهته، وقد أدرك خطورة الحدث فإنه فضل الانسحاب بشكل لائق، بدلاً من المجازفة بإحداث مشاحنة أمام رجل أجنبي. كانت ابنته تفرض عليه ذلك، ولم يكن يجد لديها أي مزّية حسنة كالتسامح والارتياب وحسن التمييز والكياسة، وهي المزايا التي يفخر بأنه يتمتع بها، وكل ما يلاحظه لديها هو التصميم، صلابة وقسوة النفس والقلب، وهي صفات ظلت تنقصه، شخصياً، على الدوام.

وقال، ببساطة مصطنعة:

- إيه حسن! سنذهب، ولكن عليك بعد ذلك أن تلحقي بنا إلى الصالون، بسرعة.

وخرج، ماداً ذراعه لزوجته، التي أحنت رأسها وارتخت ركبتاها وبدت حزينة جداً. وانتظرت «صوفيا» إلى أن ابتعدت خطواتهما، ثم وقفت قبالة «نيقولا»: وقالت له بحماسة وهياج:

- هيا! تكلم الآن! كنت تقول إنك تلومني على لامبالاتي!..

- نعم، لقد بدا لي...

فلم تدع له مجالا ليكمل جملته:

- ولأنه بدا لك..، فقد عدت بعد منتصف الليل لتطلب مني أيضاحاً؟ فبأي حق، أيها السيد تزعجني هكذا؟ وماذا تتوقع أن أقول لك؟

كان صوتها يتقطع من شدة غضبها. وكلما ازدادت رغبتها بأن تلقي نفسها بين ذراعي هذا الرجل كانت تزداد حماسة لتدفعه وتبعده عنها بالكلام. وكان اللوم الذي توجهه له يحميها من ضعفها، هي. وإلى متى ينبغي أن تظل تعذبه وتعذب نفسها، لكي يعترف بالهزيمة، وينصرف؟ فعندما يصبح بعيداً ربما يمكنها أن تسترد الأمن والهدوء،

بعد أن تيأس من لقائه، كانت متأكدة من ذلك. ولكنها الآن، أمام هذه الوجه المندهش، البائس، لم تكن تستطيع سوى الضرب والتألّم والإيلام.

وقال «نيقولا» وهو يوجه لها نظرة طافحة بالوفاء الصادق وبالحنان، جعلتها تضطرب:

- لقد أسأت مني، فأنا أستميحك عذراً وأرجو أن تصفحي عني! ولكن عندما رأيت نفسي أسير في الطريق، صباح اليوم، أدركت أني لا أستطيع الذهاب هكذا، نهائياً، دون أن أتأكد من عواطفك نحوي...

فصاحت «صوفيا»:

- حقاً؟

وانقطعت سلسلة أفكارها، وظلّت خلال بضع ثوانٍ فاغرة الفم، وقد فقدت صوتها: لينصرف، ويتخلى عن كل شيء، فليذهب! وإلا فإني أنا التي سأستسلم! لم أعد أستطيع التحمل، أبداً! هيا، بسرعة! بسرعة!»

وقالت أخيراً:

- لقد عدت أدراجك إذن آملا أن تجدني حزينة، باكية؟

ولا شك أنه لم يكن يسوؤك أن تحتفظ بهذه الذكرى من فترة احتلالكم لباريس. ولكني آسفة، أيها السيد، لأني لا أستطيع إرضاء غرورك، بشأن هذا الموضوع..

- إني لم أرجع كي أسألك إذا كنت تحبينني، يا سيدتي، بل لكي أقول لك بأني أحبك!

كانت عذوبة هذه الكلمات لا تطاق. وكانت تعلم مسبقاً، أنها طوال شهور، بل طوال سنين يمكن أن تنغّص لها حياتها في الوحدة التي تعيشها، فسألته وعلى شفتيها ابتسامة حزينة:

- هل ثقتك بأنك لن تراني غداً، هو الذي يشجعك على أن تفضي لي بهذا التصريح اليوم؟ وبماذا يمكن أن تجيبني، وماذا يمكنك أن تفعل لو أني، بالمصادفة، تأثرت من تصريحك، وتجاوبت معه؟ (أتعتقد أنه عمل نبيل ومسلّ، أن تحدث القلق والاضطراب ثم تتصرف)؟

- ولكن، يا سيدتي..

- أيمكنك أن تبقى في فرنسا؟ كلا، أليس كذلك؟ فحياتك هي الجيش، ووطنك هو روسيا. ولا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى العودة إلى هناك، إذن ماذا تعني هذه اللعبة؟ وماذا تقصد بها، وأي شيء تأمل منها؟ أقول لك بكل صراحة، أيها السيد: لقد شعرت بالتعاطف وببعض المودة نحوك، وسأحفظ لك ذكرى طيبة، فلا ترغمني على تغيير رأيي!..

كان «نيقولا» يحني رأسه، وقد تدلى ذراعاه، ولكم ودّت «صوفيا» أن تسرع لمساعدته، ولكنها ظلت في مكانها ملتزمة بالدور الذي قررت أن تقوم به. ومع أنها كانت مجروحة أكثر منه، فلم يكن لديها الجرأة، حتى ولا الأذن، بأن تبوح بألمها أو أن تبديه. وفجأة قالت بصوت قوي:

- لقد تأخّر الوقت، أيها السيد.. وينبغي أن تذهب..

فانتفض، كما لو أنه كان، حتى سماعه كلمتها الأخيرة هذه، يأمل بأن يستطيع إقناعها. وفجأة أدرك خطأه! لقد تحمل كل مخاطر تلك الرحلة الليلية على ظهر فرسه لكي ينتهي به الأمر هكذا!

وبتعنيفها له، كانت «صوفيا» تؤدّي له خدمة. فهو، من عادته أن يحتدم غيظاً إذا مُسّت كرامته، لذلك فإنه خرج من المكتبة، صفق الباب بقوة ونزل الدرج مسرعاً. وعندما بلغ آخر درجة، لمح شخصين واقفين، يبدو أنهما كانا ينتظرانه:

إنهما والدا «صوفيا» وقد شدّهما نحوه قلق مكتوم، فألقى عليهما نظرة عابرة. وكان يأسف وهو في ثورة غضبه، لأنه ترك المرأة الشابة دون أن يصارحها بفعلتها. وكانت بعض الجمل الانتقامية تتزاحم في ذهنه وتهزّه حتى قرارة نفسه: «أيتها السيدة، أما أنك كنت تمكرين بي وتتظاهرين بما ليس فيلك، فيما مضى، أو أنك تفعلين ذلك حيالي الآن! وفي الحالتين، يبدو موقفك غير لائق!»

هذا ما كان ينبغي له أن يقذفه في وجهها.

وقال له السيد «دو لامبرفو» على استحياء: «يسرّنا أن تمنحنا لحظة من وقتك، نتحدث فيها مع بعضنا؟!»

ودون أن يصغي إليه، استدار «نيقولا» وأمسك بالحاجز وصعد مسرعاً على الدرج، وكأن عاصفة تدفعه من الخلف. وبأربع خطوات اجتاز الفسحة التي تعلو الدرج. سوف تسمعه! وكل منهما سيقوم بدوره! وبعنف فتح باب المكتبة. ووقف مذهولاً، عند العتبة: هذا الشكل المكوّر والمنهار على إحدى الأرائك، لم يكن سوى «صوفيا» التي رفعت نحوه وجهها الذي تغطيه الدموع.

ورأى تلك التقاطيع المتقلّصة، وذينك الخدين المبللين، وتلك العينين اللتين تشعّان خوفاً وكراهية، فشعر على الفور، وبشكل مفاجئ بسعادة لا حدود لها تغمره، وهمس بهدوء:

- سيدتي، أنت تبكين..

فانتصبت بحركة واحدة، وازدادت حدقتاها اتساعاً، وتقلص منخرا أنفها: لكم كرهته لأنه فاجأها وهي في هذه الحالة!

كانت كالعدوّة تتقدم نحو، عزلاء اليدين، ولكن ببريق قاتل في نظرتها، وبعطف وحنان، لفظ للمرة الأولى اسمها الأول:

- صوفيا! صوفياً..

فهزت رأسها، وأفلتت حشرجة من بين شفتيها:

- انصرف من هنا!

فظلّ واقفاً، لا يتحرك، كالمصعوق.

فصاحت بصوت أقوى:

- انصرف من هنا! أيجب أن أنادي الخدم لكي يلقوا بك خارج الباب؟!

فقال لها:

- «صوفيا»، سأنصرف.. سأنصرف في الحال، أقسم لك على ذلك!.. ولكن يجب أن تعرفي..

ولفح عينيه وميض أبيض وأسود. فقد اندفعت «صوفيا» مسرعة إلى خارج الغرفة، ولم يكد يستردّ «نيقولا» أنفاسه، حتى أسرع يلحق بها، وُصفق أحد الأبواب بقوة، ودار مفتاح في قفل: لقد لجأت «صوفيا» إلى غرفتها، وأمام الباب الخشبي المتين، تابع الصياح:

- صوفيا! صوفيا! إني أحبك! ولن أنساك ما حييت!

كان يخاطب قبراً. وأخيراً طرده هذا الصمت المطبق.

وعند نزوله على الدرج، دهش لأنه شعر بأنه خفيف جداً، على الرغم من الفكرة التي راودته بأنّ كل شيء قد انتهى بينه وبين «صوفيا».

فهل صعّدها وسما بها إلى الحدّ الذي يجعله لا يحتاج إلى حضورها الواقعي، لكي يكون سعيداً؟ وفي حالة الهياج التي كان يعاني منها، أوشك على أن يصدق ذلك. لأنه أخذ يشركها بالتداعي في خياله بجميع الواجبات والأفراح، وبجميع صروف وتقلبات مستقبل، هي ستبقى، مع ذلك غريبة عنه، ولمح شخصين يقفان عند أسفل الدرج، تحت بقعة من الضوء، وكأنه يراهما من خلال ضباب كثيف. ومن جديد تحرك السيد والسيدة «دو لامبرفو» نحو الشخص الذي مرّ من أمامهما وكأنه يمشي وهو نائم،

فأيقظه هذا التحرك، بعض الشيء، فأبطأ الخطى، وحياهما بإحناء ظهره قليلاً:

- وداعاً، يا سيدي، وداعاً، يا سيدتي..

فلم يجرؤ أحد منهما على إيقافه. وفي الباحة، وجد فرسه مربوطة إلى إحدى الحلقات، وقد بدت مرتاحة وجاهزة، فامتطاها «نيقولا» وداعب عنقها بيده «المقفّزة»، بينما كان يفتح له الباب بواب يرتدي طاقية قطنية.

كانت باريس لا تزال مستغرقة في النوم. وظلال الليل، والصمت العميق الذي كان يدوي فيه وقع حوافر الفرس، كل ذلك كان يضفي على أفكار «نيقولا» طابعاً أكثر مهابة، مما هو فيه. كان ألمه شديداً، سامياً ومترفعاً لدرجة أنه كان يحس به ويعانيه بلذة تتسم بالاحترام. وساهم التعب الجسدي، بعد قليل، في تحويل انفعاله وتهيجه الشديد، إلى شعور بالهدوء والاطمئنان. كانت الدموع تلمع مرتعشة في عينيه، وبعد اجتيازه حاجز «النجمة» أطلق لفرسه العنان، وأخذت النجوم تتراقص فوق رأسه، والطريق يمتد طويلاً، رمادي اللون بين الحقول التي يكتنفها الظلام.

كان يتمايل على سرج فرسه، وقد فتح فمه وأغلق جفنيه قليلاً ولم يعد لديه سوى فكرة غامضة ومشوشة عن العالم، ولكي لا يغفو تماماً، أخذ يتكلم باللغة الروسية مع «صوفيا».

الجزء الثاني

١

لكثرة ما تجول ودار «نيقولا» في الغرفة، فقد ملّ وصار يستقبح الورق الأصفر الذي يغطي الجدران، قطع الأثاث المصنوعة من الخشب السميك المدهون. السرير المغطى بلحاف أحمر، « المصلوب» الكاثوليكي المصنوع من العاج، ومصباح الزيت المزوّد بعاكس للنور مصنوع من الورق المقوى الأخضر. وبطاقة السكن التي حصل عليها، أدّت به على منزل كاتب بالعدل، وكان بالتأكيد أفضل مسكن خصص له منذ أن استؤنفت الحرب في شهر أيار (مايو) سنة ١٨١٥، ولكنه كان أكثر قلقاً من أن يقدر وسائل الراحة المتوفرة فيه، حق قدرها. كان، كل خمس دقائق يقترب من النافذة ويلقي نظرة على الشارع. الساعة التاسعة مساءً، ولم يعد «روزنيكوف» بعد! فماذا يعمل طوال هذا الوقت في مقر هيئة الأركان العامة. وقال «نيقولا» في سرّه: لو أنه نجح في مهمته، لعاد منذ بعض الوقت، ولكنه متفائل أكثر مما ينبغي، وسوف يثير استياء الأمير «فولكونسكي» بشدة إلحاحه، وكان عليّ أن أمنعه من الذهاب إلى هناك!»

ومهما ردّد قوله أنّ الجولة تُعد خاسرة، فإنّ أمله ظلّ قوياً، وكان وهو منحنٍ على النافذة، يشمّ، يصغي، ويتوسل إلى الليل.

لم تكن مدينة «سان ديزيه» سوى ظلام وصمت، وفي جميع منازلها كان المدنيون الخائفون يتجمعون ويلتصقون ببعضهم لكي يتيحوا أمكنة لإيواء العسكريين. وبأي سرعة انتقل الفرنسيون من أشدّ الحماسة جنونا

إلى الإحباط الأكثر بؤساً! كان نزول نابليون إلى البرّ بعد هربه من جزيرة «ايلب» قد فاجأ الجيوش المتحالفة التي كانت تخلد إلى الراحة في معسكراتها، والدبلوماسيين المتحالفين الذين كانوا يتناقشون في مؤتمر «فيينّا». ولويس الثامن عشر، الضخم الجثة، قبل أن يدرك جيداً ماذا سيحصل معه، بعد أن خانه وتخلى عنه الشعب المتقلّب، هرب من قصر «التويلري»، الذي عاد ليقيم فيه بكبرياء وعنجهية طاغية الأمس. وفي الحال أجمع الملوك المتحالفون على اعتبار نابليون خارجاً على القانون، وأصدروا أوامرهم باستئناف الحرب ضده.والجيش الروسي الذي جلا عن فرنسا، قبل سنة، على وجه التقريب، توجه بخطى ثقيلة واضطرارية نحو نهر «الرين».

ولكنه يأتي من مكان بعيد جداً، بحيث أنّ الوحدات الإنكليزية، النمساوية والبروسية قد سبقته في تحركها، وكانت هي الأولى التي بدأت القتال مع العدو. وبعدحصول بعض المعارك الثانوية، بدا أنّ النصر الباهر في معركة «واترلو» قد حسم مصير الحرب.

وقد تأثرت كبرياء «نيقولا» العسكرية لكون أبناء وطنه لم يحظوا بنصيبهم من المجد في هذه المناسبة.

ودون أن تتاح الفرصة للفيلق الرابع في الجيش الروسي، الذي يقوده الجنرال «راييفسكي»، للاشتراك في القتال، فإنه عبر نهر «الرين» وتقدّم نحو «هاغنو» «فالسبورج» ماراً بـ «نانسي» ومتجهاً نحو وسط وقلب فرنسا. ومع تلك الأفواج التي تُعد النخبة في الجيش الروسي، والتي يرتدي أفرادها الملابس الزاهية ويحملون الأسلحة الجديدة، كأنهم ذاهبون إلى عرض عسكري، كان قادماً، في طليعتها قيصر روسيا، أمبراطور النمسا، وملك بروسيا وهيئات أركانهم، وزراؤهم، وبقية كبار القادة التابعين لهم، وحشد كبير من المواطنين ورجال الحاشية. وكان «هيبوليت روزنيكوف» قد انضم قبل فترة وجيزة إلى هذه الجماعة المهمة والمتألقة، فهل هو مدين

بهذا الصعود المفاجىء إلى ميزاته العسكرية، إلى طباعه الودودة والمحببة أم إلى علاقته في الأوساط الماسونية؟

وكانت بضعة أشهر من الوساطات والملاحقات، كافية لكي يعين ضابطاً مرافقاً للأمير «فولكونسكي». ومع ذلك فإن هذا النجاح لم يغير من تفكيره ولم يسلبه عقله. وبعد فترة قصيرة، كان خلالها «نيقولا» يقيم في أحد معسكرات «فيينا»، استطاع «روزنيكوف» أن يحصل على أمر بسحبه من فوجه، وأن يلتحق، هو أيضاً، بهيئة الأركان العامة. وكانت مهام وصلاحيات القادم الجديد لا تزال غير محدّدة تماماً، وقد وضع تحت أمرة عقيد مسن كان رئيساً لقسم «الطبوغرافيا» فحصل لدى «نيقولا» انطباع بأنَ لا أحد يحتاج إليه، وحتى لو إنه تغيب فلن يُلاحظ غيابه. وفي ظروف أخرى، ربما كان قد انزعج من كونه يبدو غير ذي فائدة، ولكنه اليوم، استطاع أن يطمح للحصول على فائدة كبيرة من هذا الوضع.

وقبل أن يصل الأمبراطور «ألكسندر» إلى «سان ديزيه» كان قد علم وهو في الطريق إليها، بواسطة رسالة خاصة، تلقاها، أنّ الجيش البروسي قد احتل باريس. وحسب رأي الجنرال: «تشيرنيشيف» الذي كان قد انضم إلى «بلوشير»، و «ويلنغتون»، فإن السكان يعارضون بشدة عودة «لويس الثامن عشر» وأنّ القيصر وحده هو الذي يستطيع تهدئة الاضطراب السياسي بحضوره المهيب. ولكنّ المسافة بين «سان ديزيه وباريس تزيد على مائتي «فيرست»[1]. ولا يستطيع الجيش أن يقطع هذه المسافة بأقل من ثمانية أيام. والحال هي أنّ الوقت ثمين جداً، وفي تلك الظروف كان لكل دقيقة تمر، قيمة كبيرة. ولا شك بأن القيصر سيكلف بعض ضباط القيادة، بالذهاب، كطليعة للجيش، إلى باريس. وإذا استطاع «هيبوليت الجميل»

١- فيرست: (Verste): مقياس روسي للطول يساوي١٠٦٧" متراً - المترجم-

إقناع المسؤولين، فإن «نيقولا» يمكن أن يكون في عداد هؤلاء الضباط. ومنذ عام مضى على مغادرته باريس، فإنه لم يكف عن الحلم باللحظة التي ستتاح له فيها العودة إليها، صحيح أن! الرسائل الثلاث التي كتبها لـ صوفيا ظلت من دون جواب، ولكنه كان يرفض أن يستنتج من ذلك أنها قد نسيته. ألا يوجد شيء من عمل العناية الآلهية في هذه الحرب الجديدة، التي تتيح له عبر دخان ودماء القتال، الفرصة للاجتماع بها؟ ولأن «نيقولا» يؤمن بسهولة بالفأل وبالخرافات، فلم يكن بعيداً عن الاعتقاد بأنّ الله قد نظر إلى حالته الخاصة، بالحسبان، عندما قرر إحداث هذا الاشتباك الهائل بين الشعوب، على هذه الأرض، ومرة أخرى التفت أيضاً نحو الله لكي يتوسل إليه طالباً منه أن يساعد «هيبوليت روزنيكوف»، كي ينجح في مسعاه. ولكن «الأيقونة» العائلية بقيت بين الأمتعة، فهل تقبل الصلاة بشكل مناسب أمام «المصلوب» الكاثوليكي؟ كان يلقي على نفسه هذا السؤال، عندما سمع وقع خطوات عسكرية في الشارع، ودون أن ينتظر حتى يدخل صديقه إلى المنزل، صاح به من النافذة:

- إيه! ماذا حصل؟

فردّ «روزنيكوف» رأسه إلى الوراء، وبان وجهه تحت واقية خوذته، ولكنه لم يجب. فقال «نيقولا» في سرّه: «إنّ هذا دليل سيء، لا يبشّر بالخير»، وأسرع ليفتح له الباب.

وعندما دخل «روزنيكوف» إلى الغرفة، كرّر «نيقولا» سؤاله:

- إيه! ماذا حصل؟

فقال «روزنيكوف»:

- لقد حصل أمر شاذ وغريب، فيه شيء من الجنونّ

- أتعرف ماذا قرر القيصر؟ إنه سيترك الجيش، ويذهب إلى باريس بالعربة، مع إمبراطور النمسا وملك بروسيا. وهيئة أركاننا

والفيلق الرابع، أي أننا جميعنا سنتابع السير حسب الخطة المرسومة، عن طريق «سيزانّ» «وكولومبي» بينما سينطلق الملوك بأقصى سرعة عن طريق «شالون»، «ايبيرني»، «شاتو تييرّي» و «مو».

- ومن ستولى حراستهم؟

- سيرافقهم، للحراسة، خمسون «قوزاقيا»، فقط، وهذا كل شيء! فهم لا يريدون أن يربكوا أنفسهم بكثير من الجنود يمكن أن يعيقوا حركتهم ويؤخروا وصولهم!

- وماذا لو هوجموا وهم في طريقهم إلى هناك؟ لا سيما والبلاد ليست هادئة، والأمن غير مستتب فيها!

- لقد أبدى الأمير «فولكونسكي» كل هذه الاعتراضات للقيصر، ولكنّ! جلالته لم يشأ أن يحسب لها حساباً، وأضاف «روزنيكوف» متنهداً: «إن هذا يتجاوز حدود الشجاعة، إنه التهور بعينه!

و «نيقولا» الذي شعر أنّ آماله قد خابت، جلس على حافّة السرير وأخذ ينظر إلى «روزنيكوف» الذي كان ينزع سيفه ويضعه على المنضدة ويفك أزرار بزته الخضراء ذات الثنيات الأرجوانية.

واستأنف «روزنيكوف» الكلام:

- لم تسألني عما إذا كنت قد تكلمت بشأنك مع الأمير؟

- وما جدوى ذلك الآن؟!..

كان قد اقتنع تماماً بأنّ عليه أن يرافق الجيش في سيره البطيء، وعلاوة على ذلك فإنه يظنّ أن القسم الذي انضم هو إليه، أي مصلحة الطبوغرافيا، لن يكون مقرها في باريس!

وقال «روزنيكوف» أيضاً وهو يتثاءب:

- سيرافق القيصر «فولكونسكي»، «نيشّيلرود» «كابود يستريا» بالإضافة للضباط المرافقين، بالطبع، وبعض أمناء السر.. وستة ضباط من هيئة الأركان العامة، اختيروا من بين الذين يجيدون التحدث باللغة الفرنسية! وهذا أمر ينبغي أن يثر انتباهك ويجعلك تفتح أذنيك جيداً!

- ولماذا عليّ أن أفعل ذلك؟

- ألم تفهم؟

قفز «نيقولا» واقفاً على قدميه:

- أنت لا تعني أني..؟

- بلى، يا عزيزي، بما أنك من بيننا جميعاً الذي يجيد التعبير بسهولة وبشكل أفضل بلغة «فولتير»، فإني لم أجد أي صعوبة في تأييد ترشيحك.

فتمتم «نيقولا»:

- وهل وافق «فولكونسكي»، على ذلك؟

- نعم.

ومن شدة فرحه، انقض «نيقولا» على «روزنيكوف» هزّه من كتفيه، وأشبعه لكماً، وهو يقهقه ضاحكاً:

- إنك رجل فذّ، يا «هيبوليت»!... آه! كم أنا سعيد!... وآه! كم أشكرك!.. يا صديقي العزيز، يا صديقي العظيم!..

لو أنّ «فولكونسكي» شكّ بأني الملازم نفسه الذي أراد أن يعاقبه بسبب تصرّف ينم عن الوقاحة، بدر منه في باريس..

فقال «روزنيكوف»:

- إنه يعرف ذلك، ويتذكره جيداً، بل إنّ هذا، بالإضافة لما ذكرته له عن إتقانك اللغة الفرنسية هو الذي جعله يوافق!

- هكذا، إذن؟

- وقد قال لي: «أنا وصديقك «أوزاريف» نعرف بعضنا منذ زمن طويل: وشاب يجرؤ على أن يطلب بطاقات دعوة من رئيس هيئة الأركان العامة، هو بالتأكيد، جدير، وقادر على القيام بمبادرات جادّة في ظروف أكثر أهمية!»

وباختصار فقد وقع أمر مهمتك، وسننطلق غداً صباحاً، الساعة الثامنة.

لم يعد يصغي «نيقولا» إليه، بل أخذ يصيح:

- «أنتيب»! «أنتيب»! تعال بسرعة!

فأسرع «أنتيب» من الغرفة المجاورة، وعلى بطنه وزرة وسخة وفي يده فرشاة سوداء.

فقال له «نيقولا»:

- قدم لنا، على الفور، الشاي، «الرّوم»!

فاعترض «روزنيكوف» قائلاً بأنه لا يشعر بالعطش، وإنه يريد أن ينام باكراً: وكان يسكن في المنزل المقابل، ولكنّ «نيقولا» أبدى استياءه:

- كلا، كلا، يجب أن تبقى، وإلا، فإني سأغضب وأغتاظ فبعد كل ما قمت به من أجلي، يجب أن نشرب، ونطرب! وأحضر «أنتيب» زجاجة «الرّوم» وأخذ يضرم الفحمات في غلاية الشاي الروسية الصغيرة (السماور السفري).

ولإنجاح هذه العملية، كانت أبسط طريقة تقضي بتغطية الأنبوب بربطة، ثم تحريك القبضة الجلدية من أعلى على أسفل إلى شاكلة الأكورديون، وأخذت الربطة تجعل الهواء ينفخ على الجمرات. فامتلأ الجوف النحاسي الأصفر بطنين الفقاقيع وبعد قليل، سال الماء وهو يغلي، من الصنبور، في الكؤوس الملأى إلى نصفها بالكحول. قليل من الشاي المركز، قطعة سكر لتحلية المشروب، والصديقان يقفان متقابلين، كل

منهما رافعاً رأسه، ماداً ذراعه، يقرع كأسه بكأس رفيقه ويشرب نخبه. وفي «فرصوفيا» أيضاً، كان «نيقولا» قد روى لروزنيكوف»، مدفوعاً بملله من حياة العزلة في الثكنة، قصة حبه لـ صوفيا، وافتراقهما في ظروف غريبة الشكل. وهذا السرّ الذي باح به بالأمس لصديقه، يغنيه اليوم عن أن يشرح له اليوم سبب فرحته، وكان «روزنيكوف» يشرب، يضحك، ويغمز بعينه، قائلاً:

- أيها الخنزير اللعين! لو كنت ترى نفسك! فلو رآك أحدهم، لأقسم أنك قد رفعت للتو إلى رتبة جنرال! كل ذلك، لأنك تأمل أن ترى من جديد امرأة، ربما لم تعد تفكر بك!

- ألا تأمل أن ترى من جديد صديقتك، بائعة الحلوى؟

فصاح: «روزنيكوف»:

- «جوزفين»؟ إني أعترف أنها، قد غادرت ذهني تماماً.

فقال «نيقولا» بلهجة ساخرة:

- إني أتفهم ذلك، فالضابط المرافق للأمير «فولكنسكي» عليه أن يطمح ويتطلع إلى مستويات أعلى من ذلك بكثير.

فآمن «روزنيكوف» على ذلك، قائلاً:

- لا شك أنّ «النّبالة تتطلب هذا» كما يقول الفرنسيون.. كأس أخرى، وأنصرف!

ولكنه بقي إلى ما بعد منتصف الليل، وبما أنّ الأوامر نصّت على عدم حمل الكثير من الأمتعة التي تسبب الارتباك، فقد هيأ «أنتيب» حقيبة سفر واحدة للمأكولات، لسيده ولروزنيكوف، وكانت عبارة عن صندوق طوله ذراع، تقريباً، مغطى بجلد أيّل، زواياه حديدية ومزوّد بقفل. وحسب تعليمات «نيقولا» وضع فيه الوصيف طنجرة صغيرة، أربعة فناجين أربع كؤوس، أربعة صحون، بعض المناشف والورق وريش الأوزّ، موس حلاقة، صابون،

فراشي، ثلاث زجاجات نبيذ، زجاجة «روم» وفروج بارد. كان «أنتيب» وهو يرتب هذه الأشياء في الصندوق، يتذمر حزيناً: لم يكن وارداً أن يصطحبه سيده في رحلة من هذا النوع، فكيف يستطيع العثور عليه في باريس ولكي يطمئنه «نيقولا» كتب له شهادة خدمة، وأنتيب الذي لا يجيد القراءة، قبل الورقة، لفّها على شكل أنبوب وعلقها في سلسلة صليب العمادة الذي يحمله، بين الجلد والقميص.

كانت الضحكات ووقع خطوات الأحذية العسكرية، تتعالى في الشارع، كان بعض الضباط الثملين والمرحين، يتجولون في المدينة باحثين عن مساكنهم، فدعاهم «نيقولا» مدفوعاً بروح الزمالة، إلى الصعود إلى غرفته. كان لا يعرف أحداً منهم، ولكنه تعاطف معهم وشعر بالمودة نحوهم. وكان أحدهم قد أحضر بعض زجاجات شراب «الكوميل» لكي يشربوا بشكل لائق، نخب القيصر، نخب الجيش، ونخب النساء الجميلات. وحتى الساعة الثانية، بعد منتصف الليل، كانوا لا يزالون يغنون. ومن وقت لآخر، كان «نيقولا» يسمع صرير أحد الأبواب: إنه كاتب العدل، وزوجته، وهما يخرجان إلى الممرّ، يصغيان لذلك الصخب، ويعودان بسرعة، وقد استبدّ بهما الخوف، إلى غرفتهما.

* * *

في أول توقف للاستراحة، بعد مغادرة «سانديزيه» ترك «نيقولا» رفاقه في العربة، وصعد على المقعد إلى جانب السائق لكي يستنشق الهواء النقي ويتأمل المناظر. كانت عربة القيصر، الثقيلة التي تجرها ستة أحصنة، في الطليعة، تقود التحرك. وخلفها، عربات القادة، الضباط المرافقين، وضباط الأركان العامة، وكل منها تجرها أربعة أحصنة، وفي المؤخرة، العربة الشاحنة الخاصة بمصلحة المحفوظات (الأرشيف). وكان ذلك يشكل

موكباً مؤلفاً من تسع عربات ضخمة، صناديقها صفراء وسوداء، مثقلة بالأمتعة ومغطاة بالغبار. وكان ضجيج عجلاتها يصمّ الآذان. وعلى جانبي عربة الأباطرة، كان يسير فرسان القوزاق على صهوات خيولهم بأجسامهم الضخمة وقبعاتهم الحمراء، ورماحهم المشرعة في قبضاتهم. كان الكونت «أورلوف - دينيسوف»، شخصياً، هو الذي يقود هذه الفصيلة المرافقة للموكب الإمبراطوري. وكان عاهلا بروسيا والنمسا، قد تركا الروس يسبقونهما، وقد تخلفا في سيرهما البطيء بعيداً في وسط قافلة طويلة وبطيئة مؤلفة من مختلف أنواع العربات ومنذ الظهر، غابا عن الأنظار. ولكن لم يكن أحد يقلق من هذا الغياب. فالأوامر كانت تنص على السير بمنتهى السرعة. ولحسن الحظ كان الطريق يساعد على السير بسرعة، لأنه كان مبلطاً في وسطه، وهذا يساعد على دوران ومرور العجلات بسهولة وسرعة.

كان «نيقولا» يستند بيده اليسرى على حاجز المقعد ويشدّ باليمنى على عقب مسدسه، المنحني. وقد تبدى له جنون هذا الرحلة، لأول مرة، في نهاية تلك الصبيحة أمام مدينة «فيتري - لو- فرانسوا». كان هنالك معسكر للجيش الفرنسي لا يزال جنوده يحتلون المدينة ويسيطرون عليها. وعندما اقتربت العربات، خرج من المدينة ثلاث سرايا، كما لو أنها أرادت أن تقطع طريق المسافرين. وجنود القوزاق الذين كانوا أقل عدداً من الجنود الفرنسيين، لم يكن باستطاعتهم مقاومتهم طويلاً. فيا لها من فرصة سانحة بالنسبة لنابليون، فيما لو أنّ القيصر، ورئيس أركانه وأهم وزرائه قد وقعوا أسرى لدى جنوده، قبل البدء بمفاوضات الصلح! ولكنّ الجنود الفرنسيين بعد أن وصلوا إلى مكان شاهدوا منه القافلة، توقفوا، ثم عادوا أدراجهم، رافضين الدخول في معركة، لم يكونوا يدركون أنّ الرهان عليها له تلك الأهمية الكبيرة. وتراءت لـ نيقولا الإرداة الآلهية في هذه

الحماية، بل النجاة التي أتيحت لعاهل جريء، ولكن، أيمكن أن يتكرر حدوث معجزة كهذه، في كل مناسبة؟ كان كشافو: «القوزاق» الذين يتقدمون في طليعة الموكب، قد أشاروا إلى تجمعات مشبوهة في الأماكن المجاورة لبعض القرى، مكونة من الجنود الفارين من الخدمة، بعض الأنصار الموالين لنابليون، وكثير من قطاع الطرق؟ وكان «نيقولا» ينظر إلى الأفق، متفحصاً. وبدا له كل شيء هادئاً. كان الطريق محاذياً لنهر «المارن» وبين ضفافه الخضراء، كان الماء يتلألأ مع انعكاسات أشعة الشمس وظلال الأشجار. وهذا يغري المرء بأن يخلع ملابسه ويغطس في مجرى النهر. وكلما فكّر «نيقولا» بالسباحة والاستحمام كان يشعر بمزيد من الحرارة في بزته المبكلة الأزرار حتى العنق. وإلى جانبه، كان سائق العربة الملتحي. الكبير البطن، يتصبب وجهه عرقاً، وقد تدلى لسانه من فمه، وكان يلوّح أحياناً بسوطه الطويل في الهواء، فيرسل فرقعة قوية، ويبدو أنه كان يفعل ذلك لكي يُنعش ويُنشّط نفسه، أكثر من كونه يقصد منه حثّ الخيول على الإسراع. كان حصانا المقدمة يسيران بسرعة وقد أحنيا رأسيهما (وقد امتطى مساعد الحوذي الحصان الكائن في الجهة اليسرى) وبالمقابل، كان حصانا العريش، الخلفيان يمدّان عنقيهما، ويهزان الشعر الذي يعلو العنقين ويصهلان فرحين وقد غطى الزبد كتفيهما القويين والناعمين. وقد فتن «نيقولا» بما شاهده لديهما من قوة في انتظام سيرهما، كانت تأتي إليه رائحة لاذعة منبعثة من جلدهما المبلل، ومن عدتهما المصنوعة من الجلد، الذي سخن بسبب تعرضه لأشعة الشمس. وكان الضجيج الناجم عن الحوافر وعن العجلات ذات الأطواق الحديدية، يقلق ذهنه وكأنه وقع المطارق.

وعندما أصبح الطريق سيئاً، أبطأ الموكب في سيره، وهناك، في المقدمة، كانت عربة القيصر تهتزّ متراقصة فوق نوابضها، وخلفها، عربات

بقيـة المـسؤولين، تقتـدي بهـا في أقل اهتزازاتهـا المفاجئـة بانهمـاك وتـسارع مضحكين. وكانت البيوت البيضاء في بعض القرى تبتعد أمام «القوزاق»، الذين يمرون مسرعين وقد خفضوا رماحهم. وبعض الدجاجات وقفت فوق كومة من الزبل وهي تقوقئ. وقطيع من الإوز الغاضب اصطف إلى جانب الجدار وبجانبه، بالقرب من كل ريشه الأبيض، وقفت فتاة صغيرة بملابسها الرمادية الرثّة.

وكان هنالك عربة محملة بالتبن تكاد تغلق الطريق، وأوشكت أن تصطدم بها العربة الثالثة التي تقل الضباط المرافقين. فخرج من دكان الحداد فلاحان، وأخذا يصرخان:

- هأ! مهلاً! ماذا هناك؟!

وفي الدكان المفتوحة الأبواب ظلّ الحداد والبيطار يتابعان عملهما، والنار تصطخب والمطرقة تدق الحديد على السندان. وإحدى الأمهات غطت رأس ابنها لكي لا يرى المتوحشين. ووجّه الحوذي ضربة خفيفة بسوطة لأحصنته. وأخذت الأسطح تبدو وكأنها تتطاير، والبراري الخضراء والصفراء غطّت وطغت على كل شيء كموجة القعر، المنبعثة من أعماق البحار.

وعلى بعد كيلومتر واحد تقريباً، كان هنالك مركز للاستراحة وبعض الخيول المسرجة والكاملة العدة، وقفت تنتظر المسافرين أمام نزل ريفي، يحرسها خمسون «قوزاقياً» ليحلوا محل زملائهم المتعبين، في مرافقة الموكب. ونزل «نيقولا» في الوقت المناسب عن مقعده لمشاهدة القيصر، يتبعه أربعة من كبار القادة وهم يدخلون مسرعين إلى النزل، ولم يجرؤ الضباط المرافقون لهم، على الدخول، بدورهم، بل تجمعوا في الباحة الصغيرة، في ظل إحدى العرائش، وأخذوا يحركون سيقانهم ويهزون أكتافهم ليزيلوا التعب عن أعضائهم المرهقة. وطلب «هيبوليت روزنيكوف» نبيذاً أبيض

للجميع. ولكن هل يتاح لهم الوقت الكافي ليشربوه؟ وجلبت ابنة صاحب النزل، وهي شقراء كثمرة الكرز، إبريقين وبعض الكؤوس.

فقال لها «هيببوليت الجميل» وهو يفتل شاربه الصغير:

- ما أجملك، يا آنستي! ما هو اسمك؟

وبدت عليها الدهشة، عندما خاطبها الضابط الروسي باللغة الفرنسية. ولم تطمئن إلا عندما ضمها من خصرها. أخيراً شعرت كأنها بين جماعة تعرفهم، وقالت:

- اسمي «جيرمين»

وهربت!

فأخذ «روزنيكوف» يدندن:

يا جيرمين الفاتنة،

طعنتني بألف سهم..

وأثناء ذلك كان الحوذيون منهمكين في عملهم حول الخيول الجديدة المرتاحة، وأخذوا يدفعونها ليشدوها إلى العربات.

وفجأة مرّ بسرعة تحت سقيفة المدخل خيّال، كأنه مدفوع بإعصار، قفز عن سرج حصانه، ألقى بالزمام إلى أحد الخدم، واندفع مسرعاً نحو المبنى: فلا شك أنه مراسل أوفد من باريس لمقابلة القيصر. ألم يكن هنالك قتال في شوارع العاصمة يدور بين أنصار بونابرت وأنصار الملكية. والبروسيون المعروفون بكراهيتهم الشديدة لفرنسا، يمكن أن يتخذوا من أقل فوضى، أو إخلال بالأمن، ذريعة، لكي يغرقوا المدينة بالدماء ويضرموا فيها النيران. وكانت مخاوف «نيقولا» بهذا الشأن شديدة جداً، لدرجة أنه صارح رفاقه بها. فأخذ كل منهم يبدي رأيه في هذا الموضوع، عندما خرج الأمير «فولكونسكي» من النزل، نادى «روزنيكوف» وناوله حزمة من الصحف، قائلاً، بلهجة حاسمة:

- آخر ما صدر من الصحف في باريس. اقرؤوها وأنتم في الطريق، وأريد منكم أن تقدموا لي، مساء اليوم، تقريراً عن مجمل ما جاء فيها، مع الترجمة الروسية لأهم المقالات التي نشرت فيها.

كان الضباط الستة المرافقون لهيئة الأركان العامة قد وقفوا وقفة الاستعداد للإصغاء لتعليمات الأمير. وعندما ذهب، بسط «روزنيكوف» تلك الأوراق المطبوعة، على المنضدة، بين الكؤوس، وانكبّ الجميع عليها. أحدث عدد كان قد صدر في اليوم السابق، أي في الثامن من تموز (يوليو) وهو من صحيفة: «لومونيتور»: (المرشد) التي كانت تُعد صحيفة رسمية وحكومية، وقد نشرت عنواناً بحروف أكبر من المعتاد: «لقد أبلغ مجلس الحكومة، بواسطة رئيسه، الملك، أنه قد حل نفسه.. وسيدخل الملك إلى باريس في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر». وفي عدد آخر، جاء ما يلي: «إنّ أي حكومة تفرض بالقوة، ولا تتبنى العلم الوطني ولا تضمن الحقوق الدستورية، لن يكون وجودها إلا عابراً ومؤقتاً». وفي مكان آخر، نشر خبر تنازل نابليون لصالح ابنه، وبعد ذلك كان هنالك العديد من التصريحات الغامضة لـ «فوشي»، و «لافاييت» وبعض الأحاديث الوطنية الرتيبة والأوامر المتناقضة التي لم تكن تخفي قلق شعب يتعرض للهزيمة للمرة الثانية خلال عام واحد.

وقال «هيبوليت روزنيكوف» بلهجة قوية:

- إنّ فرنسا هي حقاً بلد الرعناء والمغفلين، وليس لغرورهم مثيل، سوى مكرهم وخداعهم، فبعد أن يخونوا نابليون ويتحالفوا مع لويس الثامن عشر، أو يخونوا لويس الثامن عشر ويتحالفوا مع نابليون، يعتقدون أنه من المفيد أن يتدثروا بكرامتهم الوطنية وأن يتباهوا بها!

كان «نيقولا» يريد أن يدافع عن أبناء وطن «صوفيا»، ولكنه اضطر إلى الموافقة بأنهم وضعوا أنفسهم في ظروف سيئة.

وإذا كان من الممكن، في العام السابق إيجاد عذر للفرنسيين وقد قادهم الطاغية إلى الدمار، فكيف يمكن أن نبرّر لهم العودة إلى الثقة به، لدرجة أنهم استأنفوا الحرب بناء على أوامره، وتحت قيادته؟ وفي الوقت الحاضر، فإنّ للحلفاء الحق بأن يندموا على الطريقة التي اتسمت بالرحمة والتسامح التي عاملوا بها هؤلاء الخصوم السادرين في غيهم. والقيصر «ألكسندر» لم يعد يستطيع أن يقول بأنّ ليس له أي عدوّ في فرنسا سوى نابليون بونابرت!

وغمغم «هيبوليت روزنيكوف» متذمراً؛ وهو يفرغ كأسه:

- كما هي العادة دائماً، فقد ارتكبنا الخطأ بكوننا أثبتنا أننا طيبون وكرماء أكثر مما ينبغي. وهذه نقيصة لدى الروس. إنهم متساهلون، يمنحون صداقتهم دون أي ضمانة..

ومنذ بعض الوقت، أخذ صاحب النزل يتجول في الباحة، وينظر برغبة شديدة إلى الصحف التي أتت مباشرة من العاصمة. وأخيراً، فإنه لم يعد يستطيع أن يصبر، واقترب من الضباط وسألهم «عما إذا كان هنالك من جديد في السياسة». فأكدوا له أنّ كل شيء يجري على أسوأ شكل، في العاصمة، ولكنّ القيصر، سيتمكن، مرة أخرى، من إعادة النظام إلى الشؤون الفرنسية.

فغمغم الرجل:

- آه! فليسرع بالقيام بذلك، لأنّ الأمور كيف يمكن أن تسير بالنسبة لنا، هنا، بين الملكيين الذين يهددون بذبح أنصار نابليون، وأنصار نابليون الذين يهددون بذبح الملكيين، واليعقوبيين الذين يهيئون الأجواء لإشعال ثورة جديدة،

وكيف يمكن معالجة هذه الأوضاع؟ فقبل البارحة تعرض
نزلي للنّهب من قبل بعض الجنود الفرنسيين الذين هاجمونا
وهم يصرخون: «عاش الإمبراطور!»

وأفرغوا ما لديّ من زجاجات الخمر، وذبحوا كثيراً من الدجاج. والبارحة، الذين أتوا كانوا جماعة من المحافظين المتطرفين، قادمين من «بونيي» لاستغلال الحادثة ومعاقبتي، مدّعين أني قدّمت الطعام والشراب بالأمس لجماعة من الجنود الفارين. وهؤلاء الفارون أنفسهم، قد أشعلوا النار، على ما يبدو صباح اليوم، في قصر يقع على بعد بضعة كيلومترات من هنا، لأنّ صاحبه رفع علماً تزينه الزنبقة (شعار الملكية في فرنسا) فوق سارية برج قصره..

وكان صاحب النزل بادي القوة، مورّد الخدين مفتول الساعدين، ولا يمكن أن يُتهم بالخوف والجبن. وعندما سمعه «نيقولا» يتحدث بهذا الشكل، أحس بأنّ عليه أن يكون أكثر استعجالاً للقاء «صوفيا» والعمل على حمايتها من أي سوء. كانت خطّة السير تنص على أن يمضي القيصر وحاشيته تلك الليلة في «شالون»، وأن ينطلقوا منها صباح اليوم التالي، عند الفجر، في العاشر من شهر تموز (يوليو)، كي يصلوا إلى باريس في المساء. ولذلك كان ينبغي عدم التوقف طويلاً في مراكز الاستراحة، دون جدوى! وماذا يفعلون في تلك الباحة، في حين أنّ العربات كانت جاهزة للسير منذ ربع ساعة؟

كان «نيقولا»، وقد نفد صبره، لم يعد يسمع ما يقوله جيرانه على المائدة، وأخذ يربّت بعصبيه بقفّازه على فخذه. ومع أن النزل كان بعيداً عن القرية، فقد تجمعّ بعض القرويين الذين لا يعرف أحد من أين أتوا، وأخذوا يتدافعون تحت سقيفة المدخل. وكجميع الذين يشتغلون في الأرض والأعمال الزراعية، كانت وجوههم متعبة صلبة، جامدة، وأخذوا ينظرون إلى جنود «القوزاق» بعين الحسد، ويتبادلون فيما بينهم الملاحظات بلهجتهم المحلية.

وأخيراً، ظهر القيصر من جديد، محني القامة قليلاً، نظراته تنمّ عن القلق، واتّجه بخطى سريعة نحو عربته. وفي كل مرة كان «نيقولا» يشاهده، يختلج في صدره شعور بالاحترام نحوه. وفي اللحظة التي وضع فيها رجله على درجة الصعود، التفت جلالته نحو صاحب النزل وتحدث إليه وهو يبتسم. ولم يستطع «نيقولا» أن يسمع ما قاله العاهل، ولكنه قدّر أنه لا بد من أن يكون قد فاه بعبارة تاريخية. لأنّ «ألكسندر الأوّل» كان يهتم كثيراً ويعتني، في كل المناسبات، بالمحافظة على سمعته كشخص محبب وجذّاب. وأسرع أحد الضباط المرافقين، فأخرج دفتراً صغيراً من جيبه ودوّن فيه ما سمعه من أقوال القيصر.

أما صاحب النزل فقد انحنى نحو الأرض معبراً عن شدة امتنانه. وليس هنالك من شك، بأنه سيضع غداً لوحة تذكارية على جدار نزله، تخليداً لهذه المناسبة. وفي طرفة عين، كان جنود القوزاق قد اعتلوا صهوات جيادهم، وجميع الضباط أصبحوا في عرباتهم. وعاد «نيقولا» بسرور إلى مقعده في أعلى العربة، وأغلقت الأبواب بقوة، ونفخ أحد مساعدي الحوذيين بالبوق، فانطلقت القافلة مستأنفة السير في رحلتها.

كانت عربة القيصر تسير دائماً في طليعة القافلة بين سياجين من الجنود «القوزاق» الحمر الوجوه ذوي اللحى المشرّعة في الهواء. وبعد «بونيي» حيث استبدلت أيضاً الخيول، شعر «نيقولا» بالتأثر حينما لمح، من بعد، بجانب الطريق، البقع الزرقاء التي تمثل بعض البزات العسكرية. وعند الاقتراب منهم، عرف أنهم نحو عشرة جنود فرنسيين، يغطي الغبار ملابسهم، ويغطي الشعر وجوههم الهزيلة، ونظراتهم الزائغة، تعبر عن الحيرة والقلق، وكان أحدهم معصوب الرأس بمنديل ملطخ بالدم، وآخر يمشي وهو يعرج، حافي القدمين. وكان أكثرهم يتنكبون بنادقهم، ولكن دون أن يفكروا باستعمالها. فهل هؤلاء هم الذين حرقوا القصر؟

وشعر «نيقولا» بأن نظراتهم تمزّقه، كأشواك العليق. فأي كراهية تتسم بالعجز تعبر عنها وجوه هؤلاء الرجال» الذين ربما يكونون قد دخلوا منتصرين إلى موسكو! ومن هو الذي يمكنه أن يمنحهم سلاماً مقبولاً، بعد أحلام المجد التي رأوها برفقة نابليون؟

وعندما التفت «نيقولا» نحوهم، وهو على مقعده، لاحظ أن مجموعتهم أخذت تتناقص ثم تختفي عبر الغبار الكثيف. كانت الخيول التي تجرّ العربات تسرع في عدوها، ومع ذلك، كان يشعر أنها تسير ببطء شديد على الطريق الطويل! وأخذ يتساءل عما إذا كانت «صوفيا» تتوقع عودته، لأنها إذا كانت سمعت بعودة الجيش الروسي إلى فرنسا فلا بد من أن تقول في سرها إنه قادم مع فوجه نحو باريس، فهي إذاً تنتظره، دون أن تأمل بشكل حقيقي أنه سيأتي!.. إلا إذا كانت قد لجأت مرة أخرى، إلى الريف!.. وكيف يجرؤ على الفرح منذ الآن، بلقائهما المقبل، وهو لا يعرف شيئاً عنها، منذ عام؟ واعتبر نفسه مغفلاً، وتحولت حاله من البهجة والنشوة إلى الضيق الشديد.

وفي وقت متأخر من ذلك النهار، انتزعته من تأملاته، اهتزازات قوية، فقد دخلت القافلة إلى مدينة، بلاط شوارعها تكثر فيه الحفر والأخاديد. كانت مدينة «شالون» قد احتلّها خيالة الجنرال «تشيرنيشيف». وقد تجمع كثير من الناس في شوارعها. و «نيقولا» الجالس، بجانب سائق العربة، كان يمرّ على سوية لافتات المخازن المصنوعة من الصفيح المدهون؛ والمزينة بمختلف الصور والرسومات: جزمة ضخمة، قبعة كبيرة حمراء، رغيف خبز رائع تعلوه الشقوق والضلوع، وبعض الألعاب، وفي الأسفل، في الشارع، يتزاحم جمهور صامت من عامة الناس: خليط من القرويين ومن سكان المدينة. كانت أشعة الشمس، الأخيرة تعانق زجاج نوافذ البيوت، وتضفي على وجوه النساء اللون الذهبي. وهنا وهناك، كانت تبدو إحدى زهور

الزنبق، أو إحدى الشارات الوطنية البيضاء. وكان الناس يتدافعون حول الخيول التي كانت تسير متمهلة. وكان جنود «القوزاق» يجدون صعوبة في منع سكان مدينة «شالون» من إلقاء النظرات الفضولية على راكبي العربات. وبين أولئك الذين استطاعوا أن يلمحوا القيصر، كان البعض منهم يرفعون قبعاتهم تحية له، ولكن لم يكن أحد منهم يهتف بأعلى صوته، كما كان يحدث فيما مضى:

عاش الحلفاء! عاش الإمبراطور «ألكسندر!».

٢

وماذا، لو كانت قد تزوجت؟! «هذه الفكرة أوقفت «نيقولا» في شارع «جرونيل». كان قد تصوّر كل شيء، ما عدا أبسط الاحتمالات وأشدها مأساوية. وعند ذلك، خانته قواه، ولم يعد يجرؤ على السير، وأخذ المارة يبتعدون عنه، كالماء عندما يجري بقرب صخرة كبيرة، ويتحول عنها. وكان بعضهم ينظرون إليه بفضول مشوب بالسخرية، وهذا ما زاد من حدة شعوره بأنه قد أخطأ وأصبح كمن ضلّ طريقه، وتاه عنه. فلكم أضاع من وقت! وعند وصوله إلى باريس، مساء اليوم السابق، كان يراوده الأمل بأنه سيتمكن من الإسراع للقاء «صوفيا»، ولكنّ متطلبات الخدمة احتجزته إلى وقت متأخر جداً في قصر «الأليزيه بوربون» الذي أراد القيصر أن يقيم فيه، كما فعل في العام السابق ويستقبل «لويس الثامن عشر، الذي سيقلده، تعبيراً عن الامتنان والعرفان بالجميل، أثناء هذا الاستقبال، وسام الوشاح الأكبر «لروح القدس». وبعد انتهاء حفل الاستقبال، ذهب «نيقولا» إلى الغرفة التي خصصت له في أحد مباني ضاحية «سان هونوري»، وأمضى الليلة بطولها وهو يحلم بلقاءات سعيدة، وكانت الشمس، بالنسبة له، قد أشرقت، وهو يمني نفسه بتلك الوعود. ولكن، ها هو، في اللحظة التي وصل بها إلى هدفه، لا تزال تراوده الشكوك.

ولكن لا، إنّ «صوفيا» لا يمكن أن تكون قد تزوجت، في حين أنه لا يزال مغرماً بها. ولو أن مصيبة كهذه قد حصلت لكان علم بها عن طريق دليل خفي، وبواسطة إحساس ذهني عجيب يصعب تحديده ووصفه. وهذا

الصباح المشرق، هذه المدينة التي يعمّ فيها الصخب والضجيج، كل هذا كان يدعم ويقوي أمله. ومرّ من أمامه بائع زجاج وهو يصيح، فانبهرت عيناه من انعكاس أشعة الشمس على المرايا والزجاج. وقال في سره: «كل شيء سيتم على ما يرام، وعلي أن أتشجع!» واستأنف السير، ولم يمنعه انفعاله من أن يفكر بحكمة. في البحث عن أفضل طريقة يتقدم بها لمقابلة «صوفيا»، وعلى الخصوص، كان عليه ألا يقع من جديد في الأخطاء التي ارتكبها في العام الماضي.. وصوله على ظهر فرسه بعد منتصف الليل، وتلك المشاحنة العنيفة في المكتبة، ومروره كالإعصار من أمام والديها المضطربين! فأي تصرّف صبياني هذا الذي بدر منه؟!..

وعلى الرغم من رغبته الشديدة بأن يتمالك نفسه، فقد ارتعش، منفعلاً، عندما لمح مصباح منزل آل «لامبرفو» وتدافعت الذكريات سوية في مخيلته، وشعر بارتخاء في عضلات ساقيه.

وقال في سره، مخاطباً نفسه: «إذا استطعت بلوغ المدخل بثماني خطوات، فهذا يعني أنّ «صوفيا» تحبّني، وأنها لا تزال حرة، ولم تتزوّج!» ولكي يربح الرهان، كان عليه أن يمدّ كثيراً الخطوة الأخيرة.

البواب لم يكن قد تغيّر. وقد دُهش كثيراً عندما عرف الزائر لدرجة أن» نيقولا» دسّ له في يده ثلاثة فرنكات لكي يساعده على استعادة روعه. وفي الحال، كفّ الرجل عن الإيمان بوجود الأشباح، وهكذا فبعد أن استماله إليه «نيقولا» بتلك الرشوة، أخذ يبدي استعداده لتقديم أي خدمة تُطلب منه، وقد علم «نيقولا» منه أنّ الكونت والكونتيسة في البيت، أمّا السيدة «شامبليت» فقد هربت من حرارة الجوّ في باريس، والضجيج الذي يسود جوها، وهي موجودة منذ أسبوعين، في الريف، عند إحدى صديقاتها. فاستاء «نيقولا» عند سماعه هذا الخبر، وكاد يغضب، فقد بدا له وكأن «صوفيا» قد تخلّفت عن موعد للقاء، قد حدّد منذ زمن طويل. ولكن مع أنه

كـان يلعـن هـذا الظـرف الـسيئ الـذي حـال دون لقائهمـا ، فقـد هـدأ قلقـه الرئيسي: «صوفيا» لم تتزوج، وقد بدا هذا بوضوح من خلال حديث البوّاب.

وسأله «نيقولا»:

- وهل تستطيع أن تقول لي فيما إذا كانت المنطقة الريفية الموجودة فيها السيدة «شامبليت» بعيدة عن باريس؟

فغمغم الرجل، وهو يغمض عينيه الصغيرتين كعرى الأزرار، واللتين تنمان عن غباء شديد:

- لا أعرف شيئاً عن ذلك أبداً.

كان يكذب، فشعر «نيقولا» بالمرارة، ولكنه، حفاظاً على كرامته، طلب منه أن يخبر الكونت بقدومه. وأتى خادم لا يعرفه «نيقولا» فأدخله إلى الصالون وطلب منه أن ينتظر.

وفكر «نيقولا»: «ربما كان هكذا أفضل، أن أرى والديها، من جديد، قبل أن أراها، دون عجلة أو تسرع...» وكان يوصي نفسه بالهدوء والبرود، بينما كان يغلي وهو جالس في مكانه. وكانت صور أفراد الأسرة تنظر إليه دون ترحيب أو تعاطف.

وفجأة فتح الباب، وبدا السيد «دو لامبرفو» وتقدّم بحيوية نحو «نيقولا»، شدّ على يده، ولكنه لم يدعه للجلوس. وبعد أن تبادلا بعض الأحاديث العادية والمبتذلة عن تقلّبات السياسة وويلات الحرب، أبدى «نيقولا» رغبته بتقديم احترامه للكونتيسة ولابنتها. فردّ عليه الكونت بلهجة جافة بأنّ زوجته مشغولة، وأنّ «صوفيا» موجودة خارج باريس.

فسأله «نيقولا»، وقد احمرّ وجهه، خجلاً من جرأته:

- ألا تفكّر بالعودة، قريباً؟

فأجابه الكونت

- إني لا أدري متى ستعود، أيها السيد.

وخيّم الصمت بعد ذلك. ولم يجد «نيقولا» مخرجاً لمتابعة الحديث، كان محرجاً، يشعر أنّ زيارته قد أزعجت الكونت وأثارت حفيظته، ومع ذلك فإنه لم يقبل الانسحاب، حاملاً هذا القدر الكبير من خيبة الأمل. وبدافع من ضيق الصدر ومن الغمّ الذي شعر به، أضاف، قائلاً:

- ألا يمكنك، على الأقل، أن تعطيني عنوانها؟

- كلا، أيها السيد.

كان الكونت قد أحنى قليلاً قامته القصيرة المشدودة، وعنقه كان يشبه عنق أفعى موجهاً نحو الخصم. ولم يسبق لـ نيقولا أن رآه على هذا القدر من الجفاء، وقال في سره: «ومع ذلك فليس هنالك ما ألوم نفسي عليه!» وشدت هذه الفكرة من عزيمته، فقال بهدوء:

- لا أدري، يا سيدي، ما الذي جعلني أستحق مثل هذا الرفض القاسي والقاطع، ولكن، أياً كانت المآخذ التي تنسبها لي، فإني أستطيع أن أؤكد لك أنها باطلة، وإذا وجدتني فضولياً وجريئاً في أسئلتي، فعليك ألا تعزي ذلك إلا للذكرى العطرة والعجيبة التي احتفظت بها من إقامتي في منزلك وبين أفراد أسرتك.

ولدى سماع الكونت هذه الكلمات، انبسطت أسارير وجهه، فهو شديد الحساسية على الدوام لسماع موسيقى الجمل العذبة، وقال:

- وأنا أيضاً أحتفظ بذكرى طيبة من إقامتك في منزلنا، ولو كنت بمفردي، لكنت حتى رجوتك، دون أي شك، للعودة والإقامة هنا، لأنّ حرباً عادلة قد أرجعتك إلى بلادنا. ولكني أب، أيها السيد، وفي هذه الحال، أنت تستطيع أن تتفهّم لماذا أطلب منك بإلحاح، ألاّ تعود أبداً.

فقال «نيقولا» متلجلجاً، وهو يبسط ذراعيه كجناحي طائر:

- كلا.. ولكنّ كلا، إني لا أتفهّم ذلك!

وبدا أنّ هذا القصور في بعد النظر ونفاذ الفكر، قد أغاظ الكونت، لأنّ، الكلام بواسطة التلميح كان بالنسبة له أسمى أشكال المجاملة، ولذلك قال، على مضض:

- السنة الماضية، لم تفتنا أنا وزوجتي ملاحظة ملاطفاتك التي كنت تبديها لابنتنا، وأنا أعترف لك أنها، من جهتها، قد شعرت ببعض المودة نحوك. ولكنّ رحيل الجيش الروسي قد وضع حداً نهائياً لتلك العلاقة التي لو طال أمدها لأمكن لها أن تصبح مبهمة ومدعاة للريبة والشكوك. وليس لك الحق، الآن، أن تعود وتعكّر صفو حياتنا جميعاً..

كان يرفع من حدة لهجته تدريجياً. فقاطعة «نيقولا»، صائحاً بصوت أجش:

- ولكني أحبّها، يا سيدي، إني أحبّها!

فأبدى السيد «دو لامبرفو» تكشيرة كتلك التي يبديها عالم الصرف والنحو عندما يصطدم باللغو والحشو في الكلام:

- نعم، نعم، بالتأكيد!.. من كان في سنك يقع بسرعة وبسهولة في الحب... الشباب، الزهو بالسلاح، الاغتراب، جاذبية التجديد، والميل إلى كل جديد.. ولكنك لن تجعلني أعتقد أنّ..

فقال «نيقولا» بعزيمة فجرّت قلبه:

- بلى، يا سيديّ إني أحبها، وأحبها كثيراً لدرجة أني لم أعد أستطيع الاستغناء عنها وعام من الفراق لم يعمل إلا على ازدياد آلامي بسبب فقدانها، وعلى إثارة رغبتي برؤيتها ثانية..

وكان يشعر بالدهشة، وهو يتكلم، من وقاحته وعدم حيائه، كيف كان يمكنه أن يبوح بحبه المشبوب أمام شخص غريب، وأن يفضح أحرّ وأخطر أسراره أمام رجل لا يستطيع أن يتفهّم عواطفه، ولا أن يقدرها حق قدرها؟ ولو أنّ الكونت ابتسم عند سماعه اعترافه لما تحملّ منه ذلك، وربما عمد، عند ذلك إلى قتله وقتل نفسه. ولكنّ الكونت لم يبتسم، بل سأله بلهجة تنم عن الاهتمام: هل كتبت لابنتي وأبلغتها ما قلته لي الآن؟

فرد «نيقولا»:

- نعم، لقد فعلت ذلك ثلاث مرات.

- وهل تلقيت منها جواباً؟

- كلا.

فتنهد الكونت، متمتماً بارتياح شيطاني:

- إذن؟! ماذا يعني ذلك؟

وأخذ ينفض عن صدّارته المخملية، بعض ذرات التبغ التي علقت بها.

فقال «نيقولا»:

- إني، حتى لا أعلم فيما إذا كانت قد تلقّت رسائلي.

- أستطيع أن أؤكد لك أنها قد تلقتها فعلاً، فأنا سلمتها إياها، بنفسي.

والسيد «لامبرفو» الذي استغل الاضطراب الذي أحدثه هذا الكلام لدى من يخاطبه، تابع قائلاً:

- الحقيقة، أيها السيد، هي أنّ ابنتي تتمتّع بإرادة وباستقامة لا مثيل لهما. وبعد الزيارة الليلية الغريبة التي قمت بها، من أجلها، في السنة الماضية، أجريت معها حديثاً مطوّلاً. ولم يطل بها الوقت حتى أدركت أنّ ليس هنالك جانب دائم أو متين في عواطفها نحوك. ولأنها تجاوزت سنّ الحب البريء والغزل والأوهام، فهي

لا تريد أن تعرّض سمعتها للريبة والشبهات بسبب علاقة تسلية وتمضيه وقت لا مستقبل لها ولا يمكن أن تدوم أو تستمر.

فقال «نيقولا» بلهجة تنمّ عن اليأس:

- ولكنّ الأمر لا يتعلق بتسلية لا مستقبل لها!

- دعك من هذا، أيها السيد! فأنت أجنبي وغريب بالنسبة لنا. تأتي إلى فرنسا وتذهب منها حسب تحرّكات الجيش. وتريد مني أن أعير مصداقية لتصريحاتك؟

كان هذا الكلام صدى لكلام «صوفيا» الذي تلفظت به أمام «نيقولا»، أثناء لقائهما الأخير. فشعر بأنه أخذ يفقدها، وأصبح كل شيء بارداً وأسود في قرارة نفسه. وفي غمرة الغمّ والقلق، تذكّر مشروعاً كثيراً ما كان يتصوّره، دون أن يعبرّ عنه بوضوح.

ولذلك قال:

- سيدي، أرجو أن توليني الشرف بمنحي يد ابنتك؟!

فانتفض السيد «دو لامبرفو» وأحمر خداه، ولو أنّ حسكة سمك خنقته لما كانت نظراته أشدّ غيظاً ورعباً. وأخيراً، وقد استرد أنفاسه، تلفظ بكلام يختلط بلعابه، قائلاً:

- أنت لا تفكر بذلك جدياً، أيها السيد!

فردّ «نيقولا»، بكبرياء:

- بلى، يا سيدي!

وأحسّ بشيء من الرعب حيال التسرع المفاجئ الذي اتخذ فيه هذا القرار الخطير.

فقال الكونت وهو يضحك بهدوء:

- ما هذا؟! ما هذا؟! إن هو إلا تصرف صبياني! إنّ ابنتي لا توافق عليه ولن تقبل أبداً.. ولو فرضنا أنها قبلت فعليك أن تفكر أنه ينبغي أن تغادر بلادك وتأتي لتقيم وتستقر في فرنسا.

فقال «نيقولا»:

- ليست هذه نيتي، فإذا حظيت بالسعادة بالزواج من ابنتك فإني سأصطحبها إلى روسيا، وسنقيم هناك..

ولم يتمالك الكونت نفسه هذه المرة، أبداً، فقد أحس أنه حيال مجنون خطر، وقال معترضاً وهو يوجه نظراته نحو «نيقولا»:

- ولكن، ولكن.. هذا مستحيل!

- لماذا؟

- لأن روسيا في آخر الدنيا! ولن نرى بعد ذلك ابنتنا أبداً! ولن نعرف شيئاً عنها، على الإطلاق! عليك أن تتحلّى بالعقل وأن تفكّر وتتصرّف بعقلانية، أيها السيد! فأنا لن أتراجع عن قراري!

فقال «نيقولا» بحزم ومن دون تردّد:

- لكم أودّ معرفة قرار ابنتك!

- إنه سيكون مطابقاً لقراري!

- في هذه الحالة، سأنحني وأرضخ له بالتأكيد، ولكن أيّاً كان رأيك، فليس من حقك أن تكتم ما طلبته منك عن السيدة «دي شامبليت»

فسأله الكونت وهو يزم شفتيه في تكشيرة ازدراء:

- وهل تعتمد عليّ لإبلاغها طلبك؟!

فردّ عليه «نيقولا» بعفوية صادقة:

- نعم، يا سيدي، وأرجوك أن تفعل ذلك، فأنا أثق تماماً بحسّ الشرف والاستقامة لديك. وأعرف جيداً أنك لن تسبب لي الضرر في الوقت الذي تملك فيه القدرة والسلطة لتفعل ذلك!

فحيّا الكونت هذا الإطراء بإحناء رأسه قليلاً، فقد ضربه خصمه على الوتر الحساس. ولذلك قال:

- ليكن ذلك، أيها السيد. سوف تنفذ المهمة. إلى أين يمكنني أن أرسل لك رسالة؟

فأعطاه «نيقولا» عنوانه. ولم يعد لديه ما يقوله أو يعمله. وأخذ الاثنان، يتأمل كل منهما الآخر، بالبرود نفسه الذي يتأمل فيه المتبارزان بعضهما، بعد أول هجوم. ثم اتجه السيد «دي ميروفوكس» نحو الباب، وقد استردّ هدوءه التام، وقال، عند العتبة:

- وداعاً، أيها السيد لقد حذّرتك: يتوقّف الأمر عليك وحدك بالتقيد بمضمون الجواب الذي ستتلقاه.

فقال «نيقولا» بأعلى صوته:

- أيّاً كان مضمون هذا الجواب، فسيكون مقدساً في نظري، لأنه سيصدر عن امرأة أحبها، أجلها وأحترمها أكثر من أي إنسان في العالم!

وأدرك أنه قد غالى كثيراً في حديثه، وظل واقفاً بكبرياء، ثم اعتمر قبعته، وخرج بخطى عسكرية صلبة.

☆☆☆

ولم يقدّر خطورة نتائج مبادرته إلا بعد أن جلس في غرفته وحيداً، مساء ذلك اليوم: فهو لا يستطيع أن يتزوّج دون أن يبارك والده هذا الزواج، كما أنه يحتاج أيضاً للحصول على موافقة السلطات العسكرية، والحقيقة هي أنه كان يفكّر بأنه لا يخشى أن يلقى معارضة لمشروعه من قبل رؤسائه في الجيش، ولكن من جهة والده فهو يتوقع أسوأ الصعوبات. فبالنسبة لأي روسي غير عاشق ولا محب، تبدو «صوفيا» متّصفة بثلاثة عيوب، فهي أرملة، فرنسية، وكاثوليكيّة.

وليس هنالك أيّ شك بأن «ميشيل بوروسوفيتش أوزاريف» بصفته رب أسرة، سوف يستنكر ويرفض مشروع ابنه. ولو أن «نيقولا» تحدّث إليه عن «صوفيا»، خلال الأسابيع الثلاثة التي قضاها في إجازة خلال شهر شباط (فبراير) في المنزل، ولو أنه روى له، آنذاك، مشافهةً، قصة حبّه الشديد لها وهيامه بها، لو أنه هيأه لتقبل مشروع خطوبته! ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، وكل ما فعله هو أنه باح بذلك لأخته «ماري» التي كانت مثالية في تكتمها. وماذا سيحصل فيما إذا قبلت «صوفيا» أن تتزوجه وهو لم يتلقّ موافقة والده؟

وكيف سيشرح لهذه المرأة المشبعة بالأفكار الجمهورية، والتي تعشق الحرية، أنه وهو في الحادية والعشرين من العمر، لا يزال غير حرّ في اختيار طريقه.

وفي الوقت الذي كان يكتب فيه «نيقولا» للرجل المخيف الذي يتعلّق به مصيره، انتابه خوف شديد كاد يشلّ حركته» فهو، بالنسبة لجنوده: «صاحب السعادة»، أمّا بالنسبة لأبيه فلم يكن سوى صبيّ صغير. كانت الصفحة البيضاء تنتظر أمامه، تحت المصباح. يستحيل عليه تأجيل خوض التجربة، ولكن من أين، وكيف يبدأ؟ بل وبأي لغة يعبرّ عن أفكاره؟ فقد كانت العادة، في أوساط المجتمع الراقي، أن تكتب الرسائل المهمة باللغة الفرنسية، وباللغة الروسية البطاقات والرسائل العادية. وفي الحالة الراهنة كان إذن يبدو أنّ اللغة الفرنسية هي المفضلة، ومع ذلك، فإنّ «نيقولا» اختار اللغة الروسية لكي يثبت لوالده بأنه لم يفقد الحس الوطني بسبب هيامه بامرأة فرنسية.

وقد بدا له أنّ هذا القرار الأول الذي اتخذه، قد أنهك قواه. ولأنه حُرم من خدمات «أنتيب» الذي لم يصل بعد إلى باريس فقد هيأ، هو بنفسه «سماوره» ووضع «زجاجة» الروم» على «الاسكلمة»، بالقرب منه. وبعد أن

شرب كأساً من الشاي الحار الذي أضاف إليه السكر والكحول، شمّر عن ساعديه وهيأ ريشته، فتراءى له والده في الخيال، واضطربت أفكاره، وتناول جرعة ثانية ولم يكن لها من أثر سوى شعوره بالحر، وأخيراً وبعد تناول الجرعة الثالثة، حزم أمره، وأخذ يكتب:

والدي المحبوب والمحترم جداً،

أنا أهم بالقيام بخطوة تتوقف عليها سعادة حياتي ووجودي، لذلك فأنا أتوسل إليك أن تؤيد وتبارك المشروع الذي يشرفني أن أعرضه عليك، فيما يلي:

ففي السنة الماضية، أثناء إقامتي في باريس، سنحت لي فرصة الالتقاء بفتاة فرنسية..

وهنا بالتحديد بدأ الارتباك. وبعد أن فكّر واستبدل كثيراً من عبارات المواربة المبهمة، شعر بشيء من الجرأة وأخذ يتكلم بلغة بسيطة، قائلاً لوالده أنّ «صوفيا» تنتمي لأسرة كبيرة، رفيعة الشأن، وأنها تجمع بين الجمال الباهر وحدّة الذكاء، وأنها فقدت زوجها الذي كان فيلسوفاً مشهوراً ومتقدماً في السنّ، وأنها بعد حدادها، والحزن الذي المّ بها بسبب هذا المصاب الأليم، تعيش في عزلة تامة، وأنه ينوي إخراجها من هذه العزلة، باتخاذها زوجة له.

وأنا بالحقيقة لم أكن لأهتم بها لو أنه كانت غير جديرة بالدخول إلى بيتنا والانضمام إلى أسرتنا. هذا ما كتبه، وأضاف: ولكنّ كمال فضائلها وروعة مزاياها، ستجعلك فخوراً بها، وبأن تحمل اسم عائلتنا. آه! يا أبي، قل لي:

«نعم، موافقّ وسأكون أسعد إنسان على وجه الأرض!»

وكان «نيقولا» ينهي رسالته بعبارات المجاملة الأخيرة، المعتادة، عندما قرع الباب «هيبوليت روزنيكوف» بقبضته. وهو يقيم في غرفة قريبة من

غرفة «نيقولا». وصاحب الغرفتين كان نجار موبيليا عجوزاً، يعيش وحيداً، في منزل فسيح جداً بالنسبة له، يغصّ بالأرائك المحطّمة والخزائن المخلّعة وغيرها من قطع الأثاث التي لم يكن لديه الوقت ولا الميل لإصلاحها.

وحتى قبل أن يصيح «نيقولا»: «ادخلْ» كان «هيبوليت روزنيكوف» قد اجتاز العتبة، وانحنى، وهو معطر، مطيب وضاحك، على كتف «نيقولا»، وسأله:

- رسالة إلى أبيك؟

فأجابه «نيقولا»:

- نعم

- تروي له فيها الأعمال الباهرة التي قام بها جيشنا الذي لا يقهر؟ وتخبره بتعيينك في هيئة أركان الأمير «فولكونسكي»؟ وتطلب منه نقوداً؟

فقال له «نيقولا»:

- لا شيء من كل هذا، إني أخبره برغبتي بالزواج. فاختفت الابتسامة التي كانت على شفتي «روزنيكوف» وحملق بعينيه كمن ينظر في هاوية عميقة. وخلال تلك اللحظة. كان يشبه بدهشته السيد «دو لامبرفو». وهمس، حائراً:

- أنت لا تتكلم بجد؟!

فقال «نيقولا»:

- بلى، إني جاد تماماً!

فألقى «روزنيكوف» بنفسه على إحدى الأرائك، ثم انتفض واقفاً بسرعة، وكأنّ أفعى قد لسعته، ووجه إلى جبهته صفعة مدوية:

- إنك مجنون تماماً! وتستحق أن يحجر عليك! وأنت في هذه السنّ، ومع المستقبل الباهر الذي ينتظرك، وتنفتح أبوابه على مصراعيها أمامك، تريد أن تربك نفسك بامرأة؟

كان «نيقولا» يحني ظهره تحت هذا السيل من الحجارة. فهو يتوقع هذا اللوم وهذا التوبيخ من «روزنيكوف» ولم يكن يبالي بهما.

واستأنف «روزنيكوف» الكلام:

- ولكن كيف، ومتى قرّرت ذلك؟!

- صباح اليوم.

- ألم يكن بإمكانك أن تحدثني عن هذا الموضوع قبل أن تتخذ قرارك؟

- ما كانت نصائحك لتغير شيئاً.

- لن أسألك بمن يتعلق الأمر! فهو يتعلق على الدوام، وكالعادة بـ صوفيا الجميلة، صوفيا القاسية، أليس كذلك؟

وكما لو أنه قد تلفظ بعبارة سحرية، تستطيع تهدئة العواصف، فقال «نيقولا» بعذوبة وهدوء:

- نعم، إنها هي، ودائماً هي!

- أنت ينبغي أن تستمر في التفكير وفي العمل!

- ليس لديّ القدرة على ذلك. فهي... هي...

- رائعة لا مثيل لها! لقد ردّدت لي هذا، مئة مرة! ولكن كان عليك أن تتريث قليلاً في الكتابة لأبيك!

فقال له «نيقولا»:

- كلا، يا «هيبوليت». لا أستطيع إضاعة الوقت: فحتى لو أني أرسلت رسالتي بالبريد الرسمي السريع، فسوف يستغرق وصولها إلى «كشتوفكا» ثلاثة أسابيع. ولنحسب ثلاثة أسابيع أخرى، كي يصل الجواب. فتصبح المدة شهراً ونصف، أي أنّ عليّ إن أمضي شهراً ونصف في الحيرة والانتظار!

فسأله «روزنيكوف»:

وماذا لو رفض؟

فقال «نيقولا» وهو يحني جبهته:

- أعتقد أني سأعصيه.

فحدجه صديقه بنظرة جانبية، وغمغم، معترضاً:

- لا تتفوّه بالحماقات. أنت لا تدرك ماذا يجرّ عليك ذلك من نتائج..

فقال «نيقولا»:

- سأتخلى عن كل شيء، وأقدم استقالتي من الجيش، وسأمكث في فرنسا معها..

فصاح «روزنيكوف»:

- وبذلك تسبب البؤس والشقاء لنفسك أنت، ولها!

لذلك يجب منعك بأي ثمن من ارتكاب هذا الخطأ الجنوني.

ألا تريد أن تريني ماذا كتبت؟

فقدم له «نيقولا» الورقة.

وقال «روزنيكوف»:

- آه! انها باللغة الروسية. أنت فضّلت الروسية؟.. وقرأ الرسالة بكل انتباه، واعترف بأنها مقنعة وتتّسم بالمودّة والمراعاة.

وتابع كلامه، وهو يلقي الورقة على المنضدة:

- متى ستعرّفني على خطيبتك؟

- فيما بعد، فهي ليست في باريس، في الوقت الحاضر.

- وأنت لم ترها، من جديد، بعد عودتك؟

- كلا.

- إذن، كيف طلبتها للزواج؟

- لقد تحدثت بذلك إلى والدها.

- وهل وافق؟

- ليس تماماً، ولكنه وعدني بأن يطلع ابنته على نيتي.

- وكيف ذلك؟ إنها لم تطّلع بعد على أي شيء؟

فقال «نيقولا»:

- كلا!

فرفع «روزنيكوف» يديه نحو السقف، وتركهما تسقطان على فخذيه، وارتعش شاربه الصغير فوق فمه المستدير وتجلّت الدهشة الشديدة على ملامحه، وصاح بأعلى صوته:

- انتظر! انتظر، كي أتبين جيداً حالتك! وإذا كنت قد فهمت الوضع تماماً، فليس هناك أحد، الآن، فيما عداك أنت، يرغب بالزواج: فالوالدان، أي والدك ووالدها، من المحتمل جداً أن يقفا ضد هذا المشروع، والفتاة لم تستشر بعد! وأنت تحرك كل شيء، حتى دون أن تعرف فيما إذا كانت تبادلك العاطفة والمشاعر نفسها! أو لا تخشى، وأنت تتسرّع هكذا، وتنطلق قبل الأوان، أن تجد نفسك وحيداً، في العراء؟

فقال «نيقولا»

- لا بدّ لي من القيام بهذه المجازفة. ولو أنك ذقت طعم الحب، لفهمتني دون شك..

فقاطعه «روزنيكوف» بضحكة قوية، وهو يمسك خاصرتيه:

- إنك مغفلّ أبله! مغفل بشكل عجيب، وعضال، ولا أمل بشفائك! مزّق رسالتك، أو ضعها جانباً إلى اليوم الذي تعرف فيه ردود فعل المعنية الرئيسية في هذا الموضوع!

فردّ عليه «نيقولا» بغضب:

- هذه الرسالة ستنطلق غداً صباحاً.

وبقدر ما كان يزداد اقتناعاً بأنّ «روزنيكوف» محق في لومه وتوبيخه لتصرفه غير المنطقي، بقدر ما كان يسرع للقيام بخطوة لن يستطيع بعدها التراجع أبداً. وختم الرسالة أمام صديقه، وسجّل عليها العنوان.

فسأله: «روزنيكوف» عما إذا كان، على الرغم من وقوعه في الحب، يستطيع الخروج مساء ذلك اليوم.

فصاح «نيقولا»:

- بلى، بالتأكيد! فلم يتغيّر أي شيء؟

ولكنّ الحقيقة، هي أنه كان يبذل جهداً كبيراً كي يجد المسرّة في مكان آخر، غير ذكرى «صوفيا».

٣

صباح كل يوم، كان «نيقولا» يستيقظ أملاً أن يتلقى جواباً من «صوفيا»، وفي كل مساء، كان يأوي إلى سريره، وهو يشعر بخيبة الأمل. وأدىّ به الأمر إلى الشك بأنّ الكونت لم يبلغ ابنته، طلبه الزواج بها. وربما تكون قد عادت من الريف؟ وعندما تبادرت هذه الفكرة إلى ذهنه، انتابه غضب شديد، وأنه يريد مقابلة السيد «دو لامبرفو» مرة أخرى، وسيتهمه بالخيانة، ويجمع كل من في المنزل بصراخه. وتربيته وحدها هي التي كانت تمنعه من (أن يذهب ويشتم ذلك الرجل المسنّ، الذي يمكن أن يصبح حماه (أي عمه) لو ساعده الحظ على الزواج بابنته).

ولم يكد «أنتيب» يصل إلى باريس، حتى تلقّى الأمر بأنّ عليه أن يراقب بصورة سرية مرور العربات في شارع «جرونيل». وأنه يجب عليه أن يخبر سيده، على الفور، عندما يلمح السيدة «دي شامبليت» في إحدى تلك العربات. ولكنّ الوصيف كان يعود إلى المنزل، يوماً بعد يوم، وهو على الحالة نفسها من الارتباك: لقد شاهد مرور كل سكان باريس، ما عدا الشخص الذي يهتم به ويبحث عنه سيده.

وبعد أسبوع من الانتظار فقد «نيقولا» الرغبة بالأكل والميل للطعام. ولم تكن خدمته في الأركان العامة تستغرق وقتاً طويلاً، بحيث أنه بعد أن يطالع الصحف الفرنسية ويسجل عنها بعض الملاحظات والتعليقات والتعليمات، لم يعد لديه أي عمل سوى التفكير واجترار قلقه وهمومه. وكان «روزنيكوف» وضباط آخرون يحاولون تسليته باصطحابهم إياه إلى

المقاهي وإلى المسارح، ولكنّ تلك التسليات والنشاطات التافهة لم تعد تعجبه منذ أن أصبح محبّاً وعاشقاً وعلى أهبة الزواج. وعلاوة على ذلك، فقد بدت باريس سنة ١٨١٥ أقل روعة وجمالاً من باريس سنة ١٨١٤. كان القسم الأكبر من الجيش الروسي يعسكر في المنطقة المسماة «ايل دي فرانس» والتي تشمل عدة محافظات تقع حول العاصمة، وفي محافظة «الشمانيا» ومحافظة «اللورين» بينما كان الجيش البروسي بقيادة الماريشال «بلوخير» والجيش الانكليزي بقيادة الجنرال «ويلنغتون» يحتلان باريس.

والبروسيون المتغطرسون والقساة عسكروا في قصر وحدائق «التويلري» و «اللكسمبورج» وفي باحة كاتدرائية «نوتردام» وفي الليل، كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب، شاهرين سيوفهم، عند حواجز المكوس والرسوم. وفي الضواحي، كان البعض منهم ينهبون المنازل المهجورة. وقد خيمت فرقة من الخيالة الانكليز في حقول القمح الناضج. والماريشال «بلوخير» الذي دفعته كراهيته لفرنسا وحقده عليها على التصميم على نسف جسري «ايينا» و «أوستيرلتيز»، الاسمين اللذين يرمزان إلى انتصارات نابليون وقد تطلّب منعه من تنفيذ مشروعه، جهوداً مشتركة بذلها كل من «تاليران»، «لويس الثامن عشر» الجنرال «ويلنغتون» والقيصر، وملك بروسيا، أيضاً. وكان يضاف إلى الأعمال الفوضوية التي يقوم بها العسكر، تلك التي كان يثيرها في كل مكان أنصار الملكية المتطرفون. ولأنهم أعداء ألدّاء لأنصار بونابرت، فقد كانوا يتطاولون في أعمالهم الانتقامية ويعتدون على الليبراليين، والمطالبين بالحريات الدستورية، وحتى على الحياديين والمتردّدين، أي باختصار على كل من لا يشاطرهم آراءهم المتطرفة. ويتحدث الناس عن ممثلين، هزأ بهم الجمهور وقابلهم بالصفير، في أحد المسارح بسبب تأييدهم للنظام البائد، وعن بعض المتنزهين الذين ضربهم وأهانهم الحرس الملكي لأنهم كانوا يحملون زهور القرنفل - شعار التمرد

والعصيان- في عرى ستراتهم. وعن مشاحنات وخناقات في الحانات والمقاهي بين أفراد الحرس الوطني، وجنود» لويس الثامن عشر».

وكان «نيقولا» وهو يطالع الصحف ويتأمل الأوضاع في المدينة كان يرثي لحال فرنسا هذه الممزقة، المعرضة للابتزاز والاستغلال، وعلى رأس نظام الحكم فيها، ملك لم تعد تحترمه. وكثيراً ما كان يفكر بالسيد «بواتوفان». متمنياً معرفة رأيه في الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك. كانت ذكرى هذا الرجل مرتبطة في ذهنه بذكرى «صوفيا». أليس في ذلك الصالون الصغير وفي البيت الكائن في شارع «يعقوب» شعر للمرة الأولى بأنها تدعمه وتقدره؟ وفي صباح يوم أحد، استسلم للحنين، وسار نحو حي «سان جيرمان دي بري» وقادته قدماه بطبيعة الحال باتجاه مكتبة «الراعي الصالح».

كان الباب الزجاجي مفتوحاً. وفي داخل المكتبة، بدا «اوغستان فافاسور» هزيلاً، مشعث الشعر، سيء الهندام، وقد أخذ يرتب بعض الكتب في الصناديق. وعندما لمح «نيقولا» هذا الشخص الذي اعتبره سمجاً وكريها، فيما مضى، تولد لديه انطباع غريب ومناقض لما سبق، وشعر بأنه يلتقي بأحد أصدقائه. ودون علم منه، كان صاحب المكتبة من جهته هو أيضاً، يكتسب حظوة من السحر المنبعث من شخصية «صوفيا». ورأى «نيقولا» صورته وهو في بزته العسكرية، منعكسة في مرآة المكتبة، ولم يجرؤ على الدخول. فليس هنالك احتمال كبير بأن يتذكره «أوغستان». وعلاوة على ذلك، فلم يكن لديهما ما يقوله أحدهما للآخر. وهذه الفكرة الأخيرة، جعلته يتخذ قراره فجأة، وعلى الفور اجتاز العتبة. وخلال ثلاث ثوان، أخذ «أوغستان فافا سور» يتأمل هذا الضابط الروسي دون أن يعرفه، ثم بدت على فمه ابتسامة ساخرة، وقال:

- يا للعجب! بين حيطاننا من جديد؟ أي ريح طيبة أتت بك؟ فتمتم «نيقولا» وقد شعر بالخجل:

- إنه مجرّد مرور، وحسب.

فقال: «أوغستان فافا سور»، هادئاً:

- هذا ما يقوله جميع المحتلين!

ولأنّ «نيقولا» لم يتبين لهجة السخرية فيما قاله، فقد أضاف بشيء من اللامبالاة:

- هل سررت بعودتك، ومشاهدتك باريس مرة ثانية؟

فقال «نيقولا» معترفاً:

- أقل مما كنت أتصور.

- ولماذا؟ فالجو العام يدعو إلى البهجة والسرور: فها هو ملكنا الطيب عاد ليجلس على عرشه من جديد. والمتحالفون يحتلون البلاد من أولها وحتى نهر اللوار، وصخور «الكالفادوس» على شاطئ بحر المانش، وكل أوروبا تتغذى من خيراتنا! وهذا لا بدّ من أن يكون مشهداً مسلياً بالنسبة لشخص روسي، ولا سيما وهو يرى الفرنسيين أثناء ذلك كله، وهم يتخاصمون ويتشاجرون بين أنقاض أمجادهم!

- ربما كان هذا صحيحاً بالنسبة لأحد البروسيين، ولكنّ هذا لا يصح أن يقال عن أحد الروس، على الإطلاق!

- ربما كان هذا رأيك الخاص، أي أنك تتحدث عن نفسك.

وأنا أظنّ أنك قد تسرّبت إليك بعض الأفكار الفرنسية.

- أنا لا أفعل بهذا سوى الاقتداء بمليكي. فهو في هذه السنة سيتمكن من التخفيف من غلواء ومطالب أصدقائه، كما فعل في السنة الماضية!

فقال «فافاسور» بحدّة واضحة:

- إني شديد الأسف لأنه لا يدعهم يفعلون كل ما يريدون! وأخذ يشرح هذه الفكرة، قائلاً إنه يتمنى أن تقوم الجيوش الأجنبية التي تحتل فرنسا بالأعمال السيئة كالقمع والاغتصاب والسلب والنهب، وأنه يُعدها مرغوبة، لأنّ هذه الأعمال ستجعل الشعب الذي يتعرض للاضطهاد والإذلال وإلى سرقة أمواله وممتلكاته، يتوحد ويجتمع على كراهية المحتلين والسلطات العامة. ولا بدّ من حدوث بعض المظالم لكي يصبح اندلاع الثورة ممكناً. ولا بدّ من اندلاع الثورة لكي تتحقق السعادة للجميع. وما بعض الظواهر، كتسلم نابليون السلطة أو تسنم «لويس الثامن عشر» العرش، سوى مراحل، وفترات توقف في مسيرة الأمة نحو عهد تتمتع فيه بالاستقلال الجمهوري. ولكي يدعم «أوغستان فافا سور» آراءه وتنبؤاته، عرض على «نيقولا» بعض الكراسات التي كان يحتفظ بها في أحد الأدراج والتي كانت تتحدث كلها عن مساوئ الاستبداد، وقال له:

- إذا كنت تريد أن تأخذ بعضاً منها؟ فخذ ما تشاء!

فغمغم «نيقولا» بسرعة:

- كلا! كلا! إني أشكرك..

كان مجرد لمس تلك الكراسات ذات المضمون المخرب يحدث لديه شعوراً بالقلق والانزعاج، ومع ذلك فإنه بدافع الفضول تصفح إحداها، فوقعت نظراته على مقطع يتضمن جملاً مخيفة: «طالما ظلّ على سطح الأرض إنسان واحد، يلاحق بسبب مولده، أصله، عرقه معتقده أو آرائه، فإنّ البشرية بأجمعها تظل مدانة، وإذا ادعى أحد الملوك أنه يحكم البلاد باسم الله ونيابة عنه، فهو يرتكب جريمة بحق الديانة المسيحية، لأنه لا

يمكن أن يكون هنالك مسيح ثانٍ على وجه الأرض وإذا ادعى أنه يحكم باسم الشعب، فهو يكذب لأنّ الشعب لم يختَرْه.. «لا يمكن أن يكون المرء ملكيا وفي الوقت نفسه يحبّ كل أبناء جنسه..» ولم تكن كتابات «شامبليت» السياسية سوى نهر من العسل، إلى جانب هذه. وعاد «نيقولا» إلى الصفحة التي تحمل العنوان: «أحاديث مواطن حر، صديق للفضيلة» ولم يذكر اسم المؤلف. والكراس مطبوع في «لاهاي»

وسأله «نيقولا»:

- ألديك حق ببيع هذه النشرات؟

فأجابه «أوغستان فافاسور» وهو يبتسم بازدراء:

- كلا، بكل تأكيد!

- ولكن، ماذا لو اكتشفت عندك؟

- سأقول بأنها تشكل جزءاً من مكتبتي الخاصة!

- وهل سيصدّقونك؟

- ربما.

- لقد عرضت نفسك للخطر باطلاعي عليها!

- هذا يثبت لك أني أثق بك على الرغم من بزتك العسكرية.

فشعر «نيقولا» بالسرور، ولكنه تمالك نفسه في الحال:

فهل له أن يبتهج لأنه اعتبر شخصاً ليبرالياً متحرراً؟

وقال:

- إنك لا تكاد تعرفني.

- أليست السيدة «صوفيا دي شامبليت» هي التي أشارت عليك بالذهاب إلى منزل «آلبواتوفان»؟، فهذا يُعد، بالنسبة لي، أفضل توصية لصالحك. وعلاوة على ذلك، فإني سأعترف لك، بأنّ الأمر سيان لدي فيما لو ألقي القبض علي، وزج بي في السجن..

بل ربما اعتبرت ذلك شرفاً لي وتكريماً، في هذا العالم الفاسد الذي يحيط بنا.. وعلى المرء أن يتحمل الألم والمعاناة في سبيل قناعاته ومعتقداته السامية..

فلاحظ «نيقولا» أنّ هذا الرجل الذي كان يبدو طبيعياً عند بداية حديثهما، قد فقد آنذاك التحكم في عقله. وأخذت بعض التشنجات والتقلصات العصبية تحرك خديه، منخريه، وجفنيه. وتابع «أوغستان فافا سان» بصوت لاهث:

- إني أعيش وحيداً، لا زوجة لي ولا أولاد. ولعي، بل همّي الوحيد، هو فعل الخير للآخرين..

كان يتحدث بصورة تتزايد معها حماسته وتهيجه، عندما قاطعه «نيقولا» بشكل مفاجئ، بعد أن راوده أمل معين:

- لقد ذكرت السيدة «دي شامبليت»، قبل قليل، فهل تعرف، بالمصادفة، أين يمكن أن أجدها؟

وعلى الفور تجمد وجه «أوغستان فافا سور»، وقال:

- كلا.

- ولكنها، بالتأكيد قد غادرت باريس، أليس كذلك؟

- هذا ما أفترضه.

- ولم تعد بعد؟

فغمغم «أوغستان»:

- على حد علمي، كلا.

وكان ارتباكه واضحاً، لدرجة أنّ «نيقولا» أخذ يرتاب في الأمر فإن كان على خطأ أو صواب، فقد بدا له أنّ «أوغستان» يعرف عنها الكثير، ولكنه لا يريد أن يبوح به. فتقدم خطوة نحو صاحب المكتبة، وحدّق بقوة في عينيه، وهمس:

- أرجو، على الأقل، ألا يكون قد أصابها مكروه؟

ولم يكد يتلفظ بهذه العبارة حتى تحولت خشيته إلى ذعر، اجتاح ذهنه، ولكنّ «أوغستان فافا سور»، أخذ يطمئنه، قائلاً:

- كلا، يا سيدي، لا تقلق، فالسيدة «دي شامبليت» على ما يرام وهي بصحة جيدة.

لقد فضح نفسه: فهو إذن يعرف مخبأ «صوفيا»!

فصاح «نيقولا»:

- آه! يا سيدي، أتوسل إليك، ساعدني كي أذهب للقائها!

- ولكني كرّرت لك القول..

- لو تكرره لي مئة مرة، فإني لن أصدّقك!

فحكّ «أوغستان فافا سور» نقرته بأظافره الطويلة والوسخة، ولاح بريق حالم في حدقتيه. وطبعاً فقد تأثر برومانسية الموقف، لذلك ذهب فأغلق باب مكتبته، وقال:

- سأتحدث إليك بكل صراحة: لقد تورّطت السيدة «دي شامبليت» ببعض الأمور، بعد رحيل «لويس الثامن عشر»

فتمتم «نيقولا» الذي فكّر بكل شيء ما عدا السياسة:

- تورطت؟! وبأي شكل، من فضلك، قل لي؟!

- أيدهشك ذلك؟ إيه، نعم! فقد كانت معادية لنابليون، طوال فترة حكمه، ولكنه عندما عاد من جزيرة «ايلب»، راودها أمل كبير بحدوث نهضة فرنسية جديدة. وعلى غرار «بنجامين كونستان» وكثيرين غيره، اعتقدت أنه لا يجوز بعدئذ معارضة الإمبراطور ومناصبته العداء، بل حثه على القيام بإصلاحات كبيرة ومهمة. وبالفعل، فإنّ نابليون صرّح في بداية الأمر، لكي يقنع الشعب بتقبل الحرب الطويلة التي

كـان يتوقعهـا ، أنـه علـى اسـتعداد للقيـام بتنـازلات تحرريـة كثيرة. ونظم «بنجامين كونستان» على عجل، دستوراً ، فيـه كل ما لذ وطاب من المأكل والمشرب..

فصاح «نيقولا» وقد نفد صبره:

- نعم! نعم! ولكن أين السيدة «شامبليت» وما شأنها في كل هذا؟!

- لقد قلت لك ذلك، كانت تدعم وتؤيد عمل الليبراليين المتحرّرين، الـذين انـضموا إلى خدمـة الإمبراطـور وقـضية الإمبراطوريـة ، وكانت تشاهد في كل مكان وهي تتهجم بالكلام القاسي على أسرة «آل بوربون» الملكيـة ، وتنسب إليها كل المصائب التي حلت بفرنسا ، وتؤكد للناس أنّ نابليون وحده، هو الـذي لا يـزال يستطيع إنقـاذ الديمقراطية.. واتخاذهـا هـذا الموقـف جعلها تصبح مشبوهة ، حتـى في وسطها الخـاص، وفي محيط ذويها. ومنـذ أن اقتربت الجيـوش المتحالفـة مـن بـاريس، توسّل إليها والداها أن تهرب..

- ولكم قلقت آنذاك؟!

- أخشى أن يكون قد حدث لها ذلك.

وبدا الملكيون الفرنسيون آنذاك لـ نيقـولا أكـثر كراهيـة مـن الثوريين. ولا بدّ لـه مـن التحلـي بجـرأة شـديدة، كتلـك الـتي يتحلـى بهـا النمـر، كـي يستطيع مواجهة «صوفيا».

وسـأل «أوغستان»:

- وأين هي الآن؟

- في بيت هادئ وجميل، يملكه «آل بواتوفان» في «فيرساي»، وعلاوة على ذلك، فإني أظن بـأنّ مـن الممكـن أنهـا سـتعود في أواخـر هذا الشهر، لأن الجانب الأسـاسـي في الموضـوع كـان انقضـاء

الموجـــة الأولى مـــن الوشـــايات والتحريـــات والتوقيفـــات الاستبدادية، والتعسفية..

وتمتم «نيقولا» وهو لا يزال متأثراً بسبب الأخطار التي تعرضت لها «صوفيا»:

- لا ينبغي أن ترتكب عملاً طائشاً وتخرج من مخبئها قبل الوقت المناسب!

وبشكل مفاجئ طغت موجة من الفرح على قلقه ومخاوفه:فقد أدرك أخيراً لماذا استقبله السيد «دو لامبرفو» بذلك الشكل السيء ولماذا لم تردّ «صوفيا» على طلبه الزواج منها.

وقال، وكأنه يتحدث مع نفسه:

سأذهب إلى هناك، وسأراها!

- إني آمل أنها لن تنقم عليّ لأني بحت لك بسرها!

- كلا، بالتأكيد، أيها السيد، وسنكون كلانا، نحن الاثنان، غداً، نفكر بك ونتذكرك، بكل مودة وامتنان.

فقال «أوغستان فافاسور» وهو يغمز بعينه:

- أعتقد أنه لن يكون لديكما كثير من الوقت للاهتمام بي!

فدهش «نيقولا» من هذه الموهبة التنجيمية: كيف استطاع صاحب المكتبة أن يكتشف طبيعة المشاعر التي تربطه بـ صوفيا.

واستأنف «أوغستان» الكلام، قائلاً:

- بما أنك تنوي الذهاب غداً إلى «فيرساي»، فسأحملك رسالة للسيدة «دي شامبليت»

فقال له «نيقولا» بحرارة:

- بعد كل هذا الذي عملته من أجلي، فإني لا أستطيع أن أرفض لك طلباً.

فرجاه «أوغستان» أن يجلس، وذهب هو فجلس خلف منضدة مكتبته لكي يكتب. ومن وقت لآخر، كان يبحث عن معلومات في مفكرة كبيرة. وبعد أن سوّد أول صفحة، باشر بتسويد الثانية، وهو يعود كثيراً إلى أول السطر. بحيث يخيل لمن يراقبه أنه ينظم جدولاً بأسماء بعض الأشخاص. وكانت ريشته ترسم أحياناً إشارة سرية على الهامش.

أليست هذه إذن رسالة سرية، ذات طابع سياسي؟ فشعر «نيقولا» أنه غارق في المؤامرة حتى أذنيه. هو الضابط في جيش القيصر!

وكانت تهدئ وساوسه رغبته الشديدة بإثبات إخلاصه الشديد لـ صوفيا. وعندما أنجزت الرسالة، وُقعت وخُتمت، قال بلهجة الموافقة وتفهم الأمور:

- إني أراهن على أنك تزوّد السيدة «دي شامبليت» بجميع المعلومات المتعلقة بشؤون الدولة!

فردّ عليه «أوغستان» قائلاً:

- أوه! كلا، فقد أوصتني قبل سفرها أن أدبرّ لها بعض الكتب فأشرت لها إلى الكتب التي وجدتها، مع سعر كل منها، وها هو عنوانها، على المغلف..

فشعر «نيقولا» بخيبة الأمل عند سماعه هذا الردّ، كما لو أنه حُرم من مجازفة كان يرغب كثيراً بالقيام بها. ثم تبادر إلى ذهنه أنّ «أوغستان فافا سور» ربما كان يكذب لكي يطمئنه. فهل يبدو عليه، هو، أنه غرّ، قليل الخبرة؟

وتمتم وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة:

- أعطني هذه الرسالة، أيها السيد، وأياً كان مضمونها فإنها ستسلم إلى صاحبتها.

٤

توقفت العربة الصغيرة، في فناء قصر «فيرساي»، والحصان الوحيد الذي كان يجرها، بدا منهكاً وأخذ يلهث حتى كادت أضلاعه تتقطع تراجع بين عريشي العربية، فانحنى صندوقها الأخضر إلى الوراء. و «نيقولا» الذي أمضى الرحلة على المقعد الكائن على الحاجز في العربة، قفز برشاقة على الأرض، بينما كان أربعة مسافرين آخرين ينزلون بصعوبة من العربة وهم يشكون من ألم في سيقانهم.

و «نيقولا» الذي حصل على إجازة مدتها يومان، كان يشعر آنذاك أنه حصل على إجازة تدوم طوال الحياة.

وأمام بناء القصر بطرازه المعماري المهيب وألوانه الوردية الزاهية، كانت تصطف مختلف أنواع العربات. وكان الحوذيون ينادون بأعلى صوتهم، داعين زبائنهم المتردّدين، إلى الرحيل: «إلى باريس! هيا! إلى باريس! سننطلق في الحال! شخصان فقط، ويكتمل العدد!» وكان حوذي مساعد، بجزمته الضخمة يقف في حراسة أكداس ضخمة من الأمتعة فاستفسر منه «نيقولا» عن الطريق إلى المنزل الذي يقصده، فقال له: «إنه على بعد خطوتين من هنا!» ومع ذلك فقد كان عليه أن يمشي أكثر من نصف ساعة تحت أشعة الشمس الحارّة، قبل أن يصل إلى أمام منزل «آل بواتوفان»، الذي كان يبدو أبيض اللون، يعلوه سطح من الأردواز (نوع من القرميد الأسود) على خلفية مكونة من غابة صغيرة خضراء، ويحيط بحديقته سياج من الأوتاد. وفوق بابه الصغير جرس صغير يغطيه الصدأ. وفي اللحظة التي جذب فيها «نيقولا»

السلسلة، فقد كل تماسّ له مع الواقع، وبدا له وكأن رنين الجرس الذي يعلن عن قدومه، يدوّي عبر الصمت الذي يخيم على العالم الآخر.

ونبح كلب، وصُفقت عدة أبواب، وفي أحد المماشي الفردوسية، التي كانت تحيط بها شتلات البندورة وعروق الفاصولياء المتسلقة على العيدان برز بستاني عجوز، بقبقابه الخشبي وصدارته البيضاء، ولم يكن هذا البستاني سوى السيد «بواتوفان»، الذي خاف في بداية الأمر، من البزة العسكرية، ثم اقترب من «نيقولا» ونظر إليه بازدراء، مقطباً حاجبيه، وبعد قليل أرسل ضحكة هادئة زالت معها تجاعيد وجهه، والتفت وصاح بأعلى صوته:

- صوفيا!

فلم يجبه أحد، فأمسك بذراع الضابط الشاب واقتاده نحو البيت، وكان «نيقولا» يسير وقد غمرته غبطة طاغية، وفجأة، تلقى صدمة قوية: «صوفيا» كانت أمامه، «صوفيا» التي كاد ألا يعرفها على الفور، لأنها كانت ترتدي الملابس القروية: تنورة فضفاضة من القماش القطني الرقيق، مقلمة بخيوط زرقاء وبيضاء، وصدار أزرق، فتحته على شكل مستطيل، وقبعة من القش، تنزل منها على كتفها حزمة من الشرائط المتعددة الألوان. فهل لأنّ قامتها كانت طليقة، وتنتعل حذاءً مسطحاً، أنها بدت له أكثر نحافة، بل وأكثر قابلية للرغبة والاشتهاء أيضاً، مما كانت عليه عبر ذكرياته؟

كان وهو يحدّق فيها يشاهد الدهشة التي أنارت ذلك الوجه الجميل.

ولكن أكانت مسرورة برؤيته ثانية، أم لا؟

وقالت بصوت واهن:

- لم أكن أتوقع هذه الزيارة، أيها السيد. كيف عرفت عنواني؟

فروى لها باختصار ما دار بينه وبين «أوغستان فافا سور» من أحاديث، وسلمها رسالته.

فقال السيد «بواتوفان»:

- حسن، يا عزيزتي «صوفيا» ماذا أقول أنا الذي كنت أعتقد أني أمنت لك ملجأ آمناً!..

وفي غضون ذلك، أتت السيدة «بواتوفان» والحديث اتجه نحو موضوعات أخرى: ماذا كان يحصل في باريس؟ أحقاً كان «فوشيه»[1] ينظم قوائم بأسماء المشبوهين؟ هل هنالك أخبار عن أعمال القمع والإرهاب التي يقوم بها أنصار النظام الملكي في جنوب فرنسا؟ بينما كان «نيقولا» يجيب على هذه الأسئلة، كانت «صوفيا» تراقبه بانتباه ينم عن الألم وعن الدهشة التي تتسم بالإعجاب. كانت تتذكر كل كلمة وردت في الرسالة التي أرسلها لها والدها: «هذا الشاب الذي لا نعرف شيئاً عن عائلته، ولا عن ثروتها، ولا عن وضعها الحقيقي في بلادها، لا يمكن أن يكون زوجاً مناسباً لك..إذ إنّ الزواج يتطلب كثيراً من المشاركة والتوافق في الأفكار والتقاليد، لكي لا يصبح الزواج من شخص أجنبي، عبارة عن كارثة.. وهل تستطيعين أن تتصوري نفسك وقد هجرت والديك، وتخليت عن أصدقائك، عن وطنك عن أملاكك، وكل مباهج وألق الحياة الفرنسية، لكي تتبعي إلى أعماق السهوب الصحراوية، والعيش بين أناس حرموا من الثقافة، أحد ضباط قيصر روسيا، الذي يمكن أن يكون قد أغواك وهو يعبر بلادنا؟... ولأني وعدت السيد «أوزاريف» بأن أنقل لك طلبه الوهمي الذي لا يصدق، فإني أفعل ذلك عن طيب خاطر، لا سيما وإني لا أشك لحظة واحدة بأنك سترفضينه..»

وإذا كانت «صوفيا» قد تأثرت قليلاً ببعض الآراء والحجج في غياب «نيقولا»،

١ـ فوشيه (Fouche) (١٧٥٩ـ ١٨٢٠) سياسي فرنسي، كان وزيراً للشرطة في عهد حكومة الادارة: (Ledirctoire)، واحتفظ بمنصبه هذا في عهد الحكومات الأخرى، حتى سنة (١٨١٦) ـ المترجم

فقد اعتبرتها عبثية وغير معقولة الآن، وهو أمامها، وعلى كل انتقادات أبيها: كان هذا الوجه البرونزي وهذان المنكبان العريضان، أفضل ردّ. كان يكفي أن تنظر إلى هذا الرجل، لكي تبرّر لنفسها أشدّ أحلامها جنوناً. وكيف استطاعت إبعاده، فيما مضى، عندما باح لها بحبه؟ بل كيف استطاعت العيش سنة بكاملها من دونه، رافضة حتى الإجابة على رسائله؟ وكيف تمكنت من الاعتقاد بأنها ستتساه مع مرور الزمن؟ وقالت في سرّها: إنه يحبني، وسيقسم لي على ذلك، حالما نصبح وحيدين، وسيسألني إن كنت أوافق على أن أصبح زوجته!.. «وعندما تبادرت هذه الفكرة إلى ذهنها، انهارت قواها، وتحوّلت إلى ضعف وانتظار. فلماذا كان «آل بواتوفان» يحبان الثرثرة إلى هذه الدرجة؟ إنها لم تخبرهما بنوايا «نيقولا». ومع ذلك فلا بد من أنهما ينبغي أن يدركا أنّ الضابط الشاب قد أتى من باريس من أجل أمر مهم وأنه من المحتمل جداً أنه قد أتى ليراها هي، وليس من أجل رؤيتهما. كان أفراد المجموعة الصغيرة، وعلى رأسهم السيد «بواتوفان» يسيرون في المشى وهم يتجاذبون أطراف الحديث، كان «نيقولا» يخبرهم، عند ذلك، بالتحاقه بهيئة الأركان العامة، وعن رحلة القيصر التي اكتنفتها الأخطار، بسبب اختلال الأمن في البلاد، وعن إقامته، بعد ذلك في قصر «أليزيه - بوربون»، وعن مظاهر الحياة في باريس التي يحتلها البروسيون. ووصلوا إلى تحت إحدى العرائش التي كان ظلها المبعثر يغطي منضدة وبعض الكراسي الريفية. وخشيت «صوفيا» من أن يدعوهم جميعهم للجلوس هناك. لأنه لو بدت منه هذه المجاملة لكان تأخر الحديث المهم الذي تريد أن تجريه مع «نيقولا». ولكن لحسن الحظ، فقد اشفقت السيدة «بواتوفان»، على الشابين، وبذريعة همست بها، حتى أنّ «صوفيا» لم تسمعها، اقتادت زوجها نحو البيت.

وعلى الرغم من أنّ «صوفيا» كانت قد تمنت كثيراً انصراف هذين الشاهدين، بل الرقيبين المزعجين، فقد شعرت بشيء من الخوف لبقائها

بمفردها مع «نيقولا». كان ما يريد أن يقوله أحدهما للآخر بالغ الأهمية، لدرجة أنّ أيّاً منهما لم يجرؤ على أن يفتح فمه.

ومرّت إحدى الخادمات وهي تحمل بعض الملابس المغسولة. وصاح ديك بصوت مبحوح لثلاث دجاجات كانت تنفر بالحشائش، هنا وهناك في الحديقة. ودقت ساعة في إحدى الكنائس معلنة الرابعة بعد الظهر. ولاحظت «صوفيا» أنّ جوزة عنق «نيقولا» البارزة، قد ارتعشت: كان يبلع ريقه، ثم تجمدت أسارير وجهه، وتسمرّت نظراته، وقال بصوت كأنه يخرج من أحد القبور:

- هل أبلغك والدك طلبي، يا سيدتي؟

فأصيبت بصدمة قوية كما توقعتها تماماً، وفقدت أنفاسها خلال تلك اللحظة، ولكنها، بعد ذلك، أجابت بارتياح:

- نعم، يا سيدي، لقد تلقيت رسالته منذ يومين.

فصاح «نيقولا»:

- منذ يومين، وحسب؟!

فقالت:

- لقد أمضى أبي بعض الوقت، وهو يفكر في الموضوع!

- وهل ستمضين أنت أيضاً بعض الوقت لتفكري فيه؟!

كانت عينا «نيقولا» تبدوان خضراوين مذهبتين بلون النبات تقريباً، بسبب انعكاسات أوراق الأشجار. وفي ذقنه جرح، أصيب به وهو يحلقها. وكان لهذه التفاصيل البسيطة أهمية كبيرة في ذهن «صوفيا». وكل شيء سيقرر ويحسم الآن. أو بالأحرى، كل شيء كان قد تقرر وحسم في قرارة نفسها ودون علمها. وقالت:

كنت أنوي الرد على طلبك، اليوم بالذات.

فسألها، متلعثماً:

- الرد على طلبي... الرد بماذا، يا سيدتي؟

ودون أن تتلفّظ بكلمة، مدّت له يديها الاثنتين، فمرّ بريق من الفرح الوحشي في حدقتي «نيقولا». فانحنى كثيراً وألصق شفتيه على أصابع «صوفيا». فأخذت تنظر إلى ذلك الشعر الأشقر المجعّد، وذلك العنق المنحني أمامها، داخل ياقة البزة العسكرية، المقوّسة، وقد رفعتها عن الأرض سعادة صاخبة وطاغية. وكانت بعض الكلمات تبلغ مسامعها عبر جلبة دمها الذي كان يسيل بسرعة ويدق بقوة:

- أحبك... الحياة من دونك ليس لها أي معنى... سنسافر معاً إلى روسيا...

ورفع رأسه، لكي يتبين فيما إذا كان هذا المشروع الأخير قد أغاظها. ولكنها كانت لا تزال تبتسم، مفتونة، ساهمة، وشاردة اللبّ.

فاستأنف الكلام:

- سوف ترين، روسيا بلد رائع، كل شيء فيها واسع وفسيح: الآفاق والنفوس...

وسألته، في صحوة من العقل:

- هل أخبرت والدك؟

فصاح «نيقولا»:

- بالتأكيد لقد أرسلت له رسالة بالبريد السريع. وأظن أني سأتلقى جوابه على رسالتي خلال ثلاثة أسابيع على أبعد تقدير.

- وماذا سيكون هذا الجواب؟

- أتشكين في ذلك؟ سيكون: نعم، نعم، نعم! كان يصيبها برشقات فرحته، ثقته وشبابه، ألم يكن هناك شيء من طبيعته السلافية في هذه المغالاة؟ وأخذت تضحك، فهي تجد طبعه طفولياً جداً، على الرغم من بزّته ذات اللون الأخضر

الغامق والأزرار المذهبة، وسرواله الأبيض، وشارة الضابط التي يحملها. ثم فكرت: «إنه سيصبح زوجي!» واستعادت جديتها.

أما هو فاستأنف الكلام، قائلاً:

- اعتمدي عليّ، سأسرع بانجاز الشكليات. إذا رغبت بذلك بل إن الأمور يمكن أن تسير بسرعة كبيرة، وكل ما أرجوه أن يغيّر والداك موقفهما حيالي، لأني يصعب عليّ أن أتصرف ضدّ رغبتهما وإرادتهما...

فردّت «صوفيا» بقولها:

- إن عدم موافقتهما لن تغيّر أي شيء في تصرفي، ولكن عليك أن تطمئن، فأنا سأتمكن من إقناعهما. هل تعود هذا المساء إلى باريس؟

- كلاّ، سأعود، غداً، بعد الظهر.

كان لا يزال يمسك يديها، وكانت، هي، تشعر بالمتعة والسرور من هذا الاحتباس الذي طال أمده، وقالت:

- سأذهب معك.

فانتفض، قائلاً:

- هذا غير ممكن!

- لماذا؟

فقال لها:

- لقد أفهمني السيد «فافاسور» أنّه يحتمل أن يلقى القبض عليك، بسبب آرائك.

فتأثرت «صوفيا» كثيراً عندما تبين لها أنه يخاف كثيراً عليها. وحيال هذا الرجل المحب، القلق، كانت تشعر بأنها أكثر أنثوية وقيمة وضرورة

مما كانت عليه بالنسبة لأيّ شخص آخر. وفي الحال كفّت عن التفكير بالسياسة. فهل ستستمرّ طويلاً، عند مخاطبتها «نيقولا» بمناداته: «أيها السيد»؟ كانت الرغبة بأن تلفظ الاسم الأول والمجرّد، لمن سيصبح زوجها عما قريب، كالعطش، تؤلم شفتيها وفمها. ولم تجرؤ على المجازفة. وأخيراً استخدمت كل عنف قوتها، حتى استطاعت أن تقول، بصوت خافت:

- أشكرك على عنايتك واهتمامك بي يا نيقولا.

لم يتحرك، ولكنّ بريق الامتنان بدا واضحاً في عينيه.

وتابعت، متظاهرة بأنها لم تلاحظ تأثره واضطرابه:

- لا تقلق عليّ، لأنه على أي حال ليس بقائي في «فيرساي» هو الذي يجعلني أنجو من الملاحقة، فإذا كان لا بدّ من توقيفي، فإنهم سيلقون القبض عليّ في أي مكان. ثم، عليك أن تفكّر: كيف يمكنني البقاء والعيش هنا، بعيداً عنك، بعد أن بحت لي بحبك، قبل قليل؟

- صحيح! فسيكون... سيكون ذلك قاسياً وليس به شيء من الإنصاف والعدل!

هذا ما تمتم به «نيقولا»، وأضاف:

منذ اليوم، أنت تحت حمايتي، يا سيدتي! وإذا فكّر أحدهم بأن يزعجك، فسيجدني واقفاً أعترض طريقه! وسأدعو القيصر بالذات للتدخل، إذا لزم الأمر..

كان متحمساً، مندفعاً، ولكنه لا يزال يتردد في استبدال كلمة: سيدتي بـ «صوفيا».

وقالت:

- «نيقولا»، أيها العزيز!

فذاب حباً وحناناً. وخيم الصمت عند ذلك، و «نيقولا» وهو منحن نحو المرأة الشابة، كان غارقاً، يسبح في عينيها، ثم تحوّل انتباهه نحو كتفيها. وكان أعلى صدرها يبدو عبر فتحة الصدار. وللمرة الأولى واتته الجرأة لكي يتصور جسمها الدافئ الذي يحجبه عنه القماش. وقد أخافته عدم لياقة هذا التصوّر، لأنه اعتبره مخالفاً للآداب، وأخذ يفكّر بأنه بعد أن تصوّر ذلك، لن يستطيع أن يوجّه لها كلمة واحدة ولكنّ ما حصل كان مناقضاً لذلك، إذ إنه فجأة، عاد ليتكلم عن حبه بسرعة وحماسة. بل وكان من وقت لآخر يدسّ «صوفيا» على استحياء، بين جملتين من كلامه. ولأنها لم تعترض على شيء، فقد زاد من انحنائه عليها وأخذ يستنشق عطرها. ولكنها، بعد ذلك، دفعته برفق، فقد عاد الزوجان «بواتوفان» وهما يسيران بخطى وئيدة، في الممشى المجاور. فماذا رأيا؟ وماذا أدركا؟ لقد انتاب «نيقولا» حياء يتسم بالضيق، وبالمقابل، كانت «صوفيا» من جهتها، مرتاحة تماماً في سعادتها التي غمرتها حديثاً، فأمسكت بيد «نيقولا» واقتادته نحو صديقيها، وأعلنت بصوت واضح وصريح:

- ستكونان أول من يسمع هذا النبأ المهم: إننا سنتزوج! فأرسلت السيدة «بواتوفان» صيحة فرح تشبه العويل، بينما فتح السيد «بواتوفان» ذراعيه بشكل أبوي، وبحركة مسرحية هزّ رأسه، وقال:

- لا شيء سوى هذا يمكنه أن يتيح لي الفرحة الكبرى!

إن كانت هذه الصيحة صادقة أو، لا، فإنها أثرت في «نيقولا» وجعلته يضطرب: فمنذ بضع دقائق أخذ يميل إلى الاعتقاد بأن، الخير والطيب يسودان العالم. وعندما علم «آل بواتوفان» أنّ لديه إجازة مدتها ثمان وأربعون ساعة، طلبا منه أن يتناول العشاء معهما، وأن يمضي ليلته في منزلهما: وغرفة الضيوف جاهزة تماماً، في الطابق الأول. فوافق «نيقولا» بعد أن شجعته على ذلك نظرات «صوفيا».

ولأنّ الجو كان صحواً والسماء صافية تماماً، فقد تناولوا طعام العشاء، تحت العريشة، عند الساعة السادسة. وحول المائدة عادوا إلى الحديث عن سفر «صوفيا» إلى باريس الذي اعتبره المضيفان عملاً طائشاً، ولكي تطمئنها «صوفيا» قرأت لهما، وقت تناول الحلوى، مقطعاً من رسالة «فافاسور» السرية فقد أرسل لها أسماء بعض الموظفين المدنيين والعسكريين الذين يحتمل أن يلقى عليهم القبض ويتم توقيفهم، ولكنه يؤكد لها أنه على حدّ علمه لن يكون هنالك أي ملاحقة بحق الآخرين، بسبب آرائهم السياسية.

فتنهد السيد «بواتوفان»، قائلاً:

- هنالك ملاحقات تصدر الأوامر بإجرائها، وأخرى تجري بصورة سرية ويُغض عنها النظر. وفي الفترات المضطربة، يخشى من شرطة المناسبات، من المفسدين والوشاة، ومختلف أصناف الكارهين، أكثر مما يخشى من رجال الشرطة الرسميين والمحترفين!..

فقالت «صوفيا»:

- لو أنك قلت هذا بالأمس، فقط، ربما كنت قد أصغيت إليك، أمّا اليوم فإني لا أخشى شيئاً، فأنا لم أعد وحيدة!

وألقت نحو «نيقولا» نظرة طويلة تنم عن المودة والتحالف.

وكانت مثيرة في إعجابها، وأثارت لديه الارتباك بسبب سرورها بحمايته لها. والزمن الذي انقضى بين الحربين، ليس له أي حساب أو اعتبار بالنسبة له، وهل فارق «صوفيا» بشكل آخر، سوى بالخيال؟ وهل هو قد عاد، وحسب، من روسيا؟ وكان هنالك خادمتان تعملان حول المائدة. وأخذت السماء تظلم رويداً رويداً، فوق أوراق الأشجار التي أصبحت تبدو سوداء. والنبيذ الأصفر، المفرح يتلألأ في الكؤوس. واقترح السيد «بواتوفان» أن

يشرب الجميع نخب زوجي المستقبل. واستمر الزوجان يتحدثان في السياسية إلى أن خيم الظلام. وعندما لمعت النجوم الأولى، ادعت السيدة «بواتوفان» أنها متعبة، واعترف زوجها أنه هو أيضاً يشعر بالرغبة بالنوم. فخشي «نيقولا» من أن تحذو «صوفيا» حذوهما.

ولكنها لم تفعل ذلك، بل تمنت لهما ليلة سعيدة، وبقيت مع «نيقولا» في الحديقة.

فسارا في ممشى تحيط به الورود. وكان «نيقولا» وهو يمشي بجانب «صوفيا» يشعر وكأنه يدور حول الكرة الأرضية، بينما كان يدور للمرة العاشرة حول المنزل. وكان الظلام، السكون، أريج الزهور والورود والحشائش، التي سقيت حديثاً، وحفيف أجنحة العصافير بين أغصان الأشجار، كل هذا كان يثير مشاعره، ويثبت له أنه على وفاق مع الله، في اختيار قدره ومصيره.

وباستنشاقه ذلك الهواء النقي المشبع بروائح وأريج النباتات كان بإمكانه أن يظنّ أنه في روسيا، وفي ظلال إحدى الغابات القريبة من «كشتنوفكا». وأن تذكّره حديقة فرنسية صغيرة، بمساحات بلاده الفسيحة، فهذه أيضاً أعجوبة، ينسب الفضل بتحقيقها إلى «صوفيا»

وقال لها:

- حدثيني، عن نفسك، ماذا حصل معك، وكيف أمضيت العام الذي انقضى؟

فروت له كيف أمضت ذلك العام، وقالت له إنّ رحيله في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٨١٤، سبب لها ما يشبه الشلل. ففقدت الميل إلى المخلوقات وإلى الأشياء. كان زوال محبتها للعالم تاماً، لدرجة أنها حتى لم تعد تغيظها سياسية الحكومة. وفجأة، في هذه المياه الراكدة، سقطت بلاطة، فأثارت الانعكاسات وحرّكت الأمواج.

وأخذت تمتم:

- وقد جذبتني من سباتي عودة نابليون. فشعرت أني بُعثت من جديد بسبب الحماسة الشديدة التي أبداها الشعب كله في استقباله لإمبراطوره. واعتقدت، كما اعتقد كثيرون غيري أنّ بإمكانه أن يكون في آن معاً بطل العظمة والأمجاد الفرنسية وبطل الحريات الديمقراطية والجمهورية. وطوال فترة تزيد على الثلاثة أشهر، عشت مع أصدقائي في هذا الوهم المحموم. وفجأة، كان لا بدّ لي من تبين الواقع والعودة إليه:

فقد هُزم الجيش في معركة «واترلو»...، عند ذلك بدا لي حلمي الذي انهار، أنه كان صبيانياً وعبثياً جداً!..

فقال، متنهداً:

- لكم أرثي لك!

وتبين له أنه على استعداد لأن يأسف كثيراً لانتصار الحلفاء، لأنه سبب الحزن والغم لـ صوفيا!

واستأنفت الكلام، قائلة:

- وانتابني قرف شديد من أي عمل أو نشاط سياسي، ولجأت إلى هنا وأنا في غاية القلق..

فسألها «نيقولا»:

- ألم تظني بأني سأعود؟

- آه! بلى. ولكني في كل مرة تراودني هذه الفكرة، كنت أطردها من ذهني، خوفاً من أن تعجبني وابتهج بها: فهل أستطيع أن أتمنى عودتك إلى بلادنا في حين أن هذه العودة تعني هزيمة فرنسا؟ وهل أستطيع أن أضع مسرّتي الشخصية والأنانية فوق

آلام شديدة تعاني منها الأمة بكاملها؟ ولا أزال، حتى هذه اللحظة، يا نيقولا، أتألم لأني مدينة بسعادتي لحدث يؤلم الكثير من أبناء وطني. وأشعر أني كمن ارتكبت خطيئة كبرى وأنا أحبك عبر الحزن الذي يعمّ بلادي.

فهل تتفهم هذا؟

فأجابها:

- بلى، ولكنّ هذا ليس سوى شعور عابر. فعندما يعقد الصلح، ويسود السلام، كل شيء سيعود بانتظام إلى طبيعته. وكوني روسياً لن يصبح عند ذلك أمراً مزعجاً في نظرك!

فقالت، وهي تبتسم:

- إنّ هذا لم يكن مزعجاً في نظري، في أي وقت من الأوقات، يا نيقولا، وهذا هو بالضبط الأمر الذي يزعجني ويسبب لي الاضطراب.

واستمرا في السير صامتين. وعند كل خطوة، كان يمسّ برفق وعلى استحياء، ردفها، ذراعها، كما لو أنّ ذلك كان يحدث سهواً وعن غير قصد، متسائلاً عما إذا كانت تلاحظ هذا التماس، وفيما إذا كانت قد فوجئت بذلك وانزعجت منه.. ومرت فترة طويلة لم ينبس أي منهما ببنت شفة. وتوقف. فتوقفت هي أيضاً. وتأمل كل منهما الآخر، كان وجهها يبدو فضياً عبر الظلام، ومن جديد. أخذ «نيقولا» يفكّر بأسرار هذا الجسم الأنثوي الذي يحجبه فستان رقيق، فاجتاحت دماغه دفعة قوية من الحرارة، في حين كان يقول في سره إن احترامه لـ صوفيا يمنعه من القيام بحركة جريئة، وعند ذلك، جاءت المبادرة منها: فقد وقفت على رؤوس أصابع رجليها، ومدّت له شفتيها.

٥

عندما سمعت السيدة «دو لامبرفو» وقع أقدام زوجها في الرواق، وضعت يديها على قلبها. فبماذا سيخبرها أيضاً؟ لقد سبق لها أن اعتقدت بالأمس أنه سيغمى عليها، عندما عادت ابنتها من «فيرساي» على حين غرّه، أمتعتها مغطاة بالغبار، كبرياء الحب في نظراتها، وبرفقتها ضابط روسي. ومع ذلك فإنّ «نيقولا أوزاريف» كان قد انسحب بسرعة، ليفسح المجال لـ صوفيا كي تتحدث مع والديها بصراحة وحرية. فبأي لهجة ظافرة ومفحمة أعلمتهما أنها، بموافقتهما، أو بعدم هذه الموافقة فإنها ستتزوج بعد شهر!

ومنذ ذلك الصباح، أخذ الكونت، وهو كمن أصابه مس من الجنون، يتجول في أنحاء باريس كلها، محاولاً الحصول على معلومات عن الأجنبي الذي سيصبح صهره.

وصاحت الكونتيسة، وهي ترى زوجها يدخل بخطى سريعة، إلى الصالون:

- آه! ها أنت قد عدت أخيراً!

كانت الجدّية البادية على وجه الكونت تثبت أنه لم يوفر جهداً في مسعاه الذي وفق في القيام به. وقد ساهم في ذلك بعض أصدقائه الذين يتولون المناصب العليا في الدولة.

وارتمى على إحدى الأرائك، مرّ بيده المرتعشة على جبينه، وقال:

- لقد استقبلت بصورة رائعة.

- هل أستطيع أن أعرف من قبل من استقبلت؟

- من قبل السيد «تليران» في بداية الأمر، الذي أحالني إلى السيد «فوشيه» الذي أوصاني أن أذهب إلى السيد «كابو ديستريا»، وهذا، بدوره..

- وهل حصلت على ما ترغب الحصول عليه، على الأقل؟

- وفوق ما كنت آمل وأتصوّر. والسكرتير الخاص للسيد «كابو ديستريا» هو الذي أعطاني أحسن المعلومات.

- إيه، وما هي تلك المعلومات؟

فاستنشق الكونت حفنة صغيرة من التبغ وضعها بين إصبعية، كاد يعطس، رفّ جفناه، وجفف أنفه بمنديله، وقال:

- لا تبدو الأمور شديدة السوء! فقد أجمعت الآراء على أنّ «آل أوزاريف» أسرة روسية كبيرة الشأن، تتمتع بالنبالة، دون لقب..

فصاحت السيدة «دو لامبرفو» بلهجة تنم عن الغيظ:

- وكيف يكون ذلك؟ دون لقب!؟

- إيه، نعم، إنها إحدى خاصيات تلك البلاد؛ حيث يوجد أناس حصلوا حديثاً على أحد الألقاب النبيلة: «كونت»، «بارون»، أو أمير، بينما يوجد أناس آخرون تعود نبالتهم إلى قياصرة روسيا الأوائل، دون أن يحملوا أي لقب، ولكنهم يتمتعون بوجاهة ممتازة، وهذا هو، على ما يبدو، وضع «آل أوزاريف»».

ووالد هذا الشاب يملك منزلاً في موسكو، دمّرت جانباً منه الحرائق، سنة ١٨١٢، ومنزلاً آخر في «بطرسبورغ» وملكية بالقرب من «بسكوف»، حيث يقيم، معظم أيام السنة. وهكذا فإنّ ثروته تبدو ضخمة. فقد قيل لي إنه يملك عدة قرى..

فارتفع حاجبا السيد «دو لامبرفو» باهتمام. فقد ذكرها هذا الحديث بفترة سعيدة. فعلى الرغم من النظريات الحديثة الرائجة، لا تزال هي مصرّة على الاعتقاد بأنّ إرادة الله كانت تحترم بشكل أفضل عندما كان أولئك الذين ولدوا في أحضان البؤس، لا يحاولون التخلص منه.

وسألته:

- عدة قرى؟ وكم هو عددها بالضبط؟

- خمس أو ست قرى، وقيل لي إنّ فيها ما يقرب من ألفي فلاح، من العبيد الأرقاء، على أقل تقدير.

- عبيد؟.. أرقاء تماماً؟..

فقال الكونت، وقد بدرت منه ضحكة خفيفة صفراء:

- عبيد أرقاء تماماً، من النوع الذي لم يعد يوجد منه إلا في روسيا!

فتصورت السيدة «دو لامبرفو» ابنتها مالكة لمنطقة واسعة، تقف وهي تتأمل حقول القمح التي تمتد على مدى النظر، وتمر بين صفين من الفلاحين الذين ينحنون إجلالاً وتكريماً لها، فلمع بريق من الأمل في عينيها. كانت تعود من بعيد، مع هذه الابنة التي أحبت روسيّاً يحمل سيفاً، وكأم كان لا يزال يراودها قلق يتسم بالحنان، فقد همست:

- هكذا، إذن برأيك، أكان يمكن أن يكون حظ «صوفيا» أسوا من ذلك؟

فقال الكونت:

- لا شك بأني كنت أفضل لها زوجاً يحمل اسماً فرنسياً كبيراً، يحتل مركزاً مرموقاً في المجتمع ويملك ثروة يسهل استثمارها والتحكم بها، وكلنا علينا ألا ننسى أنّ «صوفيا» بالنسبة للراغب الجاد بالزواج، لديها عيب التقدم في السن، وأنها لم تعد فتاة شابة. وفي موضوع الزواج، الرجل يريد أن

يكون هو الأول الذي يتزوج الفتاة. ولا شك أنك ستعترضين، قائلة أنّ ذلك المسكين «شامبيلت» يُعد زوجاً سابقاً هزيلاً، لا يؤبه به!..

فصاحت السيدة «دو لامبرفو»:

- دعك من هذا المزاح، يا صديقي! فأنا أقل استعداداً لسماعه من أي وقت كان، ووضع المرأة الأرملة محترم في بلادنا. وبسبب حملات وحروب نابليون فقد أصبح عددهن كبيراً في فرنسا، ولكنهن يتزوّجن ثانية بشكل مناسب جداً!..

فتنهد الكونت، قائلاً:

- ليس هذا صحيحاً بالنسبة لمن هنّ في بيئتنا ومن طبقتنا، ولا بالنسبة لمن لهنّ طباع «صوفيا»! فأنت تعلمين مثلي أنها تتصرف دائماً بشكل مناقض للعقل. وتجد متعة بتخييب آمالنا وطموحاتنا: افتحي لها طريقاً سهلاً وممهداً باتجاه اليمين، وهي تختار إلى اليسار، درباً ضيقاً كثير الحصى والتعاريج. وهذه العبارة ليست مني!

- ممن، إذن؟

- من السيد «فوشيه» بالذات. فقد همس لي ببعض الكلمات بشأن «صوفيا» وهو يرافقني، مودعاً إياي، إلى الباب. ولا شيء مما قالته، أو فعلته خلال الفترة التي اتفق على تسميتها: «المئة يوم» ظل مجهولاً من قبل السلطات العليا. ولن يزعجها أحد بأي طريقة، مراعاة لي أنا، لأنّ صاحب الجلالة يعرف مشاعري المؤيدة للنظام الملكي الشرعي. ولكنها لكي تستحق هذه الرحمة، يجب عليها أن تكفّ عن القيام بأيّ نشاط سياسي. فهل تستطيع أن تتقيد بذلك إذا بقيت في

فرنسا؟ إنها لو بقيت عاماً آخر دون أن تتزوج لنسفت لنا قصر «التويلري»!..

فانتفضت السيدة «دو لامبرفو»، وأمضت برهة حتى أدركت أنّ زوجها يمزح، ثم تمتمت:

- هذا مرعب! هل بلغ بك الأمر، إلى حد أنك أصبحت تتمنى أن ترحل» صوفيا»؟..

- أقسم على أني لم أعد أعرف شيئاً عن هذا الموضوع!

وعلى أي حال، فإنّ الزواج لم يتم بعد. ويحتمل أن يعترض عليه رؤساء «نيقولا أوزاريف» العسكريون.

- ولأي سبب؟

- بسبب آراء «صوفيا» التحررية. لأنهم هم أيضاً مطلعون على ذلك، وهذا لم يكتمه عني السيد «كابوديسترا»! وأنا أتفهم جيداً تردّد هؤلاء السادة في إدخال شابة معروفة بكراهيتها لنظام الحكم الملكي، إلى روسيا!

وفي غمرة القلق، رأت السيدة «دو لامبرفو»، نفسها مبتلاة بابنة مذنبه، تنبذها فرنسا ولا تقبلها روسيا، وكأم، فإنها لم تستطع تقبل مذلة كهذه، ولذلك، صاحت:

- كلا، كلا! ليس لدى «صوفيا» شيء خطير يمكن أن تلام عليه، والروس يناسبهم تماماً أن يبدوا متشدّدين وأن يضعوا بعض العراقيل! وإذا كان هنالك من يأسف لهذا الزواج ولا يرضى عنه، فنحن! ونحن وحدنا الذين نفعل ذلك!...

ثم فكرت قليلاً، وأضافت:

- خلال هذا الوقت الطويل الذي يتطلبه إنجاز كل تلك المعاملات الشكلية، ربما تخلّت عنه وعدلت عن هذا الزواج!

فقال الكونت:

- أشك في ذلك، فلكي يحصل ما ذكرته ينبغي أن يكون لدى ابنتك درهم من العقل، ولكن ليس في رأسها سوى الزواج. وأنا أنظر إلى شباب هذه الأيام، ولا أفهمهم. ويبدو لي أننا فيما مضى، كنا نحب بمثل هذا العمق وهذه القوة، ولكن بجنون أقل مما هم عليه، اليوم. وبوعي أو من دون وعي، كنا نحاول إيجاد التوازن في اتحاد القلوب. أما الأجيال الجديدة، فهي تؤيد الفوضى، العبثية، وتميل إلى التطرف والمجون. فهل أفرطت هذه الأجيال في قراءتها لمؤلفات «روسّو»، «شاتوبريان» و «مدام دي ستايل» حتى أصبحت ترفض سعادة العيش في هذه الحياة، وكأنها شيء سخيف ومبتذل؟

فقالت السيدة «دو لامبرفو» وهي تتنهّد:

- لقد كنّا ضعيفين معها! وزواجها الأول يُعد خطأ كبيراً، ارتكبناه في ذلك الوقت. وبعد ذلك، أفلتت من بين أيدينا تماماً، دون أن نستطيع إمساكها. وعندما أفكّر أنّ هذا الشاب سيعود لمقابلتها اليوم!... وكيف سنستقبله!؟

- بمجاملة متحفّظة، لا تنسي أنّ «صوفيا» فرضته علينا، وأنه لم يحظ بموافقتنا...

- ولكن على أي حال، نحن نعرف الآن أنه من أسرة طيبة وعريقة. ألن يكون لهذا الوضع تأثير، ينبغي تبينه وإظهاره؟

فقال الكونت:

- بلى، علينا أن نظهر هذا التأثير، ولكن بشكل دقيق.

وبعد أن اتفقا على تبنّي هذه الخطة للتصرف، تذرّعا بالصبر إلى أن يصل «نيقولا أوزاريف» كانت «صوفيا» قد أخبرتهما بأنّ موعد زيارة

خطيبها هو الساعة الخامسة، ولكنها بدلاً من أن تتهيأ لاستقباله، كما تفعل أي امرأة تكون في مثل وضعها، فقد غادرت المنزل، بعد الغداء مباشرة، بحجة أنها ستقوم بمشوار لن يستغرق وقتاً طويلاً. وفي الساعة الخامسة وعشر دقائق، عندما وصل «نيقولا أوزاريف» لم تكن قد عادت بعد. وقد اضطر الكونت والكونتيسة، وإن كانا منزعجين، إلى استقبال الشاب أثناء غياب ابنتهما. وكانت تلك اللحظة عصيبة بالنسبة لـ نيقولا، لأنه كان يجهل ماذا يمكن أن تكون «صوفيا» قد قالت لوالديها، في الليلة الماضية، وما هو موقفهما وتهيّؤاتهما حياله الآن. وهما من جهتهما، كانا مرتبكين إزاء هذا الشاب الذي يطلب يد ابنتهما، والذي لا يعرفان فيما إذا كان عليهما أن يفرحا به أو أن يرثيا لحالهما بسبب خطوبته لابنتهما. ودعته السيدة «دو لامبرفو» إلى الجلوس، لزعمها أنّ تلك الدعوة ليست سوى مجاملة لا تلزمها بشيء. ولتمضية الوقت، انطلق السيد «دي لبروفوكس» في حديث عن وساوس الحلفاء، غير المفهومة، بشأن الإمبراطور المهزوم. كان هنالك أقاويل بأنّ إنكلترا تنوي احتجاز نابليون في جزيرة «القديسة هيلانة». فهل يعرف «نيقولا» شيئاً عن هذا المشروع؟ وهل حقاً أن البارونة «كرودنير»[1] هذه المتصوفة المتحمسة، التي أخذ القيصر منذ بعض الوقت يتّبع نصائحها، قد وصلت إلى باريس، وهي تقيم الآن في نزل «مونشونو» الكائن في ضاحية «سان هونوري» وبالقرب من قصر «أليزيه - بوربون»؟ وكيف هو مزاج القيصر وحالته النفسية في الوقت الحاضر؟ يقال أنه يغار من «ويلّنغتون» بسبب ما حققه من مجد بانتصاره في معركة واترلو، وأنه

١- (Baronne Krudener):(١٧٦٤-١٨٢٤): اديبة ومتصوفة روسية، ثقافتها فرنسية، كان لها نفوذ كبير لدى القيصر «اليكسندر الأول» وتأثير كبير عليه، و يقال انها هي التي أوحت له بعقد «التحالف المقدس» سنة١٨١٥. - المترجم -

مستاء من «تاليران»، خصمه القديم في فيينا، ومنزعج من البروسيين (الألمان) بعد أن بدت له أنّ فظاظتهم ومطالبهم المالية غير مقبولة، وأنه شديد الريبة والحذر حتى من «لويس الثامن عشر»!...

فتمتم «نيقولا»:

- لا أعرف شيئاً، يا سيدي، عن كل هذا. فوظيفتي المتواضعة لا تسمح لي بمقاربة هذه الشخصيات العالية المقام.

- حقاً، ولكن لا بدّ أن تشعر بصدى هذه العواصف التي تحصل هنا! وأنا أرغب كثيراً بمعرفة ردود فعل الأوساط الروسية على الأمر الملكي الأخير.

- أيّ أمر، يا سيدي؟

- ذلك الأمر الذي بموجبه، يطرد من المجلس الزعماء الذين اقترفوا خطأ الالتحاق به وحضور جلساته التي عقدها فترة «المئة يوم»، ويوجه الاتهام بالخيانة العظمى إلى تسعة عشر قائداً وضابطاً. ولا بدّ أنك قرأت نص هذا الأمر في صحيفة «المونتيور»؟!

- حقاً، لقد قرأته بالفعل...

- إذن، ما هي انطباعاتك؟

فأجابه «نيقولا»، متلعثماً:

- لم يتكوّن لديّ، بعد، أي انطباع!

هذه الثرثرة أنهكته. لم يكن يستطيع أن يتفهّم كيف يتظاهر الكونت بالاهتمام بأخبار الأحداث اليومية، في حين ينبغي أن يكون اهتمامه منصباً على مصير ابنته قبل أي شيء آخر. فهل هو عديم الشعور، جاهل، أم أنه ميال إلى الإثارة والتنكيد بصورة شيطانية؟ وعلاوة على ذلك، فلماذا لم تكن «صوفيا» موجودة هنا مع والديها، في هذا الوقت؟

فهل هناك مؤامرة ضده، أحبولة أو أي مكيدة؟! وفجأة اجتاحت ذهن «نيقولا» نوبة من الجنون: فقد صوّر له خياله المشبوب «صوفيا» محتجزة في أحد الأديرة بناء على أوامر أبيها. وبصوت غير مميز، خال من أي نبرة، سأله:

- ألن أحظى بمسرّة رؤية السيدة ابنتكم، اليوم؟

فأجابته السيدة «دو لامبرفو»، قائلة:

- إننا مثلك، ننتظر عودتها، أيها السيد.

وأضاف الكونت:

- نعم، بل إني مندهش، لأنها لم ترجع حتى الآن.

و «نيقولا»، الذي اطمأنّ قليلاً، ألقى نظرة محبة نحو الباب، استجمع قواه، وقال بصوت يتأرجح بين القوة والضعف:

- لا أدري يا سيدي، إذا كانت السيدة ابنتكم قد أبلغتكم...

وتجمدت تتمة الجملة على لسانه، إذ إنّ السيدة «دو لامبرفو» وجّهت نحو زوجها نظرة، كانت أشبه باستغاثة الغريق. وخيّم صمت ثقيل. ثم قطّب الكونت حاجبيه، وغمغم:

- لقد أبلغتنا، أيها السيد! وهذا هو تماماً التعبير المناسب! إنها لم تستشرنا ولم تطلب منا شيئاً، لقد أبلغتنا، وهذا كل ما هنالك!...

فشعر «نيقولا» بكل الجفاء الذي تضمنه هذا التحديد، وقال:

- إني شديد الأسف، يا سيدي، لإصرارك الدائم على الريبة والحذر. وإني لأرجو أن أستطيع أن أثبت لك، شيئاً، فشيئاً، أنك مخطئ في ذلك. وعليك أن تقيّمني وتحكم علي اعتماداً على أعمالي وتصرفاتي..

- لن يكون هذا سهلاً وميسوراً، لأنك ستكون بعيداً جداً!

هذا ما قاله الكونت، مع ابتسامة فيها الكثير من المعاني والمواربة.

- سوف تأتي لترانا في روسيا. وسيكون أبي سعيداً على الدوام باستقبالك. ورسالة مباركته التي أنتظرها بفارغ الصبر، أنا متأكد أنها سوف تتضمّن دعوة لكم لزيارتنا، مباشرة بعد حفل الزواج...

فصاح الكونت:

- رحلة تستغرق عدة أسابيع، وأنا في هذه السنّ؟!

فقالت الكونتيسة، بتحبب ومودّة:

- نعم، نعم، سنفكّر بذلك في الوقت المناسب!

لم تكن تريد أن تتخلى في الحال عن فرصة رؤية ابنتها وهي تعيش هناك كأميرة، بل كملكة شرقية.

واستأنف الكونت الكلام، قائلاً:

- لقد ذكرت حفل الزواج، فكيف تتصور أنه سيتم؟

- السيدة ابنتكم كانت طيبة القلب جداً عندما قالت لي بأنها ستتزوجني حسب الطقوس الأرثوذكسية. ولكن إذا رغبتم أن يبارك زواجنا، قبل ذلك كاهن كاثوليكي...

فقالت السيدة «دو لامبرفو»:

- بالتأكيد! لأنّ أصدقاءنا لن يتقبلوا أن يحصل ذلك بصورة مختلفة! فهذا الزواج سيقام له احتفال كبير!

فعلّق الكونت على ذلك، بقوله:

- لست واثقاً من أنك على صواب بشأن هذا الجانب من الموضوع، ففي الوضع الذي نحن فيه، أنا أفضل اتّباع الرزانة والتحفّظ...

والسيدة «دو لامبرفو» التي شردت بين تماوج ملابس العرس البيضاء، تهدهدها أنغام الأرغن الموسيقية، وجدت صعوبة في تفهّم تحفظات زوجها، وأخيراً، وبعد أن تذكّرت أنّ «صوفيا» أرملة، تعتنق المبادئ الجمهورية، ومعادية للأكليروس، تمتمت وقد شعرت بهزيمتها:

- لندع إذن لهذين الشابين أمر العناية بتدبير الأمر حسب رغبتهما واتفاقهما. والجانب الأساسي في الموضوع، يا سيد «أوزاريف» هو أن تحقق السعادة لابنتي...

كانت هذه هي الكلمات الإنسانية الأولى التي سمعها «نيقولا» منذ بداية الحديث، وقد أحدثت لديه بعض التأثر. والسيدة «دو لامبرفو» نفسها بدت مندهشة ممّا أبدته من حلم ومجاملة، ونظرت إلى زوجها وبريق ينمّ عن الخوف يشع في عينيها، متسائلة عما إذا كانت قد بالغت فيما أبدته من ملاطفة، وذهبت إلى أبعد مما ينبغي؟

فطمأنها الكونت بإيماءة من رأسه.

وقال «نيقولا» بأعلى صوته:

- سيدتي، إنك بكلماتك هذه قد أزحت هماً ثقيلاً عن قلبي!...

ولم يتح له من الوقت ما يكفي ليقول المزيد: فقد صفق باب الصالون بقوة على الجدار، ودخلت «صوفيا» شاحبة، منفعلة ومتهيّجة، وعلى شفتيها ابتسامة تعبّر عن الاعتذار، ولم تهتم حتى برفع قبعتها، وكان ذيل فستانها ملوثاً بالغبار.

وأخذت تشكو:

- يا له من زحام وارتباك في الشوارع! لقد خيّل لي أنّ جميع عربات باريس قد تواعدت على الالتقاء في مكان واحد! كان أبوها وأمها يوجهان إليها نظرات تنم عن اللوم والعتاب، أما نظرات «نيقولا» فكانت تنم عن حب هو بمثابة العبادة. ومدّت له يديها ليقبّلهما، وتابعت كلامها:

- أظن أنك، خلال فترة الانتظار التي مرّت، قد تحدّثت مع أبي وأمي، والآن وقد عرفا نواياك، فهما سيوليانك مزيداً من التقدير. أمّا أنا، فلا يمكنني إلاّ أن أردّد ما قلته لهما بالأمس: «ها هو الرجل الذي أحب، وأرغب أن أتزوجه فإذا كان يعجبكم، ويحظى بقبولكم، فإنّ هذا يضفي عليّ مزيداً من السعادة!...»

وبدا هذا التصريح للسيدة «دو لامبرفو» وقحاً وبذيئاً جداً، واحمرت خجلاً بسبب تصرف ابنتها التي ازدرت بقواعد الحياء الأنثوي، بتعبيرها هكذا، علناً، عن أشدّ عواطفها رقة وحساسية. والى أين سيؤدي بنا المسير مع هؤلاء الشباب الذين ينفعلون ويغضبون بشكل مفاجئ؟ ونيقولا نفسه لم يستطع أن يكتم ارتباكاً خفيفاً شعر به حيال موقف «صوفيا» الذي يتّسم بالجرأة والتصميم، وأخيراً، قال:

- من دواعي سعادتي، أني قدّمت واجبات الاحترام لوالديك، وأنا إمّا أن أكون مخطئاً جداً، وإمّا أنه لم يعد بيننا أي سوء تفاهم...

فقالت له «صوفيا»:

- حسن!، تعال، وهيا بنا! فصاح الكونت:

- كيف يحدث هذا، وتقولين له: «تعال، هيا بنا! «إلى أين تذهبان؟

فأجابته وهي تمسك بذراع «نيقولا»:

- إني أنتزعه منكما، يا أبي.

وتركت والديها منذهلين، واقتادت الشاب إلى الرواق. وهناك اكفهرّ وجه صوفيا فجأة، بعد أن كان مشرقاً. وألقت على «نيقولا» نظرة مأساوية، وقالت بصوت خافت وضعيف:

- لقد أخّرتني ظروف خطيرة، فقد ألقي القبض على «فافاسور»!

فسألها «نيقولا»:

- ألقي عليه القبض؟ ولأي سبب؟

- اتبعني إلى المكتبة، فهناك نكون أكثر راحة وحرية لكي نتحدث.

فصعدا إلى الطابق الثاني ودخلا إلى مملكة الكتب. فأغلقت «صوفيا» الباب وقالت:

- كان لا بدّ من أن يحصل ذلك، فقد كان لديه مطبعة سرية صغيرة في قبو منزله، وقد وشى به أحدهم. فأتى رجال الأمن وفتشوا المنزل، ثم اقتادوه إلى مديرية الشرطة.

فسألها «نيقولا»

- ومتى علمت بذلك؟

- مباشرة بعد تناول طعام الغداء، بواسطة أحد أصدقاء الطرفين. ولا حاجة لأن أقول لك إني أسرعت، على الفور، إلى شارع «يعقوب»!

- ماذا؟

وحملق «نيقولا» بعينين مذعورتين.

فهمست له «صوفيا»:

- نعم، لقد أسرعت إلى هناك وقد عدت للتوّ.

- وماذا ذهبت تفعلين في منزل «فافاسور»، وهو لم يعد هناك؟

- إني لم أذهب إلى منزل «فافاسور»، بل إلى منزل «آل بواتوفان».

- وهل عادا من «فيرساي»؟

- كلاّ، وهذا هو بالضبط، الجانب الخطير في الموضوع! لأنّ جميع الكراسات والنشرات الممنوعة التي طبعها «فافاسور» مخبأة في منزل هذه الأسرة. فإذا اكتشفت الشرطة هذا المخبأ، فإنّ ذلك سيؤدي إلى ضياع الزوجين. ومن حسن الحظ، أنهما قد

أعطياني نسخة ثانية من مفاتيح البيت، وقد حصل ذلك بمحض المصادفة. وقد استطعت أن أرحّل جانباً من تلك الكتب. وأنا عائدة الآن إلى هناك كي أتلف ما بقي منها...

فصاح «نيقولا»:

- آه! كلاّ! إنك لا ينبغي أن تعرضي نفسك لخطر كهذا، من أجل أناس... هم...

- من أجل أناس هم أفضل أصدقائي، يا نيقولا، لا تنس هذا!

هكذا أجابته بثقة تنم عن الرقة والوداعة.

- إذن، سأذهب معك!

وقد ألقى بكلّية نفسه مع هذه الكلمات. ومن ابتسامة «صوفيا» التي كانت تعبر عن الدهشة والإعجاب، أدرك جسامة الخطر الذي قرّر أن يعرض نفسه له. وهذه الفكرة زادت إلى أقصى حدّ تهيّجه وحماسته، ولم يعد يستطيع البقاء في مكانه، ومع ذلك، فإنها، من جهتها، كانت لا تزال متردّدة:

- نيقولا، إنّ هذا مستحيل!... فليس لي الحق أن أورّطك في هذه المغامرة!.. ليس أنت، الذي ينبغي له أن يفعل ذلك، على الخصوص، ليس أنت!...

فقال بحماسة واضحة:

- أولم يكتب لنا أن تتوحد حياة كل منا، «نحن الاثنان» في حياة واحدة، في السراء والضراء؟ ومهما حصل من أحداث، فمكاني سيكون بجانبك وبالقرب منك! ولنسرع، يا «صوفيا»! وليحمنا الرب!

فارتمت بين ذراعيه، وقدّمت له شفتيها، وعندما بدا عليه أنه أطال القبلة أكثر مما ينبغي، تخلصت من ذراعيه، ألقت عليه نظرة قوية،

جمعت ذيل فستانها، واتجهت نحو الباب، دون أن تلتفت. فتبعها، وكأن تيار هواء، شديد القوة يجذبه. وفي الرواق، أوقفته، مع ذلك، فكرة تتعلق باللياقة والتهذيب، فقال لـ صوفيا:

- لا أستطيع الذهاب قبل أن أحيّي والديك وأودعهما.

فقال له «صوفيا»:

أنت مصيب في ذلك، أظن أنهما لا يزالا في الصالون.

وفعلاً، كانا هناك، شاردي اللب وقد بدا عليهما الانزعاج الشديد. فتمتم «نيقولا» مبدياً بعض الأعذار، ووعد بأنه سيرجع، دون أن يرجوه أحد منهما أن يفعل ذلك، وكان على «صوفيا» أن تقاطعه وهو يتكلم لكي تساعده على الانصراف بسرعة.

وعلى بعد خطوتين من المنزل، ساعدهما الحظ بالعثور على بعض العربات المتوقفة هناك، فاستقلاّ الأولى. وطوال المشوار لزم «نيقولا» الصمت، منصرفاً إلى التأمل العاطفي، وهو يفرك يدي المرأة الشابة بيديه. ونزلا من العربة عند زاوية شارع «يعقوب». كان الحيّ يبدو هادئاً. وقدّم «نيقولا» ذراعه بشكل عاديّ لـ صوفيا، وسارا جنباً إلى جنب إلى أن وصلا بالقرب من مكتبة «الراعي الصالح». وكانت واجهتها مغطاة بمصاريع خشبية، وعلى كل مفصل من مفاصلها أختام بالشمع الأحمر. وأمام سقيفة مدخل المنزل، كان يتمشى أحد رجال الشرطة.

فهمس «نيقولا» «لـ صوفيا»:

إنه سيمنعنا من الدخول!

فقالت له «صوفيا»:

لا أظن أنه سيفعل ذلك، لأنّ الشرطة لا تهتم الآن إلاّ بـ «فافاسور» ولكن إذا باح بأسماء أصدقائه، فعند ذلك فقط يتوسع التحقيق لكي يشملهم أيضاً.

فتمتم «نيقولا»:

ولكن..ولكن، ربما يكون قد فعل ذلك، وتكلم عنهم!

بالطبع!

وماذا يمكننا أن نفعل، إذن؟

فهزّت كتفيها بهدوء، وقالت:

ما العمل؟ إنها مجازفة ينبغي القيام بها.

فسرت القشعريرة في ظهر «نيقولا»، وألقى نظرة على الشرطي الذي كان قوياً، متين البنية، يبدو عليه الغباء وهو يتباهى، بحاملة سلاحه، متصنّعاً الأهمية. والتردد حياله يمكن أن يثير شكوكه. ولذلك، قالت «صوفيا»:

هيّا بنا، ولنسرع!

وتقدّما بسرعة نحو المدخل. كان «نيقولا» منتصب القامة، ولكنّ حلقه كان جافّاً، كأنبوب من خشب. وعندما رأى الشرطي بزّة الضابط الروسي، استقام في وقفته، وكاد يؤدي له التحية. ولم ترتجف يد «صوفيا» لحظة وهي تمسك بذراع «نيقولا» فتبادر إلى ذهنه: «كم هي شجاعة!» وبدا له أنّ كتّافياته المذهّبة تحميهما كليهما، أثناء اجتيازهما الباحة. ورآهما البواب يصعدان على الدرج الداخلي، ولكنه لم يقل شيئاً:

فهمست «صوفيا»:

إنه أحد المؤيدين لنا!

وهذه الملاحظة لم تطمئن «نيقولا» تماماً: كان يفضل أن يكون البواب ممّن لا يؤيدون أحداً! كانت شقة «آل بواتوفان» تقع في الطابق الثاني. وأخرجت «صوفيا» مفتاحاً من حقيبة يدها، ففتحت الباب، ودخلت مسرعة نحو صف من الغرف المظلمة. جميع النوافذ كانت مغلقة. والجوّ مشبع برائحة العفن الباردة، والأرضية الخشبية ترسل صوتاً عند كل خطوة. ولأنّ «صوفيا» تعرف المكان جيداً، فقد أخذت تتجول بسرعة عبر العتمة. بينما كان «نيقولا» يضع يده على سيفه لكي لا يعلق بإحدى قطع الأثاث.

وهكذا، إلى أن وصلا إلى غرفة النوم التي كانت أقل عتمة من بقية غرف الشقّة. لأنّ رقائق مغالق النوافذ كانت تسمح بتسلل بعض خيوط أشعة الشمس، لتصل إلى إطار مذهّب، إلى الأرائك المغطاة بقماش خاص، إلى منضدة مثقلة بأواني من الكريستال المضلع والمتعدّد الأشكال. وكان عطر السيدة «بواتوفان» لا يزال عالقاً بين طيات السجف والستائر. وهنالك سرير يتربع في وسط الغرفة. وشعر» نيقولا» بشيء من الضيق والحرج لوجوده مع «صوفيا» حيال هذا السرير العريض الذي يتسع للزوجين. ولكنّ المرأة الشابة لم تعره أي انتباه، وفتحت خزانة عالية وعريضة، مليئة بالملابس، وصعدت على كرسي كي تستطيع الوصول إلى أعلى رفّ فيها.

فقال لها «نيقولا»:

إنك لو سقطت لتحطّم عنقك!، فماذا تريدين أن تفعلي، بالضبط؟

فقالت وهي تتخلّى له عن مكانها على الكرسي:

أريد إخراج كل ما هو موجود في الداخل!

فبدأ «نيقولا» بإخراج أكداس من الأغطية والشراشف وناولها لـ صوفيا فألقتها على الأرض، دون مداراة، وتابع عمله، فأخرج الكثير من هذه الأغطية والحرامات التي كان يناولها لـ صوفيا فتلقيها كيفما اتفق، على الأرض، إلى أن وقع نظره في أعماق الخزانة على أكوام من الأوراق المكدّسة هناك. فمدّ ذراعه وجذب رزم الأوراق المطبوعة، وهي نسخ من صحيفة صغيرة الحجم، تدعى «رفاق شقائق النعمان» وفوق العنوان صورة قبعة حمراء[1] كشعار لتوضيح العنوان. فحملق «نيقولا»

١ـ Un Bonnet Phrygien: قبعة حمراء، شبيهة بالقبعة التي كان يرتديها العبد الرِّق، الذي أعتق، في روما القديمة، والتي أصبحت أثناء الثورة شعار الحرية والجمهورية.

عينيه عبر الغبش الذي يسود الغرفة واستطاع أن يقرأ بصعوبة بعض الأسطر التي كتبت بأحرف كبيرة: لنابليون ولا للبوربون، نعم للجمهورية!...»

«مقابل عرشه، باع لويس الثامن عشر فرنسا لروسيا...»

«ليس هنالك سابقة تثبت أنّ ملكاً يظلّ متحكماً بالسلطة ضدّ إرادة الشعب. أصدقاءنا في الأرياف، نظموا أنفسكم، تسلّحوا، وكونوا مستعدين للتحرك والعمل!»

فسألها «نيقولا» وقد بدا عليه القلق:

- ما هذا؟

- جريدة ينشرها «فافاسور» بصورة غير دورية، ويرسلها إلى أنحاء فرنسا كافة تقريباً.

- ولماذا يفعل ذلك؟

- من أجل استمالة أكبر عدد من الناس لتأييد قضيتنا. فالثورة لا ترتجل ارتجالاً، يجب أن تهيأ النفوس لها. وفي كل مدينة كبيرة، لنا مجموعة من الأصدقاء يرسلون لنا أسماء الشخصيات التي لديها استعداد للتأثر «بدعايتنا» لكي نستعمل كلمة «جوزيف دي ميستر»[1]. وبناء على جداول تلك الأسماء نوزع نشراتنا وأعداد جريدتنا...

فسألها «نيقولا» وهو يتلعثم، مستغرباً:

- أنت...أنت تقومين بتوزيع هذه النشرات الخطيرة، أنت يا صوفيا تفعلين ذلك؟

فأجابته ببساطة:

١ـ J.De Maistre : (١٧٥٣ـ١٨٢٧): فيلسوف وسياسي فرنسي ـ المترجم ـ

- نعم!...

- ولكنّك، لا تكتبين فيها شيئاً، على أي حال؟

- لقد أعطيت لـ «فافاسور» مقالين أو ثلاثة، وقيل عنها أنها جيدة.

- وهل كانت تحمل توقيعك؟

فابتسمت لبراءته:

- كيف تقول هذا، يا نيقولا، أنت ما زلت طفلاً، على ما يبدو؟!

وأراد أن يحصل على فكرة عامة عن المشكلة، فقال:

- الخلاصة، أنت تشاركين في مؤامرة كبيرة ضد نظام الحكم!

... بشكل أكثر دقة، أنا أشارك في رابطة صغيرة مكوّنة من أصدقاء الحرية.

- رفاق شقائق النعمان؟

- هذا هو اسمها بالضبط.

كان «نيقولا» وهو يقف على كرسيه يتأمل «صوفيا» بمزيج من الحب الشديد والخشية الحانية. فكم تبلغ نسبة السياسة ونسبة الحب في الفتنة والسحر اللذين يشعّان من وجه هذه المرأة؟ وكلما زاد من تأمله لها، كلما تناقص تعوده على فكرة كونه سيتزوج عضواً في رابطة «شقائق النعمان».

وقالت له:

- لا تبق واقفاً هكذا. أعطني الكراسات، لنحرقها في المدفأة.

فأخذ «نيقولا» مدفوعاً بحماسة مسعورة، يدفع أكداس القمصان، السراويل، المناشف والمناديل، وجذب نحوه كل النشرات التي تتضمن النصوص الأدبية المخرّبة، التي كانت في خزانة ذلك المنزل. وإلى جانب الكرسي، كانت «صوفيا» ترفع بيديها ذيل فستانها لكي تتلقى به ما يلقيه» نيقولا»: صحف، كتيّبات، نشرات وطنية، صور كاريكاتورية

لبونابرت ولويس الثامن عشر، كلها كانت تسقط كما تسقط الثمار عن أغصان الأشجار. وعندما يصبح الحمل ثقيلاً، كانت «صوفيا» ترمي الكدسة أمام المدفأة. وعندما فرغت الخزانة قفز «نيقولا» عن كرسيه. فسألته «صوفيا» وهي تقف أمام المدفأة، عما إذا كان يحمل قداحة. فطلب منها أن تدعه يعمل، لأن اعتياده من زمن طويل على حياة المخيمات يؤهله أكثر منها لإشعال النار، وقدح حجر الصوان، نفخ على قطعة الصوفان، فاشتعلت بسرعة أولى قطع الأوراق.

فسألها «نيقولا»:

- ألا تخشين أن يلاحظ من يكون في الشارع تصاعد الدخان من الموقد؟

لم تكن قد فكّرت بذلك، وقالت له:

- هذا من دواعي سوء الحظ، ولكن ما الحيلة وقد فات الأوان على تدارك ذلك؟!

وتبيّن له أنها تستخف الأمور ولا تُعد متآمرة خبيرة ومدرّبة، ولكنه لم يجرؤ على الاعتراض. وكان اللهب الساطع يتصاعد عند ذلك فوق الصفحات التي كانت تسودّ، تنكمش وتتلوّى ببطء.

وفي داخل الموقد، بين حزم الشرارات المتطايرة، كانت تتراءى كلمات: «حرية»، «دستور»، «الأخوّة الجمهورية» وبعض صور «لويس الثامن عشر» الكاريكاتورية المخيفة في بشاعتها، أخذت تكشّر وهي تتعرض للإعدام حرقاً بالنار. وكانت صوفيا، وبيدها ملقط، تنظّم عملية الاحتراق، وانعكاسات اللهيب تضفي الحمرة على وجهها، وترسل ظلالاً متحركة على السقف. وكان المشهد شديد الغرابة لدرجة أنّ «نيقولا» خيل له أنه يشارك بجلسة سحر وشعوذة. وكان يفكر بما قاله «فافاسّور»:

«الأمر سيّان لديّ فيما لو ألقي عليّ القبض، وزجّ بي في السجن!...

يجب على المرء أن يستطيع تحمل الألم والمعاناة في سبيل مبادئه ومعتقداته السامية!...» كل هؤلاء كانوا مجانين! وأولهم هي «صوفيا»! وهو نفسه، إن لم يتوخّ الحذر، فسوف يفقد عقله.

والتقط بعض الوريقات وألقاها في النار. وفي تلك اللحظة، سمع وقع أقدام خلف الجدار. فتبادل «نيقولا» «وصوفيا» نظرات التنبّه والاستغراب: فهل دخل أحد مّا إلى الشقة؟ فانتصب «نيقولا» وأجال نظره في الغرفة، ثم أشار إلى «صوفيا» أن تختبئ خلف إحدى الستائر. فهزّت رأسها، سلباً، وقالت:

- لا يمشي أحد هنا.

فسألها:

- أين يمشون إذن؟

- في الجانب الآخر.

- هل يوجد شقة أخرى في هذا الطابق؟

- نعم.

- وهل الجيران موثوقون؟

- لا أدري، فأنا عندما أكون معك لا أخشى شيئاً، يا نيقولا!

ولكي تثبت له ذلك، ألقت نفسها بين ذراعيه، فقبّل فمها بحرارة، ولكنه لم يستطع تحويل نظره عن اللهب الذي كان يتراقص في المدفأة، ولا سمعه عن الأصوات التي كانت تملأ البيت. ولأنّ النار كادت تنطفئ، فقد افترقا لكي يلقيا فيها آخر ما تبقى من الصحف. ثم عاودا المعانقة من جديد، وبين قبلتين، همس «نيقولا» في أذنها:

- يجب أن نذهب، الآن!

كانت لهجته تنمّ عن التوسل فقد كان يخشى في آن معاً من أن يكتشف ومن أن يتعرّض للغواية والإغراء. فلو بقي زمناً طويلاً بمفرده في تلك الغرفة مع امرأة محبوبة ونار مشتعلة وسرير واسع كبير، فلن يستطيع السيطرة على رغبته، والحال أنه أكثر احتراماً لـ صوفيا من أن يفرض عليها مطلبه قبل عقد الزواج.

وقالت، بشكل مفاجئ:

- نعم، ولنكن حذرين! إنه لمن الغباء!...

وأسرع «نيقولا» بالاستعداد للانصراف، دون أن يحاول معرفة إذا كانت المرأة تتكلم كمتآمرة أو كعاشقة محبّة: وفي لمح البصر، أعاد ترتيب الملابس على رفوف الخزانة، وقرّب قطع الورق الأخيرة نحو اللهب، ثم سحقها، بعثرها وحوّلها إلى رماد.

وغادرا المنزل، كل منهما يمسك بيد الآخر، مارّين بين الأرائك المغطاة بأثواب الأشباح. وأحياناً كانت تعكس مرآة غير متوقعة، صورتهما كطفلين تائهين في إحدى الغابات، وقد استبدّ بهما الخوف.

وانسلّت فأرة من بين أقدامهما، فكتمت «صوفيا» صيحة وغرزت أظافرها في راحة «نيقولا» الذي كاد يصرخ بدوره من الألم الذي شعر به. وتقدّم وحده، بعد أن سحب يده من يدها، نحو باب المنزل وألصق أذنه على المصراع. كان سكون تام يخيم على فسحة أعلى الدرج. ولو كان هنالك أحد الميّالين إلى الإيذاء يترصدّهما لتبيّن له «نيقولا» جامداً كالتمثال. وبإشارة منه، أدخلت «صوفيا» المفتاح في القفل، عند ذلك أسلم أمره إلى الله، حرّك المزلاج، فتح الباب وخرج، فاصطدم حذره وحيطته بالفراغ، والتفت نحو «صوفيا» التي كانت تتأمله بامتنان، كما لو أنه كان قد تغلب على عشرة خصوم.

وقال لها:

- الطريق سالك، ليس فيه أحد، هيّا بنا!

أغلقا الباب ونزلا على الدرج، وهما في الحالة النفسية السعيدة التي يتمتع بها لصّان وفّقا تماماً في عملية السطو التي قاما بها.

وتأكد لـ نيقولا أنه أصبح أكثر حبّاً لـ صوفيا، بعد أن عرّض نفسه معها لذلك الخطر.

وهمست في أذنه، وهي تتعلق بذراعه عند اجتيازهما الباحة:

- إنّ ما قمت به يدعو إلى الإعجاب! فبفضلك تمّ إنقاذ «آل بواتوفان»!

ليس من أجل إنقاذ «آل بواتوفان» تبعتك، بل من أجل إنقاذك أنت، وأنت لا تستطيعين أن تعرفي كم أنت غالية وعزيزة عليّ!...

وسمع الشرطي الذي يقوم بمهمته، واقفاً تحت سقيفة المدخل، هذه الكلمات الأخيرة، فابتسم للعاشقين المتحابيّن.

٦

وظلّ «أوغستان فافاسّور» في السجن أثناء متابعة التحقيق في قضيته، وكان يبدو أنّ ذلك سيدوم وقتاً طويلاً، لأن العمل كان كثيراً ومتراكماً لدى الشرطة وفي دوائر العدلية. ولم يسبق فيما مضى أن كان في فرنسا هذا العدد الكبير من الجناة والمذنبين. كان المخبرون يراقبون الذين كانوا سابقاً من اليعاقبة، الجنود والضباط المتقاعدين أو الذين سرحوا من الجيش، الملاكين المتهمين بالتعاون مع السلطات في فترة «المئة يوم»، العمال الذين كانوا يتذمرون من قسوة الأحوال، البرجوازيين الحياديين، الذين لا رأي لهم، والحرفيين الذين لديهم أكثر مما ينبغي من الآراء. وفي منطقتي «الكارد» «Le Gard» و «الميدي» (Le Midi) كانت جماعات من المتطوعين الملكيين تتابع ذبح أنصار نابليون، دون أن تجرؤ السلطات على التدخل لردعهم عن القيام بذلك. وأخذ بعض المعارضين المتواضعين ينضمون في السجون إلى بعض الشخصيات الكبيرة التي كانت تشغل بعض المناصب في العهد الإمبراطوري البائد، من أمثال:

«لافاليت»، الجنرال «دروّو» الجنرال «دى لابيدويير» والماريشال «نايّ»... كان نابليون يبحر في طريقه إلى جزيرة «القديسة هيلانة». والملك يعيد تشكيل مجلس الشيوخ والأعيان، ويصدر أوامره بإجراء انتخابات جديدة لتشكيل مجلس النواب. وكان «تاليران»، «فوشيه» و «باسكييه» يأملون أن يروا فيه كثيراً من الملكيين الليبراليين والمتحرّرين. ولكن منذ اليوم الأول، بدا واضحاً أنّ الأغلبية فيه ستكون للمتطرفين.

ولويس الثامن عشر الذي تجاوزته مطالب أنصاره، كان عليه أن يدافع أيضاً عن نفسه ضد رغبات ونوايا المتحالفين الذين كانوا يضمرون مسرّة مشوبة بالكراهية في الإبطاء بتحضير وتوقيع معاهدة الصلح.

هذا وإن كانت الحرب قد اعتبرت منتهية، وجيش «اللوار» قد حلّ وسرح جنوده، فقد ظلت الجيوش الأجنبية تعبر الحدود، وتتدفق دون انقطاع على فرنسا :جيوش من مختلف الدول والبلدان الأوروبية :

إنكليزية، ألمانية، نمساوية، روسية، هولندية، ومن مختلف الدويلات الأخرى. وكانت مصادرة الأموال والأرزاق ضخمة وجسيمة.

وكان «نيقولا» يلاحظ ذلك بحزن وهو يقرأ التقارير الرسمية التي ترد بكثرة إلى مكاتب هيئة الأركان العامة. وكثيراً ما كان يدهش لأنّ رفاقه لم يكن يغيظهم أن تعامل فرنسا بهذه الطريقة، ولكي يجد لهم عذراً على عدم فهمهم، كان يقول في سرّه إنّ الفرصة لم تتح لأحد منهم لكي يحب مخلوقة متميزة ولا مثيل لها، كصوفيا. وعندما يفكر ملياً في هذا الموضوع كان يعتقد أنّ جميع النساء الأجنبيات اللواتي عرفهنّ حتى ذلك الحين، كان يمكن أن يكنّ روسيات، ما عداها هي. وحتى عندما ستصبح زوجته وتحمل لقب: «السيدة أوزاريف»، ستظل تبدو باريسية. وهذا الزواج الذي يظل يفكر به على الدوام، أصابه بالحمى. ولم يكن ينتظر سوى جواب والده لكي يحدد موعد الاحتفال بالعرس. ولكنّ المسافات طويلة جداً، والبريد سيء التنظيم! وحسب توقّعاته الأكثر تفاؤلاً، كان «نيقولا» يأمل أن يتلقى الرسالة في الأيام الأوائل من شهر أيلول (سبتمبر).

ولكي يستطيع التحلي بالصبر، كان يقابل «صوفيا» كل يوم بعد انتهاء دوامه في العمل، وفي كل يوم، كان يكتشف مبرّراً جديداً لحبّه ومعزّته لها. كانت تستقبله في صالون ذويها، منفردة أو بحضور والديها. وحتى عندما يكونان لوحدهما، نادراً ما كانا يتحدثان في السياسة. ويبدو

أن إلقاء القبض على «فافاسّور» قد جعلها تلزم مؤقتاً جانب الحكمة والحذر. وعدّة مرات تحدّثت عن القيام بزيارة «آل بواتوفان» في «فيرساي»، ولكنّ «نيقولا» لم يجد صعوبة في إقناعها بالعدول عن ذلك. كانت تصغي لنصائحه، وكان يشعر أنه أصبح رب أسرة. وبعد أن يفارقها يظل تحت هيمنتها، ولا يحصل معه أي حادث إلا ويفكر بأن يحدثها عنه.

وبتاريخ ٢٠ آب (أغسطس)، عندما قرأ في صحيفة «المناقشات» أنّ الجنرال «دي لابيدويير» المتهم بأنه سلّم «غرونوبل» إلى نابليون قد أعدم رمياً بالرصاص، في اليوم السابق، أخذ يتصور كم ستغتاظ «صوفيا» وتحزن من جراء ذلك، وأسف لأنه لم يتمكن من الذهاب لمقابلتها على الفور. وفي الساعة الخامسة مساءً، وصل أخيراً إلى منزل «آل لامبرفو». وعندما دخل إلى الصالون، لم يكد يتاح له الوقت ليتفقّد هندامه أمام إحدى المرايا، حتى فتح الباب بعنف، واندفع فستان امرأة، ولكنها كانت الأم وليس الابنة. فهل كانت السيدة «دو لامبرفو» تكنّ عطفاً سرياً على الجنرال «دي لابيدويير»، على الرغم من إيمانها بالملكية الشرعية وتمسكها بها؟ كان «نيقولا» يتساءل عن ذلك وهو يرى وجه الكونتيسة، المتجهّم، عينيها المغرورقتين بالدموع، حاجبيها المقطبين، وارتعاشاً وردياً مكان الفم. ومدّت يدها لـ نيقولا، وشهقت من الألم، وغمغمت:

- هذا فظيع!

فقال «نيقولا»:

- نعم، لقد كانت العقوبة قاسية ونفذّت بسرعة.

فقالت الكونتيسة، متنهّدة، وهي تضع منديلها على أنفها:

- عندما أخذوها، اعتقدت أني سأصاب بالجنون!

فتمتم «نيقولا»:

- عمّن تتكلمين؟

- عن «صوفيا»! عن «صوفيا» طبعاً! اثنان من رجال الشرطة حضرا للبحث عنها عند الظهر!

و «نيقولا» الذي أذهله النبأ، لم تسعفه قواه، سوى على الاحتجاج، قائلاً:

- هذا..هذا غير ممكن!

لقد اقتادوها إلى مديرية الشرطة، كما يقتادون اللصوص والسارقين! وسيحققون معها!...

ولكن، لماذا. ولأي سبب؟

أو تسأل عن ذلك؟ من أجل نشاطها السياسي!

وأبوها في حالة يرثى لها! وقد ذهب ليقوم بجولة على معارفه لكي يحاول إنقاذها من هذا المأزق! ولكنّ جهوده ستذهب أدراج الرياح، وسترى ذلك! إنهم سيزجّون بها في السجن! في السجن!...

وتوقفت عن الكلام، وأخذت تشهق وتنتحب.

فسألها «نيقولا»:

- وأين تقع مديرية الشرطة؟

فأجابته السيدة «دو لامبرفو» عبر سيل من الدموع:

- في شارع «القدس»!

هل تعرفين أسماء رجال الأمن الذين اعتقلوا ابنتك؟

- كلا!

فهزّ «نيقولا» رأسه، كما يهزّ رأسه الأسد:

- لسوء الحظ! ولكن لا بأس، سأذهب إلى هناك!

وأحاول الحصول على المعلومات اللازمة! وستعود إليك ابنتك، يا سيدتي، وأنا أقسم لك على ذلك!

وشعر بأنه تلفّظ من دون روية، بهذا القسم، ولكنّ هيجانه كان أشدّ مما ينبغي، ولم يعد يتمالك نفسه، وكأن موجة عاتية قد جرفته.

واستقلّ عربة أوصلته إلى شارع «القدس»، فنزل منها أمام مدخل مديرية الشرطة، الذي تزينه نقوش رمزية، ويحرسه خفير يقف في محرسه. ويحمل بندقية، يتصفّح وجوه المارّة بنظرات مرعبة، ولكنه لم يكن يمنع أحداً من الاقتراب من المؤسسة أو من الدخول إليها.

ودخل «نيقولا» إلى فناء تحيط به أبنية رمادية اللون. ودخلت وراءه عربة لنقل المساجين، صندوقها عال فوق إطاراتها، ومغلقة جيداً، يجرها حصان واحد. ونزل منها رجل مقيّد اليدين بالأصفاد. ودفعه شرطيان نحو أحد الأبواب. فهل اقتيدت «صوفيا» بهذا الشكل؟ وكان حول «نيقولا» كثير من الزوار، بملابسهم المتواضعة وهيئتهم التي تدل على الخوف، وهم يروحون ويجيئون، تتناقض تماماً مع هيئة الغطرسة التي يبدو بها العاملون في تلك المؤسسة. واستوقف «نيقولا» أحد هؤلاء السادة، وهو شاب في مقتبل العمر كان يبدو عليه أنه مسرع للقيام بعمله وهو يحمل بعض الملفات تحت إبطه:

أيها السيد، إني أبحث عن سيدة ذات منزلة رفيعة، تدعى السيدة «دي شامبليت» اقتيدت إلى هنا خطأً. ألا يمكنك أن تدلني إلى أيّ مكتب، يجب أن أتوجه لأسأل عنها؟

وتأمل ذلك الموظف الذي كان يرتدي الملابس المدنية، بكل احترام البزة العسكرية التي يرتديها مخاطبه، وسأله:

ما هي طبيعة القضية التي اقتيدت إلى هنا بسببها؟

فقال «نيقولا» وقد احمرّ وجهه:

- القضية سياسية، على ما أعتقد.

إذن، عليك أن تذهب إلى المبنى الأخير، في الداخل، الطابق الأول، وهناك تجد الحاجب، وهو يرشدك.

لم يكن يوجد حاجب في الطابق الأول، وفي الرواق كثير من الأبواب المتشابهة، وعلى مصراع كل منهما رقم، وحول القبضة هالة من الوسخ

تحيط بها. وفرق الورق، وبصاق مضغات التبغ، وغيرها من الأوساخ تغطي أرضية الرواق. وعلى مقاعد مصفوفة بمحاذاة الجدران، يجلس بوهن واسترخاء رجال ونساء يدل مظهرهم على البؤس، دون أن يدري أحد ماذا ينتظرهم. شمّ ((نيقولا)) الرائحة الكريهة المنبعثة من أجسامهم التي لم تغتسل منذ زمن طويل، وعاد إلى التفكير بـ صوفيا، وتحوّلت شفقته على هؤلاء، إلى قلق شديد. وقرّر أن يفتح كل الأبواب، الواحد بعد الآخر، إلى أن يكتشف خطيبته. ولدى أول محاولة، وجد نفسه في قاعة تغصّ بالكتبة الذين يجلسون على مقاعد عالية أمام أدراج ولوحات عالية أيضاً. وارتفعت كل الأقلام والتفتت جميع الرؤوس، في وقت واحد، نحوه. ولكنّ ((صوفيا)) لم تكن هناك. وفي المكتب الثاني رأى قزماً جالساً، وقد وضع رجليه على المنضدة، ومال بجذعه إلى الوراء، وبيده جريدة يقرؤوها. وعندما سئل، أجاب بأنه لم يسبق له أبداً أن سمع شيئاً عن السيدة ((دي شامبليت)). ولكن ربما كان زميله الذي يجلس في الجانب الآخر... وذلك الزميل الذي كان رَبْع القامة أحمر الوجه، وضع يديه في جيوبه وأخذ يروح ويجيء وهو منهمك في عمله. ونظراته البلهاء تجول في أرجاء الغرفة، وكان أمامه رجل مسن قصير القامة، أبيض الوجه، نضيف المظهر، يجلس منكمشاً على كرسيه، وهو منذهل لكثرة الأسئلة التي ألقاها عليه ذلك الموظف:

- هيا إذن، عليك أن تقول لنا من الذي أوصاك على صنع تلك الأوسمة والميداليات الجميلة المزخرفة والمزينة بصورة النسر والنحلة؟! وأنت تعلم أن زوجتك قد ألقي عليها القبض أيضاً! وكلما أسرعت بالكلام، أسرعنا بإطلاق سراحكما كليكما! وذلك شيء مؤسف أن يظل متجر كبير وجميل لبيع الحلي والمجوهرات كمتجرك مغلقاً على الدوام!

وكان أحد الكتبة متلبّداً كالعنكبوت في زاويته، ينتظر الأمر ليسجل إفادة الرجل. و «نيقولا» الذي دخل بكل هدوء، وعلى أطراف أصابع رجليه، كاد ينسحب على الفور، عندما صاح المحقق:

- إيه! هناك! عمّن تسأل؟

- عن السيدة «دي شامبليت».

فقال الرجل:

- لا أعرفها ولا أعرف شيئاً عنها!

وتابع، وهو يلتفت نحو ضحيّته:

- هلاّ تكلمت؟ هلاّ تكلمت، أيها الوغد!

فارتعش ذلك البائس، فتح فمه، استعداداً للبوح باعترافه، ثم أغلقه بصمت مطبق. فشعر «نيقولا» بالرغبة باللكم تراود قبضتيه: فكل ضعفاء الأرض وكل المعذبين فيها كانوا أصدقاءه، وشعر بألم شديد وهو يخرج إلى الرواق دون أن يصفع ذلك الرجل الفظّ، وينقذ العجوز المسكين. ولكنه كان قلقاً على «صوفيا» ومنصرفاً بكليّته إلى الاهتمام بها. وبعد المشهد الذي رآه، أخذ يتصوّرها وقد أرهقها بالأسئلة وسخر منها أحد رجال الشرطة، بطريقة فظّة، ثم ألقى بها على القش، في سجن ضيق ومظلم، تنتشر فيه الروائح الكريهة! وقد خيّل له أنه فقدها لعدّة أشهر، بل لعدّة سنوات، وربما على مدى الحياة!...وقرّر بينه وبين نفسه: «سأراجع بشأنها وزير الشرطة»، وفجأة أشرق كل شيء لديه: فقد بدت «صوفيا» في الطرف الآخر من الرواق، ليس كما تصور ها- منهكة، ذليلة- بل متألقة، واثقة من نفسها، في ملابسها الزاهية وكأنها ذاهبة إلى النزهة، وكانت تتميّز بأناقة زينتها ومظهرها عن ذلك العالم البائس الذي يحيط بها. ولم يكن يقتفي أثرها أي شرطي أو أي رجل أمن. فأسرع «نيقولا» للقائها، وقد دفعته

فرحة عارمة، لدرجة أنه شعر أنّ قلبه قفز من صدره وأخذ يخفق بقوة في حلقه. وعندما لمحته، تراجعت قليلاً، من صدمة المفاجأة، ثم ابتسمت:

- لماذا أتيت؟

فصاح بأعلى صوته:

- ماذا تقولين، يا صوفيا؟ ألا تتصورين القلق الذي كنا نعاني منه، جميعنا: والدك وأمك وأنا؟ وكان عليّ أن أعثر عليك، مهما كان الثمن! فهل أنت، على الأقل، حرة؟

فقالت له:

- حرة تماماً، وأعتقد أنّ هذه المراعاة حصلت، بفضل مساعي والدي، وتدخّله من أجلي...

- لا شك في ذلك، يا صوفيا.

- وعلى أي حال، فما كان لهؤلاء السادة أن يستبقوني زمناً طويلاً: فليس لديهم أي تهمة محدّدة ضدي!

أمسك بذراعها واقتادها بسرعة نحو الباب، خوفاً من أن يغيّر أحد رجال الشرطة رأيه ويلحق بهما. وعلى الدرج، همس في أذنها:

- لا بدّ أنك خفت كثيراً، يا حبيبتي!

- كلاّ، إني لم أخف أبداً!

- أنت الرقيقة جداً، الشديدة الحساسية، وحيدة حيال هؤلاء الجلادين القساة!

- لقد كان تصرفهم معي سليماً ولائقاً.

- ماذا كانوا يعرفون عنك؟

- لا يعرفون شيئاً يستحق الذكر. كل ما هنالك أنّ اسمي كان مسجلاً في مفكرة «فافاسور»، فقلت لهم إني أعرفه بوصفه

صاحب مكتبة، ولكنني أجهل كل شيء عن نشاطاته السياسية. وقد رد «آل بواتوفان»... بالإجابة نفسها.

- وهل اعتقلا هما أيضاً؟

- نعم، قبل البارحة، وقد أطلق سراحهما، صباح اليوم لعدم وجود أي أدلة ضدهما.

- كنت تتوقعين إذن، بشكل ما، هذا الذي حدث؟

- بكل تأكيد!

- ولم تقولي لي شيئاً عنه!؟

- ولماذا أقلقك دون جدوى؟!

وعادا معاً في إحدى العربات، وفي طريقهما إلى المنزل، حدثته عن سيئ الحظ «فافاسور» الذي لن يخرج بسهولة من هذا المأزق! ومن المتوقع أن يقضي سنتين في السجن، على الأقل، هذا فيما إذا استطاع أن يختار محامياً ماهراً، وهي لا تعرف بالحقيقة أي محام اختار للدفاع عنه. فتوسل إليها «نيقولا»، من أجل حبّهما، ومراعاة لهذا الحب، أن تدع «فافاسور» يتدبّر أموره بنفسه:

- الأمر الذي يهمنا الآن، يا صوفيا، هو مستقبلنا نحن، وسعادتنا! عليك أن تنسي كل ما تبقى! كوني أنانية!..

كانت «صوفيا» تهزأ بمخاوفه، تسرّ من قلقه عليها، تقهقه ضاحكة وتقبّله وهي متهيجة ومبتهجة كشخص نجا لتوّه من حادث خطير. ولم تسترد وضعها الجدّي إلا عندما نزلت من العربة أمام باب المنزل. وعلى صوت العربة اقترب السيد «دو لامبرفو» من نافذة صغيرة في الطابق الأول، وبعد دقيقتين بدا من إحدى نوافذ الصالون. وهناك وجده «نيقولا» و «صوفيا»، وهو بمفرده، يقف وراء إحدى الأرائك، جامد النظرات، متجهم الوجه. وعندما اقترب من ابنته، قال لها بصوت أجشّ:

- أرجوك أن تذهبي إلى قرب أمك في الحال، فقد أوت إلى سريرها، لأنها لم تستطع تحمل ما أصابها من حزن. وهي بانتظارك. وصوفيا التي كانت تتهيأ لتشكر والدها على مساعيه، تمنّعت قليلاً، واحمرت، ثم أدارت نحو «نيقولا» وجهاً متجهماً بسبب الضيق والاستياء، وقالت له:

- لا تذهب قبل أن تراني ثانية.

فانحنى باحترام. وعندما خرجت من الصالون، غادر السيد «دو لامبرفو» مكانه، ووقف أمام «نيقولا» واضعاً يديه وراء ظهره، وقال:

- كان يمكن أن يحلّ بنا أي شيء!

- ومن نعم الله أننا قد نجونا من ذلك ولم يصبنا سوى بعض الخوف والقلق!

فصاح الكونت معترضاً:

- أهذا ما تراه؟ والعار، أيها السيد، العار الذي لحق بي من اقتياد ابنتي إلى شارع «القدس»، أتُعد هذا أمراً يمكن إهماله والسكوت عنه؟!

- منذ قيام الثورة، لم يعد هنالك من عار في فرنسا بسبب التوقيف والسجن لدواعي سياسية.

- لا تقارن بين شهداء سنة (١٧٩٣) الأجلاّء والمقدسين وبين مهووسي وأدعياء أيامنا هذه، هؤلاء البائسين الذين تطلق عليهم تسمية: «الليبراليون». كنت أتوقع كل هذا الذي حدث، وقد قلت ذلك لأمها!

- اسمح لي أن ألفت نظرك، يا سيدي، إلى أنّ ابنتك لم تُعد مذنبة!

- لأنهم غضّوا النظر عن تصرفاتها!... فلو أني لم أتدخّل هذه المرة أيضاً...! أحد أفراد أسرة «لامبرفو»!... ابنة «لامبرفو»!...

ولم يكمل جملته، وحدج «نيقولا» بنظرة تنمّ عن الشكوك، وسأله فجأة:

- ألم تتلقّ حتى اليوم رسالة والدك؟

فأجابه «نيقولا»:

- كلاّ، ولكني أتوقع وصولها، من يوم لآخر.

فهزّ الكونت رأسه، بأسى، وقال:

- لقد حان الوقت تماماً لحصول هذا الزواج!

٧

«ولدي العزيز»

«كتبت لي باللغة الروسية، وعليّ إذن أن أجيبك باللغة الروسية: وهذا لن يزيد الأمور إلا وضوحاً. وإني لأشعر بأني قد أخلّيت بواجبي كأب، إذا تركتك ترتكب عملاً جنونياً ربما بقيت نادماً على ارتكابه طوال حياتك!، لكي أجنّبك عناءً عابراً. والنية التي تحدثني عنها في رسالتك تثبت لي أنك لم تكتسب شيئاً من الحكمة والتعقل في الجيش. وأن تكون تلك المرأة تتحلى بجميع المزايا والفضائل الخلقية والجسدية، فأنا أريد أن أتقبّل ذلك وأصدقه، وإن كنت، بشأن هذه الناحية، أخشى من حماستك ومن مبالغتك واندفاعك! ولكنها فرنسية، وتكبرك بسنتين، وليست من مذهبنا، وأخيراً، وعلى الخصوص، فهي أرملة! والحالة هذه، فمن كان في مثل سنك لا يتزوج امرأة، سبقه زوج آخر لإيقاظ حواسها ومشاعرها وإلى تكوين خلقها وطباعها. ومع الاسم الذي تحمله أنت والثروة التي تتمتع بها، والمزايا الجسدية التي حبتك بها الطبيعة، فأنت تستحق شيئاً آخر، يختلف تماماً عن هذه التركة الموروثة عن شخص آخر. ويُعد جحوداً وتجديفاً بحقّ الله أن نخرّب ونفسد بزواج غير ملائم المزايا والفرص التي أنعم بها عليك، وجمعها فوق رأسك. وهكذا فأنت تضيف إلى الغباوة في اختيار مصيرك وقدرك، نكران الجميل نحو خالقك الأعلى. إذن عليك ألاّ تأمل الحصول على مباركتي ولا أن تعتمد عليها. وأرجوك أن تقطع كل علاقة أقمتها مع هذه الفرنسية التي التقيت بها بمحض المصادفة. وبقدر ما تبدو لك التضحية

جسيمة في الوقت الحاضر، بقدر ما سوف تبدو لك بسيطة وخفيفة، بعد ذلك في المستقبل! وعندما تعود إلى «كشتا نوفكا»، سأطلعك على مشروع للزواج، معقول وشهي، يختلف كثيراً عن مشروعك، كنت قد تصورته وفكرت به في غيابك، وإذا كانت هذه التي فكرت بها من أجلك لا تناسبك ولم ترق لك، فسوف نجد لك فتاة أخرى. وكما ترى فإني لست عنيداً، متصلّباً في رأيي. ولكن أين المشكلة؟! فالفتيات الجميلات لسن قليلات العدد في روسيا، فلماذا نذهب لنبحث عن أرملة، في فرنسا؟ وحالما أفكر في ذلك ينتابني الغضب في الحال. لا تكتب لي بعد الآن أي كلمة عن هذه القضية، إن لم يكن لتقول لي إنها قد انتهت، دُفنت، ووضعتَ الصليب فوق قبرها. الجميع هنا، بخير، وذكراك في جميع القلوب والأذهان. وأختك «ماري» كلفتني أن أبثك أشواقها ومحبتها. أمّا بالنسبة لي، فأرجو أن تكون قسوة قراري، دليلاً على محبتي لك وعنايتي بك.

«والدك الذي يحبك ويعمل على حمايتك.»

«م. أوزاريف.»

وضع «نيقولا» الرسالة على المنضدة، ومسّد الورقة بيديه الاثنتين، وكأنه يريد إزالة خشونتها. كانت كارثة أرضية هائلة قد هزّت العالم للتو من حوله. وفي المكتب، لم يكن أحد يشعر بذلك: «هبوليت روزنيكوف» المتأنق على الدوام كان يصقل أظافره. «سوسّاسين» كان يتصفّح بعض الصحف، و «بكلانوف» كان ينكش أذنه ببنصره. وفي الجانب الآخر من الحاجز، كان الأمير «فولكونسكي» يسير بخطوات عصبية واسعة. ويتكلم بصوت قوي. ودخل أحد الحجاب وذراعاه مثقلان بالأضابير.

فصاح به «هيبوليت روزنيكوف»:

- إيه! لقد جلبت لنا اليوم، ضعف العدد المعتاد، من هذه الأضابير! فما هو السبب، وما الذي حدث؟

فأجابه الحاجب:

- لقد اشتغل صاحب الجلالة، كثيراً مساء الأمس! وأخذ يوزع رزم الرسائل، التي سجّل القيصر عليها ملاحظاته، والتي يجب أن يُرد عليها باللغة الفرنسية. وكان هذا يشكل مع تفحّص الصحف ومراجعتها العمل الرئيسي في ذلك الديوان. وتلقى «نيقولا» الرزمة المخصصة له، وغمغم: «شكراً!» ثم ضمّ قبضتيه. أيتخلّى عن «صوفيا»؟ أبداً! وانفجر هذا القرار في رأسه، وظل برهة منبهراً بالأسهم النارية. نعم، لقد كانت قوة حبه كبيرة، لدرجة أنه كان مستعداً لتحدي ومجابهة والده وسبب وجوده في هذه الحياة. وبعد كل شيء، فهو لن يكون الأول ولا الأخير، الذي يتزوج ضد رغبة أهله. والحب الشديد يُختبر ويُعرف على حقيقته عندما يصطدم بالعوائق التي تقف في طريقه. «وبعد أن أتزوجها، سنسافر إلى روسيا، ونرمي بنفسينا عند قدمي والدي، طالبين مباركته، ولن يستطيع عند ذلك أن يرفض منحنا إياها. وهكذا يحدث ذلك دائماً!» وهذا ما كان يردده بعنف في سرّه، كما يُجلد الخذروف لكي يظل منتصباً ومثابراً على الدوران. ثم أخذ يتساءل عمّا يمكن أن تقوله «صوفيا» عندما تعلم أنه لم يحصل على موافقة والده، فضعفت ثقته. ولكن لا، فهي أكثر تحرراً من أن ترتبك بسبب حجة كهذه! بل ربما وجدت، دون شك، بسبب طبعها النضالي، رغبة ومتعة تنمان عن الجرأة، في الانضمام إلى أسرة لا تريد أن تقبلها. وتبادر إلى ذهنه: «كلا، إنّ هذه مبالغة مني!» وعاد إلى التفكير بالمسألة بمزيد من التمهّل والهدوء. وكان مستغرقاً في تأملاته، عندما دخل الأمير

«فولكونسكي» إلى المكتب، واتجه نحو منضدة «روزنيكوف» وتحدّث إليه بصوت خافت، بينما كان الضباط الآخرون منكبين على عملهم، وكأنهم طلاب فاجأهم أحد المفتشين. فدسّ «نيقولا» رسالة والده في جيبه، وجذب نحوه إضبارة الرسائل التي جلبها الحاجب. وكالعادة، كانت أكثر هذه الرسائل واردة من فرنسيين، يطلبون فيها مساعدة مالية، أو منحهم أحد الأوسمة، أو مقابلة، أو توقيع، أو وظيفة خادم في قصر «الأليزيه- بوربون» أو حتى التطوع في الجيش الروسي. وكانت بعض السيدات الكبيرات اللواتي بهن شيء من الجنون يوجّهن الدعوة للقيصر، للإقامة في قصورهن الريفية، طوال المدة التي يريدها. وكان بعض السياسيين المجهولين يعرضون عليه خططاً لإعادة تنظيم فرنسا، كما أنّ بعض الكتاب المغمورين كانوا يرسلون له مخطوطاتهم ويرجونه أن يقبل هديتهم. وفي هذه الحالة، كانت الأوامر تقضي بإحالة هذه الأعمال إلى المربي السويسري السابق للقيصر: «لا هارب» الذي كان يحدّد تلك التي يمكن الاحتفاظ بها دون مخاطرة تذكر. وتناول «نيقولا» من الرزمة رسالة امرأة تسأل عما إذا كان ابنها الذي اختفى وانقطعت أخباره منذ سنة ١٨١٢، لا يزال أسيراً في روسيا. وعلى الهامش، هذه الكلمات، كتبها القيصر، بنفسه: «جميع الأسرى أعيدوا إلى بلادهم.» فغطّ «نيقولا» ريشته في الحبر، وكتب:» سيدتي، بعد الاطلاع على رسالتك، تكرّم صاحب الجلالة الإمبراطورية بإبداء هذه الملاحظة...» ولأن الأمير «فولكونسكي» مرّ بالقرب منه، فقد انكمش قليلاً، وأحنى رأسه بين كتفيه.

- وقال الأمير:

- ملازم أوزاريف!

- فانتصب «نيقولا» واقفاً باستعداد على قدميه، ليصغي لما سيقوله له الأمير.

- استعد للخروج. عليك أن تذهب إلى مرسم الرسّام الفرنسي «جيرار» وتسلمه إحدى بزّات الإمبراطور. الفنان بحاجة لها لكي يكمل لوحته...

- فتبادر إلى ذهن «نيقولا» على الفور: «سأستغل هذا المشوار لزيارة «صوفيا»». ولكنّ هذه الفكرة، بدلاً من أن تبعث البهجة والسرور في نفسه، فإنها أربكته وحيرته، لأنه على الرغم من كل ما استطاع أن يقوله في سرّه عن تحرّر خطيبته وجرأتها، فهو يخشى أن يبوح لها بالاعتراف الذي ينبغي عليه أن يبوح لها به. ففي حديث بتلك الدقة والحساسية، يمكن لأي جملة، أو كلمة يساء التعبير عنها أو يساء فهمها، أن تقوّض سعادة عظيمة. وكانت غريزة الاطمئنان تدفع «نيقولا» إلى التريث وكسب الوقت. وفي ذلك المساء، سيلتقي بـ صوفيا في «المسرح الفرنسي»، حيث احتجز والداها شرفة للأسرة. وهناك سيتحدّث إليها في فترة الاستراحة، ولن يكون قد تأخر كثيراً في القيام بذلك!

- وكان الأمير «فولكونسكي» قد عاد إلى مكتبه، بينما ظلّ «نيقولا» يقف حائراً، شارد النظرات. كان يشعر بحاجة ملحّة للنصيحة والمشورة. وبشكل مفاجئ، أخرج رسالة والده من جيبه، اقترب من «هيبوليت روزنيكوف»، وقال له:

أريد منك أن تقرأ هذه!

- فانحنى «روزنيكوف» على الرسالة، وبدا وكأنه طبيب يفحص مريضاً. وأخذ وجهه يزداد تجهّماً مع تقدمه في القراءة. وأخيراً، غمغم:

-إيه حسن! وماذا في ذلك؟ هذا ما كنت تتوقعه!

فقال له «نيقولا»:

- نعم، ولكنه، مع ذلك، فقد أزعجني!

- ومتى تلقيت هذه الرسالة؟

- في بريد صباح اليوم. ومن الضروري أن نتناقش في موضوعها. أنا ذاهب إلى مرسم «البارون جيرار». ألا تستطيع مرافقتي؟

- والذي حصل، هو أنّ «روزنيكوف» قد كلّف من قبل رئيس هيئة الأركان بحمل رسالة إلى قصر التويلري. فخرج الضابطان سوية واستقلاّ إحدى عربات الخدمة التي تقف في الباحة. وجلب «جوزيف» وصيف الأمير «فولكونسكي» البزّة المرسلة إلى البارون «جيرار». وكانت بزة القيصر مطوية وموضوعة في قطعة من الجوخ الأخضر. وضع هذه الرزمة من الأقمشة على ركبتي «نيقولا»، كاد يخيل إليه أنه خياط ذاهب ليسلم بضاعته في المدينة. ولكنه أخذ يشعر بالتأثر عندما فكّر بأنّ هذه الملابس قد عرفت شكل وحرارة وحركات جسم عاهل يحترمه ويجلّه الجميع. وسارت العربة بسرعة، فطلب «روزنيكوف» من صديقه أن يتحدّث إليه بصراحة. وأخذا يتفحّصان القضية من جميع جوانبها. والحل الوحيد المعقول هو الذي تصوره «نيقولا»: أولاً، ينبغي إعلام الأمير «فولكونسكي» بصورة رسمية بمشروع الزواج، ثانياً: تقديم طلب استقالة من الجيش، للقيصر، لظروف ومبرّرات عائلية، ثالثاً: اختيار أحد الكهنة الذين يتولون

الإرشاد في الجيش، لعقد الزواج ومباركته. وكل هذا ممكن أن يتم بكل سرعة. أما نتائج وذيول هذه المغامرة، فإنّ «روزنيكوف» هو أيضاً، كان يعتقد أنّ معارضة الأب لهذا الزواج ستزول كما سيذوب الثلج ويزول تحت حرارة أشعة الشمس، عندما يرى الزوجين السعيدين، عند وصولهما، قادمين من فرنسا، ليطلبا منه أن يصفح عنهما. وقال:

- الأمر المزعج الوحيد، هو أنك بتسرعك تقضي على مستقبلك في الجيش، فأي رتبة لن تبلغها لو بقيت فيه؟! ولو كنت مكانك لتزوجت، دون أن أستقيل من الجيش!...

- ولم يتقبّل «نيقولا» هذا النوع من النقد، فمنذ أن قرّر أن يتزوج «صوفيا»، فقدت الحياة العسكرية، بالنسبة له، كل جاذبيتها ومغرياتها المهمة. وقال:

- وما الجدوى من الزواج، مع الاستمرار بالالتزام بواجبات الخدمة؟ أريد الابتعاد عن الثكنات، لأعيش الحياة التي تروق لي، في الريف، ودون أن يكون علي أن أقدم حساباً أو كشفاً عن أعمالي لأحد!...

- فهمس «روزنيكوف» في أذنه مازحاً:

- أنظر إلى رجليك، وأتصورهما في خفّ بل في بابوج مصنوع من القماش المزخرف. وهذا أمر يدعو إلى الأسف!

- عندما ستصبح عقيداً، أو عميداً، وتأتي لتزورني في «كشتانوفكا» لا أدري عند ذلك، هل أنا الذي سأحسدك على كتافياتك المذهبة وعلى أمجادك، يا «هيبوليت»، أم أنت الذي ستحسدني على شعري الأبرش وعلى سعادتي بالقرب من زوجتي المحبوبة.

فقهقه «روزنيكوف» ضاحكاً، ووجه له نداءً لاذعاً:

- هيا أيها الشاعر! استيقظ، هيا استيقظ من أحلامك، قبل فوات الأوان!

- ولم يكفا عن المناقشة إلا عندما دخلا إلى مرسم البارون «جيرار»، حيث كانت تسوده الفوضى، وتتراكم التماثيل القديمة، واللوحات المقلوبة، والدروع المتوهجة، وقطع «البروكار» المفتولة، والأسلحة الحديدية والفولاذية، وصناديق القراصنة الملأى باللآليء وبالقطع الذهبية التي تُعد من العملة الإيطالية القديمة. كانت شهرة الرسّام كبيرة جداً، بحيث خيّل للضابطين أنهما سيلتقيان برجل تقدمت به السنّ، ولكنه بدا في الخامسة والأربعين من العمر، نضراً، ودوداً، حاد النظرات، عريض الجبهة، يرتدي ثوب العمل، وعندما استقبلهما، اصطحبهما إلى قرب اللوحة التي يرسمها للقيصر «ألكسندر» والتي لم تكتمل بعد. وهي تمثل القيصر واقفاً على خلفية عاصفة. وقبعته المزدانة بريشات بيضاء وضعت قرب قدميه. يده اليسرى تستند على قبضة سيفه والبرق المنبعث من الغيوم، ينير وجهه بقوة. وبدرت من «نيقولا» صيحة تنّم عن الإعجاب. لم يجرؤ، بالحقيقة على القول بأنه يُعد اللوحة جليلة ومهيبة جداً، بل قليلة المشابهة والمحاكاة بمن تمثله. أمّا «روزنيكوف» فقد ادّعى أنه رأى هذه التعابير التي تنّم عن التصميم النبيل، على وجه القيصر، سنة ١٨١٤، أثناء معركة باريس.

- وقال البارون «جيرار»:

- أنا سعيد، ومرتاح تماماً لهذه اللوحة، لأنّ صاحبها العظيم نادراً ما جلس أمامي وأنا أعمل فيها، وقد اعتمدت في معظم الأحيان على ذاكرتي، وعلى مخيّلتي! حقا، كان بإمكاني أن أظهره كما فعل الزميل العزيز «ايزابّي»

- مبتسماً، ودوداً. ولكني فضّلت أن أقدّم إلى أجيال المستقبل صورة أحد الأبطال. ولا بدّ من أن تكونا فخورين أيها السيدين، في خدمتكما لعاهل يستحق أعظم الألقاب القديمة والعريقة، التي عرفها التاريخ!

- ففكّر «نيقولا» في موضوع استقالته وشعر بالاضطراب، وكان البارون «جيرار» وهو يتحدّث، يتناول البزّة الملكية، ويمددها بعناية على إحدى الأرائك. وتمتم بعد ذلك:

- كل الدقائق والتفاصيل البسيطة لها أهميتها. سأعمل على إعادة البزّة، غداً.

- وأخذ «نيقولا» يتساءل: «كيف يستطيع رجل رسم وخلّد بلوحاته ملحمة نابليون وأعماله البطولية، بمزيد من البهجة والسعادة، أن يقبل اليوم أن يرسم «ألكسندر» و «ملك بروسية». والقائد «ويلّنغتون»، والقائد النمساوي «شوارزمبرج»؟ وحصل لديه انطباع بأنّ في هذا المرسم يجري تحضير التاريخ التقليدي الذي سيتعلمه التلاميذ خلال مئة سنة. وشعر بانزعاج ينتابه وهو يتعرض لنظرات القيصر المسرحية. وكان وهو يقف أمام مليكه، يشعر أنه غارق في الكذب. وبناء على طلب «روزنيكوف»، وافق البارون «جيرار» على أن يريهما بعض اللوحات القديمة، التي تمثل مشاهد من بعض المعارك، ودراسات عن الخيول، ورسماً تحضيرياً لصورة للسيدة

«ريكامييه». ثم رافق زائريه إلى الباب، ورجاهما أن يبلغا صاحب الجلالة الإمبراطورية التعبير عن «إخلاصه التام».

- ومن هناك، ذهب «نيقولا» و «روزنيكوف» إلى قصر «التويلري». وقام أحد رجال الحرس الوطني، الذي كان يقف عند المدخل، بمرافقتهما إلى مكتب «أمانة السرّ» الملكية. ولكنه أخطأ الطريق واقتادهما في ممرات طويلة مقفرة، وغرف خالية من أي مفروشات أو أثاث. وكانت إطارات النوافذ والمرايا، وقلادات الخزانات الركنية، في بعض الغرف الأخرى، لا تزال تحمل اسم نابليون، وعلى الجدران علّقت بعض اللوحات القديمة التي تمثل انتصاراته. ألا يوجد في هذه المجموعة لوحة من عمل الرسّام «جيرار»؟ وبعد أن تجولت هذه المجموعة الصغيرة على غير هدى، وصلت أخيراً إلى القسم المأهول، في القصر. وعندما دفع «نيقولا» أحد الأبواب، رأى بعض الخدم، في زيّهم الرسمي، يهيّئون مائدة مستديرة: إنها المائدة الملكية، وصاح كبير الخدم:

- لا يدخل أحد إلى هنا!

كانت رائحة الفراريج تعطّر هذا المكان المتميز. والنبيذ يتلألأ في دورق كبير، فأثار ذلك شهية «نيقولا» ولحسن الحظ، فقد استطاع «روزنيكوف» أن يعثر، في الغرفة المجاورة على سكرتير استلم منه الرسالة، وأعطاه إيصالاً باستلامها.

وبعد أن أدى كل من الصديقين مهمته، ارتاح ضميراهما وذهبا معاً لتناول طعام الغداء في مطعم «صخرة كانكال». وكان في هذا المطعم كثير من الضباط الانكليز. لم تكن بزّاتهم أنيقة، وهيئتهم تنّم عن الغطرسة. ولكن لأنها المرة الأولى منذ قرن تقريباً، التي يبدو فيها الجيش

البريطاني على أرض القارة الأوروبية، فقد كان هؤلاء الضباط يثيرون فضول الفرنسيين الذين حلّت بهم الهزيمة، بل وفضول المتحالفين، أيضاً. أمّا الروس، من جهتهم، فكانوا بالنسبة للباريسين من معارفهم القدماء. وأتى صاحب المطعم ليتحدّث مع «نيقولا» و «روزنيكوف»، وكفرنسي حقيقي، فقد كان يتذمر ويشكو من كل شيء: الأعمال تسير بشكل سيء، والأحوال السياسية أسوأ... وقد انزعج لأنّ الضابطين تناولا وجبتهما بسرعة، لكي لا تتأخر عودتهما إلى قصر «الأليزيه- بوربون». وهناك لاحظا ازدحاماً شديداً وحركة غير عادية: كان الرواق يغص بالقادة وكبار الضباط الذين استدعاهم القيصر للتحضير للاستعراض المقبل الذي سيقوم به الجيش الروسي في سهل «فيرّوس» بالقرب من مدينة «شالون». وعما قليل، سيصطحب الأمير «فولكونسكي» جميع هؤلاء الضباط إلى مكتبه، حيث يعقد الاجتماع خلف أبواب مغلقة. وكان الموضوع يشغلهم كثيراً، لدرجة أنهم، منذ الظهر، لم يزعجوا الضباط المرافقين لهم بأي طلب أو خدمة. فاستغلّ «نيقولا» فترة الهدوء، هذه، ليكتب طلب الموافقة على الزواج وطلب الاستقالة، والطلبان موجهان إلى «السلطات العليا». وعندما وقّعهما، شعر بتأثر يشبه تأثر من يودّع عزيزاً عليه: لقد قطع صلاته مع شبابه ومع مهنة السلاح والحرب، مع زملائه ورفاقه، ومع كل أحلامه القديمة. ومع ذلك، فإنه كان واثقاً من أنه لم يرتكب خطأً، وقرأ «هيبوليت روزنيكوف» الطلبين، وافق عليهما ووعده، وهو يضع يده على قلبه، بأنه لن يتحدث إلى أحد عن هذا الموضوع، قبل أن يعلن عنه بصورة رسمية.

وحتى الساعة الخامسة، كان الجنرالات وكبار القادة لا يزالون يتداولون مع رئيس هيئة الأركان، ولكنّ القيصر كان قد غادر قاعة الاجتماعات. و «نيقولا» الذي كان يقف قرب النافذة، رآه وهو يتمشى، لوحده، حاسر الرأس، في الحديقة. كان يرتدي بزّة لونها أخضر غامق،

كالتي بدا فيها، في لوحة الرسام «جيرار»، ولكن لم يكن هناك أي شبه أو أي شيء مشترك، بين هذا الرجل المتعب، المستغرق في التفكير، وشبه الإله الذي تحيط به السحب الساطعة والمبرقة، الذي رسم صورته ذلك الفنان لكي يقدمها للأجيال القادمة. وأخيراً، عاد القيصر إلى مسكنه. وبعد ذلك بقليل، بدا من جديد، مرتدياً «الفراك» اللباس الرسمي الأسود الضيق، وأحضر له السائس حصانه إلى المشى. فامتطاه وخرج من القصر يتبعه أحد مرافقيه. وهو، على وجه التقريب، يذهب كل يوم هكذا ليقوم بنزهة في جادة» الشانزيليزيه». وعند عودته يسرع إلى مسكن البارونة «كرودنير»، حيث يمضي الأمسية في التحدث إليها في شؤون السياسة والتصوّف. ولم يكن الضباط المرافقون يتحدثون أبداً فيما بينهم عن هذه العلاقة، خوفاً من أن تنقل أحاديثهم إلى المقامات العليا. ولكن» نيقولا» لم يكن بحاجة لأن يسأل رفاقه، لكي يدرك بأنهم كانوا قبله يشعرون بالمذلة لمعرفتهم أن إمبراطور روسيا يخضع لنفوذ منجّمة، أصلها من «ليفونيا» إحدى الدويلات القديمة التي تقع على بحر البلطيك، التي تكتب الروايات وتدّعي أنها على صلة بالغيب وبالعالم الآخر. وكانوا يلمحونها، وهي تنتقل من باب إلى آخر، في قصر «الأليزيه- بوربون». ولم تكن تتمتّع بمسحة من الجمال، تشفع لها وتبرّر هذه العلاقة: فهي في الخمسين من العمر، لون وجهها ينم عن ظاهرة مرضية، أنفها مدبب، يغطي رأسها شعر مستعار أشقر... وإذا كانت مخلوقة تتصف بهذه البشاعة يمكنها أن تسحر القيصر وتخلب لبه بمزاياها العفوية والخلقية، فأي قيمة وتأثير يمكن أن يكون لها، بالنسبة لمخلوق عادي وبسيط، امرأة كـ صوفيا، جميلة الروح والوجه!... و «نيقولا» وقد استسلم لأفكاره، لاحظ، مرة أخرى، وبالإضافة إلى ما سبق، أنّ كل شيء يبرر له أن يتذكر خطيبته ويقارنها مع غيرها من النساء: فقد كانت في الهواء الذي يتنفسه، وفي الأطعمة التي يأكلها، وفي

الضياء الذي يغمر عينيه. وأخذ، وهو يسند مرفقيه على المنضدة، ويعضّ على شعيرات ريشة الإوزة التي يمسك بها، يحلم بليلة من ليالي الحب الحمراء.

في الاستراحة الأولى، ذهب «نيقولا» و «صوفيا» إلى ندوة المسرح، وتبعهما عن قرب السيد والسيدة «دو لامبرفو». وهناك كان الصالون يغصّ بجمهور أنيق من النساء بملابسهن الزاهية، وخدودهن التي تعلوها المساحيق البيضاء والحمراء وأكتافهن العارية، ومن الرجال بقبعاتهم العالية، وشواربهم التي دهنت بمثبت الشعر، كل هذا كان يبدو منسجماً مع ذلك الصالون الذي تزينه المرايا والزخارف المذهّبة.

ولم يكن الكونت يجرؤ بعد على تقديم «نيقولا» والتعريف عليه، على أنه خطيب ابنته. وكان يقول للأصدقاء الذين يقتربون منهم:

كيف، ألا تعرفون الملازم «أوزاريف»؟ لقد سرّنا أنه أقام في منزلنا السنة الماضية. وها هو قد عاد إلينا!... وكانت الكونتيسة منزعجة جداً من هذا الوضع الزائف. وقد بدا لها أنها تحمل عار ابنتها، كلطخة في وسط وجهها، وكادت تفقد وعيها بسبب الحرارة، الضجيج الذي يسود المكان، والقلق الذي ينتابها، وأخذت تبتسم لبعض التماثيل النصفية الرخامية، وتحيي في المرايا أشخاصاً لا تعرفهم. واستغلّ «نيقولا» تزاحم الجمهور، وجذب «صوفيا» بعيداً عن والديها، وهمس في أذنها:

لدي نبأ مهم أريد أن أبلغك إياه، يا حبيبتي: لقد وقّعت بعد ظهر هذا اليوم جميع الأوراق اللازمة من أجل عقد زواجنا، ومن أجل استقالتي من الجيش. وسيجدها الأمير «فولكونسكي» غداً صباحاً، على مكتبه.

فشكرته بنظرة طويلة، وقالت له:

- ربما كان عليك أن تنتظر وصول رسالة والدك، أليس كذلك؟...

فاستولى على «نيقولا» خوف ينذر بالسوء، وتمتم:

- ولماذا الانتظار؟ فهذه الرسالة لا بدّ أن تصل، في نهاية الأمر، فهذا شيء مؤكد!... ولكنّ والدي مهمل، وطبعه غريب وأتصوره تماماً وهو يؤجل من يوم لآخر مسألة الكتابة لنا!... دون أن يهتم بأننا هنا، نتحرّق، وقد نفد صبرنا!...

كان يكذب باجتهاد وإصرار، بينما كانت «صوفيا» صامتة ومستغرقة في التفكير.

واستأنف الكلام قائلاً:

- ومن جهة أخرى، فأيّاً كان جوابه، فنحن سنتزوج، أليس كذلك؟

فأجابته:

- كلا!

فاستولى على «نيقولا» صمت مخيف، ولأنه لم يجد ما يقوله، فقد ظلّ يراقب «صوفيا» بشكل ينمّ عن اليأس، وأخيراً، غمغم متلعثماً:

- إني لا أفهمك يا صوفيا! أنت التي أبديت استعدادك لتتزوجيني ضد رضا والديك ودون موافقتهما، لماذا أراك الآن بحاجة لموافقة والدي؟

فأجابته:

- ذلك لأن الأمر في غاية البساطة. فأنا أستطيع أن أقف في وجه والديّ، وأعارضهما، لأنني مرتبطة بهما بشكل طبيعي بمولدي، وعلاوة على ذلك فإن زواجي الأول قد أتاح لي بشكل أو بآخر أن أتخلص من سلطتهما. ولكني لا يمكن أن أقبل الدخول إلى أسرة، تستقبلني قسراً وعلى مضض. واحترامي لوالدك، من خلالك، أقوى من أن أتحمّل جعله يأخذ فكرة سيئة عني، وإذا لم أعامل من قبله كأني ابنته، فلا أنت ولا أنا سنكون سعيدين!...

فانسلّت الحياة من «نيقولا» وأراد أن يستنجد بأي شيء. لأنه لم يكن يجرؤ أبداً أن يقول الحقيقة! وقال، متلجلجاً:

- إن والدي ليس قاسياً وعنيفاً كما تتصورين! حتى ولو صدّك قليلاً، في بداية الأمر، فإنك ستتمكنين من إقناعه بسرعة...

فقالت «صوفيا»:

- تماماً، لا أحب أن يكون عليّ أن أفعل ذلك.

وبغباء، أبدى هذه الملاحظة:

- السحر والفتنة هما مهمة النساء وسلاحهنّ!

فهزت رأسها:

- كلا، يا نيقولا.

فقال:

- كنت أمزح.

ولكنّ الحزن ظل بادياً على وجهه.

فسألته «صوفيا»:

- ماذا حدث؟ أيمكن أن أكون قد أغضبتك؟

- أبداً!

- ألست قلقاً؟

- ولماذا أقلق؟

- والدك...

- والدي؟... إيه، وماذا في ذلك؟ غداً، بعد غد، ستصلني رسالته... وعلى الأقل، هذا ما آمله... وإلاّ، فإني سأكتب له ثانية... وأخيراً، سنفكر في الموضوع... عليك أن تثقي بي... فكّري في حبنا... يجب أن يكون أقوى من كل شيء، من كل شيء!...

كان يتكلم بسرعة وطلاقة لإخفاء ضيقه وارتباكه. وفجأة، لمح بين الوجوه، وجهاً مألوفاً يعرفه جيداً: «ديلفين». فهل حقاً اعتبرها جميلة، فيما مضى؟ لقد بدت له سوقية، مبتذلة، بعينيها الصغيرتين، ذقنها المزدوجة، وبمبالغتها بطلاء خديها بالحمرة... ومع ذلك، فإنه لم يستطع الامتناع عن التفكير، بأنها في فترة علاقتهما، كل شيء كان يبدو بسيطاً في حياتها. وحوّل انتباهه إلى صوفيا، فلام نفسه على نذالته. فهي، بعينيها الواسعتين والعميقتين، بعنقها الطويل وبشعرها الحريري الأسود، تستاهل أن يتحمل عذاب المأساة لكي يحظى بها. وقرّب تحرّك الجمهور المرأتين إحداهما من الأخرى، فتبادلتا التحية.

وصاحت «دلفين»:

- إيه، السيد «أوزاريف»! كنت أجهل أنك قد عدت إلى باريس!...

فقالت «صوفيا»:

- صحيح! أنتما تعرفان بعضكما!

- لقد كان أول روسي تجرأت على التحدث إليه، يا عزيزتي!

لم نعد نرى بيننا كثيراً منهم، في هذه الأيام، وهذا أمر يدعو إلى الأسف! هيّا، تعال، يا «ادّي»!

خلف «ديلفين» كان يقف ضابط انكليزي، أشقر، مورّد، صلب، يرتدي ثوباً قرمزي اللون، وتنورة اسكتلندية تكشف عن ركبتيه الضخمتين. وقدّمته، على أنه أحد مساعدي الجنرال «ويلّنغتون». ولكنه لم يكن يعرف كلمتين من اللغة الفرنسية. وكانت شريطتان صغيرتان تزينان قفا جراباته. وكانت «دلفين» وهي مستندة على ذراع ذلك البطل الغريب الذي يرتدي تنورة، تبدو سعيدة ومرتاحة جداً. وهي تتحدث بحيوية مفرطة عن الممثلين، وتقهقه ضاحكة، ومن وقت لآخر، كانت تلقي على «نيقولا» نظرة تعبّر عن كثير من الذكريات. ولا شك أنه كان يحلو لها أنها قربته

بشكل حميمي من «صوفيا» التي كانت تبدو فخورة جداً بظهورها معه في ذلك المسرح! بينما كان يشعر هو أنه قد جرح في الصميم، وتعرى تماماً، ويخشى أن يبدو اضطرابه للعيان. فلو أن «صوفيا» شعرت بأقل شك في علاقته القديمة بدلفين، لقضي عليه في الحال. ورفض والده الموافقة على زواجه أولاً، ثم تطفلات وتصريحات خليلته، بعد ذلك، كان أكثر مما يستطيع تحمله في يوم واحد! وكان ينتظر انتهاء فترة الاستراحة كفرصة للخلاص وهو متشنج ومتوتر من رأسه حتى أخمص قدميه. لأن «دلفين» كانت قد ردّدت للمرة العاشرة: «يجب، بكل تأكيد، أن نلتقي، من جديد!» واصطدمت بابتسامة صديقتها اللامبالية، وانصرفت عبر حفيف ثوبها، يتبعها الضابط الانكليزي الذي كان يمشي كذكر البط.

فقالت «صوفيا»:

- أنا لا أحب هذه المرأة!

وقال «نيقولا» بسرعة:

- ولا أنا!

وقد ارتاح لعودته إلى مكانه في الشرفة. لم يكن قد وجد حلاً للمشكلة، ولكن على الأقل، هنا في العتمة، لم يكن عليه أن يراقب تعابير وجهه أو تعابير وجه «صوفيا».

ولم يترك تمثيل ملهاة «ترتوفّ» لديه أي ذكرى.

٨

باستعراض القيصر لجيشه في سهل «فيرتوس» على بعد مئة وعشرين «فيرست» (نحو مئة وخمسة وعشرين كيلومتراً) من باريس، قصد أن يدهش حلفاءه ويؤثر فيهم بنشر هذه القوات العسكرية الضخمة، كي يأخذوا بالحسبان ما سيطلبه منهم في المفاوضات الجارية. كان موعد التدريبات العامة قد حدّد في السابع من أيلول (سبتمبر)، في ذكرى معركة «بورودينو» على أن يجري العرض في العاشر منه، والقدّاس الديني الختامي، يوم الحادي عشر. ومع اقتراب موعد هذه الاحتفالات، كانت تتصاعد الحماسة والحركة في قصر «الأليزيه- بوربون». وكل يوم، كان الجنرالات، الذين يتزايد عددهم، وتشتد عصبيّتهم، يتجمعون حول الإمبراطور «ألكسندر» لدراسة مواعيد السير وتوقيته، لوضع الخطط، ومناقشة وسائط النقل ووسائل الاتصال والإشارة. وكانت قسوة القيصر ودقّته بشأن الانضباط شديدتين جداً، لدرجة أن أصحاب الرتب العليا في الجيش كانوا في خوف دائم من وقوع أي خطأ. ألم يأمر، في الشهر الماضي، بمعاقبة قائدي فوجين، لأنّ بعض رجالهما قد أخطئوا في سيرهم أثناء الاستعراض الذي جرى في شوارع باريس؟ على أن يتم احتجاز القائدين في قصر «الأليزيه» بالذات. وعبثاً حاول الجنرال أن يلفت نظره إلى أنّ مهمة حراسة القصر، في تلك الأيام يقوم بها البريطانيون، ولذلك فإن احتجاز الضابطين الروسيين فيه، سيغيظهما كثيراً، فصاح القيصر: «تعساً لهما! إنّ هذا سيزيد من خجلهما من ارتكاب الأخطاء!» وهذا الردّ كان يستعيده جميع الضباط في ذاكرتهم، بينما كان

يجري الاستعداد لأضخم استعراض عسكري جرى حتى ذلك الوقت، في أي زمان أو مكان»، حسب تعبير بعض الصحفيين الفرنسيين.

والأمير «فولكونسكي» الذي كان شديد الاهتمام بموضوع الاستعراض الذي يشغل باله، كان يقضي ليالي بيضاء، لا يغمض له فيها جفن ويطالب معاونيه أن يضاعفوا جهودهم. و «نيقولا» الذي كان ينوء تحت عدد التقارير التي كان عليه أن ينظمها، يصححها، ويعيد نسخها، لم يكن يجد وقتاً لرؤية «صوفيا». وقبل تلك الفترة بقليل، كان من الممكن أن يلعن تلك الأعمال والمهمات التي حالت بينه وبينها وأبعدتها عنه. ولكنه، وهو الآن يعاني من الارتباك، لم يكن مستاءً من ذريعة تجاه نفسه هو، لتأخير الاعتراف بكذبه وازدواجيته. وكان يقول في سرّه: «لننتظر حتى ننتهي من موضوع الاستعراض، عند ذلك أصبح أكثر هدوءاً، وأستطيع أن أشرح لها كل شيء. وإذا كانت تحبني حقاً، فإنها ستقتنع، وتوافق على الزواج». وبانتظار ذلك الاعتراف، كان يحرص على جعلها تعتقد أنّ جواب والده لم يصل بعد. وكان هذا الكذب ثقيل الوطأة على «نيقولا» وهنالك أمر آخر يغيظه، فالأمير «فولكونسكي» بعد أن تلقى الوثائق المتعلقة بمشروع زواجه واستقالته، لم يكن قد تلفظ بكلمة واحدة عن القرار الذي سيتخذه بشأن هاتين القضيتين. وبالطبع، فإن رئيس هيئة الأركان كان لديه مشكلات أهم منهما، تشغل فكره. وهو لن يهتم بما يعانيه من آلام، ضابط صغير من مرافقيه، في الوقت الذي كانت فيه هيبة وأمجاد الجيش الروسي بكامله، في الميزان، وهنا، أيضاً لم يكن الوقت مناسباً ولا الظروف مواتية لمصلحته. ولذلك كان عليه أن يتذرع بالصبر...

وفي ذلك الحين، أخذت قطعات الجيش تتحرك في كل ثكنات باريس والضواحي والأرياف، لتبدأ مسيرتها نحو مقاطعة «الشمبانيا» مئة وخمسون ألف رجل! خمسمائة مدفع! ويوم السادس من أيلول (سبتمبر) سافر

الإمبراطور والأمير «فولكونسكي» أيضاً، إلى «فيرتوس». وقد كلّف «نيقولا»، «روزنيكوف» و «سوسّانين» بالانضمام إلى الموكب الإمبراطوري. وكانت العودة إلى العاصمة مقررة بتاريخ الثالث عشر من أيلول. إنه فراق يستمر أسبوعاً بكامله! وعندما ودّع «نيقولا» صوفيا، انتابه شعور بالذنب يخالطه شيء من الاستبشار والحبور: فقد كان يتصور أنه يستطيع نسيان آلامه المعنوية عبر النشاطات المرحة التي تسود جوّ المعسكر. ولكن سرعان ما تبين له أنه مخطئ في تصوره إذ إنّ عظمة المشهد الذي كان يبدو أمامه، لم تمنعه من أن يظل على الدوام يعاني من تبكيت الضمير.

والتدريبات العامة التي جرت بحضور القيصر، والدوقين الكبيرين الشابين «نيقولا» و «ميشيل بافلوفيتش» كانت ناجحة جداً.

وفي اليوم التالي، بدأت الشخصيات الأجنبية، بالوصول:

إمبراطور النمسا، ملك بروسيا، «ويلنغتون»، «شوارزنبرج»، وحشد من الأمراء والجنرالات، والدبلوماسيين، وقد أتوا من باريس، من لاهاي، من لندن، وبالطبع البارونة «كرودنير» التي لا يمكن التخلّي عنها، وقد بدت أكثر حيوية وإشراقاً من أي وقت مضى، وكانت تصطحب معها ابنتها، صهرها، والوزير البروتستانتي، الذي كان يشرف على جلسات التجليات والنشوة الصوفية التي كانت تعقدها. وقد صودرت جميع بيوت «فيرتوس» وما يجاورها، لتأمين إقامة كبار المدعوين. وقد قام «فونتين» المهندس المعماري الذي كان المفضل لدى نابليون، بعمل الديكورات وترتيب الزينات للخيام المخصصة لإقامة الولائم، وعقد الاجتماعات، ولاستقبال الضيوف.

وكان المعسكر الفسيح مزداناً بالأعلام، ومناراً بالأضواء الساطعة، وقد سويّت أرضه. وفي مفارق الطرق التي تخترقه، صفّت الحصيات المطلية بالكلس، بطريقة ترسم بها أرقاماً، وزخارف جميلة ومحببة. وأصحاب المطاعم المتنقلة الخاصة بالجنود، أعادوا طلاء عرباتهم وجدّدوه. ولكنّ

العديد من الباعة الفرنسيين كانوا يزاحمونهم في اجتذاب الزبائن، بعد أن قدموا إلى هناك بدافع الربح. ومع تلك العربات والبسطات المنتشرة في الهواء الطلق كانت جوانب المعسكر والمناطق المحيطة به، تبدو كالمعرض. وكانت جميع البزات الروسية، العسكرية والرسمية تتمازج ألوانها بين الأشكال المخروطية المصنوعة من القماش الأبيض. وكانت الأبواق والطبول، تجري بروفاتها وتدريباتها في غابة صغيرة مجاورة للمعسكر. ومن آخر جندي من المشاة الذي كان ينظّف ملابسه إلى أعلى رتبة بين القادة الذي كان يستعيد في ذاكرته، التعليمات المتعلقة بالاستعراض، لم يكن هنالك روسي واحد، إلا وينتاب ذهنه الذعر عند النظر إلى وجه «ألكسندر» القيصر العظيم. ومن يغيظه بأي خطأ بسيط، كخطوة ناقصة، أو ملاحظة مغلوطة، أو خلل بسيط في الصفوف، أو حتى بزرّ على البزّة غير مثبّت جيداً، فإن خطأه يُعد خطيراً، وكأنه قد أغاظ وأغضب الله. وكان «نيقولا» يقول في سره بأنه يرى شيئاً غريباً في هذا الخضوع الأعمى من قبل شعب بكامله لإرادة شخص واحد بمفرده. ولم يسبق أبداً لهذه الفكرة أن تبادرت إلى ذهنه فيما مضى، وكان يراها غريبة وجريئة، ولكنه لم يعد يستطيع التخلص منها. فهل كانت «صوفيا» هي التي رسّخت في ذهنه الميل إلى التمحيص وإلى أن يناقش في سرّه بعض المبادئ التي لم يكن يجرؤ حتى ذلك اليوم على الشك في طابعها القدسيّ؟ وكان يبدو له أنه، فيما مضى، كان يسير في طريق مستقيم، تحفّ به بعض الحقائق الصلبة والثابتة، يستطيع أن يستند إليها في كل وقت ويرتاح، وأنّ نقاط الاستناد، هذه، قد أخذت تختفي الآن عبر الضباب. فإلى أين يذهب؟ وإلى أين سيؤدي به الطريق؟ وبماذا يؤمن؟ ألم يعد له رأي؟، ولا شخصية، ولا حياة أو وجود، خارج هيمنة ونطاق «صوفيا»؟ وقد حصل معه عدة مرات، أن شعر أنه في غربة وهو بين زملائه ورفاقه. وكان مزاحهم وضحكهم يغيظه. وفي اليوم

التاسع من أيلول، كتب رسالة لخطيبته، ليحدثها مرة أخرى عن حبه، عن عزلته ووحدته وهو بعيد عنها، وعن أمله بمستقبل سعيد.

وفي اليوم التالي، أي العاشر من أيلول (سبتمبر)، بدأ الاستعراض في ساعة مبكرة، بحضور مدعوّي القيصر الذين اجتمعوا على مرتفعات «جبل - آيمي». وللمرة الأولى، كان الدّوق الكبير «نيقولا بافلوفيتش» يتولّى قيادة فرقة من الرماة، ويتولى الدوق الكبير «ميشيل بافلوفيتش» قيادة إحدى وحدات المدفعية. وفي طليعة الجيش بدا الفيلد -ماريشال «باركلي دي تولّي». كان الهواء نقياً وحاراً، وشمس الصباح تنير أصغر دقائق وتفاصيل المناظر الطبيعية. وعلى امتداد السهل، أي على مدى النظر، اصطفّت مستطيلات حمراء، خضراء، زرقاء، بيضاء، وسوداء التي لم تكن سوى أفواج الجنود وهم في وضعية الاستراحة. وكان من المقرر أن تعطى مختلف إشارات وإيعازات الاستعراض، بواسطة طلقات المدفعية، وعندما وضع جميع الجنود المشاة بنادقهم على أكتافهم، تلألأت آلاف الحربات الفولاذية، ثم انحنت كأسنان الأمشاط والمذاري، وهذا ما حصل عند أول طلقة دوّت من المدفعية. وعند الطلقة الثانية، قدّم الجنود السلاح، وقرعت الطبول بصلابة وقوة، وتعالت الهتافات الصاخبة، تحية للقيصر ولضيوفه. وعندما دوّت الطلقة الثالثة، تفرقت تلك النقاط الحية، وانتظمت في صفوف، كل صف منها يشكل فوجاً، ومع دويّ الطلقة الرابعة اختلط الرسم واختلفت الصورة من جديد، وزحفت أشكال تشبه الدود والمجنزرات، بألوانها الزاهية، عبر الحقول، سارت في بعض الطرقات، وانضمت إلى بعضها مشكلّة مربعاً واسعاً. فذهب القيصر وحاشيته وساروا بمحاذاة الجهات الأربع لهذا التشكيل. وتلقّوا الهتافات المدوية واستمعوا إلى ألحان الموسيقا العسكرية. ثم عادوا إلى مكانهم العالي، وعند ذلك بدأ العرض: الرماة في الطليعة، ثم المشاة، وبعدهم الفرسان على صهوات الجياد، وأخيراً، المدفعية المحمولة...

وكان الضباط المرافقون يمتطون خيولهم، بالقرب من المكان الذي يجلس فيه الملوك، الأمراء وكبار القادة، بملابسهم المزركشة. و «نيقولا» الذي اشترك في عدة استعراضات عسكرية، وجد نفسه للمرة الأولى في صفوف المتفرّجين. وعن بعد، كان الجهد الذي يبذله آلاف الجنود، للمحافظة على إيقاع خطواتهم، تقليص باطن ركبهم، وإبقاء أسلحتهم متوازية، يبدو سهلاً وميسوراً. وكان جمال تناسق الحركات، بشكل هندسي. يخفي آلام ومعاناة أولئك الذين ينفّذونها عبر الغبار وحرارة الجو. ومن المستحيل التصديق أن تلك الرقع العريضة من القماش، التي يعلوها الريش، وتحف بها الرايات والأعلام، كانت مكوّنة من رجال، لكل منهم روح، ماض، أسرة، أفراح، هموم، وآمال، تختلف عن تلك التي لجاره الذي يقف بقربه. وكان «نيقولا» وهو يشرف على ذلك السهل كبقية عظماء العالم الذين كانوا هناك، أدرك فجأة عدم مبالاة هؤلاء بتلك الحشود التي كانت تتحرّك، في الأسفل، عبر السهل، وأخذ يتساءل، بشيء من الهلع الديني: «أيمكن أن يكون المرء قيصراً وفي الوقت نفسه يحب الشعب؟» وكان أحد الأفواج يحلّ محل الآخر، ولم تكن الأفواج تختلف عن بعضها إلا بلون البزّات. وعندما كانت تصمت الطبول والأبواق، كان يسمع صخب تلك التحركات الضخمة الذي كان يشبه صخب المياه بين صخور وحجارة أحد الأنهار.

ودفع «نيقولا» حصانه لكي يزداد قرباً من مجموعة المدعوين، وعندما أرهف السمع، استطاع أن يلتقط نتفاً من تعليقاتهم: كان معظم الضباط الأجانب يمتدحون انضباط الجندي الروسي، الخارق للعادة. وكان وجه القيصر مشرقاً، ينم عن الرضا المطلق: فقد مرّ أمامه مئة وخمسون ألف رجل، دون أن تتغير أبداً المسافات التي تقرر أن تظل فيما بينهم ودون أن يخطئوا في توجّههم في أي اتجاه، أو أن يغيّروا إيقاع

خطواتهم. وقد أهدى هذا الفوز للسيدة «كرودنير» الموجودة في مكان قريب منه، مرتدية فستاناً داكن اللون، وبدت طويلة القامة، تغطي شعرها الأشقر المستعار قبعة من القش. وإلى الخلف قليلاً، كان الأمير «فولكونسكي» وقد بدت الغبطة على وجهه المحمر، يتحدث مع الجنرال «ويلّنغتون».

وعندما تجمع الجنود، مشكلين مربعاً كبيراً، دوّت المدفعية بطلقات قوية جعلت الأرض تهتز. ومن طرف السهل إلى الطرف الآخر، أخذت تبدو سحابات من الدخان. وكل بطارية مدفعية كانت تقذف مجموعة من البالونات البخارية والغازية المبيّضة، التي كانت تنتشر ببطء على خلفية المناظر الخضراء بلونها الداكن. وبعد قليل، اختفى الأفق تماماً، خلف ستار من السحاب البني اللون. وخلف هذا الستار، أسرع الجيش بالجلاء عن ميدان تحركه ومناوراته. وبعد اثنتي عشرة دقيقة من القصف المكثّف، خيم السكون من جديد، وتمزّق الستار، فبدا السهل مقفراً لا أثر فيه للجنود. ولم يكن، بين الحلفاء من يتوقع هذه التجلية، بل هذا العمل الرائع الأخير. و «نيقولا» على الرغم من ما كان قد فكّر به، قبل ذلك بقليل، شعر بالفخر لكونه روسياً.

ومساء ذلك اليوم، أقام القيصر حفل عشاء لمشاهير ضيوفه، حضره ثلاثمئة شخص، اقترح خلاله أن يشرب المدعوون نخب السلام في أوروبا. وفي اليوم التالي، بمناسبة عيد القديس «ألكسندر نيفسكسي»، شفيع القيصر، اجتمع المئة وخمسون ألف جندي واصطفّوا على شكل مربع بجانب سبع منصّات أقيم مذبح على كل منها. وأقام سبعة كهنة وهم يرتدون الملابس الكهنوتية المذهبة سويةً القداس الديني. وكانت حركاتهم موحّدة تماماً كحركات الجنود أثناء الاستعراض. واستمع القيصر إلى القداس، وهو يقف في مربع الرّماة.

وبعـد انتهـاء الاحتفـال، عـاد الـزوار الأجانـب إلى بـاريس، أمّـا القـادة الروس، وقد ارتاحوا، بعد أن أزيح عن كاهلهم عبء ثقيل، فقد اجتمعوا في مقـر هيئـة الأركـان، حيـث أقيمـت، تكـريمـاً لهـم، وليمـة كـبيرة. وفي جـدول الأعمـال، عبّـر القيـصر عـن رضـاه التـام عمّـا قـام بـه الرجـال أثنـاء الاسـتعراض، وأعلـن عـن منحـه لقـب «أمـير» للفيلـد- ماريشـال «بـاركلي دي تولّي»، القائد العام، ووعد الجنود بالعودة قريباً إلى بيوتهم وعائلاتهم. وبهذه المناسبة تلقى كل جندي نصيبه من الخمر، ومـن الحسـاء بـاللحم. وانصرف كل من كان في المعسكر إلى الاحتفال بفرح بهذه المكافأة التي حصلوا عليها. وقـد بـحّ صـوت المغنـيّن الجنـود لكثـرة مـا رددوا في الأجـواء كلمـات وأنغام أغنيتهم المفضلة:

- أهنالـك شـيء محبـب لـنفس المقاتـل أكثـر مـن خـوض المعـارك والحروب؟

واجتمع نحو عشرة ضباط شباب، من التابعين لهيئة الأركـان، في خيمـة «نيقـولا» ليتنـاولوا الـشراب ويتبـادلوا الـذكريات عـن الأيـام الجميلـة الـتي عاشوها. وبينما كان «روزنيكوف» يملأ الكؤوس، بمغرفة، دوّى صوت:

-إلى صفوفكم، باستعداد!

ودخـل الإمبراطـور، يتبعـه الـدوق الكـبير «نيقـولا بـافلوفيتش» والأمـير «فولكونسكي». كـان وجـه العاهـل يعبّـر بشـكل مهيـب عـن ارتيـاح بالـه التّام ولا شك في أنه كان يتمشى في المعسكر، لرغبته بأن يثبت بأنـه أب الجميـع، وبعـد أن أمـرهم بالاسـتراحة، شـكر الـضباط التـابعين لهيئـة الأركان العامة على مساهمتهم في إنجاح العرض، وقطّب حاجبيه عنـدما لاحظ أن بزّة «سوسّانين» غير مزررة حتى الياقة، وكاد يغضب، ولكـن لا بـد أنّـه تـذكر، في الوقـت المناسـب أنـه يعـيش يومـاً سـعيداً، فهـزّ رأسـه، وتمتم:

- أتمنّى لكم أمسية سعيدة، أيها السّادة، تابعوا...

وهمّ بالانسحاب، عندما همس له الأمير «فولكونسكي» ببضع كلمات، بصوت خافت، والقيصر، الذي كان ثقيل السمع بعض الشيء، أحنى قامته الطويلة لكي يسمع جيداً تلك الكلمات، ثم بدرت منه تكشيرة شديدة تنم عن الاستغراب، فانتصب، وقال:

- ملازم «أوزاريف»!

فتقدّم «نيقولا» خطوة إلى الأمام، وقد تجمّد الدم في عروقه، ووقف وقفة الاستعداد.

فتأمله القيصر ملياً، من رأسه حتى أخمص قدميه، واستأنف كلامه، قائلاً:

- لقد عبرت عن رغبتك بالزواج، والاستقالة من الجيش.

فتمتم «نيقولا»

- إذا سمحت بذلك إرادتكم السامية، يا صاحب الجلالة.

وحصل لديه انطباع بأن ملابسه قد سقطت عن جسمه، وأنه يبدو عارياً تحت أنظار رفاقه.

وقال القيصر:

- إني لم يسبق لي أن منعت أحداً من الاستقالة، ولا من الزواج. وقد قيل لي أن خطيبتك فرنسية...

- نعم، يا صاحب الجلالة

- هلا ذكرت لي اسمها؟

- السيدة «شامبليت»

فسأله الإمبراطور، وهو يحملق فيه:

- السيدة؟... كيف، سيدة؟...

فهمس «نيقولا»:

- نعم، لقد سبق لها... وأخيراً فهي أرملة.

- آه؟!

فأسرع الأمير «فولكونسكي» لنجدة مرافقه:

- إنها ابنة الكونت «دو لامبرفو» يا صاحب الجلالة.

فصاح الإمبراطور:

- ولكن، تماماً، أين كان فكري؟ لقد أتتنا بعض أخبارها في الفترة الأخيرة، فهي لا تؤيد «آل بوربون» وليست على علاقة جيدة معهم، إذا صدّقت ما روي لي عنها!

فغمغم «نيقولا» بصوت ضعيف:

- نعم، إنّ علاقتها معهم ليست جيدة، يا صاحب الجلالة.

كانت جميع النظرات متجهة نحوه. ولم يجرؤ على تحريك أي عضلة من عضلات وجهه. وكان جلده متوتراً، مشدوداً كجلد الطبل. وإلى يمين القيصر، كان أخوه الدوق الكبير «نيقولا بافلوفيتش» الذي بلغ لتوّه التاسعة عشرة، يبتسم بوقاحة. كان وجهه متطاولاً، وأنفه مستقيماً، فمه صغيراً وعيناه جاحظتين وبرّاقتين.

واستأنف القيصر الكلام:

- أفترض أنّ الذي حدا بك لتطلب يد السيدة «شامبليت» ليست، أفكارها وآراءها السياسية؟!

فبدرت بعض الضحكات الخبيثة من الضباط الحاضرين.

وقال «نيقولا»:

- كلاّ، بالتأكيد، يا صاحب الجلالة، ليست أفكارها هي التي حدت بي لأطلب يدها.

أخيراً! فإني إذن أعتمد عليك لكي تجعل هذه السيدة الظريفة تتخلى عن ميلها الشديد للسياسة.

فغمغم «نيقولا» وهو في غاية الاضطراب:

- إني سعيد بتأدية أي خدمة لجلالتكم الإمبراطورية.

فتكاثرت الضحكات، أما هو فكان يقف، متوتر الأعصاب متصلب الجسم، يشعر بأنّ كتفيه يكادان يتحطمان، وقد أخذت بعض قطرات العرق تبدو على جبينه.

فتدخل الدوق الكبير «نيقولا بافلوفيتش»، بقوله:

- نعم! ليس هنالك أفضل من مسرّات زواجٍ روسيٍ لتهدئة الاضطراب الفكري والسياسي، الفرنسي!

فانكمشت أسارير وجه القيصر من شدّة الاستياء، لأنه كان يُعد أن أخاه الأصغر ليس له الحق أن يتولى الكلام بعده، ولكنّ استياءه لم يكن سوى سحابة صيف ما لبثت أن انقشعت، فعاد وابتسم من جديد، وقال وهو يستند بمودة على ذراع الأمير «فولكونسكي»:

- وافقنا، يا عزيزي، وعليك أن تسوّي المشكلة وتنهيها على أحسن شكل: فليتزوج ولينصرف!

وعندما خرج القيصر والدّوق الكبير ورئيس هيئة الأركان من الخيمة، انقضّ رفاق «نيقولا» عليه، غاضبين، مرحين: كيف استطاع أن يكتم عنهم قراراً على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة؟ ألا يخشى أن يتزوج فرنسية؟ أهي سمراء أم شقراء؟ ومتى سيرونها؟ ومن سيبارك عقد الزواج؟ واقترح «روزنيكوف» أن يباركه الأب «ماتيو»، الذي أقام القدّاس في مربّع الرّماة، فهو رجل قديس وإنسان طيب، ومباركته تُعد ضمانة لحياة طويلة وسعيدة. و «نيقولا» وقد أصمّت أذنيه هذه الصيحات كان يشعر بمزيج من السعادة والضيق. فهو قبل أن يتلقى موافقة القيصر كان يُعد أمر زواجه سراً لطيفاً بينه وبين «صوفيا» ولكن ها هو مشروعهما وقد أعلن على الملأ، يتحول فجأة إلى شيء واقعي وملموس كهذه

«الاسكملة» أو المنضدة. وأصبح لأيّ كان الحق بأن يتفحّصه، ويناقش جوانبه، وأن يدور حوله...

وأخذت بعض الأصوات المبحوحة تصرخ:

- عطش شديد! يا له من عطش مخيف! حلقي جاف!...

- ماذا تنتظر؟ هيا بنا ولنشرب!... نادوا الموسيقيين!

- لنشرب نخب «صوفيا» الظريفة!...

كيف عرفوا أنها تدعى «صوفيا»؟ لا شك في أنّ «روزنيكوف» هو الذي قال لهم ذلك. وكان «هيبوليت الجميل» هو الأكثر هيجاناً من الجميع:

اصعد على المنضدة، أيها الأخ المزيف والكذوب!

وحاول «نيقولا» أن يرفض. فتعاون عشرون ذراعاً على رفعه بالقوة. وعندما وقف على المنضدة، رأى على مستوى ركبتيه دائرة من الوجوه الضاحكة، الفرحة، وعيوناً تلتمع تحت الحواجب، وأسناناً تلمع تحت الشوارب. وكانت الكؤوس الملأى ترتفع نحو الفائز المنتصر. ولكنه لم يكن واثقاً من أنه يستحق هذا الاحتفال.

وطلبوا منه أن يلقي خطاباً.

فقال، متلجلجاً:

- لا أستطيع أن أقول لكم شيئاً يا أصدقائي، سوى أنني سعيد، وأنني، ... لن أنساكم أبداً، وأنني، حتى وإن كنت قد أغادر الجيش، فسأظل وفيّاً للروح الذي تسود فيه، للقيصر، للوطن، وللإيمان بالله!...

فهتف له رفاقه بكل ما أوتوا من قوة: «هورّاه! مرحى لك، مرحى!...»

وقدّم له «روزنيكوف» زجاجة «روم» وأمره بأن يشربها حتى آخرها:

- لن ندعك تنزل قبل أن تفعل ذلك، وستكون هذه عقوبة لك لأنك فضلت امرأة علينا كلّنا! هيا، أرنا مقدرتك، وماذا تستطيع أن تفعل! هيا، نفّذ ما أمرتك به!

فضمّ «نيقولا» قدميه، متخذاً وضعية الاستعداد، ورفع عنق الزجاجة إلى فمه، كأنها بوق.

وصاح به «روزنيكوف»:

- هيا، اشرب!

وأخذ الجميع يغنّون.

وكان «نيقولا» وقد أمال رأسه إلى الوراء، ينظر إلى أعلى الخيمة، حيث ينغرز العمود المركزي. وكان ذلك الطوق المستدير المصنوع من القماش الرمادي الداكن، يثيره لدرجة التقزّز والاشمئزاز. وكانت الكحول تسيل في زلعومه كجدول من اللهيب الحار، وداخل خديه كان محرقاً، ومع استمراره في الشرب كان يزداد شعوراً بأنه وحيد وحزين. وبعد أن ابتلع آخر قطرة، قذف الزجاجة من فوق كتفه، والصوت الهادئ الذي أحدثته أقنعه بأنها سقطت على الحشائش والأعشاب. فدوّى التصفيق حوله، ونزل عن المنضدة على ساقين من قطن، وقد تضاعف حجم رأسه، وأخذت بعض الذبابات الفضية الصغيرة تتطاير أمام عينيه. فأمسكه «روزنيكوف» من كتفيه، بكل مودّة، وسأله:

- هيا، قل لي، كيف أنت الآن؟!

فأجابه «نيقولا»، وهو يحرك في فمه لساناً كلسان الثور:

- إني بخير، وعلى ما يرام!

- وهل يمكن أن تعود وتفعل ذلك، ثانية؟

- نعم، يا «هيبوليت»!

- يا لك من رجل! احتفظ بقواك: سوف تحتاجها لكي تتفاهم مع «صوفيا»!

فتمتم «نيقولا»:

- «صوفيا»!؟ «صوفيا»!...

ودار العالم حول رأسه، وهوى على الأرض، كما تهوي المطرقة الضخمة.

٩

وقالت «صوفيا» وهي تشير إلى مكان بقربها على إحدى الأرائك، في الصالون:

- الآن أرو لي يا نيقولا كل شيء، وقل لي كيف جرى ذلك الاستعراض؟

فقال لها:

- لقد جرى بشكل رائع! ولكني سأحدّثك عنه فيما بعد، عندما يكون والداك هنا. أمّا الآن فإنّ لديّ أموراً أكثر أهمية أريد أن أحدثك عنها!

وجلس، فأمسك يد «صوفيا» طبع عليها قبلة، وأخذ ينتظر أسئلتها.

فقالت:

- لقد أثرت اهتمامي.

- حسن! يا صوفيا، لا أريد أن أدعك تعانين المزيد من الانتظار. لقد سوي كل شيء، هذه المرة! والقيصر بنفسه صرح لي بأنه لا يعارض استقالتي ولا زواجنا!

وقذف هذه الجملة وكأنه ينشر علماً. وبحثت نظراته عن علامة فرح على وجه خطيبته. ولكنها بدت شاردة. ألم تدرك أهمية النبأ؟ فشعر «نيقولا» بخيبة الأمل، وأضاف، متمتماً:

- لقد كنت سعيداً جداً لما أبداه نحوي، بل نحونا من لطف وأريحية!

فقالت «صوفيا»:

- إني أفهمك، يا نيقولا، ولكنّ موافقة القيصر هي أقل أهمية في نظري من موافقة والدك.

ففترت همة «نيقولا»: إنها مصرّة على فكرتها، ولن يستطيع أبداً أن يجعلها تتخلّى عنها.

واستأنفت الكلام:

- ألم تتلقّ الجواب حتى الآن؟

فهمّ بأن يقول: كلا، ولكن لم يخرج أيّ صوت من فمه، وفجأة تغير كل شيء فيه، لم يعد هو نفسه بالذات. لقد اندس أحد الشياطين في جلده. وبين دقّتين قويتين من قلبه، سمع نفسه يلفظ بصوت غير مميز، خال من أي نبرة:

- بلى، يا صوفيا.

فارتعشت، واستقامت في جلستها، ثم قالت بهدوء:

- هل كتب لك أبوك؟

- نعم.

- ومتى تلقيت رسالته؟

- منذ... منذ يومين... في معسكر «فيرتوس»...

- والآن فقط تخبرني بها؟

فحاول أن يبدو مرحاً، ولكنّ ابتسامته لم تكن منسجمة مع أسارير وجهه. وغمغم:

- أردتها مفاجأة لك، عند عودتي!

فصاحت:

- وأي مفاجأة؟ أمجنون أنت كي تمزح هكذا يا نيقولا!

- قل لي الحقيقة: هل هو موافق؟

- فبلع «نيقولا» لعابه، واستنشق نفحة من الهواء، جحظت عيناه، توترت عضلاته، تهيأ ذهنه لتلقي الصدمة، وغاص بكل ثقله في الكذب:

- إنه موافق، يا صوفيا.

فبدرت منها في بداية الأمر حركة تنم عن الفرح، ولكنها تمالكت نفسها بسرعة، وكأنها أخذت تشك ولا تصدق أن يؤاتيهما كل هذا الحظ:

- وهل أنت متأكد تماماً من ذلك؟

فأجابها:

- بلى، يا صوفيا.

وفي دقيقة واحدة، تخلى عن عشرين سنة من حياة مستقيمة وشريفة، ولكن ألا تستطيع «صوفيا» أن تلمح في عينيه ما يدلها على أنه يخدعها؟

وعاودت «صوفيا» الكلام، قائلة:

- وهذه الرسالة، أين هي؟

وبأصابع مرتعشة، أخرج الرسالة من جيبه، فتحها وناولها للمرأة الشابة.

فقالت له:

- كيف تريد مني أن أقرأها، فهي مكتوبة باللغة الروسية!

فقال «نيقولا» متنهداً:

- نعم، فأبي وأنا نتراسل دائماً باللغة الروسية.

ومما يدعو إلى العجب والاستغراب أنه كلما ازداد شعوراً بالذنب، كلما ازداد حبه لـ صوفيا. فقد كانت ثقة واستقامة خطيبته تقلقانه وتبعثان الاضطراب في نفسه.

وسألته:

- وماذا قال لك أبوك، في رسالته؟

- إيه!... إنه مسرور جداً... وإنه يباركنا...

- وهل هذه هي عباراته بالذات؟

- طبعاً!

- ألا تستطيع أن تترجم المقطع الذي يتحدث فيه عنّا؟

فاضطرب، وتدفق الدم إلى وجهه، وشردت نظراته:

- أوه! هذا في غاية السهولة!...

فأعادت له الرسالة. وبعد أن انكبّ على الورقة، توجه بصلاة قصيرة إلى الله كي يوفقه في ارتجال ترجمة مناسبة. ثم بدأ بسرعة. كان يقرأ باللغة الروسية: «من كان في سنك لا يتزوج امرأة سبقه إلى إيقاظ حواسها زوج آخر... وهذا بمثابة التجديف بحق الله... الغباء في اختيار قدرك ومصيرك... أرجو أن تقطع...»

وهذه الجمل المخيفة، كانت تصبح باللغة الفرنسية:

«ولدي العزيز، بعد أن بلغت هذه السن، فقدحان الوقت لتفكر بالزواج، وأنا سعيد لأنك وجدت امرأة، تعجبك وتغريك إلى هذه الدرجة، تربيتها، ميولها، تطلعاتها، وجمالها. والتخلي عن مشروع ظريف كهذا يُعد تجديفاً بحق الله. أرجوك أن تقول لهذه الشابة الفرنسية... إنّ... إني...»

وتظاهر بأنه يبحث عن كلمة، وغمغم:

- ليس هذا هو بالضبط!... أردت العثور على الكلمة الصحيحة والدقيقة!... اعذريني!...

فقالت:

- أوه! نيقولا!

وطفحت عيناها بدموع الامتنان. فلم يستطع تحمل رؤية ذلك الوجه الذي عبثت به سعادة وهمية، أحنى رأسه وتابع بصوت أجشّ:

- قل لهذه الشابة الفرنسية أني سأستقبلها كابنة لي وأنّ... وأني...

كان يختنق خجلاً وحزناً. فلماذا لم يكتب والده، هذا الذي قرأه؟ لماذا لم يمنح ابنه فرصة ليزداد محبة واحتراماً له؟ وكل شيء كان يمكن أن يكون بسيطاً جداً! آه! يا لهذا العائق! كان من الممكن ألاّ يستطيع متابعة

تمثيل دوره حتى النهاية: بضع ثوان أخرى من العذاب، وتنبثق الحقيقة من فمه، عبر النحيب. وتكون عند ذلك نهاية حبه، ونهاية العالم. وباندفاع من الغيظ، ختم ترجمته، قائلاً:

- «وإني... وإني أبارككما كليكما...»

والصمت الذي تلا ذلك بدا لـ نيقولا، رفضاً واستياءً من قبل السماء. ولم ينتبه من ذهوله إلا عندما شعر بثقل رأس حار، على كتفه. فقد اقتربت «صوفيا» منه، وأخذت نفحات تنفسها تداعبه:

- شكراً، يا نيقولا! أنا الآن مطمئنة، وسنتزوج متى شئت. فأنا على عجلة من أمري لكي أتعرّف على والدك، وعلى أختك... فقد أصبحت أحبّهما، منذ الآن!

فضمها إلى صدره وهو يتألم لأنه خدعها بلامبالاة، وبكل سهولة. وأخذ يفكر:

- «إلى أي هاوية هبطت؟ وكيف أفتدي نفسي، وأستعيد سمعتي وشرفي بنظر صوفيا وبنظري أنا؟ حالما تصبح زوجتي، سأبوح لها بالحقيقة، إني أقسم على ذلك!»

وهذا القسم لم يطمئنه، ولم يشدد من عزيمته، إلاّ قليلاً، وبصورة جزئية.

الجزء الثالث

١

كانت «صوفيا» وهي منحنية فوق الحاجز، تنظر بعيداً في الفضاء الذي يختلط فيه لون السماء، اللؤلؤيّ الداكن بلون المياه، الأخضر المزرق، وكان النور الباهت والبارد. يمحي النتوءات، على هذه الخلفية المكوّنة من الضباب الراكد، كان يبدو شكل أحد المراكب الكبيرة، كالشبح، بأشرعته الصدفية، وعتاده الأسود. وبعض قوارب الصيد تنزلق ببطء على سطح الماء، متجهة إلى أماكن غير محدودة. وبدت شواطئ خليج فنلندا كغيوم متطاولة مستلقية في الأفق. والبحر، الهادئ أكثر من المعتاد، كان يبدو هناك، أكثر كثافة وعمقاً من أي مكان آخر. ولم يكن له منظر الكتلة المائعة، بل منظر النسيج القاتم الكتيم، بتموجاته الفضّية المسترخية والهادئة. وفي عالم الأحلام، هذا، كان المركب الضخم، والقوي، ذو الثلاث سواري، التابع لأسطول البحرية التجارية الروسية، يشق طريقه ببطء، دون أن يندفع، أو يفرقع. كان قد أقلع مغادراً «شيربورغ» على الشاطئ الفرنسي، قبل اثني عشر يوماً، في الخامس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر). ومع أنّ الرحلة كانت هادئة تماماً، فإنّ «صوفيا» لم تألف الإحساس بتلك الأرضية الخشبية المتحركة تحت قدميها. وكان قد تجمع نحو عشرين مسافراً على سطح المركب لمشاهدة شواطئ روسيا التي بدت وكأنها تقترب منهم.

وفي غضون ذلك، كان «نيقولا» لا يزال في المقصورة، يعمل على تهيئة الأمتعة، هو و «أنتيب». وأخذت «صوفيا» تتذمّر من زوجها، ألم يحن الوقت،

لكي يصعد، أخيراً؟ كانت تريد أن يكون، من كل بدّ، بقربها عند دخول المركب إلى الميناء. وعندما تبادر إلى ذهنها أنها ستطأ، عما قليل، أرض روسيا، للمرة الأولى، أخذ فرحها وقلقها يتزايدان، في آن واحد. وقد تذكّرت مطالب والديها وأحاديثهما المحزنة، عشية يوم حفل الزواج. فقد طلبا أن يبارك عقد زواج ابنتهما بـ نيقولا، مسبقاً، كاهن كاثوليكي، في ملحق الكنيسة. وبعد ذلك ذهب الجميع إلى الكنيسة الأرثوذكسية، الصغيرة الكائنة في قصر «الأليزيه». لم يكن هناك كثير من الناس: بعض أصدقاء الأسرة المقربين، آل «بواتوفان» وبعض رفاق «نيقولا»، وكان هؤلاء يتناوبون في رفع تاج ثقيل من المجوهرات فوق رأسي العريسين. وأنشدت مجموعة من الجنود بعض الأناشيد ذات العذوبة الساحرة. والكاهن ذو اللحية الطويلة، وعلى رأسه تاج الأسقفية، مرتدياً الملابس الكهنوتية المذهبة، أخذ يدير القدّاس بصوت كان يبدو كأنه يخرج من باطن الأرض. وبعد تبادل المحابس، قدم الكاهن كأساً من النبيذ لشفاه الشابين، ربط يديهما بمنديل حريري، واقتادهما للقيام بثلاث دورات حول المذبح، لكي يجعلهما يعتادان على اتباع الخطوات الموحدة نفسها في الحياة المسيحية. وهذه الطقوس الغريبة كان يمكن أن تجعل «صوفيا» تبتسم لو أنها لم تلاحظ التأثر الشديد الذي بدا على وجه «نيقولا» أثناء الاحتفال. فبالنسبة له، كان الله، في تلك اللحظة، يهبط بالحقيقة إلى المصلى بين سحابات أدخنة البخور. وهذا القدر الكبير من الورع الساذج يتحلى به الرجل يعد بسعادة كبيرة للمرأة التي تتزوجه. وأثناء حفل العشاء الذي أقيم في منزل «آل لامبرفو» بمناسبة العرس، لم يكف عن تأملها بنظرات قلقة، تكاد تنم عن الشعور بالذنب، حتى ليخيل لمن يراه أنه كان يشعر بأنه غير جدير بها، وأنه يرفض التصديق بأن الحظ قد واتاه وأتاح له هذه الفرصة، وأنه لم يكن يجرؤ على تصور متعة أخرى، سوى متعة تأملها. وفي الليلة نفسها،

تبين لـه أن الأمـر علـى العكـس مـن ذلـك. فقـد اضـطربت عنـد تـذكرها المداعبات الأولى، في الغرفة، التي ظلت تنام فيها وحدها، خلال زمن طويل. والإجراءات الشكلية الضرورية بشأن الاستقالة، والحصول على جوازات السفر، وتحضير الأمتعة والحوائج اللازمة للرحلة الطويلة. قد استغرق كل ذلك، نحو أسبوعين. فكانت «صوفيا» تبدو منزعجة من الإقامة مع «نيقولا» في منزل ذويها. تارة بدافع الحياء، كانت تتردّد بأن تدعهم يلاحظون بأنها راضية وسعيدة، وتارة بدافع الزهو، كانت تريد أن تثبت لهما أنها تشعر بكونها قد أحسنت الاختيار. وطوال الأسبوع الأخير من إقامتها في باريس، لم يعمد أبوها ولا أمها، بالحقيقة، إلى لومها على حماقة قرارها، كما كانا يفعلان فيما مضى، إذ إنّ «نيقولا» كان قد أرضاهما واستمالهما إليه، بما أبداه نحوهما من مجاملة ومودّة. ولكن ذلك لم يمنعهما من البكاء عندما رافقا الزوجين الشابين إلى العربة التي ستقلهما إلى «شيربورغ». والمنظر الأخير الذي احتفظت به «صوفيا» لهما، هو منظر عجوزين، يقفان جنباً إلى جنب، في باحة مكتب السفريات. وكانت توصياتهما تضيع عبر الضجيج الذي يحدثه نقل الأمتعة، ووقع القباقيب على البلاط، وصراخ سائقي العربات الذين ينادون المسافرين.

«كوني سعيدة، يا ابنتنا! الوداع! الوداع! متى سنرى بعضنا ثانية؟»

وهذه الكلمات التي لم تكن «صوفيا» قد تأثرت عندما سمعتها، كان لها في ذاكرتها صدى ينمّ عن الحنين. ومع ذلك، فهي لم تكن آسفه على مفارقة والديها اللذين كانت طريقة تفكيرهما ومعيشتهما مختلفة جداً عن طريقتها. فأمها، على الرغم من ميزاتها العاطفية، كانت امرأة مضطربة، مشوشة الفكر، ساذجة جداً، أمّا والدها، الذي نشأ، مشبعاً بأفكار القرن السابق، فقد كان الرجل الأكثر التصاقاً بالمجتمع، والأكثر سطحية وظرفاً، في باريس كلها. وقد أكدت لهما، ولا سيما بعد ترمّلها،

رغبتها بأن تحيا حياة مستقلة، ولم تكد تحصل على حريتها بسبب وفاة زوجها، حتى اندفعت إلى العمل السياسي، لكي تسلو حزنها، من جهة، ومن جهة أخرى، لكي تكرّم ذكرى الإنسان المتميز الذي فقدته. وفي هذا المجال، اكتسبت بسرعة خبرةً وأساليب تتميز بالحرية، وثقةً بالنفس، فيها شيء من الرجولة. أيمكن أن يكون ظهور «نيقولا» قد غيّرها، وأحدث لديها تحوّلاً، إلى درجة أنها أخذت تشعر أنها غريبة ومختلفة عن المرأة التي كانت قبل أن تعرفه؟ ويبدو أنه قد مسّ لديها وتراً حساساً، فعندما أحبّته، اكتشفت أنها تتمتع بروح فتاة شابة. وأخذت تشك بأن يكون أيّ رجل سبق له أن ضمّها فيما مضى بين ذراعيه. السيدة «أوزاريف»، وأحنت رأسها برقّة ولطف على هذا الاسم الغريب، كما لو أنها كانت تجرب قبعة جديدة. وساورتها إحدى الوساوس: أليس هنالك بعض المجازفة والخطورة في حماستها؟ وماذا يمكن أن تجد في روسيا؟ وللمرة العشرين طمأنت نفسها وهي تستعيد ما قاله لها «نيقولا» عن والده وعن أخته، اللذين ينتظران وصولها بفارغ الصبر. ولأنها كانت واثقةً من حسن استقبالهما لها، فقد منحتهما مسبقاً كل حبّها وموّدتها. وسوف تتعلم اللغة الروسية، إرضاءً لهما.

هبّ النسيم على البحر، فرفعت «صوفيا» ياقة معطفها. كانت تستنشق هواءً لاذعاً، يحمل رائحة الملح، رائحة القار والضباب، وأخذ رنين بعض الأجراس يأتي من بعيد. وقد دبّت الحركة في الخليج، حيث كانت غابة من السواري تثقب ستار الضباب. وفي حدود المدى المنظور، بدت بعض السفن الحربية وهي تقوم بتحركاتها الروتينية. وكان هنالك المئات من القوارب الصغيرة، تتأرجح مع تموجات مياه البحر، ذات اللون الأخضر المزرقّ. وأخذ الشاطئ يلوح عن بعد، مسطحاً، تتخلله البحيرات والمستنقعات، وتعلوه بعض أشجار السندر الرفيعة ببياضها الذي يشبه بياض العظام الجافّة. وفي بعض الأماكن، كانت المياه تبدو أعلى من اليابسة.

وبدت كتلة كبيرة من الغرانيت: تلك هي قلعة «كرونستاد». وتجمّع كل المسافرين في الجانب الأيسر. وألقى المركب المرساة قبالة الجزيرة.

صعد «نيقولا» إلى سطح المركب، ضمّ «صوفيا» إلى صدره. فرفعت نظرها نحوه، ورأت أنّ جماله يبعث على القلق. والملابس المدنية التي أخذ يرتديها بعد استقالته بدت وكأنها تناسبه وتليق به أكثر من البزّة العسكرية. كان يرتدي «رونفوت» من الجوخ الرمادي الداكن، زخرفتها وياقتها من الفرو، ويمسك بيده قبعة من جلد القندس. كانت «صوفيا» هي التي اختارت قماش «الردنفوت». وابتسمت لذكرى أول شراء يقومان به سوية وبصورة مشتركة، وشعرت أيضاً بمزيد من الثقة والاطمئنان، وقالت له:

- لقد أطلت البقاء هناك، يا صديقي! ولو تأخرت قليلاً لاضطرت إلى النزول بمفردي! لماذا توقّف المركب؟

لا هي ولا هو، كان قد استعمل بعد صيغة المفرد التي تعبّر من الألفة وعدم التكليف، وإن كانا قد تواعدا على استعمالها.

وقال «نيقولا»:

- لا شك أننا سنتعرض لشكليات التفتيش والمراقبة. وأشار إلى بعض الزوارق الصغيرة التي انطلقت من الجزيرة، متجهة نحو المركب، تدفعها ضربات المجاذيف الملتمعة..

وكان على متنها عدد كبير من رجال الشرطة ورجال الجمارك، وعندما وصلوا صعدوا على ظهر المركب فحياهم القبطان. وبعد ذلك بقليل طلب من المسافرين النزول إلى قاعة المركب الكبرى، حيث جلست مجموعة من المفتشين بملابسهم الرسمية خلف طاولة طويلة ؛ وبدؤوا يستجوبون المسافرين:

- أسماؤكم؟ نسبتكم؟ تاريخ ولادتكم؟ جنسيتكم؟ مؤهلاتكم المعنوية؟ لماذا أنتم قادمون إلى روسيا؟ هل تنوون مغادرتها

ومتى؟ ألستم مكلفين بأي مهمة سرية؟ أليس لديكم أي مشروع مخالف للقانون؟

وعند الإجابة على هذه الأسئلة، كان الأشخاص الأكثر وقاراً وأهمية في مظهرهم، يبدون وكأنهم جناة ومذنبون. ولم يكن الروس يعاملون بأقل ريبة وشدة من الأجانب. وكان بعض المفتشين يفتحون جوازات السفر ويفحصون التأشيرات بواسطة مكبر. بينما كان آخرون يقلبون صفحات سجلات كبيرة، ويؤشرون فيها على بعض الأسماء، وكأنهم بعملهم هذا، يشيرون إلى عودة جماعة من المساجين إلى المعسكر. وكانت «صوفيا» تستغرب هذه العملية الحسابية التي لم تكن تدرك معناها، وكانت تقف على رؤوس أصابع رجليها، ومدت رأسها خارج نطاق المجموعة، وهمست في أذن «نيقولا»:

- عما يبحثون؟ هل أخبروا بوجود أحد الجناة الأشرار على متن المركب؟

فأجابها «نيقولا»:

- أوه! كلا. هذه عادة متبعة في بلادنا: فجميع تحركاتنا وتنقلاتنا تخضع للمراقبة.

- ولماذا؟

- لأنه في بلاد شاسعة الاتساع، متنوعة الأجناس، قليلة الحظ من الثقافة، كروسيا، ينبغي أن يكون فيها سلطة قوية للسيطرة على الشعب وإبقائه في قبضتها. وكان وهو يتكلم بصوت خافت، يراقب «صوفيا» بطرف عينه، آسفاً لأنه لم يستطع أن يقدم لها عن بلاده صورة أكثر إشراقاً. فلكم كان يود أن يكون كل شيء فيها شمساً ونظافة وتبسماً، عند استقبالها للعروس القادمة إليها. ولكنّ أول مشهد رأته

في «بطرسبورغ» كان وجوه أولئك الموظفين، المتجهّمة والتي يبدو عليها أنها تشكّ وترتاب بكل شيء وبجميع الناس! ولا شك بأنها قد استاءت من هذه التدابير والإجراءات الإدارية التي تُعد ضرورية في روسيا، بينما يتجول الناس بحرية في أي بلاد أخرى. ألن يدفعها ذلك إلى أن تتصور أنها بعد أن عاشت حياة حرة ومستقلة، فهي تدخل الآن إلى مملكة القهر والخوف والمضايقات؟ ولأنه كان أصلاً، يشعر بكونه قد أخطأ بحقها، فإن هذه الفكرة الأخيرة كادت تفقده صوابه. وقد أرجأ من يوم إلى آخر إعلامها على أي كذبة تستند سعادتهما. ففي بداية الأمر، كان قد أقسم أنه سيبوح لها بالحقيقة في اليوم التالي لعقد قرانهما، ثم فضل أن ينتظر مغادرتهما فرنسا ليقوم بهذا الاعتراف. والآن، فهو يريد أن يحاول القيام بمسعى في «كشتانوفكا» قبل أن يطلع «صوفيا» على كل شيء. ففي حالةٍ على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة، يبدو الاتصال الإنساني المباشر، حسب رأيه، أفضل من جميع الرسائل. فعندما يصل، ويرى والده من جديد، ويتحدث إليه وجهاً لوجه ومشافهة، سيتوصل أخيراً إلى إقناعه. وقد واسى نيقولا تصوره لهذا الفوز عن الخجل الذي يعاني منه وهو يستعد لمواجهة والده. وأخذ يعد الأيام والساعات التي تفصله عن موعد هذه المواجهة. «خلال أسبوع، إذا سارت الأمور على ما يرام، يمكن أن نكون هناك!»

وسمع صوتاً، يقول له، بنبرة جافة:

- أرجوك أن تتقدم!

وكان «نيقولا» وهو يسير إلى جانب «صوفيا» يأمل أن يعاملها رجال الشرطة، بلطف، حفاظاً على سمعة بلاده وكرامتها، وقد فعلوا ذلك بشكل فاق كل توقعاته. فقد تناول أحد ضباط الشرطة، الذي عالج شاربه بمثبت للشعر، الوثائق التي قدمها له «نيقولا»، وهنأه باللغة الروسية بزواجه، كما رحب بـ صوفيا باللغة الفرنسية. ومع ذلك، فإن هذا لم يمنع أحد الكتبة التابعين للضابط، من استبقاء جوازي السفر لديه، قائلاً أنهما سيعادان لهما، اليوم التالي، في «بطرسبورغ». ودُرس وضع «أنتيب» بالعناية نفسها، ولحسن الحظ فقد كانت أوراقه، هو أيضاً، نظامية: فهو قد تبع «نيقولا» إلى الحرب، بصفته خادماً وعبداً، ولم يعد يطلب منه أن يبقى في الجيش بعد أن استقال سيده من الخدمة. وعلى سطح المركب، كان موظفو الجمارك قد بدؤوا بتفتيش الحقائب والأمتعة. وقد اقتيد بعض المسافرين إلى إحدى المقصورات لكي يجري تفتيشهم جيداً حتى جلودهم. وكان هؤلاء الذين يعودون من هذه العملية، تبدو وجوههم حمراء وملابسهم باهتة الألوان، كالتلاميذ الذين تعرضوا للضرب على أقفيتهم. وكان هنالك امرأة بدينة، يبدو أنّ أحد الموظفين قد فتشها وبالغ في جسها وتلمسها، فأخذت تصرخ بأنها ستشتكي في الحال إلى السفارة البريطانية. وقد شك الموظف بأمرها لأنها كانت تحدث وهي تمشي أصواتاً تشبه رنين الأجراس: كانت بعض زجاجات العطر معلقة داخل طيات ثيابها. وخشي «نيقولا» من أن توجّه مثل هذه الإهانة إلى «صوفيا» ولكن لا هي ولا هو حصل لهما ما يدعو إلى القلق: فقد اكتفى موظف الجمارك بتقليب محتوى حقائبهما ونقل المسافرون والأمتعة إلى مركب أصغر حجماً من الأول، وانطلق في خليج «كرونستاد» عبر ممر محدّد بواسطة طوّافات. وبعد ثلاث ساعات من السير، دخل المركب إلى «سان بطرسبورغ» وألقى مرساته أمام رصيف من الغرانيت، وفي الحال صعد إلى متنه رجال شرطة وموظفو

جمارك جدد. وانضم «نيقولا» و «صوفيا» إلى رفاقهم المسافرين الذين تجمعوا على سطح المركب حيث شاهدوا إعادة عمليتي التفتيش والاستجواب: وكانت هذه العملية عبارة عن تدقيق ومراقبة للعملية الأولى.

وبعد أن نزلت «صوفيا» إلى اليابسة، ظلّت تشعر أنّ مياه البحر لا تزال تتحرك تحت قدميها. وشعرت بالغثيان، في حين أنها لم تصب بدوار البحر طوال الرحلة البحرية التي استغرقت اثني عشر يوماً.وعندما لاحظ «نيقولا» اضطرابها، أسرع لمساعدتها. كانت تسير على غير هدى. وكان هنالك برميل يصعد في الجو، تشدّه رافعة بحرية. وأحد الطيور البحرية يمس سطح الماء في طيرانه، مرسلاً أصواتاً حزينة. و «أنتيب» ينقل الحقائب والأمتعة. وبعض سائقي العربات كانوا يتنافسون بالصراخ، دون أن يغادروا مقاعدهم. وبين المياه اللبنية اللون والغيوم الرصاصية الكثيفة اصطفت أسطح أرجوانية وقباب لها شكل القبعات، وأبراج أجراس منتفخة على شكل البصلة، ويعلو كل هذا سهم مذهب، عالٍ جداً.

وقال «نيقولا»:

- انظري يا «صوفيا»، هذا سهم الإميراليّة!

وخلال ذلك، أشرع رجال، شعرهم طويل ولحاهم طويلة، يرتدون ملابس صنعت من جلود الخراف، وينتعلون أحذية بالية، لحمل الحقائب ووضعها في عربة. ومن المؤكد أنّ هؤلاء كانوا من «الموجيك»، أي الفلاحين العبيد الذين يتحدث الناس كثيراً عنهم. كانت عيونهم كعيون الأطفال، وعلى النقيض من ذلك كانت وجوههم تنم عن القسوة والوحشية. وألقى لهم «نيقولا» بعض النقود، فعبّروا له عن شكرهم بتحيّات حارّة، وتزلّف مفرط، يؤذي النظر. ودون أن يتغير شيء في محيط المكان، أصبح الهواء رطباً، بشكل مفاجئ. لم تكن السماء تمطر، ولكنّ الرذاذ انتشر في الجو، وبلّل الفضاء.

وساعد «نيقولا» «صوفيا» على الصعود إلى عربة مزودة بغطاء من الجلد. وكان حصانها الهزيل يمدّ عنقه تحت قوس من الخشب. والحوذي الذي يكوّر على مقعده، وشعره يكاد يغطي عينيه، وعلى رأسه قبعة وسخة من الفرو، فرقع بسوطة، فانطلقت العربة. فتبعها «أنتيب» بعربة أخرى تحمل الحقائب والأمتعة.

وضمّ «نيقولا» يدي «صوفيا» بين يديه، وقال لها:

- ها نحن أصبحنا الآن في بلدنا، يا حبيبتي، وأنا أقدّم لك بلدك الجديد!

والحال هي أنها لم تكن ترى شيئاً يذكر بسبب المطر الذي أخذ ينهمر بغزارة. وكانت العربة تسير على رصيف تحيط به القصور المزينة واجهاتها بالأعمدة والزخارف، والتي تأثر ملاطها بالأمطار الغزيرة التي تهطل هناك. وأخذت الأضواء تبدو من بعض النوافذ، التي كانت تتألّق خلف زجاجها الثريات الكريستالية والنباتات الخضراء. وبرز فجأة، عند زاوية إحدى الساحات، أحد التماثيل وكأنه قد اغتاظ من أن يفاجئه أحد، بينما هو يخلد إلى الراحة. وفارس نحاسيّ يجمح بحصانه على الصخرة التي استخدمت كقاعدة له، ماداً ذراعه نحو نهر «النّيفا». فقال «نيقولا» إنه تمثال «بطرس الأكبر» وهو أشهر عمل قام به «فالكونيه» النحات الفرنسي المعروف. وكان قصر الأميرالية ينتصب بالقرب منه بجدرانه الصفراء الضخمة، وبرجه ذي الأروقة، وسهمه الذهبي الذي يناطح سماءً تغطيها الغيوم القطنية. وكذلك، على مسافة بعيدة، تلك الكتلة الضخمة الرمادية اللون، التي يكتنفها الضباب، تستحق أن تمنحها «صوفيا» نظرة اعتبار ومراعاة: «إنه قصر الشتاء، مقر القيصر الاعتيادي. ولكنّ القيصر لم يكن قد عاد إلى عاصمته بعد، فبعد أن وقّع عقد «الحلف المقدس»، ذهب إلى «فرصوفيا» لتنظيم مملكة بولونيا الجديدة، وجعلها تحتفظ بجميع

المناطق التي كانت تطمح بروسيا والنمسا إلى الاستيلاء عليها. وليس هنالك أيّ شك بأنه لن يعود إلى روسيا، قبل حلول الشهر المقبل. واتجهت العربة إلى اليمين وسارت في شارع مستقيم، عريض وفخم، كان المطر والرياح تعبث فيه على هواها بالمارة الذين أحنوا ظهورهم ليتّقوها.

فقال «نيقولا»:

- هذه جادّة «نيفسكي»

فلمحت «صوفيا» مجموعة من الأبنية الضخمة تتألّف من قصور ومخازن وكنائس. وعلى اللافتات تتلألأ الأحرف الروسية الغريبة الشكل. والعربات التي تلتقي وهي منطلقة بسرعة، تصيب الواحدة منها الأخرى برشاش من الوحل، عبر صهيل الخيول وفرقعة عدّتها وأسواط السوّاقين. وقال» نيقولا» لـ صوفيا إنّ والده يملك منزلاً غير بعيد من هناك.

ولكنّ هذا المنزل مهجور ومهمل، وليس فيه خدم. ولذلك من الأفضل أن نقيم في أحد الفنادق.

كانت «صوفيا» تستعجل الوصول. وكان البرد الرطب يخترق ملابسها. وأخيراً توقفت العربة أمام سقيفة مدخل، تعلوه عدة مصابيح ضخمة. فأسرع بعض الخدم، الذين كانت ملامحهم تدل على أنهم من المغول، نحو المسافرين. وفي الرواق كانت تنمو بعض النباتات الاستوائية مغمورة برائحة الحساء. كانت المعاطف، والأوشحة وقبعات الفرو معلقة على أحد المشاجب، وأمام أحد المقاعد اصطفت تشكيلة من الأحذية السوداء. وأتى صاحب الفندق بنفسه ليستقبل النزيلين ويصطحبهما إلى غرفتهما.

كانت الغرفة فسيحة، سقفها عال. فيها سريران، خزانة، وأريكة مساندها من الجلد. وفي إحدى زواياها مدفأة من الخزف تنتشر منها حرارة لطيفة. درفات النوافذ مزدوجة، ومزودة بطبقة من الرمل بين الإطارين. وعندما ألصقت «صوفيا» جبينها على زجاج النافذة، لمحت أكداساً من

الحطب، صفّت في الباحة من أجل التدفئة في فصل الشتاء. وعندما أغلق الباب، ألقت بنفسها بين ذراعي «نيقولا»، ولم ينفصل أحدهما عن الآخر، وهما يلهثان، إلاّ عندما قرع الباب: ودخلت الحقائب والأمتعة على ظهور الحمّالين، وخلفهم «أنتيب» يسير، فارغ اليدين وهو يلوّح بهما.

كانت «صوفيا» ترغب أن يتناولا طعام العشاء، مساء ذلك اليوم، على مائدة مطعم الفندق. ولكنّ «نيقولا» فضّل أن تقدم لهما وجبة باردة في الغرفة، وقال لها: «سنكون مرتاحين، وبوضع أفضل إذا كنا لوحدنا!» والواقع، هو أنه كان يخشى أن يلتقي في المطعم، بأحد أصدقاء الأسرة القدماء. ولم يكن أحد في روسيا على علم بزواجه، لذلك كان عليه أن يكتم ذلك ويخفي زوجته إلى أن يحصل على موافقة والده ومباركته لهذا الزواج. وقرّر أنه منذ صباح اليوم التالي، سيعمد إلى استئجار إحدى عربات البريد المريحة، لكي يتابع الرحلة، هو وصوفيا إلى «كشتانوفكا»، وهي تستغرق خمسة أيام! وكثيراً ما لمّحت له من أجل البقاء لبعض الوقت في «سان بطرسبورغ» لزيارة معالم المدينة، والاستراحة من متاعب السفر. فبدا أنه غير مقتنع بذلك، وقال: «إذا تأخّرنا كثيراً في الرحيل، عند ذلك تصبح الطرقات سيئة، بسبب تراكم الثلوج والوحول عليها!»

فاقتنعت، ولزمت الصمت.

وفي اليوم التالي، نصحها بأن تبقى في الغرفة، أثناء ذهابه مسرعاً من مكتب إلى آخر لكي يستعيد جوازات السفر، وينجز ما يلزم لمتابعة السفر.

وهذه المرة كادت ترتاب في الأمر، وتأمّلته مندهشة:

- لماذا لا تريد أن أرافقك؟

لا لشيء...سوى أني أردت أن أجنبك التعرض لمتاعب لا جدوى منها...

وخرجت معه. كانت السماء مكفهرة وملبدة بالغيوم، والشوارع تغصّ بالناس. ولم يكن «نيقولا» يجرؤ على الالتفات إلى اليمين ولا إلى

اليسار، خوفاً من أن يلمح وجه أحد معارفه. وكان انزعاجه يزداد مع اقترابه من مركز المدينة، والحقيقة هي أنّ إقامته القصيرة في «سان بطرسبورغ» لم تتح له التعرف على كثير من الناس وإنشاء علاقات معهم، ولكن يكفي أن يكون هنالك أحد أقاربه أو إحدى قريباته، في نزهة هناك، ويلمحانه عند النزول من العربة، وعند ذلك سيرتبك، ولن يعرف كيف يقدم «صوفيا» لأيّ منهما. وهي التي لم تكن تشعر بارتباكه، كانت تتذوق متعة شديدة في الاغتراب. وليلة الاستراحة التي قضتها في الفندق، جعلتها تجدّد نشاطها وعزيمتها. وكانت نظراتها تجول في كل الاتجاهات. وتتأمل اللافتات الملوّنة المعلّقة على أبواب المخازن وتطلب من «نيقولا» أن يترجم لها العبارات المكتوبة على الواجهات. وقالت:

إن المرور في جادة «نيفسكي» هذه، كتصفّح كتاب تكثر فيه الصور! ما هذه الكنيسة؟ وما هو اسم هذا القصر؟

كان يعطيها المعلومات التي تطلبها وهو يشعر بالضيق والانزعاج. وقبل أن ينهي كلامه، تكون قد لاحظت شيئاً آخر وأخذت تسأله عنه. ومن بين ثلاثة من المارة، كان أحدهم يرتدي البزة العسكرية. وكان الفلاّحون العبيد (الموجيك) بملابسهم الجلدية المرقّعة يسيرون جنباً إلى جنب مع بعض السادة والأشخاص المهمين الذين يرتدون الملابس الأنيقة، وبعض النساء اللواتي كانت زينتهن تضاهي زينة نساء باريس. وكانت عربات السادة، الأنيقة تتبع عربات القرويين، ذات العجلات الثقيلة، التي ترسل وهي تدور صريراً يصمّ الآذان!

وكانت «صوفيا» تقول بأعلى صوتها:

- يا له من تناقض! يخيل للمرء أنه عند مفترق قرنين:

رجل في القرون الوسطى، والأخر، في الأزمنة الحديثة.

والسماء نفسها تختلف عن السماء التي يراها الناس في باريس.

ولكم أحب هذا الضياء القطبي...

وكان «نيقولا» يتمتم، وهو يشدّ على ذراعها:

- نعم، نعم، يا صوفيا،هيا، تعالي بسرعة...

وفجأة، قالت له:

- تبدو مكتئباً جداً يا صديقي! ومن يراك يستطيع أن يقسم أنك أقل سعادة مني بوجودك في روسيا!

فأخذ يضحك، ثم استعاد جدّيته، وثبّت نظراته على مسافة عشرين خطوة إلى الأمام. أليس أحد أصدقاء والده، هذا الذي خرج من دكان «غوسيني دفور». فاقتاد «نيقولا» «صوفيا» إلى شارع جانبي، وعند ذلك سألته:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى مكتب البريد. وهذا الطريق يؤدي إليه...

وبعد عشر دقائق من السير، وجدا نفسيهما على ضفة قناة ضيقة تفوح منها رائحة الوحل.

فقالت «صوفيا»:

- إيه! ولكن، ها هي «فينيسيا»!

فابتسم لها «نيقولا» قليلاً، وقال:

- إني سعيد جداً، لأنّ «سان بطرسبورغ» قد أعجبتك.

٢

كان المطر ينقر بخفة على غطاء العربة وظهر الحوذي يتمايل مع اهتزازات العربة. وقد غطت ملابسه الجلدية بعض اللآلىء السائلة، وأحاط به البخار وكان يرفع صوته من وقت لآخر ليتحدث مع الأحصنة الثلاثة التي كانت تسرع في السير سوية. وكانت «صوفيا» وهي ملتصقة بـ نيقولا، تسترخي على وقع حوافر الأحصنة، فرقعة نوابض العربة، رنين الأجراس، وعلامات المسافات المنصوبة بجانب الطريق وهي تختفي بشكل رتيب وعلى التوالي. وكانت الريح الرطبة الناجمة عن سرعة العربة تلفح وجهها، مندفعة تحت الغطاء الجلدي. وكانت وهي ترتعش وقد ضمت كتفيها، تفكر بأنتيب، ذلك المسكين البائس الذي كان يقوم بهذه الرحلة، ممسكاً بالأمتعة، وراء الصندوق وبين نوابض العربة، الكبيرة. كان قد التفّ بجلد خروف، وبدا كرزمة بين رزم الأمتعة الأخرى، معرّضاً للصدمات وللأحوال الجوية السيئة. ومع ذلك فإنه لم يتذمر أو يشكو من هذا الوضع غير المريح. وعند كل توقف، كان ينزل من مخبئه وعلى وجهه تكشيرة ضاحكة.

وطوال يومين مضيا في هذه الرحلة الطويلة، لم تتغير المناظر الطبيعية أبداً. وكانت الأحصنة تسير خبباً وبسرعة دون أن يبدو عليها التعب، عبر سهل رمادي منبسط، تتخلّله بعض البرك والمستنقعات الصغيرة. وعلى صوت الأجراس. كانت تنطلق مجموعات من الغربان السود وهي تنعق. وأحياناً كانت تبدو في الأفق، فجأة، مجموعة من أشجار السندر العارية

والتي تهزها الرياح الباردة، أو ستار من أشجار الصنوبر الداكنة. ثم تبرز، من عمق الصحراء، بعد أن يعتقد المرء أنه لم يعد هناك أثر للحياة، وتتقدم قرية صغيرة: أكواخ وبيوت بسيطة حول كنيسة، برج جرسها أخضر، على شكل البصلة. طفلة منذهلة تقف خلف حاجز من قصب. فلاح يضع الحطب على عربة نقل. ومن جديد، الفضاء الساكن يكتنفه البخار، وقد فقد اللون، حيث تشرد النظرات والذهن في آن واحد. كانت المسافة بين محطات الاستراحة، عشرين كيلومتراً على وجه التقريب.وجميع تلك المحطات متشابهة: بواجهاتها وأروقتها ذات الأعمدة. وحتى ذلك الحين لم ينقص شيء على المسافرين. كانت البدائل من الخيول والحوذيين، متوفرة. وكان «نيقولا» يأمل الوصول إلى «بسكوف» خلال ثلاثة أيام، إذا سارت العربة بشكل جيد، ولم تزدد حالة الطقس سوءاً.و لكن المطر ازداد غزارة وعنفاً. والطريق الكثيرة الأخاديد، والملأى بالحصى، تحولت إلى مستنقع من الوحل الأسود، ومن جميع الجهات أخذت تتطاير رشقات الأوساخ. واعترض الطريق مستنقع كبير، انغرزت وعلقت فيه العجلات. فرفع الحوذي ذراعيه نحو السماء في حركة تنم عن العجز. فانحنى «نيقولا» إلى الأمام، أمسك الرجل من ياقته وهزه بغضب وعنف، لدرجة أن «صوفيا» تأثرت من ذلك، وتبادر إلى ذهنها أن أي خادم فرنسي لا يمكن أن يعامل بهذه الطريقة، وقالت لـ نيقولا:

- دعه، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال ذلك!

فقال «نيقولا» وهو ينهال باللكمات على ظهر الحوذي:

- بلى! كان عليه أن يشق طريقه عبر الحقل، فيا له من أبله مغفل!

ولم يكد الحوذي يحتج أو يعترض وهو يتأرجح على مقعده، مردداً:

- أوه! يا سيدي، يا صاحب السعادة!...

هذا كل ما استطاعت «صوفيا» أن تفهمه. وأخيراً قفز الحوذي، متثاقلاً على الأرض، ولحق به «أنتيب» وأخذا يتخبطان في الوحل حول العربة، حتى غاصت سيقانهما فيه. وكان «نيقولا» يزودهما بالنصائح، بأعلى صوته. فهل لأنه كان في حالة من الغضب الشديد أم لأنه أخذ يتكلم باللغة الروسية، بدت «صوفيا» وكأنها لم تعد تعرفه؟! فهو لم يكد يعود إلى بلاده، حتى عاوده بشكل طبيعي هذا الاحتقار للإنسان، الذي يتصف به، بشكل خاص، جميع أبناء وطنه. فلا شك أنه كان من الصعب جداً عدم التصرف كسيد، بين هذا الكم الكبير من العبيد الأرقاء الذين نشؤوا وتربوا في ظل القمع والخوف. ونزل، هو أيضاً بدوره من العربة، وأخذ يشد الأحصنة بينما كان «أنتيب» والحوذي يدفعان العجلات. فاهتزت العربة وتزحزحت وصعدت على كتلة من الأرض الصلبة.

وانطلقت العربة وهي تسير بمحاذاة الطريق، وأخذ الحوذي يرد بضربات سوطه لأحصنته، على اللكمات التي تلقاها من «نيقولا». وبعد ذلك بعشر دقائق، انكسرت إحدى عوارض العربة ومال صندوقها إلى اليمين، فنزلت منها «صوفيا» وغاصت قدماها في حفرة موحلة. كان المطر قد توقف، وأخذت رياح شديدة البرودة تهب بقوة فوق ذلك السهل.

وبمساعدة «أنتيب» استطاع الحوذي انتزاع العارضة المكسورة التي تستند عليها النوابض واستبدالها بلوحة خشبية عادية، كان يحتفظ بها على سبيل الاحتياط، وقال: إنه تدبير مؤقت إلى أن نصل إلى محطة الاستراحة!

وكان قد خيم الظلام عندما وصلوا إلى مركز البريد. حيث كانت باحته يسودها اضطراب وازدحام شديدان. وكان عمال الإسطبل يهيئون عربتين، بينما أخذ بعض رجال الدرك يراقبون العمل. وقد وقف أحدهم ممتشقاً حسامه، كالخفير، ولمحت «صوفيا» وراءه نحو اثني عشر رجلاً،

مصطفين بجانب الجدار. كانوا شاحبي الوجوه، لحاهم طويلة، نظراتهم شاردة، منهكين، ملابسهم أسمال بالية. وبدا عليهم أنهم يجهلون كل شيء عما تبقى من الكون. وبين أرجلهم بدت كرات حديدية كبيرة، ترتبط بكواحلهم بسلاسل ضخمة.

فسألت «صوفيا»:

- من هم هؤلاء الناس؟

فأجابها «نيقولا»:

- هؤلاء محكومون بالأشغال الشاقة، وهم ينقلون، على مراحل، إلى سيبيريا.

فبدرت من «صوفيا» حركة تنم عن الشفقة، ولكنها عادت وسألت:

وماذا فعلوا؟

فقال «نيقولا» وهو يهز كتفيه:

- كيف أستطيع معرفة ذلك؟

- ماذا لو سألت عنه رجال الدرك؟

- إنهم لن يجيبوني على سؤالي. ولا شك في أنّ هؤلاء المساجين هم من القتلة واللصوص أو من العبيد الذين تمرّدوا على سلطة سيدهم...

- وهل التمرد يُعد جريمة كبيرة، بالنسبة للعبد الرّق؟

فقال لها «نيقولا»:

- بالطبع، يا صوفيا!

وخرجت مجموعة من المسافرين من مكتب البريد: رجال ونساء جميعهم يرتدون الملابس التي تدفئ أجسامهم، وأخذوا يتحدثون بحماسة ومرح: فقد تناولوا الطعام قبل أن يستأنفوا السفر. وعند مرورهم أمام السجناء، تصدّقوا عليهم: وكانت قطع النقود تسقط في أيد متقلّصة بسبب البرد،

سوداء من الوسخ، وكان هؤلاء البؤساء يرسمون إشارة الصليب على صدورهم، يتمتمون بعبارات الشكر، وهو ينحنون كثيراً.

وغمغمت «صوفيا»:

- إن هذا فظيع!

وكان رجال الدرك يتأملون المشهد دون أن يتدخلوا.

وقال «نيقولا» لزوجته إنّ هذا النوع من التسوّل شائع في روسيا، وأضاف: إنّ هؤلاء التعساء الذين يرسلون إلى السجن مع الأشغال الشاقة، أياً كانت خطاياهم، فإنّ لهم الحق بتلقي الحسنات من جميع المحسنين.

فاقتربت «صوفيا» من السجناء. وفتّش «نيقولا» جيوبه وأخرج منها حفنة من قطع العملة الروسية الصغيرة (الكوبيك). وفي الحال تناولت منه النقود، ودون أن تفكّر في الموضوع، وضعت كل المبلغ في اليد الأولى التي امتدت نحوها. فالتقت نظرتها بوجه وسخ، مغطى بالشعر، مجروح المنخرين ودامي الجفنين. ونظر إليها الرجل بمذلة تشبه مذلة الكلب.

وفجأة، سجد أمامها، عبر خشخشة السلاسل، المخيفة، وقبّل ذيل ثوبها. فتراجعت قليلاً. ما هي جريمة هذا الرجل؟ وكم سنة سيمضي في سيبيريا؟ كانت ترى ذلك الظهر المكوّر، وتسمع ذلك الصوت المبحوح وهو يرتل عبارات الشكر باللغة الروسية، وقد اجتاحت قلبها موجة امتزج فيها الخجل مع الشفقة والاشمئزاز. واقتادها «نيقولا» نحو مكتب البريد. وعندما أصبحت في القاعة العامة، لم تكد تمضي بعض الوقت قرب المدفأة، حتى ذهبت ووقفت أمام النافذة.

كان المحكومون يحمّلون كيفما اتفق وبلا نظام في عربة مسطّحة متعدّدة الأقسام، كل قسم وضع فيه ستة منهم: كالماشية التي تنقل إلى البازار لتباع هناك. وتعالى صرير النوابض، وانطلقت القافلة، يتقدمها دركي على صهوة حصانه، ورجال الدرك الآخرون في عربتين سارتا خلف

عربة المساجين وعندما خلت الباحة من الناس، التفتت «صوفيا» نحو «نيقولا» الذي كان يقف وراءها، وقد تجهّم وجهه وأخذ يلوّح بذراعيه:

إني شديد الأسف! فلكم كنت أودّ أن أجنبّك رؤية هذا المشهد!...

فقالت وهي تبتسم، على الرغم من انزعاجها:

- يجب أن أعتاد! ولا أريد الاستسلام لانطباعي الأول والاعتماد عليه.

هذه هي المشكلة بالذات! فأنت الآن تقيّمينا وتحكمي علينا من الخارج واعتماداً على المظاهر. وكل ما هو غير متفق مع تربيتك يحدث لديك صدمة ويغيظك. ولكن عندما تعاشريننا وتختلطين بنا بشكل حقيقي، ستدركين أنّ حياتنا، بجوانبها الحسنة والسيئة، تمثل كلاً مقبولاً جداً. وليس الناس هنا أقل سعادة من الناس في فرنسا، ولكنّ سعادتهم هنا تتحقق بطريقة مختلفة...

ولأنّ العربة لا يمكن أن تستأنف السير قبل أن يتم إصلاحها بشكل جدّي، فقد قرّرا تمضية تلك الليلة في محطة الاستراحة. كان الماء يغلي بشكل دائم في «السماور» الذي وضع على منضدة كبيرة تتوسط القاعة. وبالقرب من المدفأة كان اثنان من المسافرين، نائمين على ديوان مغطى بالجلد، وقد تعالى شخيرهما. وفي الجانب المخصص لتقديم المأكولات للمسافرين، جلست فتاة شقراء وبدينة، وهي تتثاءب، وحولها كميات كبيرة من النقانق وعدة معلبات تحوي بعض أنواع السمك. وبعد أن شمّ «نيقولا» بحذر وريبة رائحة هذه المأكولات، أرسل «أنتيب» ليجلب ما تبقى من الفروج البارد، الذي كان في حقيبة «الزوّادة». وكان لدى مدير المحطة غرفة فيها سريران، يحتفظ بها للضيوف المتميزين. وكما يبدو فإنّ الناس في روسيا يجهلون استخدام الأسرّة العريضة التي يستطيع الزوجان أن يناما سويّة عليها. وأسفت صوفيا لذلك، ولكنها امتنعت عن التصريح به. لأنّ «نيقولا»، حتى في هذا الوضع، كان يثبت لها أنه مغرم جداً بها.

وقبل إطفاء الشمعة، فتشا معاً طيات الفراشين بحثاً عن البق! وهذا أمر غير منتظر. وقد ساعد التعب على جعلهما ينامان بسرعة وهما يشعران بالراحة والرفاهية.

وفي الصباح الباكر فقط، جعلتهما الحكة يقفزان من سريريهما. كان النور الباهت يتسرب من النافذة. فألقت «صوفيا» نظرة إلى الخارج، وبدت عليها الدهشة: كل شيء كان أبيض، وندائف الثلج تتطاير في الجو الهادئ. وشعرت المرأة الشابة بفرحة غامرة، كما لو أنّ أحداً ما قدّم لها، أثناء نومها، هذه الهدية. فتوجهت أولاً بشكرها وبالتعبير عن امتنانها، إلى «نيقولا». وبين قبلتين، سألته فيما إذا كان يعتقد أنهما يستطيعان متابعة السفر في ذلك اليوم على الرغم من رداءة الطقس. فأفهمها أنّ الثلج لا يخيف أحداً، في روسيا.

ارتديا ملابسهما على عجل ونزلا إلى القاعة العامة لاحتساء الشاي الساخن وأكل قطع الخبز الأسمر مع مربى الفاكهة. كان «أنتيب» قد نام في العربة لكي يحرس الأمتعة، وذلك لم يمنعه من أن يكون نشيطاً، جاهزاً للعمل وللسفر. وبالمقابل، كان مدير محطة الاستراحة في غاية الضيق والانزعاج لأنه بصورة متوالية، كان عليه أن يقدّم، منذ الفجر، أربعة أحصنة لأحد الجنرالات، وثلاثة لأحد العمداء، وثلاثة أخرى إلى نقيب الأشراف في مدينة «بسكوف». ولم يبق لديه في الإسطبل سوى حصانين، أحدهما مجروح في ركبته. وكان في الرواق أحد ناقلي البريد، وقد أخذ يكيل الشتائم بأعلى صوته وهو يلوّح بالترخيص الرسمي الذي يعطيه الأولوية للحصول على عربة «ترويكا».

فغمغم «نيقولا» متذمراً:

- يبدو أننا لن نستطيع السفر الآن!

وأخذ يشرح لـ صوفيا أنّ الموظفين المدنيين والعسكريين، الذين يحملون أمر مهمة أو إذن سفر، لهم الحق بالحصول على عدد من الأحصنة يتناسب مع رتبتهم أو مع المرتبة التي يشغلونها في دوائر الدولة.

أمّا هو - على سبيل المثال - فباعتباره أحد ضباط الجيش، برتبة ملازم، قد استقال من الجيش ويريد العودة إلى بيته وذويه، فإنه لا يستطيع أن يحصل إلاّ على عربة متواضعة. ولذلك كان عليه أن يدفع السعر الأعلى كي يحصل على عربة «ترويكا» وأخرى للأمتعة، بالطريقة التي يحصل بها على ذلك، موظف من الدرجة الثامنة كمدير إحدى المدارس أو معاونه. وتصنيف الأفراد إلى أنواع محدّدة، حسب الخدمات التي يؤدّونها للدولة، بدا صبيانياً في نظر «صوفيا»، ولكنها لم تجرؤ أن تصرح بذلك لـ «نيقولا» لأنها لاحظت بوضوح أنه ينظر إلى الأمر بمنتهى الجدية. فلا شك أن هنالك ميزة عجيبة للقب، للرتبة العسكرية، لأمر المهمة، للعين القوية التي تعبر عن التهديد والوعيد، وللصراخ القوي، لأن مدير محطة الاستراحة قبل أن تمضي عشر دقائق على الإهانة التي وجهها له ناقل البريد، كان ينحني أمامه، ويبلغه أن إحدى عربات «الترويكا» جاهزة، وهي تنتظره في الباحة. وبعد أن انطلق هذا الشخص المهم بسرعة عبر الثلج المتراكم يرافقه رنين أجراس العربة. قام «نيقولا» بتهديد مدير المحطة بأنه سيملأ صفحة بكاملها في سجل الشكاوى، إذا لم يقدم له، على الفور، ما يطلبه من وسائط النقل. فبدا الرجل يائساً وتظاهر بأنه لا يقوى على عمل أي شيء، مسح دمعة سالت على خده، رسم إشارة الصليب على صدره، ثم أرسل خادماً إلى إحدى القرى القريبة كي يحاول الحصول على حصانين أو ثلاثة.

وقالت «صوفيا»:

- وماذا سنفعل من أجل «أنتيب»، انه لا يستطيع متابعة الرحلة، مكشوفاً، خارج العربة في هذا الطقس السيء!

فقال «نيقولا»:

- بلى، إنه سيتغطى جيداً.

و «أنتيب» الذي أدرك أنهما يتحدثان عنه، أخذ يحملق بهما وهو يقلب طاقيته بين يديه. وترجم له «نيقولا» ما قالته صوفيا عن مخاوفها بشأنه. عند ذلك فتح «أنتيب» فمه الذي بانت فيه أسنانه الصفراء التي تتخللها ثغرة في الوسط، وقهقه ضاحكاً:

- كيف أشعر بالبرد، وأنا أفكر أني أصبحت قريباً من البيت؟!

فسأله «نيقولا»:

- أمسرور أنت بالعودة إلى البيت؟

- أوه! نعم يا سيدي! فرنسا؟ وما هي فرنسا؟ إنها بلاد أجنبية وغريبة. الناس فيها يتكلمون ويعيشون على المقلوب. وفي روسيا وحسب، إنما يشعر المرء أنه يعيش على أرض مسيحية. حتى السيدة النبيلة، مع أنها فرنسية، يبدو أنها تجد كل شيء جميلاً في بلادنا!

فقال «نيقولا»:

- نعم، وإني لآمل أنها لن تصاب بخيبة الأمل.

- ولماذا يحدث لها ذلك؟ فلن يمسها أحد بسوء. فأنت قد أحسنت اختيارها، يا صاحب السعادة! فهي طيبة، جميلة، وجهها نير كالقمر! وعندما تتكلم، فكلامها جدول تسيل مياهه! وأنا وإن كنت لا أفهم من كلامها شيئاً، فهو يروي عطشي! ووالدك المحترم سيسعد برؤيتها! وكذلك أختك المحبوبة، فهي ستسعد أكثر أيضاً! وأنا متأكد أن كلاً منهما ينتظر هناك وصولكما بفارغ الصبر، ولا بدّ أنهما قد حضرا الحلويات!

وفكر لحظة، ثم أضاف:

- ربما كان علي أن أتزوج، أنا أيضاً، عند عودتي إلى القرية! فالفتيات لسن قليلات العدد هناك!

وغمز بعينه:

- إيه نعم! سأفعل ذلك! سأتزوج إذا سمح بذلك والدنا المحبوب «ميشيل بوريسوفيتش» ...

وأثارت هذه الكلمات الأخيرة انتباه «نيقولا» وذكرته بسلطة سيد «كشتنوفكا» المخيفة، التي كاد ينساها منذ بضعة أيام. وكانت لحظة الاختبار تقترب بسرعة مذهلة. والعائق يتضخم على مدى الرؤية. وعما قريب سيصطدم به أنف: «نيقولا» فبدا عليه الانزعاج، وصرف «أنتيب» بإشارة من يده:

- أنت تثرثر! تثرثر كثيراً! اذهب وانظر إذا كانوا قد أحضروا الأحصنة!

فتساءلت «صوفيا»:

- وماذا قال؟

- لم يقل شيئاً مهماً... إنه يستعجل الوصول!

فابتسمت:

- وأنا، مثله أيضاً! فكر أن حياتنا لن تبدأ إلا بعد أن تنتهي هذه الرحلة. حدثني بالمزيد عن والدك، وعن أختك...

كان «نيقولا» يخشى أكثر من أي شيء هذا النوع من الأحاديث. وبقدر ما كانت «صوفيا» تبدو محبة ومتعاطفة من خلال أسئلتها، بقدر ما كان يزداد حدة شعوره بتبكيت الضمير. وعلى أي حال، كان يفضل أن يراها لا مبالية، ولا تهتم بهما كثيراً. وأنقذه «أنتيب» من ارتباكه، و قد عاد، منفرج الأسارير:

- لقد وصلت الأحصنة، يا سيدي!

كان الحوذي، هذه المرة، شاباً في الخامسة عشر من العمر. فتأثرت «صوفيا» لدى رؤيته، ولكن «نيقولا» أكد لها أن الفتيان في روسيا، ماهرون كالرجال. وبالفعل، فإن الفتى، منذ الانطلاق قاد العربة بمهارة وبسرعة جهنمية. ولحسن الحظ، كان الثلج الذي تساقط من جديد، يبدي بعض المقاومة لحركة العجلات. وهذه الأحصنة لو أنها شدت إلى إحدى الزحافات لألقت ما تحمله عند أول منعطف. كانت البراري تبدو بيضاء، مغشاة بالدقيق، على مدى النظر. وعبر ذلك البياض، كان يتأرجح ويهتز فوق أعناق الأحصنة الثلاثة، شعرها الطويل. وكانت أجراسها الصغيرة ترسل رنينها عبر الصمت الشامل الذي يلف الكون. وكانت نُدَف الثلج الخفيفة تتطاير في الفضاء وتقع لتتحول إلى نقاط باردة على شفتي «صوفيا». ثم أخذت النقاط البيض تتزاحم، تتكاثف، ترتجف ثم تثبت بشدة على وجه المسافرين. وهبت رياح قوية، أسفّت الأرض، وأثارت فوق المرتفعات والمنحدرات ستاراً يشبه الدخان. وفي لمح البصر سويت الحفر وكنس الطريق، وامّحت معالمه، واختفت الأشجار عبر الضباب الكثيف. ولم يعد أحد يستطيع تمييز أي شيء أمامه على بعد أربع خطوات. فقلقت «صوفيا» وألقت نظرة على «نيقولا» الذي كان يضحك، وقد تبلل وجهه الذي غطاه الثلج، وبدا بحاجبي رجل عجوز، وخدي طفل صغير، وصاح:

- هذا لا شيء! إنها ريح صرصر!

فتذكرت الاثني عشر سجيناً، الذين سافروا والقيود الحديدية في أرجلهم، في عربات مكشوفة. وانقبض قلبها، بشعور من الشفقة التي تشبه الحسرة الشديدة. و «أنتيب» ألم يمت من البرد، وهو متشبث بالأمتعة، بين نوابض العربة؟ ألن يفقدوه وهم في طريقهم إلى القرية؟ وظلت هذه المخاوف تساورها حتى محطة الاستراحة التالية. وبارتياح لمحت بناء محطة الاستراحة

وقد بدا، عبر العاصفة الثلجية، إلى جانب الطريق بواجهته المطلية بالكلس وأعمدته الرخامية. وتوقفت الخيول في الباحة وهي تلهث. وقبل أن تلقي «صوفيا» جانباً الأغطية التي كانت تقيها البرد أسرع نحوها شبح قطبي لكي يساعدها على النزول من العربة:

إنه «أنتيب»، سليم معافى، ولكنه مزرقّ الخدّين، والثلج تجمّد على منخريه، وقد أمسك طاقيته بيده.

٣

ولأنّ المسافريْن وصلا إلى «بيسكوف» في ساعة متأخّرة من مساء ذلك اليوم، فقد أمضيا تلك الليلة في محطة الاستراحة، التي كانت كبيرة، نظيفة، وتقدّم حتى ملابس النوم وبعض الملابس الداخلية للنزلاء الذين يقضون ليلتهم فيها. وفي صباح اليوم التالي، شرح «نيقولا» لـ «صوفيا» وهو بادي الارتباك كيف أنه يفضّل الذهاب بمفرده إلى «كشتنوفكا» لاستطلاع الأجواء وتهيئتها، وقال لها إنّ والده لا يحبّ الزيارات المفاجئة. ومن الأفضل إخباره بأن كنته قادمة عما قريب لمقابلته. فوافقت «صوفيا» على هذا الترتيب الذي يتيح لها وقتاً كافياً ترتاح فيه وتستعد جيداً لتلك المقابلة المهمة. ولأنّ تلك الملكية العائلية لم تكن تبعد عن المدينة سوى خمسة كيلومترات، فقد قرّر «نيقولا» أنه يستطيع أن يعود ليصطحب زوجته إلى هناك، عند الظهر. وهمس في أذنها بحنان وهو يعانقها عند عتبة باب غرفتهما:

- إلى اللقاء القريب، تزيّني جيداً، لكي تبدي جميلة!

وكان يبتسم لها بحب وثقة، ولكنّ قلقه كان من الشدة، وكأنه يفارقها وهو ذاهب لمبارزة خصم عنيد لا يقهر. وبسبب تشوش واصطخاب أفكاره، لم يكن يستطيع حتى العثور على العبارات التي عليه أن يقولها لوالده، وتبادر إلى ذهنه، أنّ توضيح الأمور، سيبدو عبر المناقشة، في معزل عن إرادة كل منهما. وهو يأمل أن يحقق الفوز لأنّ الله لا يمكن أن يسمح أن تأتي «صوفيا» من فرنسا لكي تتعرض لمذلة الرفض.

وقد رأته، وهي تقف بقرب النافذة، وهو يرسم إشارة الصليب على صدره قبل أن يصعد إلى العربة، فسرّها هذا النزوع الطبيعي لدى الروس إلى إدخال شيء من الجانب الديني في كل شيء. وأنتيب، الذي لم يكن عليه أن يرافق سيده، صباح اليوم، جلس، محني الظهر، تحت سقيفة المدخل، حتى اللحظة التي انطلقت بها العربة. عند ذلك انتصب، التفت نحو النافذة، لمح سيدته، وقهقه ضاحكاً. ولم تستطع «صوفيا» الامتناع عن الضحك، هي أيضاً. فهي تعطف على هذا الإنسان الصبور والمرح ذي الشعر المشعّث والبشرة الملوّحة، الذي يألف الشمس وحرارتها ويرتاح إليها تماماً كما يألف الثلج ويرتاح فيه، لا يعرف أحد أين ينام ولا بماذا يتغذّى، يسرق قليلاً ويصلّي كثيراً، لا يستحم أبداً، ويتمتع بالعيش ببهجة وسرور. وكانت تقول في سرها: «إنه عبد رقّ، كيف يمكن أن يبدو راضياً، بل وسعيداً بقدره ومصيره؟ هل هذا سببه عدم الوعي وعدم الإدراك، أم التعقّل والحكمة، أم الكسل والخنوع؟!»

رفع «أنتيب» إصبعيه فوق فمه المفتوح، إشارة خيالية بأنه يبتلع سمكة، فرك بطنه بباطن يده، واتجّه نحو المطبخ وهو يتمايل ويترنّح بشكل مضحك.

وظلت الباحة خالية لبعض الوقت، ثم وصلت مجموعة من الفلاحين (الموجيك) وهم يحملون المكانس والرفوش، وأخذوا يجرفون الثلج ويلقونه إلى جانب الجدران. وأخذت مختلف أنواع العربات تسند كل منها العريش الذي يجرها، على أكوام الثلج البيضاء. ومن الإسطبلات كان ينتشر دخان كثيف. وكانت كتل روث الأحصنة تلمع كالكتل الذهبية.

ظلت «صوفيا»، خلال فترة طويلة تنظر إلى الرجال والخيل وهم يروحون ويجيئون أمام أعمدة الواجهة. وقد أخذ سرورها بهذا التغيير الذي حصل على حياتها يزداد، يوماً بعد يوم، وأخذت فرنسا تبدو لها صغيرة جداً، وبعيدة جداً!... وخرجت إلى الممرّ وصفّقت بيديها. كان «نيقولا» قد

أعطى تعليماته بجلب الماء الساخن لزوجته، حالما تطلبه. فبدت خادمتان في آخر الممر تحملان سطلين وآنية خشبية كبيرة. كانتا شابتين مورّدتين، يغطي شعرهما منديلان من النسيج القطني المطبّع، ويستر جسميهما فستانان سميكان بحمّالات، يبدو من خلال ياقة كل منهما قميص مطرّز بقطبات كبيرة وعلى الرغم من شدّة البرد كانت إحداهما حافية القدمين، بينما كانت الثانية تنتعل جزمة سوداء ضخمة ومتغضّنه، كانت، دون شك، بالأصل تخّص أحد الرجال. وسكبتا الماء في الآنية الخشبية الكبيرة، وسألتا «صوفيا» بالإشارات فيما إذا كانت تريد منهما أن تساعداها على الاغتسال. فهزّت رأسها بالنفي، وتركت الفتاتين تشمّان بنشوة واضحة قطعة الصابون المعطّر، ويتأملان بإعجاب ملابسها الداخلية، ثم طلبت منهما أن يخرجا، وأغلقت الباب بالمزلاج. وشغلتها العناية بجسمها أكثر من ساعة. وبعد أن اغتسلت وتعطّرت، استلقت باسترخاء على السرير وأخذت تحلم. وفي إحدى زوايا الغرفة، كان لهب قنديل صغير يشتعل تحت أيقونة مذهبة سوداء، وفرقعة خفيفة كانت تصدر من المدفأة التي تشتعل فيها النار لتدفئة الغرفة. وكانت طبقة من الجليد المخرّم تلوّن زجاج النافذة بألوان قوس قزح، وأصوات روسية تتجاوب في الممرّ. وعلى الرغم من شعور «صوفيا» بالغربة، فإنها لم تعد تخشى أن تخيب أمل ذوي «نيقولا» ولا تخشى أن تصاب، هي، بخيبة الأمل حيالهم. بل وكانت تشعر، وهي ستقابل جميع أقارب «نيقولا»، بعد بضع ساعات، بالثقة المستحبّة التي تشعر بها فتاة أنيقة اعتادت على إرضاء الجميع وعلى نيل إعجابهم:

وعلى الأريكة كانت موضوعة الملابس التي اختارتها، وتركتها تنتظر هناك: فستان من المخمل الناري، تزيّنه عقد من الساتان، ياقته متدلية ومطوية، وزنّار بإبزيم، وعندما تخرج، ستضع على رأسها قبعتها الجميلة ذات الريشات السوداء، وترتدي معطفاً فضفاضاً، ياقته من فرو السنجاب.

كانت تشعر بلهفة لرؤية نفسها في هذه الزينة والملابس الزاهية، ولذلك نهضت وأخذت ترتدي ثيابها أمام المرآة القديمة والبيضوية الشكل، التي كانت مثبّتة فوق خزانة صغيرة. وبعد أن انتهت، نادت الخادمتين لكي تأخذا الأواني التي جلبتا فيها الماء الساخن. وضمّت الفتاتان يديهما وصاحتا إعجاباً بأناقة السيدة النبيلة. فكافأتهما «صوفيا» بإكرامية سخية. ولأنها لم يعد لديها ما تعمله، فقد أخذت تحاول أن تتصور «نيقولا» وهو يصل إلى منزل أهله.

الثلج الذي تساقط بشكل مبكّر، أخذ يتراكم على المرتفعات، ولكنه كان يذوب مشكلاً أنهاراً موحلة في المنخفضات وعلى الطرقات. ومع كل دورة عجلة، تتناثر حزم من الوحل الرمادي على صدور الأحصنة اللاهثة. وكان هنالك صفّان من أشجار الصنوبر العالية يؤديان إلى فجوة يبدو منها الضوء. وكان «نيقولا» وهو ينحني إلى الأمام، يرى بتأثر بالغ منزل طفولته وهو يأتي نحوه، كبيراً، مربع الشكل، هادئاً، بجدرانه المطلية بملاط وردي اللون، وبسطحه الأخضر الباهت، كلون الملفوف، الذي تجمّدت عليه صفائح بيضاء، وبأعمدته الأربعة التي تمثل واجهة من الطراز اليوناني. كانت أشعة الشمس تنعكس على زجاج النوافذ. وقد امتدت بركة صغيرة من الماء أمام درج المدخل. وتعالى النباح، وركض كلب أسود وراء العربة، أذناه مضطربتان ولسانه حار كالنار. فصاح به «نيقولا»:

- جوتشوك!

فتحوّل النباح المخيف إلى أصوات وهمهمات تنم عن الفرح. و «نيقولا» الذي كان مستغرقاً في التفكير، لاحظ، مع ذلك، أنّ شجرة الصنوبر القديمة لم تعد في مكانها وأنّ سقف غرفة الحمّام، الذي تغطي جزءاً كبيراً منه أشواك العليق، قد تمّ إصلاحه أخيراً. وفيما مضى، كان يأتي ليختبئ مع أخته، في هذا الركن المنعزل، تهرباً من توبيخات وعقوبات السيد «لوسور» أو المربية (النيانا) «فاسليسّا». واليوم فهو يرفض التأثر بهذه الذكريات. ولكي

يكون قوياً عليه أن ينسى أنه كان صغيراً في هذه الأماكن. لأنّ عليه أن يواجه والده وهو رجل ناضج وحازم، وليس مراهقاً متردداً وخائفاً.

وبدا بعض الفلاحين العبيد (الموجيك) وهم يحملون حزم الحطب. ولأنّ سيدهم الشاب لم يكن قد أعلن عن قدومه، فقد حيّوه دون اهتمام، لأنهم ترددوا في تبيّنه ومعرفته. أمّا هو، من جهته، فكان يتأمل بشيء من الخشية أعمدة المدخل. كان توتّره النفسي شديداً، لدرجة أنه عندما وطأت قدماه الأرض، شعر بأنه خرج من نطاق الحقيقة والواقع.

وكان الخدم قد أخذوا يتراكضون نحوه وقد بدا عليهم الذهول والفرح، وهم يأتون من كل الجهات:

- آه! يا إلهي! إنه هو! هو بالذات!

وبدت المربية العجوز «فاسليسّا» في وسط المجموعة، كان وجهها ذابلاً مترهلاً، تبدو استدارته كتفاحات وضعت الواحدة فوق الأخرى: اثنتان على الخدّين، واحدة على الجبين، وواحدة على الذقن. وانقضّت على «نيقولا» وهي ترسل أصواتاً كأنها حشرجة تخرج من جوفها، وضمته إلى صدرها وربّتت على ظهره، ثم قبّلت يديه، وظلّت تتمتم:

يا صقري الصغير! يا شمسي الحمراء التي عادت إلى الأرض! ولتبارك العذراء الكلية القداسة، على إتاحتها لي هذه اللحظة التي أشاهدك فيها!

فتخلّص «نيقولا» بجفاء من «فاسيليسّا» منزعجاً من مبالغتها بتدليله والتملّق إليه، صعد على درج المدخل واتجه نحو الرواق، حيث سمع صيحة ضعيفة، وتلقّى أخته ماري بين ذراعيه وضمها إلى صدره، بينما كانت هي تصيح:

- نيقولا؟! أممكن هذا؟! لماذا لم تخبرنا مسبقاً بأنك قادم؟ أوه! لكم أنا سعيدة! إنك لن تغادرنا ثانية، على الأقل؟!

فقال لها وهو يقبلها برقة وحنان:

- كلاّ!

وفجأة تراجعت خطوة، وقد بدت عليها الدهشة:

- ولكنك لا ترتدي بزتك العسكرية؟!

- لقد استقلت من الجيش.

- أهذا يعني أنك هجرته نهائيا؟

- نعم.

- هذا أمر خطير جداً!

- أبداً! ليس هنالك أي خطورة.

- ولماذا فعلت ذلك.

- سأشرح لك هذا الموضوع فيما بعد! كيف حال والدنا؟

- فانكمشت أسارير وجه «ماري» الصغير وانخفضت زاويتي شفتيها. وكان على وجنتيها بقع من النمش. وقالت:

- آه! ألا تدري؟ لقد كان مريضاً جداً، حتى أننا اعتقدنا بأنه سيفارق الحياة..

فتشتّت ذهن «نيقولا» موزّعاً بين الذهول والخجل ونوع من الرعب الصوفي، ووجّه نحو أخته نظرة تنم عن الخوف وتمتم:

- يفارق الحياة؟... كيف يحدث ذلك، يموت؟... ماذا أصابه؟...

- نزلة صدرية!...آه، لو أنك رأيته!...فعند كل نوبة سعال، كنت أظن أنه سيسلم الروح... كان يكاد يختنق، وأخذ يهذي... وفصده الطبيب عدة مرات، وبقوة... فانخفضت درجة حرارته... وقد كتبت لك في الحال: ولا بد من أنك لم تتلقّ رسالتي...

- كلاّ، ولكن، قولي لي، الآن؟...

- لقد شفي، ولكنه يعاني من ضعف شديد، وعليه أن يداري نفسه وأن يتخذ كثيراً من الاحتياطات. لأنّ كل شيء يتعبه، وكل شيء يثير عصبيته وغضبه...

- ومتى أصابه هذا المرض؟

- منذ ستة أسابيع، تقريباً.

فارتعش «نيقولا»: لأنه أدرك أنّ هنالك تزامناً وصلة قوية ومباشرة بين عصيانه لإرادة والده، وبين إصابة والده بالمرض. وإنّ هذا المرض كان نتيجة لذلك العصيان، ولأنه اقتنع بمسؤوليته عما حدث، بصرف النظر عن أي تفسير إنساني أو علمي، فلم يعد يجرؤ على النظر مواجهة إلى أخته، وسألها:

- هل حدّثك عني، في الفترة الأخيرة؟

- بالتأكيد، وليس من وقت طويل، صباح البارحة فقط، كان يبدي قلقه لأنه لم يتلق أيّ خبر عنك منذ زمن طويل! وكان ينوي أن يكتب إلى الأمير «فولكونسكي» مباشرة...

- آمل، ألاّ يكون قد فعل ذلك؟

- كلاّ، لقد أقنعته بعدم الكتابة، وقلت له بأنك إذا كنت لا ترسل الرسائل، أو أي خبر عنك فذلك لأنك تستعد للحضور إلى هنا، في إجازة تحصل عليها... ألم تكن تعتقد بأني أتمتع بموهبة التنبؤ؟ إيه، فما هو رأيك الآن؟

وأخذت تضحك وهي تهزّ رأسها، وغدائرها الشقراء تتراقص حوله. وعبر البهجة، بدا وجه فتاة السادسة عشرة من العمر، النضر، ذات العينين الزرقاوين والشفتين السميكتين، يحمل تعابير وجه امرأة. فأخذ نيقولا يفكر: «لكم تغيّرت خلال بضعة أشهر! فقد تكوّنت وبرزت قامتها، وأشرق لون بشرتها، وحركاتها أصبحت أكثر رقة وظرفاً...»

وقالت:

- على أي حال، إنّ إعجابي بك وأنت بملابسك المدنية لا يقل عن إعجابي بك عندما كنت ترتدي البزّة العسكرية! وستصاب

جميع الآنسات، في المناطق المجاورة، بالاضطراب والتأثر عندما سيرونك!

فهز كتفيه، بحركة تنم عن اللامبالاة.

فصاحت:

- بلى! بلى! فأنا أعرف اثنتين على الأقل، منهن، سيخفق لك قلباهما. أتريد أن أقول لك من هما؟

فتمتم:

- كلاّ، أرجوك ألاّ تقولي شيئاً!

كان يتألّم من هذه المشاكسات الظريفة التي توجه له باعتباره شاباً يافعاً، بينما هو لم يعد كذلك، حتى أنّ ماضيه يبدو له غريباً، وغير معقول.

وقالت «ماري»:

- الحق معك، إنّ هؤلاء الفتيات لا يتمتّعن بما يكفي من الجمال، بالنسبة لك! تعال بسرعة! والدنا في مكتبه. وستكون فرحته كبيرة. عندما يراك، وقد عدت إلى البيت!

وأمسكت بيد «نيقولا»، ولكنه بدلاً من أن يتبعها، تردّد وتثاقل ثم وقف في الرواق. كان فوق الباب رأس ذئب، وقد قلب شفتيه وكشّر عن أنيابه. وإلى اليسار وإلى اليمين، علّقت على الجدار المطلي باللون الأصفر، عدة بنادق، بعض الخناجر والسكاكين الكبيرة والأسواط. ورائحة البيت، الشتوية لم تتغير: دخان الحطب، شمع العسل، واللحم المحفوظ بالملح والزيت. فاستنشق «نيقولا» بعمق هذا الهواء الذي غذّى طفولته، فتراخت وضعفت إرادته، وتمتم:

- ماري، أنا لم أرجع لوحدي.

فسألته بلهجة تنم عن الفضول الذي يتّسم بالسرور:

- هل أتى معك أحد أصدقائك؟

كلا، لقد أتت معي امرأة، هي زوجتي. لقد تزوّجت في فرنسا.

ففغرت «ماري» فمها، جحظت مقلتاها وأطبقت أصابعها على مسند أحد الكراسي، وقد شحب وجهها من الدهشة والحزن، وأخذت ذقنها ترتجف. وأخيراً، سألته وهي تتلعثم:

- وهل والدنا مطّلع على ذلك؟

فأجابها «نيقولا»:

- كلا، لقد كتبت له طالباً مباركته، فرفض إعطائي إياها، فصرفت النظر عنها وتجاوزتها...

فوضعت الفتاة يديها على صدغيها، وضغطت على رأسها، وكأنها تريد أن تمنعه من الانفجار. واغرورقت عيناها بالدموع. وقالت وهي تئن وتتوجع:

- أوه! يا نيقولا! كيف استطعت أن تفعل ذلك؟ كيف يمكنك أن تعصي والدنا وتتمرّد عليه؟!

فقال لها:

- لم يكن لي الخيار، كنت محبّاً مغرماً. ولم يشأ أن يفهم ذلك وأنا متأكد من أنه لم يشر أبداً إلى مشروعي، أمامك!

- كلا...فأنا، بالنسبة له، لست سوى طفلة... فهولا يروي لي شيئاً... وزوجتك، يا نيقولا، أليست تلك المرأة التي حدثتني عنها في إجازتك الأخيرة، تلك الفرنسية النبيلة والجميلة جداً؟

فقال لها:

- نعم، وعندما تتعرفين عليها ستعجبين بها وتنجذبين إليها.

فمسحت «ماري» جفنيها بظاهر يدها، وتنهدت:

- الأمر سيّان! ما كان عليك أن تفعل ذلك! فليس لك الحق به! والله يراك، يحكمك ويقيّم عملك! وماذا ستعمل الآن؟

- سأقول الحقيقة لأبي.

فصاحت به:

- أمجنون أنت؟ في الحالة التي يعاني منها، إنك لو فعلت ذلك لقتلته!

فأحنى رأسه، وقد استبّدت به الحيرة. فماري مصيبة فيما قالته. وهذا المرض قد عقّد كل الأمور.

وقال همساً، وكأنه يحدّث نفسه:

- لقد قضي عليّ، وأنا، مع ذلك، لا أستطيع الذهاب دون أن أرى أبي! وإذا رأيته، هل أستطيع أن أخفي عنه ما أحمل في قلبي؟ وإذا فارقته دون أن أقول له شيئاً، كيف يمكنني أن أشرح لـ صوفيا بأنّ عليها ألاّ تفكر بالذهاب إلى «كشتوفكا»؟

فسألته «ماري»:

- أين هي الآن؟

- في محطة الاستراحة، في «بسكوف» وهي تنتظرني وتهيّء نفسها. لأنها واثقة بأني سأعود لأصطحبها إلى هنا...

فقالت «ماري»:

- هذا وضع صعب وكريه! وأنا أرثي لك من كل قلبي. ولكن، لا بأس، ليكن... يا له من حظ سيء!

وبدا في عيني الفتاة بريق ينم عن الزهو والكبرياء، واستأنفت الكلام بصوت أجشّ:

- نعم، تعساً لها! تعساً لكما كليكما! لا ينبغي أن تقول شيئاً لأبيك! إنه رجل عجوز ومريض! وأنتما في سنّ الشباب، وقويان! وتستطيعان الذهاب للعيش في مكان آخر. اختلق أي ذريعة، ولكن عليك أن تتحاشى إغاظته، أو أن تسبّب له أي صدمة! دعه يجهل كل شيء عن هذا الموضوع، أتوسّل إليك أن تفعل ما أقوله لك!...

فقال «نيقولا»:

- أكذبة أخرى، أيضاً؟!

فقالت «ماري»:

- هذه، على الأقل، سيغفرها لك الله! بل ربما كفّرت بها عن كل الكذبات الأخرى!

وسمعا وقع خطوات تقترب منهما، فشدّت «ماري» بحركة تشنّجية، على يد أخيها:

- إنه هو! عدني، عدني يا نيقولا!

وفُتح الباب ببطء. وبدا «ميشيل بوريسوّفيتش أوزاريف» مرتدياً مبذلاً (روب دي شامبر) أخضر اللون، مزيّن العرى. وكانت قامته العملاقة مقوسة قليلاً. وبدا وجهه شاحباً، وقد علته التجاعيد بسبب المرض والتقدم في السن، ولكنه ما زال يحتفظ بملامح بارزة تنّم عن القسوة، في إطار من عارضين خطّهما الشيب. وعيناه ما تزالان حادّتين، كما كانتا في الماضي، تحت حاجبين أسودين كثيفين ومشعّثين. ووقف، صارماً، مرفوع الرأس، وبدا عليه أنه ينتظر خضوع ابنه واستسلامه له.

فقبّل «نيقولا» يده.

وقال الأب، بصوت لاهث:

- كنت أعرف أنك يمكن أن تأتي صباح اليوم!

كانت دهشة «نيقولا» شديدة جداً، لدرجة أنه أخذ يشك بأنّ والده لا يزال يحتفظ بكامل قواه العقلية. وتبادل الأخ وأخته نظرة تنم عن الشفقة على أبيهما، ثم قالت «ماري» بالبشاشة المغتصبة التي تبديها المرضة لأحد المرضى:

- حسن يا أبي! أنت أكثر ذكاء وبعد نظر مني، فأنا أعترف، أني عندما رأيت «نيقولا» قبل قليل، في الرواق، اعتقدت أنه هبط إلينا من السماء، ألا يبدو بصحة جيدة.

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»

- بصحة جيدة، أفضل مما هي عليه صحتي، على أي حال!

- هل سمعت بالقصة، يا ابني؟

فتمتم «نيقولا»:

- نعم، نعم، لقد حدثتني عنها «ماري». ولكن، ها أنت قد شفيت تماماً الآن، وما عليك أن تخشى شيئاً بعد الآن!

وبدا «ميشيل بوريسّوفيتش» قوياً بمنكبيه العريضين اللذين يشبهان منكبي الحطّاب، وقال:

- أنا لا أخشى شيئاً، ولم يسبق لي أن خفت من شيء، وكثير من الناس ينتظرونني في العالم الآخر، بحيث أني لا يمكنني إلاّ أن أشعر بالرغبة باللحاق بهم، ومن جهة أخرى، فإنّ ما يحدث هنا، على الأرض، وفي هذا العالم ليس جميلاً، ليس جميلاً أبداً! تعال، لنتحدث فيما بيننا، حديث الرجال.

فتبع «نيقولا» والده إلى المكتب، حيث تسود، على الدوام الفوضى نفسها، بين الأوراق والكتب، والرائحة نفسها التي يتركها تدخين الغليون، والانعكاسات المزرّقة نفسها على الكراسي المغطاة بالجلد الأسود. وعلى النافذة ستائر سميكة خضراء اللون. وجميع التحف، ثقّالات الأوراق والشمعدانات مصنوعة من النحاس الأصفر المعالج والمصقول. وفتح «ميشيل بوريسّوفيتش» علبة خضراء تناول منها حبة سوس، ودسّها في فمه، ثم جلس على إحدى الأرائك، وأشار إلى ابنه كي يجلس على أحد الكراسي. عند ذلك خيم صمت طويل، كان خلاله سيد «كشنوفكا» يستردّ أنفاسه، وبريق فولاذيّ لمع تحت مستوى حاجبيه الكثيفين. وفجأة سأل ابنه:

- من هي تلك المرأة التي نزلت معها في استراحة البريد؟

فشعر «نيقولا» بطعنة قوية في صدره.

وتابع «ميشيل بوريسوّفيتش»:

- نعم، وإذا كنت قد قلت لك إني أنتظر قدومك هذا الصباح، فذلك لأني علمت منذ مساء البارحة بوصولك إلى «بيسكوف»، فهل يدهشك هذا؟ لا بدّ أنك تعرف أنّ الأخبار تنتشر بسرعة في الأرياف، وقد رآك أحدهم في الاستراحة، مرتدياً الملابس البرجوازية! ومستقيلاً من الجيش لدواعي شخصية!

كان «نيقولا» وهو في غاية الذهول، يفكّر بأنّ ما يجري الآن في هذا المشهد ليس له أي علاقة بكل ما كان يتوقعه، وأرهقه شعوره بالعجز، ثم شعر فجأة بالارتياح لكونه لم يعد لديه ما يخفيه ولم يعد مرغماً على التصنّع والمراوغة، وأياً كان غيره يمكن أن يطلق الخبر وليحدث مهما يحدث! ولم تعد «ماري» تستطيع أن تلومه على عدم مداراته لوضع والده الصحي.

واستأنف «ميشيل بوريسوّفيتش» الكلام: دون أن يرفع صوته أو يقوّي نبرته:

- لقد قيل لي إنها فرنسية، واستنتجت من ذلك أنها المرأة نفسها التي حدثتني عنها في رسالتك الأخيرة.

- نعم، يا أبي.

وكيف أمكنها أن تقبل بمرافقتك إلى هنا؟

فقال «نيقولا» بحماسة واندفاع:

- ذلك، لأنها زوجتي!

وشدّ عضلاته ووتّرها لكي يقاوم الصدمة. ولكنّ الانفجار الذي كان يخشاه لم يحدث. وسرت قشعريرة على وجه «ميشيل بوريسوّفيتش». وارتعشت حدقتاه قبل أن تستعيدا ثباتهما وبريقهما. وتقدّم فكّه المربع في

حركة تشبه حركات الضواري. ثم نهض ومشى بتثاقل بضع خطوات في الغرفة، بينما بقي «نيقولا» جالساً، لا يجرؤ على خرق جدار الصمت، خوفاً من أن يزيد من خطورة وضعه. ومرّت بضع ثوان. وأخيراً وقف «ميشيل بوريسّوفيتش» وهو يضع قبضتيه على خصره، أمام ابنه، تأمله بأسى، ولفظ هذه الكلمات بصوت أجشّ:

- هكذا إذن، لقد تزوّجتها على الرغم من أني منعتك أن تفعل ذلك!

فصاح «نيقولا»:

- اصفح عني يا أبي، فأنا للمرة الأولى في حياتي، قد استحال عليّ أن أطيعك.

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش» وهو يرفع حاجبيه دهشة:

- استحال عليك؟ ولماذا، من فضلك؟

- لأني بانصياعي لإرادتك كان عليّ أن أضحي بحبي لامرأة رائعة!

فغمغم «ميشيل بوريسّوفيتش» بلهجة تنمّ عن التذمّرة والاستياء وهو يضحك:

- هذا صحيح، لقد نسيت الحب! آه الحب! ليس لديّ ما أقوله بهذا الشأن! فهو من سمات وشؤون سنك!

كان فمه لا يزال يضحك في وجه متعب ومتجهّم. لم يكن إذن مستاءً؟ ويتقبّل الهزيمة؟ ورسّخ هذا الموقف التصالحي لدى «نيقولا» اعتقاده بأن والده محبط، خائر النفس والعزيمة بسبب المرض الذي ألمّ به.

وتابع «ميشيل بوريسّوفيتش» كلامه:

- إيه! نعم، لقد صنعت منك الحرب رجلاً. وقد أعطيت الحق بأن تقتل، فاستخدمت حقّك بأن تتزوّج. فكيف تستطيع سلطة أب أن تقاوم كارثة زلزلت العالم وقلبته رأساً على عقب؟

وأنا لم أعد شيئاً يؤبه له، بالنسبة لك!

ولكن، بلى، يا أبي...

- هيا بنا! ودعنا من المجاملات! فالآن، أنت الذي تقرّر، وليس أنا! وعليّ أن أتحمل ذلك وأن أعتاد عليه! ويتم الدخول إلى عائلتي كالدخول إلى الطاحون! وأنا آخر من يعلم!...

وكاد يحتدّ ويستشيط غضباً، ولكنه بذل جهداً لكي يتمالك نفسه، عند ذلك بدا في نظراته شعاع من العطف والحنان، فتشجّع «نيقولا» وقال له:

- إنّ زوجتي جديرة بأن تحظى بمحبتك ورعايتك.

- بالتأكيد! بالتأكيد! فأنا أوليك ثقتي! ولكنّ هذه المرأة الشابة والمهمة، لا بدّ أنها تشعر بالسأم في «بسكوف» فلماذا لم تصطحبها معك؟

- أردت أن أتحدث إليك أولاً، بدافع المراعاة.

وردّدها أبوه، كالصدى الساخر:

- بدافع المراعاة؟!

وكان «ميشيل بوريسّوفيتش» وهو يسيطر على ابنه، يهزّ رأسه ويتمتم:

بدافع المراعاة؟ نعم، نعم! أنا شديد التأثر بذلك، ولكنّ هذه المراعاة هي أكثر مما ينبغي، يا ابني، وعلى أي حال فلأن هذه المرأة هي زوجتك، فما علينا إلاّ أن نرضخ. ومكانها سيكون في بيتنا...

فلم يصدّق «نيقولا» أذنيه. إذ إنّ الصعوبات أخذت تزول من تلقاء نفسها، وهو الذي أتى لمقابلة خصم، اكتشف أنه ليس كذلك، بل هو حليف له. حقاً، كانت لهجة أبيه تبدو أحياناً غريبة، ولكن لم يكن ينبغي المبالغة بمطالبته بكل شيء. و «ميشيل بوريسّوفيتش» الذي جرحت كبرياؤه، كان يتصنّع السخرية لكي يواسي نفسه.

وسأله «نيقولا» وهو ينهض واقفاً:

- أحقاً، لست ناقماً عليّ، يا أبي؟

فرفع «ميشيل بوريسّوفيتش» ذراعيه وتركهما يهبطان بجانبي جسمه:

- سعادتك قبل كل شيء، يا ابني!... والمسنّون خُلقوا لكي يسحقوا... إني أمزح!... فأنت لم تسحقني أبداً!... أنت تدفعني، بعض الشيء، جانباً، وهذا كل ما هنالك!...

- ما هو اسم كنّتي؟

- «صوفيا» يا أبي، لقد ذكرته لك في رسالتي.

عليك أن تعذرني، لقد نسيته، منذ ذلك الحين!

- «صوفيا»! «صوفيا»! «صوفيا أوزاريف» ولماذا لا تكون كذلك؟ بالطبع هي لا تعرف كلمة من اللغة الروسية!... ولكن لا أهمية لذلك، لأننا جميعنا هنا نجيد اللغة الفرنسية... أريد أن أتعرّف بسرعة على كنّتي الباريسية...

- أهذا ممكن، يا أبي؟...

- نعم، بالطبع! وما هو الجانب المدهش في ذلك؟ اليوم أنا متعب بعض الشيء... ولكن غداً... تعال غداً معها... لتناول طعام العشاء... ولتمضية بقية العمر...

فجرف سيل من الفرح كل أفكار «نيقولا». فهو لم يكن، قد تصوّر حتى في أشد أحلامه جنوناً، نهاية سعيدة إلى هذه الدرجة، لمغامرته. وأخذ يتمتم:

- كيف يمكنني أن أشكرك! إنك أفضل الرجال! آه لو تعلم كم أنا آسف لأني فاجأتك، وعذّبتك في وقت أنت فيه بأمسّ الحاجة للراحة والعناية!...

فانتصب «ميشيل بوريسّوفيتش» بقامته الطويلة، ولوّن الدم خدّيه المترهلين، وانتفخت أوداجه، وقال:

- لا تخطىء يا «نيقولا» فأنا لم أكن في يوم من الأيام في حالة صحية، أفضل مما أنا عليه الآن. فإلى الغد. وبحركة من ذقنه، أشار إلى الباب.

***

في كل مرة كانت «صوفيا» تسمع صوت عربة، كانت تسرع، وقلبها يخفق بشدّة، إلى النافذة. ومع انقضاء الوقت، كانت العصبية المتزايدة تشوب استبشارها وحبورها. وأخيراً وبعد عشرين خيبة أمل، مرّت العربة التي تنتظرها تحت سقيفة المدخل. وأمسك أحد خدم الإسطبل بلجام حصان العربة، ونزل منها «نيقولا». وأثناء عبوره الباحة، تفقّدت للمرة الأخيرة قبعتها وزينتها، وشدّت كمّيها لإزالة التجاعيد عنهما، وأسرعت لتفتح الباب، وهي تتألق سحراً وجاذبية.

كانت تأمل أن ترى زوجها مبتهجاً فرحاً، ولذلك فقد استغربت عندما لاحظت أن وجهه متجهم، عليه أمارات القلق وانشغال البال. ودون أن يقول لها كلمة، ألقى قبعته على أحد الصناديق وضمّها بين ذراعيه. فهل لاحظ، على الأقل، أنها ترتدي فستاناً جديداً؟ كان خدّا «نيقولا» متجمّدين من شدة البرد. وكان لقبلاته طعم الثلج. فتملّصت منه «صوفيا» وسألته:

- كيف وجدت والدك؟

فأجابها «نيقولا»:

- ليس على ما يرام.

فانتفضت، منزعجة وأخذت تتأمله باهتمام.

- أهو مريض؟

- كان مريضاً، وبشكل خطير! فقد أصابته نزلة صدرية حادّة.

فصاحت:

- ولكنّ هذا مخيف ويدعو إلى القلق، يا نيقولا! هيا بنا ولنذهب بسرعة إلى قربه.

فأوقفها:

- كلاّ: يا صوفيا، إنّ أبي بحاجة ماسّة للراحة. وهو يفضّل ألا يستقبلنا إلاّ في الغد.

فبدا الحزن في عيني «صوفيا» وخشي «نيقولا» أن يكون قد سبّب لها خيبة أمل مزعجة، فتابع وهو يبتسم:

- على أي حال، فهو يسره جداً أن يتعرف عليك، وقد حمّلني تحياته وكثيراً من الكلام اللطيف والمودّة إليك...

كانت الكلمات تمرّ بصعوبة في حلقه، فبعد سروره بالفوز الذي حققه، شعر بشيء من خيبة الأمل لكونه حظي بهذا الفوز بكل تلك السهولة. وكان يشعر بما يشبه تبكيت الضمير عندما يفكر أن فوزه يعود إلى التعب الشديد الذي يعاني منه والده. وبدافع من محبته له، كان يتمنى أن يراه يغضب، يصرخ، يهدّد ويتوعد، قبل أن يستسلم لحكم المنطق والعقل.

فقالت «صوفيا»:

- سنذهب غداً إذن لنراه، وسيكون هذا اليوم عظيماً، بالنسبة لي!

فتراجع خطوتين، وأخذ يتأملها من رأسها إلى أخمص قدميها بإعجاب يشوبه الشعور بالذنب.

وتمتم:

- سترتدين هذا الفستان، أليس كذلك؟ إنه يناسبك ويليق بك تماماً!

٤

كانت «صوفيا» جالسة بين «نيقولا» و «ماري» في صالون «كشتنوفكا» الكبير، وأخذت تتحدّث بحماسة عن باريس، عن الرحلة، وعن انطباعاتها الأولى عن روسيا، في محاولة منها للتخلص من الضيق الذي انتابها عند دخولها إلى المنزل. إذ إنّ حماها (والد زوجها) لم يخرج حتى من غرفته لكي يستقبلها. وقد قبلت له عذراً، لأنها تعرف أنه يمضي فترة النقاهة بعد المرض الذي أصابه، ولكنّ هذا لم يمنعها من أن تأسف لذلك. فهل سيبدو، على الأقل، في الساعة الثانية ليتناول الطعام معهم، كما أكّدت لها ذلك «ماري»؟ كانت هذه الفتاة هي التي هيأت غرفة للقادمين من السفر، في الطابق الأول. واعتبرت «صوفيا» أنّ شقيقة زوجها ظريفة وجميلة بشكل مقبول، ولكنها شديدة الحياء والخجل، تكاد تكون وحشية، بذلك النوع من العداء الكئيب الذي يبدو في نظراتها. أمّا السيد «لوسور» فقد بدا لها أنه يظهر كثيراً من التملق والحماقات بشكل يدعو إلى الحزن. ويبدو أنّ فرحته بلقاء إحدى بنات وطنه جعلته يتلعثم ويسيء التعبير. وفي ذلك الوقت، أخذ يجمع كل الكتب الفرنسية الموجودة في «كشتنوفكا» ليحملها إلى «عش العريسين» حسب تعبيره. كان وقع خطاه يسمع في الممر وهو يذهب ويعود. وفجأة حدثت ضجة بسبب سقوط أحد الكتب على الأرض، عند ذلك قهقهت «ماري» بضحكة عصبية.

وقالت «صوفيا»: حقّاً إنّ السيد «لوسور» يتعب نفسه أكثر مما ينبغي. فأنا لست مستعجلة إلى هذه الدرجة للانصراف إلى المطالعة!

فقالت «ماري»:

- دعيه يعمل! فهو يريد أن يلاطفك ويظهر مودّته نحوك! وهو ليس الوحيد الذي يريد أن يفعل ذلك! فالجميع هنا نتمنّى أن تعجبك «كشتنوفكا» وأن تكوني سعيدة فيها!...

كان في هذا الكلام شيء من التكلّف والتصنّع، وشعرت «صوفيا» بذلك، فازداد ضيقها وانزعاجها، وأخذت تتفحّص زوجها خلسة، كان، هو أيضاً، يبدو منزعجاً، متحفزاً، بشكل أثار استغرابها.

وقال لأخته:

- كان عليك أن تذهبي لتري فيما إذا كان والدنا سيكون مستعداً، بعد قليل.

فردّت «ماري» بقولها:

- إنه يعرف أننا نتناول الطعام بعد نصف ساعة، ولا أريد أن أزعجه في الوقت الذي يستعد فيه لذلك.

والتفتت «صوفيا»، فالتقت نظرتها، خلف النافذة بوجهي قرويتين ألصقتا أنفيهما بزجاج النافذة. وقد سارتا بمحاذاة جدار المنزل وحضرتا لكي تريا العروس التي أحضرها السيد الشاب من فرنسا. وفي لمح البصر، اختفيتا، خوفاً من أن تلاما على فعلتهما. وحلّ محلّهما صبيّ صغير أصهب، لا بد أنه صعد فوق بعض الحجارة حتى استطاع الوصول إلى حافة النافذة. فابتسمت له «صوفيا» فخاف وهرب بدوره بسرعة. وسمع صوت صفعة آتية من بعيد.

كم هو عدد الخدم في «كتشنوفكا»؟ عشرون؟ ثلاثون؟ أربعون؟.. فمنذ وصول «صوفيا» رأت المربية العجوز «فسّاليسّا»، الخادم المكلف بإدخال الضيوف والمدعوّين، برأسه الحليق، والحوذي بدثاره الفضفاض الأزرق وزنّاره الأحمر، بعض الخادمات البدينات اللواتي على رؤوسهن أكاليل من

المصنوعات الزجاجية، وفي غدائرهن شرائط حمراء. والفتى، بقميصه القطني الذي كان عمله الوحيد، هو نقل الأوامر بسرعة، عبر الممرات، كما رأت الغسّالات وبقية الخادمات اللواتي يقمن بمختلف الأعمال، والطبّاخ التتري وعامل التدفئة الأسود اليدين والمحروق الأهداب والحاجبين. والمشرفة على المؤونة والشؤون المالية والاقتصادية، والتي تعرف بسهولة بسبب حزمة المفاتيح الضخمة، المدلاّة على خصرها... وكل هؤلاء لم يكونوا سوى جزء يسير من مجموع الخدم والعمال الذين يعملون في المنزل، حسب ما كان «نيقولا» قد قال لها. وجميعهم من العبيد الأرقّاء. وفي المزارع والقرى المجاورة يقيم العبيد الذين يعملون في فلاحة الأراضي وزراعتها.

وقالت «ماري»:

- أرجو المعذرة، فأنا، مع ذلك، ذاهبة لأتأكّد من أنّ أبي ليس بحاجة لأيّ شيء.

وغادرت الغرفة بمشية حازمة، وكانت ترتدي فستاناً قديم الزيّ، مزيناً بكثير من الشرائط على الكمين وحول الجسم. وبدت كتلة شعرها الأشقر، المجدول على شكل غدائر، ثقيلة بالنسبة لعنقها النحيل. وقد تدلى ذراعاها كطالبة مدرسة داخلية تقوم بالنزهة.

فقالت «صوفيا» لـ نيقولا:

- أختك ظريفة.

- أهكذا تجدينها؟

- نعم! هي لا تزال الآن في السنّ المتوسطة. وسوف ترى، بعد بضع سنوات...

فصاح «نيقولا»:

- أنا مسرور لأنها أعجبتك. وهل تعرفين أنك، من جهتك قد أحدثت لديها انطباعاً حسناً وقوياً؟ فهي ترى أنك فاتنة، أنيقة وساحرة...

فتمتمت «صوفيا»:

- على أي حال، هذا لطف منها أن تقول لك ذلك.

فأمسك «نيقولا» بيدها ورفعها إلى شفتيه:

- صوفيا! صوفيا! إني شديد التأثر لرؤيتك في هذا البيت الذي ولدت وترعرعت فيه...

وبدت متردّدة في تصديقه، لأنه وهو يتحدث معها، كان يراقب الباب بنظرات تنم عن القلق.

وفجأة سألها:

- لماذا لم ترتدي فستانك الناري؟

فأجابته باقتضاب، دون أن توضح له السبب:

- لقد فضّلت أن أرتدي غيره.

والواقع هو أنها قدّرت أنّ عمها كان مريضاً ولم يكد يشفى تماماً، ولذلك رأت من المناسب أن تكون ملابسها أكثر رصانة واحتشاماً، عندما تقابله لأول مرة.

واستأنفت الكلام:

- تبدو مستاءً وكأنك أصبت بخيبة أمل؟

- أوه! كلا! إني على ما يرام! تماماً على ما يرام!...

كان يتأملّها وهو يفكّر في سرّه أنه أحبها وهي مرتدية فستانها الناري أكثر مما يحبها الآن وهي ترتدي هذا المعطف الذي يعطي انطباعاً بالتشدّد، والمصنوع من قماش لونه «بيج» وعليه خطوط سمراء، والذي جعلها تبدو مسترجلة كإحدى الفارسات الأمازونيات، ولكنه لم يجرؤ أن يقول لها ذلك لأنه يعرف أنّ ليس لديه أي خبرة تتعلق بملابس النساء أو بالأناقة النسوّية. أمّا «صوفيا»، من جهتها، فهي كجميع الباريسيات، لديها ميل، وخبرة فطرية لانتقاء الأشياء الجميلة. وعندما يتذكر الأثاث، والمفروشات

الثمينة التي تزين منزل «آل لامبرفو» كان «نيقولا» يخشى من أن تصاب «صوفيا» بالخيبة عند رؤيتها أثاث ومفروشات بيتهم في «كشتوفكا» الثقيلة والمتينة والتي ليس لها طراز معروف، فالأرائك مصنوعة من الخشب السميك الداكن ومغطاة بالطنافس والسجاجيد الكثيفة المثبتة على جوانبها. والخزائن تشبه الصناديق. والطاولات مصنوعة لكي تحمل كل منها ثقل ثور من البقر. وفوق معزف قيثاري (بيانو قديم) وضعت صورة لأحد أجداد «آل أوزاريف» الذي كان جنرالاً في عهد «كاترين الكبرى». وكانت نظرته التي تشبه نظرة النّسر، لها بريق كبريق الأوسمة التي تغطي صدره. وكان نيقولا يُعد اللوحة سخيفة ومضحكة. ولكنّ «صوفيا» قالت:

- إني لم انتبه لهذه اللوحة، عندما دخلت، والحقيقة هي أنها جميلة جداً.

وعلى الفور، حظي جنرال «كاترين الكبرى» بعفو «نيقولا». كان يرغب كثيراً بأن يحظى كل شيء، الأشياء والناس، في ذلك البيت، بإعجاب زوجته وأن تحظى هي بإعجابهم أيضاً! ولكنّ هذا الحلم بحصول مثل هذا التناظر والتناغم كان يصطدم بمزاج سيد «كستوفكا» النّزوي والمتقلّب.

وماذا يعني تصرّفه في تلك الساعة الأخيرة؟ وانتفض «نيقولا» عندما سمع صرير أحد الأبواب: لم يكن القادم، سوى السيد «لوسّور» الذي بدا قصيراً، أصلع الرأس مورد الوجه، كثير الحركات، وكان ينفض يديه المكتنزتين لتخليصهما ممّا علق بهما من الغبار:

أوف! لقد هيأت لك، في الأعلى، ركناً صغيراً للمطالعة! ليس هنالك شيء جديد، مع الأسف! لأنّ الكتب والمؤلفات الفرنسية تتأخر كثيراً كي تصل إلى هنا!... وأخيراً، لدينا الآن بعض أعمال «فولتير»، «روسّو»، «ديدرو»، «دالمبير»... وكثيراً ما أتذوق طعم هذه الغرابة بمطالعة هؤلاء

الكتاب الكبار، الذين ألّفوا لنا «موسوعتنا» الشهيرة، في هذا الريف المنعزل المحروم من الثقافة، والذي يرقد مختنقاً تحت الثلج...

وسقطت الكلمة الأخيرة من طرف شفته برخاوة وفتور، جحظت عيناه، واتجه أنفه نحو الباب. ولاحظت «صوفيا» أنّ «نيقولا» أيضاً قد تجمّد منتبهاً باهتمام. لم يكن هنالك أي شك: لقد سمع كل منهما صوتاً، وتبين لهما وجود شخص، لم تستطع بعد أن تتبيّنه، هي. وبعد ذلك بقليل، سمعت فرقعة الأرضية الخشبية في الممّر.

والشخص الذي دخل إلى الصالون أدهش «صوفيا» بمظهره الضخم، الثقيل والفظّ، وبدا في الخامسة والخمسين من العمر. و «الريدنفوت» السوداء التي يرتديها بدت ضيقة جداً بالنسبة لمنكبيه العريضين. وفوق صدارة مزينة بالدانتيلا، كان يبدو وجهه الشاحب وهو يهتز قليلاً، وعيناه تبدوان مغمضتين بعض الشيء. كان يستند بإحدى يديه على ذراع «ماري» وبالأخرى، يمسّ قطع الأثاث التي يمر بقربها.

فأسرع «نيقولا» نحوه، قائلاً:

- أبي، اسمح لي أن أقدّم لك زوجتي.

فتابع «ميشيل بوريسّوفيتش» تقدمه نحو «صوفيا»، وكأنه لم يسمع شيئاً، فنهضت عندما اقترب منها. وعندما أصبح أمامها، رفع جفنيه السميكين، وحدجها بنظرة حادة كطعنة السكين، ثنى شفتيه، وقال بالفرنسية:

- معجب! بل شديد الإعجاب بك!

كان يشدّ بقوة على مخارج الحروف. ونيقولا، الذي كان يأمل أن تحظى زوجته باستقبال أكثر حرارة، واسى نفسه، عندما تذكّر أنّ والده قليل الملاطفة في معاملته للناس، وهذه هي طبيعته على الدوام.

واستأنف «ميشيل بوريسّوفيتش» الكلام:

- إيه! إذن يجب أن تكون مسروراً يا سيد «لوسّور»!. ولماذا تذهب إلى فرنسا فها هي فرنسا قد أتت إليك؟ وعلى أجمل وأظرف صورة! وعليك أن تشكر ابني على ذلك!

أعتقد أنّ «نيقولا» ليس بحاجة لشكري، فهو سعيد، يهنيء نفسه ويشكرها على حسن اختياره!

هذا ما قاله السيد «لوسّور» وهو ينحني قليلاً باحترام!

فصاح «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- ها هي آلة المديح أخذت تعمل! والجانب الحسن في التحدث والتعامل مع السيد «لوسّور»، هو أنه يكفي أن يوجّه له أحدهم كلمتين، أيّ كلمتين، لكي يصنع منهما باقة زهور للسيدات. فالغزل، وملاطفة النساء، وعبارات الإطراء، كل هذا يشكل فنّاً هو فرنسي أساساً. كما أنّ الحرب هي فن فرنسي أيضاً.

فقال السيد «لوسور»:

- والروس أيضاً أثبتوا أنهم جنود أقوياء ومحاربون أشدّاء!

- نعم، لأنّ العدو أتى وهاجمهم في عقر دارهم، ولكن في الحالات الأخرى فهم عاقلون وهادئون جداً، كالحملان! انظر إلى ابني: لم تكد توقع معاهدة الصلح، حتى خلع بزته العسكرية، وألقاها بعيداً!

فاحمرّ وجه «نيقولا» وقال:

- أنت تعرف جيداً لماذا استقلت، يا أبي!

- لقد فهمت ذلك بشكل أفضل بعد أن رأيت زوجتك: فلا يمكنك أن تخدم طرفين في وقت واحد.

فسأله «نيقولا» بصوت مرتعش:

- ماذا تعني بذلك؟

فأجابه «ميشيل بوريسّوفيتش» مع ابتسامة عريضة:

- ... بعد أن تزوجت امرأة بهذا الجمال وهذا اللطف، عليك أن تكرّس لها كل وقتك.

فأرسل «نيقولا» تنهيدة تنم عن الراحة والانفراج: لقد ابتعدت عنه العاصفة. وألقى نظرة على «صوفيا». كانت أسارير وجهها مغلقة، وبدت صامتة كالخرساء، متصلّبة النظرات.

وفتح كبير الخدم الباب على مصراعيه. فقدّم «ميشيل بوريسّوفيتش» باحتفالية متكلّفة، ذراعه لكنّته، للذهاب إلى مائدة الطعام.

فتبعهما «نيقولا» و «ماري» وخلفهم مشى السيد «لوسور».

كانت غرفة الطعام معتّمة وسيئة التدفئة. ووقف أحد الخدم وراء أريكة «ميشيل بوريسّوفيتش». وجلس الآخرون على كراسي عادية. وعندما جلس كل منهم في مكانه، رسم «ميشيل بوريسّوفيتش» إشارة الصليب، تمتم بعض الكلمات باللغة الروسية وأدخل زاوية منشفته بين ياقة قميصه وعنقه. وأخذت «صوفيا» تتأمل بدهشة كمية المأكولات التي أثقلت المائدة: لحوم مقدّدة، لحوم مملحة متنوعة، سلطات، أسماك: سنبوسك وفطائر محشوة، فطر بالمرق، خيار، بيض محشي، لحم طيور... كل ذلك كان يبدو طيباً وشهياً، ولكنها لم تكن تشعر بالجوع. فمنذ أن تعرّفت على عمها أخذت تشعر أنها دخيلة على هذه الأسرة. ومنذ البدء بتناول المقبلات، استأنف صاحب «كشتنوفكا» التنكيت على السيد «لوسور»:

عزيزنا السيد «لوسور» الذي يعيش في روسيا منذ خمسة عشر عاماً لم يستطع الاعتياد على المطبخ الروسي. وهو يدّعي أنّ سقف حلقه شديد الرقة والحساسية!

فقال السيد «لوسور» معترضاً وهو يلتهم لقمة ضخمة من سلطة الملفوف الحامضة.

- أنا لم أقل هذا، يا سيدي، أبداً!

- بلى، لقد قلته! حتى أني أردت على الفور آنذاك، أن أحضر طباخاً فرنسياً، ثم فكّرت بأننا سيصبح لدينا كثير من الفرنسيين في المنزل! ليس لأنني أضمر شيئاً ضد بني وطنك يا سيد «لوسور». فهم أناس طيبون جداً عندما لا يكون لديهم نابليون ليلعب بعقولهم. ولكن أيّاً كان تقديري لهم فإني أعترف، بأنهم إذا تركوا يعملون كما يحلو لهم، فسينتهي بهم الأمر إلى أن يحكموا بلادنا!

في الوقت الحاضر، يا سيدي، نحن لا نحكم سوى أطفالكم، ولا أظن أنكم مستاؤون من التربية التي زوّدناهم بها!

فقال «ميشيل بوريسوّفيتش»:

- كلا، بالحقيقة، وأساساً، ربما لأنه قد أتيح لـ نيقولا مرب فرنسي استطاع أن يتزوج فرنسية، ولولاك لما عرف بأي لغة يتكلم معها، والفضل بذلك يعود لك، ونحن، أنا وكنّتي وابني في غاية الامتنان منك، يا سيد «لوسور»! ولنشرب نخب صحتك!

ورفع رأسه وأفرغه، دون أن يقتدي به أحد.

وكان على «صوفيا» أن تبذل جهداً كي تتمالك نفسها ولا ينفجر غيظها. وألقى عليها «نيقولا» نظرة تنم عن الضيق والاستغاثة وحوّل نظره نحو والده. كان في حدقتيه بريق ينمّ عن الخبث الذي يتّسم بالفرح. كان يبدو عليه أنه يدير لعبة أقل طارئ فيها يغمره بالراحة والسرور. ذلك لأنه وقد أُرغم على استقبال كنته، فهو يثأر لذلك، على طريقته الخاصة.

وأدرك «نيقولا» هذا وتبادر إلى ذهنه: «كيف استطعت أن أكون ساذجاً إلى تلك الدرجة حتى صدّقت بأنه قد تقبّل زواجي وسيوافق عليه؟ فهو لم يستقبلني البارحة بمودّة إلاّ لكي يذلني اليوم بمزيد من القسوة، وإني لأبدو مذنباً جداً حياله، لأني إذا اعترضت أكون أنا المخطئ أيضاً! يا الهي! اجعله يسكت، واسمح بأن ينتهي كل هذا في الحال! «كان توتر الأعصاب حول المائدة قد كهرب الجو. كان السيد «لوسور» قد احمر وجهه، وجحظت عيناه. و «ماري» شحب وجهها وكأنها أصيبت بمرض مفاجئ. وقدّمت بقية الأطباق: إوزة بالمرق، خنّوص بالخردل، لحوم مشوية تحيط بها الكستناء، بعد الانتهاء من تناول المقبلات.

وكان «ميشيل بوريسّوفيتش» هو أول من يملأ صحنه، وبغزارة، علاوة على ذلك فقد كان هو الوحيد الذي يأكل من كل الأصناف. وكان ولداه، كنّته، والسيد «لوسور» وقد انقطعت شهيتهم، ينظرون إليه، بذهول وحيرة وهو يلتهم كميات كبيرة من المأكولات. وأخيراً، قالت له «ماري»:

- يا أبي، عليك أن تكون أكثر اعتدالاً وحكمة، فقد أوصاك الطبيب أن تتبع الحمية لبعض الوقت.

- أستطيع تماماً أن أستثني اليوم الذي أستقبل فيه كنتي!

قال ذلك وأضاف:

- فأنا أنتظر منذ زمن طويل أن أسعد بلقائها!

وغمز نيقولا الذي أحنى رأسه وشدّ بأصابعه العشرة المتشنجة على طرف الطاولة.

واستأنف «ميشيل بوريسّوفيتش» الكلام:

- كنّتي! (بالفرنسية: Mabelle Fille وتعني ابنتي الجميلة، إذا أخذناها بمعناها الحرفي)، وكرّرها: (Matres Belle Fille) كنتي الجميلة جداً! لم تبدُ لي أي عبارة فرنسية أكثر دقة من هذه.

أتدري يا نيقولا أنها تماماً كما وصفتها لي في رسائلك العديدة: زهرة من فرنسا! ما رأيك يا سيد «لوسور» بهذا الإطراء، وأنت أحد هواة هذا الفن؟

فتمتم السيد «لوسور»:

- لقد سعدت بذلك، وأنا أؤيده!

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش» مزمجراً، وموبّخاً:

- مع أنّ ملامح وجهك تبدو وكأنك تشارك بجنازة وعملية دفن! يا لكم من شعب غريب أيها الفرنسيون! هنا، في بلادنا، كل شيء بسيط، كلّ منّا، نفسه وقلبه على وجهه! أما في بلادكم، فيجب أن تنتزع عشرة أقنعة قبل أن نعثر على الملامح والبشرة الحقيقية!...

وتوقف عن الكلام، لكي يتناول قطعة من الحلوى عن المائدة، والتهمها بلقمتين، وتابع حديثه بمرح وحماسة:

- وكما في السياسة!... تفحّصوا الأحوال في روسيا:

لدينا قيصر يحبه الجميع حبّاً كالعبادة، إيمان مسيحي يُملي علينا أدقّ تصرفاتنا ويتحكم بها، وحب للوطن يكفي لإثارة الشعب بكامله ضد من يحاول احتلال بلادنا... أما في فرنسا فلكي يكون المرء ذكياً، عليه أن يقول النقيض لما يقوله جاره، وإذا أمكن عليه أن يتبنى رأي الجار، حالما يتبنى الجار رأيه. لقد أيّد الفرنسيون نابليون، ثم أيدوا «لويس الثامن عشر»، ثم عادوا من جديد فأيدوا نابليون، وهم ما زالوا يأملون عودة «لويس الثامن عشر»، وأخيراً أيدوا «لويس الثامن عشر» وهم يبكون بسبب نفي نابليون إلى جزيرة «القديسة هيلانة»! والجنرالات يتنافسون فيما بينهم ويتسابقون إلى الخيانة، والوزراء لا يستقرّون على حال ويغيّرون اتجاهاتهم باستمرار كدوارة الهواء. وفي الأوضاع الراهنة، أتساءل عمّا إذا كان يوجد فرنسي واحد يعرف حقّاً ماذا يريد!

فقالت «صوفيا» بلهجة جافّة:

- يمكنك أن تكون متأكداً من ذلك!

فارتعش «نيقولا» خوفاً. كانت تعابير وجه زوجته تنم عن الشموخ والكبرياء، التي لا تدع مجالاً للشك في عنف قناعاتها ومعتقداتها. وقد رفع لديها رأسه أحد رفاق «شقائق النعمان».

فصاح «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- ها أنا، أخيراً، أسمع صوت كنّتي! فما هي إذن فكرة هؤلاء الفرنسيين الذين يعرفون جيداً ماذا يريدون؟

فأجابته «صوفيا»:

- إنها بسيطة: مكافحة مساوئ وتجاوزات الحكم الاستبدادي، القضاء على المظالم، إتاحة فرصة السعادة لجميع أبناء الشعب...

- وهل يستطيع ملككم تطبيق هذا المنهاج؟

- نعم إنه يستطيع ذلك، لو أنّ حاشيته وأعوانه، كانوا أفضل مما هم عليه الآن، كما يستطيع ذلك أيضاً قيصركم...

- لا تعمدي إلى المقارنة!... فروسيا ليست بحاجة لأي إصلاحات!...

- أتعتقد ذلك حقاً؟ إنّ الانتصار العسكري الذي حقّقه الإمبراطور «ألكسندر» على نابليون، لا يثبت أبداً أنّ كل شيء يستحق الثناء والمديح في بلادكم، وكل شيء يستحق اللوم والاستنكار في بلادنا!

- لقد وصلت إلى روسيا منذ أسبوع. ومع ذلك فأنت أخذت منذ الآن تقيّمين عيوب ومزايا الأمة الروسية، وتبدين رأيك فيها؟ مرحى لك!

- ألا تقيّم، أنت عيوب ومزايا الأمة الفرنسية وتبدي رأيك فيها دون أن تكون ذهبت أبداً إلى فرنسا؟

- أنت تنسين أنّ لديّ، تحت نظري، نموذجاً للفرنسيين، اعتمدته من أجل دراستي: ألا وهو السيد «لوسور».

فانزعج السيد «لوسور» وأحنى رأسه فوق صحنه، بينما كادت الدموع تطفر من عينيه لأنه شعر من لهجة «ميشيل بوريسوّفيتش» أنه يسخر منه ومن جميع الفرنسيين. ودعكت «صوفيا» منشفتها بعصبية، وألقتها على المائدة.

وتمتم «نيقولا»:

- أبي، أرجوك!...

فقال له أبوه:

- اسكت! أنا لا أتكلم معك، بل مع زوجتك! زد على ذلك، إنها، ربما أجابتني، من جهتها، أنّ لديها نموذجاً عن الروس تحت تصرفها: ألا وهو ابني!

وعندما لفظ هذه الكلمات، نهض عن المائدة، واتّجه بخطى ثقيلة نحو الباب. وصوفيا التي شعرت بالذهول وبأنها تكاد تختنق، وأنّ رأسها يعج بالضجيج، أخذت تراقب «نيقولا»، «ماري» والسيد «لوسور» لكي تقنع نفسها أنها ليست في حلم، وأنهم، مثلها، سمعوا كل شيء. والتقت نظراتها مع ثلاثة وجوه مكفهرة ومعذبة، بالكاد يبدو فيها ما يدل على الحياة. كانت الصاعقة قد انقضّت على المنزل.

فما الذي يخيفهم كلهم من هذا الطاغية الصغير، في تلك القرية؟ وأسرعت «صوفيا «إلى الصالون، وعند دخولها التفت «ميشيل بوريسوّفيتش» بعنف. فجابهت ذلك الوجه المجعّد، الذي يكثر فيه الشعر، وتلمع حدقتان رماديتان.

وقالت له بصوت لاهث:

- كان قد ساورني القلق على صحتك، ولكن يبدو أنك تنعم بصحة جيدة جداً حتى أنك تجد متعة في تعذيب المقرّبين منك، كما فعلت الآن! فهل أنت ناقم على فرنسا أم عليّ أنا، شخصياً؟

فلم يجب «ميشيل بوريسوّفيتش». وكان «نيقولا» و «ماري» قد أسرعا، ولكنهما وقفا عند عتبة الباب دون أن يجرؤا على الاقتراب، خوفاً من أن يؤدي تدخلهما إلى التسريع بوقوع الكارثة.

واستأنفت «صوفيا» الكلام:

- هذه المرة، أنت تلوذ بالصمت، والحقيقة فإنّ هذا هو أفضل ما ينبغي أن تعمله! وأنا أجد تصرفك غير لائق برجل شهم! ويبقى لي أن آمل ألا يكون هذا التصرف هو من العادات الروسية! وداعاً، أيها السيد!

وخرجت من الصالون في ثورة من الغضب، فأسرع «نيقولا» وراءها، ولحق بها عند أسفل الدرج:

صوفيا، هذا فظيع! أنا منذهل ومذعور!...

وعندما وصلت «صوفيا» إلى قرص الدرج، فتحت أحد الأبواب وهي تظن أنه باب غرفتها، ولكنها كانت مخطئة، فتنهدت، لأنها اعتقدت أنّ حتى الأشياء كانت معادية لها في هذا المنزل.

وتساءلت: أين باب غرفتي؟

فقال لها «نيقولا»:

- أبعد، قليلاً.

ودفع الباب التالي، فدخلت «صوفيا» إلى الغرفة التي تغصّ بالأمتعة، ولم تكن الحقائب قد فتحت وفرّغت تماماً، وكانت الفساتين، المعاطف، والملابس الداخلية ملقاة على الكراسي وعلى السريرين التوأمين. وقد زاد من استياء ويأس المرأة، رؤيتها لهذه الفوضى، فارتمت على صدر «نيقولا» وقالت له، وهي تتنهّد:

- اصفح عني يا صديقي، كان لا بد من أن أردّ، كما فعلت. وهذا الغداء كان بالنسبة لي، تجربة، بل اختباراً فظيعاً!

آه! عندما أفكر بالفرحة التي كنت أعد نفسي بها بانضمامي إلى عائلتك!... لقد وجه لي والدك أكبر إهانة حصلت في حياتي!... يا له من رجل بشع وكريه يطفح بالبغضاء وبالعنجهية!... ولماذا يكرهني إلى هذه الدرجة؟

- إنه لا يكرهك، يا صوفيا، وأقسم لك على ذلك!

قال لها «نيقولا» ذلك وهو يقبلها.

- أوه، بلى يا نيقولا. واحترامك لأبيك يعميك، فلا تستطيع أن تلاحظ شيئاً! انه يكرهني، وأنا أشعر بذلك! ولكني لا أستطيع تفسير تحوّله حيالي، وكيف أمكنه أن يستقبلني بهذا الشكل السيء، بعد ما كتبه لك؟

- علينا ألاّ نتحدث عن ذلك بعد الآن، يا صوفيا!

- فإذا كان يغيظه إلى هذه الدرجة زواج ابنه من فرنسية، فما كان عليه إلا أن يمتنع عن إعطائك موافقته!

فهمس «نيقولا»:

- بالتأكيد!

وشعر بأنه يستحيل عليه الاستمرار في الكذب. وقد تشقق بناء خداعه وأكاذيبه من كل جوانبه وأخذ يتمايل ويتأرجح عند قدميه وتمتم وقد تولّد لديه انطباع مخيف بأنه ينزلق في الفراغ:

- لديّ اعتراف، أريد أن أبوح لك به، يا صوفيا. الذنب ذنبي في كل شيء. أبي لم يكن موافقاً...

- لم يكن موافقاً؟ على ماذا؟

- على زواجنا.

فابتعدت عنه:

- إني لا أفهمك يا نيقولا! أنت لا تعني أنه...؟

- بلى، يا صوفيا!

فصاحت:

- والرسالة؟! الرسالة التي ترجمتها لي؟...

- كان يعبّر فيها بصراحة عن الرفض.

فظلّت «صوفيا» برهة منذهلة، وقد أظلمت الغرفة من حولها، كما لو أنّ الغيوم قد حجبت الشمس. ولأنها عجزت عن التفكير، فقد أخذت تصغي لما يدور في رأسها. وفجأة انتابتها ثورة عارمة من الغضب الشديد، لدرجة أنّ كل جسمها أخذ يرتجف.

وسألته بصوت متقطع:

- متى أخبرت والدك بزواجنا إذن؟

- صباح البارحة. وقد غضب واستاء. ثم بدا وكأنه قد اقتنع بأني على صواب، ووعدني بأن يستقبلك كأنّ شيئاً لم يكن!

- لقد طلبت منه أكثر مما ينبغي، يا نيقولا! والآن لم أعد مندهشة ممّا بدر منه من جفاء وخشونة وخسّة. ولكن أنت في كل هذا، أنت، أي دور لعبت؟ لقد قمت بدور الكذّاب! فيا لك من كذاب حقير!...

فغمغم:

- لم يكن لي الخيار، كنت قد وضعت شروطك، وكان علي أن أكسب الوقت، بأي ثمن!

فاستأنفت الكلام:

- وطوال عدة أسابيع استطعت أن تتحمل رؤيتي واثقة بك سعيدة وفخورة مزهوة، في حين أنك على علم بالمذلّة التي تنتظرني هنا! وأنا لا أدري بماذا ينبغي عليّ إبداء المزيد من إعجابي، هل بمهزلتك وبما أبديت من مكر وخداع، أم بما بدر مني من سذاجة وسرعة بالتصديق!

كانت تشعر بأنها تكاد تختنق. واكتشفت نظرتها في المرآة، انعكاس ثوب لونه «بيج» مقلّم بخطوط سمراء ورؤيتها لامرأة مرتدية ملابس محتشمة ورصينة، بمناسبة مقابلتها عمها لأول مرة للتعرف عليه، جعل صبرها ينفد، واغتاظت كثيراً، فكيف سمحت لنفسها بأن تنخدع برجل، لدرجة أن تتبعه مغمضة العينين إلى الطرف الآخر من العالم؟ لقد كانت اليقظة رهيبة! وحيدة بين جمهرة من الأعداء؟!

وعلى بعد آلاف الأميال من فرنسا؟ وبعد أن تعرّضت للخيانة، للمذلة، وللاستلاب، لم يعد لديها أي مسعى آخر، سوى البغضاء تبديها لذلك الذي جرها إلى هذا الدرك من المذلة.

وأخذ وجه «نيقولا» الجميل يثير لديها الرعب والهلع.

وقالت له:

- أنت وحش مخيف! لا يمكن أن يتصرّف أي فرنسي كما تصرّفت!

فشحب وجهه وهو يتلقى هذه الإهانة، وقال لها:

- لقد ارتكبت أكبر الأخطاء بحقك، ولكني أتوسل إليك أن تصغي إليّ: لقد كذبت عليك كي أنقذ حبّنا. وقد تصرفت كما يتصرف المقامر... المقامر الأحمق، الذي خسر رهانه الأول، وأوشك أن يخسر أكثر وأكثر، وهو يأمل أن يستردّ كل ما خسره في رهان واحد. وقد أتيت بك إلى هنا، لأني كنت على ثقة من أن أبي سيحدث لديه، في نهاية الأمر رد فعل إنساني!... ولا أدري أيّ ريح جنونية دفعته الآن.

فقالت بلهجة حادة:

- ذلك، دون شك، لأنه أقل اعتياداً منك على كتم مشاعره!

فأراد أن يمسك يدها، ولكنها دفعته باشمئزاز، وصاحت:

- لا تلمسني! لا تقترب مني!

فأحنى رأسه:

- صوفيا! هذا غير ممكن! ماذا سيحلّ بنا!

فقالت:

- لقد حان الوقت تماماً لكي تقلق بشأن ذلك، أيها السيد!

وكلمة: «أيها السيد» دوّت في الغرفة كفرقعة السّوط.

وجلس «نيقولا» على حافة السرير، بين إحدى القبعات، وفستان مخمليّ أزرق، وأسند جبينه على يديه. وكانت «صوفيا» وهي واقفة أمامه، تبحث عن كلمات قوية لتشبع حاجتها للانتقام، دون أن تجدها: «أتصفعه؟ أتمزّقه؟ أتكويه بالحديد المحمّى بالنار؟»

وبينما كانت تقول هذا في سرّها، كانت تدرك أنه يبدو تعيساً بصورة جدّية. والحقيقة هي أنه تصرّف في هذه القضية كطفل لا يشعر بأي مسؤولية. واستخفاف بالأمور يثبت أنّ ليس لديه أي خبرة في الحياة ولا أي معرفة بالمخلوقات وطباعها، وتبادر إلى ذهنها: «لقد تزوجت طفلاً!» وتحوّل غضبها إلى شعور شبيه بتسامح الأم. ورفع رأسه. وأثّرت نظرته في «صوفيا» حتى أعماق نفسها. فشعرت بصدمة خفيفة وعذبة، وهي في غاية الاضطراب، فامتزج إحساس وحشي بمبرّرات وحجج حقدها ونقمتها: كان لعينيه عذوبة لون البحر الأزرق، وكانت طبقة لينة تنزل من منخريه على شفته العليا. وعلى الرغم من هذا الوجه الجميل والفاتن، فقد كان أكثر الرجال إثماً!

وقالت «صوفيا»:

- إننا لا نستطيع البقاء في هذا البيت!

- الحق معك، يا «صوفيا» هيا بنا ولنذهب من هنا!

ولكنها لم تكد تسمعه، فقد كانت منذهلة بشعور من الامتنان العذب، لا علاقة له بما قاله. وكانت تهمّ بأن تلين وتتعاطف معه، عندما قالت مؤكدة:

- سأذهب بمفردي!

فقال:

- بمفردك؟ ولكن لننظر في الأمر، يا صوفيا!... فكّري!... أنت زوجتي!... وأنا أحبّك!...

فردّت، قائلة:

- اسكت! مهما قلت، فإني لن أصدّقك بعد الآن أبداً.

لقد افترق طريقانا.

وشعرت بأنها بالغت بالفكرة التي عبّرت عنها، ولكن كان عليها أن تردّ بقوة على الإغراء الخسيس الذي يدعو إلى الصفح. وإلاّ فإنها ستصبح إحدى أولئك الزوجات اللواتي يعاملن بقسوة ويتقبّلن ذلك، ويتابعن الحب مع التوبيخ والإهانات، ويخضعن وهنّ يتحملن المذلة والعار. وللمرة الثانية، حاول أن يقترب منها، وللمرة الثانية سمّرته في مكانه بنظرة رهيبة تنمّ عن التهديد والوعيد:

- كلا، أيها السيد! إذا كنت لا تزال تكنّ لي بعض التقدير، أرجوك أن تغادر هذه الغرفة، فأنا لا أريد أن أراك بعد الآن.

- ولكن، يا صوفيا...

- أنا بحاجة لأنفرد بنفسي، وأبقى وحدي. أتفهم هذا؟

- نعم، يا صوفيا.

كانت متعالية، وجادّة في غضبها، بحيث أنّ «نيقولا» لم يجرؤ أن يسألها متى يستطيع العودة، ولا ماذا تنوي أن تفعل بانتظار عودته. فانسحب، وهو يشعر بالخزي والعار، وأغلق الباب. وعند أسفل الدرج وجد أخته تنتظر وتترصد وقد بدا القلق على وجهها.

وهمست له:

- إيه! ماذا حصل؟

فهزّ رأسه بأسى:

- لقد ضاع كل شيء يا ماري!

وسار في طريقه، فركضت وراءه:

- احكِ لي! ماذا قالت؟

- لقد تخانقنا، وهي لم تعد تريد أن تراني.

- وكيف يحصل هذا؟ ألستما زوجاً وزوجة؟!

فابتسم، مستغربا شدة سذاجة أخته، وسألها:

- أين والدنا؟

- في غرفته، إنه نائم، فهذا وقت القيلولة.

فصاح «نيقولا»:

- القيلولة؟ وهل يستطيع النوم وقت القيلولة بعد كل الذي حدث؟ إني ذاهب على الفور لأقول له رأيي، وكل ما أفكر به!...

فقالت له «ماري» وهي تتنهد وقد بسطت ذراعيها لكي تقطع عليه الطريق:

- كلاّ! يجب أن تتركه ينام! فهو بحاجة ماسّة للنوم! ألا يكفي ما أبديت له حتى الآن من قلة الاحترام؟

فتردّد «نيقولا» برهة، ثم وجّه صفعة بباطن يده للجدار، وقال:

- هذا حسن! سأراه إذن فيما بعد. آه! إنه يستطيع أن يفخر بعمله!

وفي الرواق، فتّش عن معطفه وألقاه على كتفيه. فتعلّقت «ماري» بذراعه:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لأشمّ الهواء.

وخرج إلى درج المدخل، فلسع وجهه البرد القارس. كانت نُدَف الثلج تتطاير كالفراشات فوق مشهد فقد ألوانه الطبيعية.

وابتعد «نيقولا» عن المنزل، ورفع نظره نحو نافذة غرفته. آه! ما الذي كان يبخل به ولا يعطيه، في تلك اللحظة، لكي يلمح زوجته وهي تشير له من خلف زجاج النافذة، أن يرجع! ولكنّ معرفته بها أقوى من أن تجعله يأمل منها أن تتراجع وتعفو عنه.

وليس هنالك شك بأنها لن تصفح عنه أبداً! وماذا يمكن أن تكون نهاية كل هذا؟ وكيف يمكنه أن يألف لزمن طويل هذا الحزن وهذا الاحتقار؟ لقد دفن حياً تحت أنقاض حبّه. كان يكره نفسه، ويرثي لـ صوفيا، ولا يدري من أين يمكن أن يأتيه النور.

وعندما اقترب من الإسطبل، سمع صوت «أنتيب» وهو يتحدث مع بعض الخدم الذين اجتمعوا هناك حول الأحصنة. كان «أنتيب» قد أصبح بطل «كشتنوفكا» الذي ذهب إلى فرنسا واشترك في ملاحقة نابليون ومطاردته، وتذّوق في عاصمتها ملذّات حياة مترفة، وعلى الأرجح منحلّة وماجنة.

وكان «أنتيب» يتحدّث بأعلى صوته:

- آه! باريس! كل يوم هنالك يوم أحد ويوم عيد! الشمبانيا ولحم الدجاج في كل الوجبات. إيه! ما قولك يا صاحبي؟

لقد كنا نحن المنتصرين. كان يكفي أن يرفع أحد أسيادنا إصبعه، لترتجف المدينة. حتى نحن الوصفاء، بسبب بزّتنا العسكرية، كان الجنود الفرنسيون يؤدّون لنا التحية في الشارع. ولو افترضنا أنك شعرت بالملل. تشير بيدك، تقول: «يا آنسة!...» وها أنت وقد استندت على ذراعك فتاة جميلة!...

وسأله السائس:

- وكيف تعرّف سيدنا الشاب على فتاته؟

فشعر «نيقولا» بالخشية من سماع جواب «أنتيب» وتصنّع السعال لكي يعلن عن قدومه. وفي الحال توقف الحديث. فقال «نيقولا» في سره: ليس لي

حتى الحق بأن ألوم «أنتيب» على كذبه، لأني كذبت أكثر منه، وفي حالة تتصف بخطورة شديدة ومختلفة وذات أهمية كبيرة! والآن، فأيّ كان يستحق الاحترام أكثر مني. وآخر العبيد من فلاحينا لا يمكن أن يبادل خطاياه بخطاياي، أمام الله...»

ودخل إلى الإسطبل. فحياه الرجال بانحناءة كبيرة، لدرجة أنه شعر بالخجل من ذلك، كانوا أربعة: صانع المركبات، السائس، الحوذي، و «أنتيب». وواتت السائس حماسة مفاجئة، فأخذ يكدّس بمذراته التبن في المعالف. والأحصنة المربوطة هناك التفتت وأدارت رؤوسها نحو القادم الجديد. وأمر «نيقولا» بأن يُسرج له «فوديانوي» الحصان الأشقر الجميل، ذو العنق النحيف، والعجز العريض الهادئ.

فغمغم «أنتيب»:

- أليس لديك حصان أفضل من هذا لسيدك، لأنه في باريس لم يكن يمتطي سوى الجياد الكريمة ذات الأصل الإنكليزي!

كانت مبالغات «أنتيب» تزعج «نيقولا» وتثير أعصابه، وشعر بالرغبة بأن يوجه له ضربة على (نقرته) لكي يسكته، ولكنه امتنع عن ذلك، عندما فكّر بـ صوفيا وبأساليب الحضارة الفرنسية.

والحصان «فوديانوي» بعد أن أسرج وألجم، هزّ منكبيه عندما خرج إلى الهواء الطلق، وامتطاه «نيقولا» وشعر بكل متعة وسرور بذلك الجسم الكبير لهذا الحصان القوي والدافئ الذي ينصاع لحركة وإرادة ساقيه. وفي المشى الرئيسي الذي تحيط به أشجار الصنوبر، كان الثلج والوحل يشكلان مزيجاً أسمر اللون، تغوص فيه بعمق حوافر الحصان. وفي كل مكان، سوى هذا، كانت البراري تبدو بيضاء لا تشوبها أي شائبة. وكان «نيقولا» وهو ينظر بعيداً إلى الأمام يبدي حركة خفيفة مع إيقاع خطوات الحصان. والهواء الشديد البرودة أيقظه وزاد من نشاطه وخفّف من حدة قلقه

واضطرابه وهو في وحدته. كانت صوفيا قد قالت: «لا نستطيع البقاء في هذا البيت!» وقد أيدها بشأن هذا الرأي. ولكن هل تقبل أن تذهب لتعيش معه في «سان بطرسبورغ»؟ ربما استطاع إيجاد وظيفة هناك في إحدى الوزارات، أو أنه يعود إلى الخدمة في الجيش...

واتّجه نحو طريق ضيق تحيط به مجموعتان من الأشجار، ودفع حصانه ليعدو خبباً. واعتباراً من تلك اللحظة فقد خضع دماغه لإيقاع العدو. وأخذ يفكّر على دفعات بأشياء غامضة لا يربط بينها أي رابط. كان الحصان يخبّ في الثلج، ينتفض، ينفخ فتبدو أمامه فوارة بخارية مزدوجة. وبدت من بعيد أسطح منازل إحدى القرى. وكم من المرات ذهب إلى هناك في طفولته، بالزحّافة مع أخته والسيد «لوسور» لكي يتفرّجوا على الفلاحين وهم يصنعون الملاعق الخشبية، أو يجدلون قشر القنب ليصنعوا منه أحذية!

لكم كان سعيداً آنذاك! وكم كان يأمل بمستقبل زاهر! ولكي ينسى فشله وخيبة أمله أطلق لحصانه العنان كي يسرع بالعدو.

سمعت «صوفيا» طرقاً على باب غرفتها، وعلى الفور تحفّزت واتخذت موقف الدفاع. لا يمكن أن يكون هذا «نيقولا»: كانت قد رأته، عبر النافذة، وهو ينطلق على صهوة جواده، تحت الثلج المنهمر، قبل ذلك بنحو عشر دقائق.

وسألت:

- من هناك؟

وردّ عليها صوت خجول:

- هل أزعجتك؟

وبصورة لم تستطع تفسيرها، تخلّت «صوفيا» عن تحفّظها وتمتمت:

- ادخلي يا ماري.

فدخلت الفتاة بهدوء إلى الغرفة واستندت على الجدار. كانت تبدو مضطربة. وقد بللت الدموع عينيها، وأنفاسها المتقطعة تتردد من فمها المفتوح إلى النصف. وبعد لحظة صمت، قالت:

- ألست بحاجة لشيء ما؟

وكان هنالك تناقض غريب بين هذا السؤال المبتذل وبين الإلحاح الذي ألقته به «ماري».

فقالت «صوفيا» وهي تبتسم:

- كلا، أشكرك.

فظلت «ماري» برهة مترددة، حائرة، وكأن هذا الجواب قد سبب لها خيبة أمل، ثم سألتها أيضاً وهي تهز كتفيها بحركة صبيانية:

- ألا تريدين أن تأتي لتقومي بنزهة معي، أريد أن أريك الأماكن المجاورة للمنزل، فهي جميلة جداً!

فهزت «صوفيا» رأسها، بالنفي، وقالت:

- إني متعبة.

فقالت لها «ماري»:

- نقوم بجولة صغيرة، وحسب!

وكانت نظراتها تعبر عن الرجاء، و تابعت:

- الجو جميل جداً، وأنا لا أطيق أن تظلّي وحيدة في غرفتك.

فتأثرت «صوفيا». فهل كانت إلى هذه الدرجة بحاجة للتعاطف والمودة حتى تأثرت بهذه الدعوة البسيطة؟

وقالت:

- لا أريد أن ألتقي بأحد!

فصاحت «ماري»:

- أعرف.. أعرف كل شيء! لقد قال لي «نيقولا» أنكما تخانقتما.
وأنا متأكدة أن جميع الأخطاء حصلت من جانب أخي.
ولكنه ليس شريراً، وأقسم لك على ذلك... بل إنه طيب، وطيب جداً... وأبي طيب أيضاً، على الرغم من كل المظاهر... وعيبه الرئيسي هو حبه للمشاكسة... إنه يزعج السيد «لوسور» ذلك المسكين، و يغيظه... وقد تصرف معك بكل طيش، ودون لياقة!... وأنا تألمت لذلك كثيراً!... لقد أثر المرض على طباعه وبلبلها... وهذا الذي حدث، يحدث معه من وقت لآخر، وكأن نوبة تلم به، أو أزمة تصيبه، وفي اليوم التالي، يبدو مبتهجاً...لا تعكّر تألقه أي سحابة... والجميع في المنزل يضحكون. وفي نهاية الأمر ستتفاهمين معه، بل وستحبينّه!... ولم تجب «صوفيا» ولم تعلّق على ما قالته «ماري» بأي كلمة.

فقالت «ماري» وهي تتنهّد:

- أتشكّين بذلك؟ ومن الطبيعي أن يحصل هذا! فأنت كنّته، وله الحق بأن يقول لك كلّ ما يفكّر به، حتى وإن كان ذلك لا يعجبك!

ومع نظرة تنمّ عن التحالف الأنثوي، أضافت:

- هذا هو قدر الزوجات!

وقد راق هذا الخضوع المبكر، لـ صوفيا، وتساءلت عمّا إذا كانت الطاعة صفة عامّة ومشتركة لجميع النساء الروسيات، أم أنه يوجد بينهن، كما يوجد بين الفرنسيات، بعض النساء اللواتي يتمتعن بعقلية استقلالية.

وسألتها «صوفيا»:

- أتقيمون هنا طوال أيام السنة؟

فأجابتها «ماري»:

- نعم، وسوف ترين، أننا لا نشعر بالملل أبداً! فكل فصل يجلب معه مسرّاته...

- لن تتاح لي الفرصة أبداً لأرى ذلك.

- لماذا، ألا تريدين أن تبقي معنا؟

فمسّت «صوفيا» بطرف أصبعها ذقن الفتاة، ابتسمت لها بعذوبة حانية، وقالت بلهجة شخص كبير، يتهرّب من الإجابة على سؤال طرحه عليه أحد الأطفال:

- لكم أودّ أن أرى غرفتك، يا ماري.

فانطلقت نحوها صيحة تعبر عن الفرح الشديد:

- حقّاً؟ ليس فيها شيء غير عادي، كما سترين، وستصابين بخيبة أمل!

كانت غرفة ماري، وهي تقع في آخر الممشى، في غاية البساطة، فعلاً. وأبدت «صوفيا» إعجابها بالستائر، المصنوعة من قماش تزينه أزهار صفراء ووردية اللون. ولكنها رأت أنّ المكتب الصغير المصنوع من خشب الزان، والملتصق بالجدار، لم يكن في محله المناسب. فوضعتاه مقابل النافذة، وصاحتا فرحتين.

فبهذا العمل تغير دفعة واحدة «ديكور» الغرفة.

وقالت «ماري»:

- إنك لساحرة، حقاً!

وبعد أن شعرت بالاطمئنان أرت «صوفيا» منمنمة تمثل صورة على قطعة من العاج، لامرأة شابة تبدو من نظرتها حزينة:

- هذه أمي، كنت في التاسعة من العمر، عندما توفّيت، ألا يشبهها «نيقولا»؟

فقالت «صوفيا»:

- نعم!

ولأنها شعرت بانقباض في حلقها، ولم تعرف كيف تعبّر عن العطف الذي شعرت به بشكل مفاجئ، فقد بحثت عن ملاذ لها في الحركة:

- الآن، هيا بنا، لنتنزه، يا ماري!

فانتعلتا أحذية مبطنة بالفرو، ولبستا معطفين سميكين وخرجتا إلى ذلك الجو الأبيض الشديد البرودة، لدرجة أنها تلسع الوجوه. وأمسكت «ماري» بذراع زوجة أخيها، وسارتا متلاصقتين وهما تترنحان، على الثلج الطريّ. كانت «صوفيا» تمعن النظر في المشهد الطبيعي، مترصدة على البعد منظر أحد الخيالة. ولكنّ عينيها لم تكن تلتقي في كل مكان إلاّ بمساحات منبسطة، داكنة، وساكنة لا تتخلّلها أي حركة. إلى أي جهة ذهب «نيقولا»؟ لم تكن تريد حتى أن تعرف ذلك! ومع هذا، فقد ظلّت تنظر حولها باهتمام وبنفاذ صبر. ووجدت نفسها فجأة على ضفة نهر صغير.

هنا، في الصيف، نصطاد السمك، ونستحّم... ويأتي بعض الجيران لزيارتنا... فننظم بعض الألعاب، والسباقات، والنزهات، حيث نتناول الطعام في الهواء الطلق.

هكذا أخذت «ماري» تتكلّم، وكأنها وهي تعدّد هذه المغريات المتوفرة في «كشتنوفكا» كانت لا تزال تأمل أن تستبقي هذه الزائرة المستعجلة، وعندما ظلّت «صوفيا» صامتة، لا تبدي أي اهتمام بما قالته، تمتمت الفتاة:

لقد جعلتك تشعرين بالملل من حكاياتي! ومع ذلك فيجب أن تعلمي شيئاً: وهو أنك إذا غادرت، فإني سأحزن كثيراً!

فقالت «صوفيا» وهي تتمعّن بانتباه في الوجه الفتيّ ذي الأنف الوردي، الذي التفت نحوها:

- هيا! هيا! ألا تريدين أن تلزمي الصمت!

فكرّرت «ماري» ما قالته:

- سأحزن كثيراً، ولكن لن يطّلع أحد على ذلك.

وتأملتها «صوفيا»، فبدت لها نحيلة، تائهة، تشعر بالخوف مريضة بسبب الأحلام والوحدة، كحيوان صغير يبحث عن صاحب ليحبّه. والتقطت «ماري» حفنة من الثلج وشمّتها بقوة، وقالت:

- إنّ لهذا رائحة الموت!

واغرورقت عيناها بالدموع. وكان خرير المياه يتعالى بين ضفتي النهر اللتين غطاهما الثلج بوشاح أبيض.

وسألت «ماري»:

- أيوجد ثلج في باريس؟

فأجابتها «صوفيا»:

- نعم، ولكنه أقل غزارة وأقل نظافة من ثلج بلادكم.

- لكم أودّ أن أذهب إلى باريس!

- سوف تذهبين إليها، يوماً ما...

- أوه! كلا. لست محظوظة، ولن تتاح لي هذه الفرصة.!

- ولماذا، يا ماري، فأنا عندما كنت في مثل سنك، لم يكن يخطر ببالي أني سآتي إلى روسيا، وها أنت ترين...

- بالنسبة لك، الأمر مختلف! فأنت جميلة! وأنت حرة! وقد كنت حرة على الدوام، فهذا يبدو واضحاً! كيف يعيش الناس في باريس؟ وماذا تلبس النساء هناك؟

- تقريباً كما تلبس النساء في روسيا.

- لو كانت لدي الجرأة، لقلت إني متأكدة أنّ الأمر ليس كذلك ولطلبت منك أن تريني فساتينك!

فضحكت «صوفيا» قليلاً، وضغطت على يد «ماري»، الصغيرة التي يغطيها القفّاز:

- أترغبين بذلك، حقاً؟

فوافقت «ماري» بإيماءة من رأسها:

- كل فساتينك، كلها، أرجوك!

كان الظلام قد بدأ يخيّم عندما اتّجه «نيقولا» في طريقه للعودة إلى البيت، الذي كان يكاد يختفي في العتمة. وبعض الأضواء الخافتة فقط كانت تبدو من النوافذ، وتشير إلى مكان الصالون، المكتب وإلى الغرفة الموجودة فيها «صوفيا». وهذه الأضواء ذكّرت «نيقولا» بالمأساة التي تنتظره وعدّلت معناها لديه. وبينما كان يسير على ظهر حصانه في البرّية، كان الآخرون قد استمروا في العيش، كل بمفرده، وكما يحلو له، عبر الفوضى، الغضب، الكبرياء، الحزن والقلق. وأسرع السائس، وهو يقبض على بندقيته:

- آه! يا سيدي، كنّا نتساءل إلى أين ذهبت!؟

فقفز «نيقولا» على الأرض، وربّت بيده على عنق حصانه الذي كان منهكاً، ملتهب الحافر. وهو نفسه كان يشعر بالخدر الذي تسلل إلى أطرافه، ويشعر بالتعب ووجهه متجمد من شدة البرد.

ولكنّ هذا التمرين الرياضي قد نشّطه ورفع من معنوياته. والرفاهية التي كان يشعر بها في كل جسمه القوي قد أعادت له ثقته بطباعه وبمعنوياته. ومع الشعور بأن صحته جيدة جداً لم يكن لليأس مجال لأن يلازمه زمناً طويلاً. كان الصمت الذي يخيم على المنزل غريباً. فليس هنالك أي صوت يصدر عند تحريك قطعة أثاث، ولا همسة صوت لإنسان. وبعزم وتصميم، اتّجه «نيقولا» نحو المكتب. فوجد فيه والده جالساً أمام مكتبه، وهو يرتدي رداء المنزل «روب دي شامبر». والمصباح الزيتي ينير الغرفة بضوء غير كاف يبعث الحزن في النفس. وعبر ذلك الغبش، كانت وحدها تلمع بعض البقع النحاسية وأغلفة الكتب القديمة ذات الأغلفة المذهبة، المصفوفة

على الرفوف. وسأل «ميشيل بوريسّوفيتش» ابنه وهو يلقي عليه نظرة لا تحمل أيّ تعبير:

من أين أنت قادم؟

ونيقولا، الذي أربكه هذا السؤال، أجاب عليه كما كان يجيب عندما كان طفلاً:

- كنت في نزهة على ظهر الحصان.

- وزوجتك، أثناء ذلك الوقت؟

- تركتها بمفردها؟

- ولماذا فعلت ذلك؟

وتبيّن لـ نيقولا أنه يبدو متهماً، بينما كان ينوي أن يتقدم بشكوى. فعصف به الغضب مزمجراً كلهيب مشتعل، وصاح:

- وتسأل لماذا تركتها لوحدها، بعد ما عاملتها بتلك الطريقة، فهي لم تعد تطيق وجودي!

- يا لها من فكرة غريبة! أن تنقم عليّ، فإني أستطيع فهم ذلك!..ولكن أن تنقم عليك أنت؟!..وعلاوة على ذلك فإني لم أقل لها شيئاً يسيء لها بالذات...

- لقد شتمت فرنسا في حضورها! وهذا أمر له الخطورة نفسها فيما لو أنك شتمتها هي بالذات! آه! يا أبي، كان يمكن أن يكون جرحك لي أقلّ إيلاماً لو أنك رفضت استقبال زوجتي، بدلاً من الطريقة التي استقبلتها بها! ومع ذلك، فقد كنت قد قلت لي...

فقاطعه «ميشيل بوريسّوفيتش» بإشارة من يده. وقطّب جبينه. وبدا وجهه بشعاً وقد بدت عليه مسحة تعبّر عن الحيل الحيوانية، وداعب عارضه بطرف أصابعه، وهو مستغرق في التأمل والتفكير. وقال أخيراً:

- إيه! نعم، لقد أردت أن أكون لطيفاً معكم، ولكني لم أستطع، كان ذلك فوق طاقتي، فأنا عندما أرى فرنسياً أو فرنسية يفور دمي، وأغضب وأتوتر، وأشعر بالرغبة بالطعن والضرب... فهؤلاء الناس قد أغرقوا بلادنا بالدماء والنار!

فقال «نيقولا» بحدّة:

- ولكنّ الحرب انتهت، يا أبي!

فتنهّد «ميشيل بوريسّوفيتش» من أعماق صدره:

- ربما تكون قد انتهت بالنسبة لك، لأنك تدلّهت بحبّ فتاة من هناك، ولكنها لم تنته بالنسبة للملايين من الروس الحقيقيين، الذين ما زالوا يفكّرون بالمصيبة التي حلّت ببلادهم.

انظر حولنا، بين جيراننا هنا في الريف، وحدهم: فآل «بريوسّوف» قتل ابنهم الوحيد أمام مدينة «سمولنسك». وقتل ولدا «آل تترينوف» في معركة «بورودينو». وابن «آلشوخين» توفي منذ شهرين متأثراً بجراحه، في أحد مستشفيات «نانسي»... كلاّ.. كلاّ. إننا لم نوجّه للفرنسيين العقوبة التي يستحقونها! إنهم، حتى بعد هزيمتهم، ما زالوا يرفعون رؤوسهم!

- أنت لا تعرفهم، يا أبي! فأنت عندما تنظر إليهم من هنا، يبدو لك أنهم متعجرفون، عنيفون، ولكن لو نظرت إليهم عن قرب، وهم يعيشون حياتهم، لاقتنعت بأنهم يتمتّعون بحسّ سليم، بالشهامة والكرم، وبالاهتمام بالقضايا المهمة والمشكلات الكبيرة.

وعندما كان «نيقولا» يتحدّث عن فرنسا المثالية، هذه، كان يفكّر بآل «بواتوفان» و «فافاسور» وبنظرائهم، وبجميع «رفاق شقائق النعمان»، الذين كانوا يرغبون بتحقيق السعادة للجميع، على وجه الأرض.

وقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- يا لها من حضارة شهيرة، هذه التي تنشد لي مدائحها.

الفيلسوف يؤهّل الجلاّد: «فولتير» و «روبسبير» يمكن أن يمسك كل منهما بيد الآخر وأن يتعاونا. ونبدأ أولاً بالمغالاة بالتدقيق، وينتهي بنا الأمر بقطع الرؤوس، وأنا رجل أحب النظام ومولع به. فلا تطلب مني أن أحبّ هذا النوع من الناس!

- كان بإمكانك، على الأقل، أن تمنح كنّتك استثناءً!

فأحنى «ميشيل بوريسّوفيتش «رأسه، وكأنه يصغي إلى موسيقى عذبة، وقال وهو يبتسم:

- كنّتي! نعم، نعم، أريد أن أصدّق تماماً أنها من أسرة كبيرة وعريقة، كما أكدت لي...

وراود، عند ذلك «نيقولا» أمل، خفيف كارتعاشة على سطح الماء، سريع كخفقة جناح الطائر.

وتابع «ميشيل بوريسّوفيتش» الكلام:

- لقد راقبتها على المائدة: إنها تمالكت نفسها بكثير من الكرامة والوقار، وعندما تفجّر غضبها، شعرت بمتعة لسماعها، لأنّ صوتها عذب يشنّف الآذان.

فقال «نيقولا»:

- «صوفيا» امرأة متميزة، فريدة، ولا مثيل لها، وبما أنك قيّمتها بهذا الشكل الحسن، فلماذا لم توجه لها كلمة لطيفة تعبّر عن شيء من المودّة؟

فقطّب «ميشيل بوريسّوفيتش» حاجبيه، وتجهّم وجهه فجأة، تجمّد، وبدا مشطوراً إلى اثنين بسبب ظل «كمّة المصباح» التي تعكس الضوء، وقال مزمجراً:

- أتريد أن تعرف سبب ذلك؟ أيها الأبله المسكين!

- نعم، إنها لذكية «صوفيا»! وهذا هو ما أعيبها عليه!

- وكيف ذلك؟

- إنها أكثر ذكاء ممّا ينبغي، بالنسبة لك! وقد خدعت بها!

ولأنها ماكرة وخؤونة كجميع الفرنسيات، فإنها لم تجد صعوبة في إقناعك بأنك تستطيع الاستغناء عن موافقتي!

كان قد انتصب واقفاً بكل قامته ودار حول المنضدة، متّجهاً نحو ابنه. فتمتم «نيقولا»:

- أبي، إني أؤكّد لك...

فقال «ميشيل بوريسّفيتش»، مزمجراً:

- اسكت أيها المغفّل! فأنا أعرف ماذا أقول!

وبدا عند ذلك، بوجهه الحقيقي الذي يعبّر عن العنف، بعد أن نزع عنه قناع البساطة وطيبة القلب، بشكل مفاجئ، وتابع بصوت أجش:

- آه! يا لها من داهية! لقد رتّبت قضيتها بكثير من المكر والخداع! فبعد أن عقدت قرانك عليها، تبعثك إلى روسيا وفي نيتها أن تهزأ بالأب وتخدعه كما خدعت الابن! ولكني، أنا لست شاباً متحذلقاً! وسوف تعرف ماذا سيكلفها تجاوزها لموافقتي وإرادتي! وطالما أنا على قيد الحياة فسأظل السيد هنا، وسأعاملها كخادمة من خدمي! وهي لا تساوي أكثر مما يساوي السيد «لوسور»! فرنسيون! فرنسيون صغار وقذرون!...

وأوقفته عن الكلام نوبة سعال مفاجئة. وانتفخت الأوردة التي بدت زرقاء في صدغيه. فبصق في منديله ووجّه إلى ابنه نظرة تنمّ عن الكراهية:

- أيدهشك هذا؟ وهل كنت تتصور أن المرض قد ليّن دماغي، وأني أصبحت حملاً جاهزاً للجزّ!...أليس كذلك؟..ولكن ها هو الحمل يستاء! الحمل يكشر عن أنيابه! الحمل سيعضّ!

ها! ها! أعترف أنكما تستحقّان درسا، أنت وهي! هيا اعترف، احلف يميناً كاذبة، أيها المسيح الدجال!...

ورفع يده ليضرب ابنه، ولكنّ ذراعه ظل معلقاً في الهواء، وقد احمرّت عيناه، وتقلّص وجهه بتكشيرة تنم عن غضب جنوني. ولم تبدر من «نيقولا» أي حركة. وكان يشعر بشكل غريب أنه هادئ وبائس، وأخيراً، قال:

- أبي، إذا كان هنالك من يستحق أن يتلقى درساً، فهو أنا، وليس زوجتي. فلكي تقبل أن تتزوجني، جعلتها تعتقد أنك وجهّت لي مباركتك في رسالتك إليّ.

فأنزل «ميشيل بوريسّوفيتش» يده، وارتخت أسارير وجهه، وغمغم:

- ماذا؟...ماذا تقول؟

- أرجو أن تفهمني يا أبي...

وخيّم صمت تام لبعض الوقت، ثم تمتم «ميشيل بوريسّوفيتش» ببطء شديد:

- لقد كذبت إذن على زوجتك كما كذبت عليّ أنا أيضاً؟

- كان لا بدّ من ذلك، وإلا لما أتت معي إلى هنا...

- وهي لا تزال تتصور...؟

- لم تعد تتصور ذلك الآن!

- ومتى قلت لها الحقيقة؟

- قبل قليل، بعد أن غادرنا مائدة الطعام.

- وحتى ذلك الحين...؟

- وحتى ذلك الحين يا أبي، كانت واثقة من أنك قد وافقت على زواجنا وباركته!

فأحنى «ميشيل بوريسّوفيتش» رأسه على صدره، وبدا واضحاً أنه كان لا يزال يرفض أن يصدّق وأن يتقبّل اعترافاً شديد الوطأة إلى هذه الدرجة، على كرامته وكبريائه، ولذلك، قال وهو يصرّ على أسنانه:

- أنت تكذب الآن، مرة أخرى؟!

- كلا، يا أبي.

- أقسم على ذلك!

فقال «نيقولا»:

- سأفعل إذا كنت ترغب بذلك.

واتّجه نحو مصلّى أقيم في إحدى زوايا الغرفة، وجثا على ركبتيه على الأرض. وكانت أيقونات عديدة تحيط بنسخة جميلة من لوحة تمثل عذراء «قازان» العجائبية التي أنقذت روسيا من الاجتياح الفرنسي.

وتمتم «نيقولا»:

- إني أقسم، إني أقسم بأنّ كل ما قلته للتو لأبي هو تعبير عن الحقيقة التامة.

ورسم إشارة الصليب على صدره، نهض وقبّل بورع وخشوع أسفل الصورة المقدسة، وعاد نحو أبيه الذي كان يراقبه بانتباه شديد ومتعال.

وسأله:

- هل صدقتني الآن؟

وجلس «ميشيل بوريسّوفيتش» بتثاقل وراء منضدته. وبدا منزعجاً، حائراً وهو يتأمل نقاط الزيت وهي تسقط الواحدة بعد الأخرى في إناء المصباح الزجاجي.

وأخيراً غمغم:

- حسن هكذا، فأنت ليس لك حتى أي معذرة لكونك ركبت رأسك! وقد دبّرت الأمر بمفردك! وتأتي إليّ الآن، ومعك هديتك القذرة! أنت ابني.. ابني الذي كنت أوّد أن أكون فخوراً به!

ولزم «نيقولا» الصمت، مغتاظاً من كلام والده، ولكنه كان عاجزاً عن معارضته وعن الاحتجاج على ما قاله. وفجأة اصطبغ خدا «ميشيل بوريسّوفيتش» باللون الأحمر، وصاح:

- يا لك، من شقيّ بائس!

ثم هدأت ثورته، وخلال الصمت الذي تلا ذلك، سمع «نيقولا» وقع أقدام أحد الخدم وهو يعبر الغرفة المجاورة. كان يغلق النوافذ، محدثاً ضجة قوية، ويدخل المزاليج وراء الأبواب، وعما قريب يمرّ الحارس الليلي تحت النوافذ وهو يرنّ بجرسه.

وقال «ميشيل بوريسّوفيتش» وكأنه يحدّث نفسه:

- وهذه المرأة كيف تفكّر، وما هو رأيها بي الآن؟ لقد تخرّب وتزيّف كل شيء!

ومرة أخرى خيّم الصمت لفترة طويلة. كان الظلام والثلج يكتنفان المنزل. ونبح كلب في مكان بعيد. وتسلّلت رائحة الملفوف من تحت الباب. سيُقدّم حساء الملفوف على العشاء.

وتماسك «نيقولا» مقاوماً العديد من ذكريات الطفولة ولفظ بصوت قوي وحازم أبي، لقد اتخذت قراراً خطيراً: أنا وصوفيا لن نبقى في «كشتوفكا».

فرفع «ميشيل بوريسّوفيتش» رأسه، فهو لم يكن يتوقع هذه الضربة المفاجئة. وأخذ يفكّر، وبعد برهة، قال:

هل أنت الذي تريد الرحيل، أم هي؟

لا أهمية لذلك، يا أبي.

أجبني: هل أنت الذي قررت مغادرة «كشتوفكا»؟

فاغتاظ «نيقولا» دون جدوى:

صوفيا لا تستطيع الإقامة تحت سقف، حيث...

فقاطعه والده بحزم:

حسن! فالفكرة إذن صدرت عن زوجتك. وبالنسبة لها ولي فإنّ هذا الرحيل هو، بالفعل، أفضل الحلول...

كان قد ضمّ يديه أمامه على المنضدة وأخذ يفرك إحداهما بالأخرى وكأنه بذلك يتحاشى القيام بأي عمل عنيف. وكان تنفّس بقوة تنفس المصارع يرفع ويخفض كتفيه. ثم سعل، وأضاف:

وإلى أين ستصطحبها؟

فأجابه «نيقولا»:

لا أدري، حتى الآن، أظن أننا سنذهب إلى «سان بطرسبورغ».

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

آه، هكذا إذن؟

وبدا بريق الرضى في عينيه، وعلى الرغم من سرعته، فإن «نيقولا» لم تفته ملاحظته: فليس هنالك أي شك في أنّ والده كان يخشى أن يرحلا إلى فرنسا.

واستأنف «ميشيل بوريسّوفيتش»، الكلام:

- إلى «سان بطرسبورغ»، حسن جداً. سأزودّك برسائل توصية لبعض أصدقائي. وسيجدون لك وظيفة بجانب أحد كبار الموظفين.

فقال «نيقولا» بكبرياء:

- لا أستطيع قبول ذلك، يا أبي.

فارتفعت قبضتا «ميشيل بوريسّوفيتش» وانهارتا على المنضدة: فاهتزت بعض التحف، وسقطت ريشة إوزة من موضعها في المحبرة. وصاح بأعلى صوته:

عليك أن تفعل ما أقوله لك! كيف تجرؤ على المناقشة، الآن؟ لقد تصرّفت مع زوجتك كمخادع تافه! وتريد أن تجرّها بعد ذلك، في مغامرة أكثر سوءاً، وأكثر مدعاة للعار والأسى!؟

وهدأت حدّة غضبه، وانتظم تنفّسه، وتابع الكلام بصوت غامض النبرات:

- وكيف ستؤمّنان معيشتكما في بداية الأمر، إذا لم أساعدكما عندما تقيمان في «سان بطرسبورغ»؟ فهذه المرأة تحمل اسمك، أي اسمنا، ولها الحق بمعيشة مناسبة ولائقة. وستقيمان هناك في منزلنا، وهو مخرّب بعض الشيء، ولكنّ إصلاحه سهل. وفي بداية الأمر، ستة من الخدم يكفون لخدمتكما. وستأخذهم من هنا.

وسأعطيك «جريشكا» كطباخ، و «سافيلي» كحوذيّ، فهما نظيفان ولا يتناولان الكحول. وستأخذ أيضاً بعض الخيول، يلزمك أربعة أحصنة.

وألقى نظرة على «نيقولا»، مستطلعاً رأيه وطالباً موافقته، فاصطدم بوجه بارد كالرخام، عند ذلك، قال مزمجراً:

- أربعة! هل سمعت؟

- نعم يا أبي.

وهذه الأحصنة الأربعة ستكلّفك مبلغاً يتراوح بين أربعين وخمسين «روبل» في الشهر، قيمة علفها من الشوفان والتبن! آه! والأواني المنزلية، والملابس، التي نسيتها، ومؤونة الشتاء...

وتناول الريشة، غمسها في الحبر وسجّل بعض الأرقام على ورقة بيضاء. وهذه العناية غير المتوقعة جعلت «نيقولا «يشعر بأنها، بدلاً من أن تفرحه، قد جرحت كبرياءه. وهو الذي أتى ليثبّت استقلاليته، فوجد نفسه في وضع الإنسان الذي يحتاج لفضل الغير. فمتى إذن يحين الوقت الذي لن يحتاج فيه لوالده من أجل تأمين معيشته؟

واستأنف «ميشيل بوريسّوفيتش» الكلام:

- أعتقد أنك ستحتاج لبضعة أيام لتحضير ما يلزمك من أجل السفر.

فهزّ «نيقولا» رأسه، وقال متمهّلاً، وهو يحدّق في عيني أبيه بثقة تنمّ عن القسوة:

- كلاّ، ليس بضعة أيام، سنسافر بأسرع ما يمكن:

غداً، أو بعد غد، على أبعد تقدير.

وعند خروج «نيقولا» من المكتب، لم يكن في غاية الارتياح:

فهنالك تجربة أخرى تنتظره، وهي تبعث على الخوف أكثر من التجربة السابقة. فبعد أن طردته «صوفيا» خارج نطاق نظرها، هل تقبل، على الأقل، أن تسمع ما سيقوله لها؟ كان الشكّ يعذبّه. وصعد مباشرة إلى الطابق الأول، قرع الباب، تلقى الإذن بالدخول، وتوقف عند عتبة الباب وقد عقدت الدهشة لسانه. كانت أخته، في وسط الغرفة، تمسك بيديها الفستان الناري، وتقيسه على جسمها، وتنظر إلى نفسها في المرآة.

بينما كانت صوفيا تقف وراءها وتناولها رأسية من المخمل، لتضعها على رأسها. وكان وجه «ماري» يشعّ بالسعادة، وصاحت:

- انظر، يا «نيقولا»! ألا أبدو كإحدى الباريسيّات؟

فأومأ برأسه، دون أن يجد كلمة يجيبها بها. أمن الممكن أن تكون «ماري» قد سوّت الأمر، أثناء غيابه؟

وأخيراً، قال:

- إنك فاتنة، ولكن أريد منك أن تتركينا لوحدنا.

فقالت «ماري»:

- حسن، وأرجو أن تسرعا، لأننا سنتناول طعام العشاء، بعد نصف ساعة...

وألقت على «صوفيا» نظرة تنمّ عن المودّة والصداقة، واستأنفت الكلام باندفاع وحماسة:

- ستنزلان لتناول طعام العشاء معنا، أليس كذلك؟

فقال لها «نيقولا» وهو ينتزع الفستان من بين يديها:

- لقد قلت لك أن تتركينا لوحدنا!

وبدت كفتاة صغيرة وهي تبرز من خلال تموجات وبريق القماش اللّماع، وبدا وجهها الشاحب كوجه إحدى المتسولات.

وقالت لها «صوفيا» بلهجة تنم عن العطف والحنان:

- كلا، يا ماري، إنّ هذا مستحيل!

- أوه! ولماذا؟ سأتكلم مع أبي، سأقنعه! وسترين كم سيكون لطيفاً معك!...

وخشي «نيقولا» أن تغيظ «ماري» «صوفيا» بإلحاحها.

وأن تقول كلمة زيادة عما ينبغي، فتفسد كل شيء، لذلك، قال لها، باختصار:

- هلاّ سكتّ؟!

فأحنت «ماري» رأسها:

- ستكون هذه الأمسية حزينة جداً، من دون حضوركما كليكما!

فقالت لها «صوفيا»:

- سيذهب «نيقولا» لتناول العشاء معكم.

فنظر إلى زوجته مندهشاً وهو لا يعرف فيما إذا كان عليه أن يفسّر هذا القرار على أنه دليل على الرضى أم على الغضب عليه.

فسألتها «ماري»:

- وأنت، هل ستبقين في غرفتك؟

- نعم

- ودون أن تأكلي؟

- لست جائعة!

فقال «نيقولا» معترضاً:

- ولكن هذا غير معقول! ستمرضين!

وصاحت «ماري»:

- سأرسل لك صينية ملأى بأطيب المأكولات! وبعد ذلك سنأتي لنراك!...

وتوارت وهي مسرورة بهذه الفكرة، فأغلق «نيقولا» الباب وراءها.

وسأل «صوفيا»:

- أتنوين حقاً تناول طعام العشاء هنا بمفردك؟

فأجابته وهي توليه ظهرها:

- نعم، يا صديقي.

وكانت لهجتها باردة جداً، لدرجة أنّ أوهام «نيقولا» الأخيرة تبددت في الحال.

وسألته:

- أيمكن أن نعرف ماذا فعلت بعد ظهر هذا اليوم؟

وبشعور من تقديره لنفسه، أجابها:

- لقد عملت في التحضير لسفرنا إلى «بطرسبورغ».

فالتفتت نحوه وألقت عليه نظرة تنم عن اللامبالاة:

- ومتى سنسافر؟

فقال لها:

- بعد غد

- ولماذا التأخير؟

- نحتاج لبعض الوقت لانجاز الاستعداد لرحيلنا: أنوي اصطحاب بعض الخدم وبعض الخيول.

وشعر بالانزعاج من تبجحه وهو يقول ذلك. ولكن هل يستطيع أن يعترف لـ صوفيا بأنّ والده هو الذي يهيئ وسائل الانتقال وينظم هذه العملية؟

وسألته «صوفيا»:

- أي خدم ستصطحب معك؟

- لا أدري... ربما: «جريشكا» و «سافيلي» ...

- و «أنتيب»! لماذا لا تصطحبه؟

فسألها مندهشاً:

- أتريدين أن نصطحب «أنتيب» معنا؟

فقالت وقد بدا عليها الغيظ:

- إنّ هذا يبدو لي طبيعياً جداً! فهذا الرجل مخلص جداً لك، وقد تبعك إلى فرنسا.

فقال «نيقولا» وهو يشعر بكثير من السعادة لإرضاء زوجته بهذا الإجراء الثانوي:

- إنه سيتبعنا إذن إلى «سان بطرسبورغ» أيضاً.

ومرت صورة «أنتيب» في ذهن «صوفيا» كانت تفكر به كتفكيرها بكلب أمين. وربما كان هو صديقها الوحيد في ذلك المنزل.

وتابع «نيقولا» الكلام، وهو يمسك يد «صوفيا». كانت يد جثة هامدة. وعندما همّ برفعها إلى شفتيه، أفلتت أصابعها من يده. وابتعدت عنه، وأخذت ترتّب فساتينها في الحقيبة، دون أن تنظر إليه، وكأنه كان قد غادر الغرفة.

***

كان الجو كئيباً أثناء تناول طعام العشاء. لم يكن أحد يتحدث عن «صوفيا» ولكنّ ذكرها كان يحلّق على المائدة وفوق الصحون. و «ميشيل بوريسوّفيتش» الذي بدا شاحب الوجه، شارد النظرات، لم يعمد حتى إلى المزاح، والسخرية بالسيد «لوسور» الذي اغتنم فرصة ذلك الهدوء ليأكل كأربعة أشخاص. و «ماري» كانت تحلم، وهي حزينة، بفساتين جميلة وبصداقة قوية، وبالسعادة التي يمكن أن تتمتع بها لو أنّ زوجة أخيها بقيت في «كشتنوفكا». وكان» نيقولا» حالما يسمع أي صوت يأتي من السقف، يرفع رأسه وينصت بقلق. وقد تكوّنت لديه قناعة تامة: فمن الآن وصاعداً سيصبح هو وصوفيا غريبين، أحدهما بالنسبة للآخر، على الرغم من مظهرهما الخداع الذي يدل على أنهما زوجان متحدان. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، اعتذر من والده، وانسحب بسرعة. فأرادت «ماري» اللحاق به، ولكنه رفض ذلك بشدة:

- لست بحاجة لك، هناك!

فعانقته. وتسلق الدرج، وهو في حالة نفسية تشبه حالة المتهم الذي يعود ليقف أمام قضاته، بعد أن علّقت الجلسة لبعض الوقت، ثم استؤنفت. وفي الممر، كاد يتعثّر بالصينية التي وضعتها «صوفيا» بالقرب من الباب، وعندما انحنى قليلاً تبيّن له أنها لم تكد تمسّ ذلك الطعام، واعتبر أن ذلك لا يبشّر بالخير.

وعندما دخل، كانت جالسة إلى مكتبها والريشة بيدها، يغمر وجهها الضوء الذهبي الصادر عن المصباح. ولم تلتفت حتى عندما اقترب وقع الأقدام، الذي كان يحدث صوتاً على الأرضية الخشبية. كانت مستغرقة في التفكير، وهي تكتب إحدى الرسائل.

فقال «نيقولا» في سره: «إنها تروي كل شيء لوالديها»! وغمرته بالعار موجة جديدة. والأمل الضئيل الذي راوده، باستمالتها واسترضائها، تبدّد

عندما بدت له كامرأة نظامية أخذت تحصي الأخطاء وتسجل الشكاوى.

وظل برهة من الوقت وهو صامت، لكي يقتنع تماماً بهزيمته، ثم تمتم، على مضض:

- صوفيا!

وقالت، دون أن ترفع نظرها عن الورقة التي كانت بين يديها:

- نعم؟!

- أتيت لأتمنى لك ليلة سعيدة...

ونظرت إليه أخيراً، وقد رفعت حاجبيها، وضمّت منخريها الصغيرين الجميلين، وبدا بريق اللؤلؤ عبر شفتيها المنفرجتين. وكانت سيماء وجهها تعبّر عن الدهشة، وليس عن الحبّ. فلن تصدر إذن كلمة تنمّ عن الشفقة من هذا الفم العذب والجميل؟!

وسألته:

- أين تذهب الآن؟

فقال وقد احمرّ وجهه:

- لا أريد أن أفرض نفسي عليك. فهنالك، في الجانب الآخر، غرفة خالية...

- إيه، ولماذا؟

- سأقيم فيها أثناء الليل.

فظلّت برهة حائرة منزعجة، وكأنه قد أساء إليها. وفجأة، قالت بغضب:

- أنت مجنون!

ولكي تمنعه من أن يسيء فهم صيحتها، أضافت في الحال:

- سوف يسرّ أبوك كثيراً إذا لاحظ أنّ كلاًّ منّا ينام منفرداً في غرفته!

فسألها بتواضع وخضوع:

- هكذا، إذن أنت تفضلين أن أبقى؟

- طبعاً، يا صديقي! وأرجوك أن تتصرّف بمنتهى البساطة...

وعلى الرغم من هذه الدعوة إلى إتباع البساطة، ظل «نيقولا» يشعر أنه في وضع دقيق وحرج. كان يدرك جيداً أنّ «صوفيا» تشمئز منه بعد أن اطلعت على كذبه، ولذلك فهو يتوجس خيفة من لحظة الزينة الليلية والنوم. فهل يمكن أن ترضى أن يقبلها قبل النوم؟ كان يشك بذلك وهو يراها هادئة جداً، ومظهرها ينم عن العزم والتصميم.

وقال:

- أشكرك.

- على ماذا؟

- لن تستطيعي أن تفهمي...

- بلى! قل...

- كلا، يا صوفيا...

وتبادلا فيما بينهما بضع كلمات بسيطة، لا تعني شيئاً، فكلّ منهما، كان على ما يبدو يخشى الصمت، آنذاك. و «نيقولا» الذي كان يشعر، من جهة أنه منبوذ، ومن جهة أخرى أنه مبّرأ، أخذ يجد صعوبة بمقاومة رغبة حسية وجسدية قوية. وخطا خطوتين، نحو زوجته، وهو يتكلم، وألقى نظرة على الرسالة:

«والديّ العزيزين»

اطمئنّا، فأنا سعيدة جداً...»

فانتابت «نيقولا» فرحة عارمة، ملأت قلبه، وأصابته بما يشبه الاختناق، فانهار على الأرض، واضعاً وجهه على ركبتي «صوفيا» وأخذ يقول عبر الأنين، وهو يدعك فستانها، ويشم عطرها:

- يا إلهي! أيمكن أن يكون هذا حقيقياً؟ أنت ما زلت تحبينني قليلاً، يا صوفيا؟ وإنّ كل شيء يمكن أن يستأنف من جديد؟...

وفي غمرة الهذيان، الذي كان يتخبّط فيه، كانت يد حانية تلامس جبينه برفق وهدوء.

٥

خـرج «نيقـولا» مـع «صـوفيا» و «مـاري» إلى درج المـدخل لكـي يتفقـدوا استعدادات السفر: كان بعض الخدم يحمّلون الحقائب والرزم وبعض قطع الأثاث وأدوات المطبخ، على زحافة كبيرة مكشوفة. وكانت زحافة أخرى قد خصّصت للخدم الذين سيصطحبهم السيد الشاب إلى «سان بطرسبورغ». أمّا السيد والسيدة فسيستقلان عربة صغيرة ومغلقة، تبدو كأنها صندوق ركّب على زلاّجات. أما بالنسبة للناس الموجودين لم يكن هنالك سوى التنهيدات والدموع وإشارة الصليب المتبادلة بين العبيد الذين سيسافرون وأولئك الباقين في «كشتوفكا». وبين جميع هؤلاء الأميّين الجهلة، برز «أنتيب» الباريسي، وهو يعطي لنفسه أهمية كبيرة: كان يصرخ ويكثر من الإشارات، مطالباً باختصار عمليات التوديع، ومفرّقاً أفراد العائلة الواحدة عن بعضهم.

وبعد أن رتّبت كل الأمتعة وحزمت، كان لا بدّ من فكها:

فقد نسي الخدم اثنين وثلاثين إناءً معبّأ بمربى الفاكهة، أحضرت بعد ذلك يحملها موكب من الخادمات اللواتي يعملن في المطبخ. والفراريج الباردة؟ أين هي؟ ومن هو المكلف بإحضارها؟

واعترضت «صوفيا» على ذلك، قائلة: إنّ ليس هنالك حاجة لأخذ كل هذه المأكولات. ولكنّ «ماري» قالت إنّ الأطعمة، في محطات الاستراحة، سيئة جداً. ومن الأفضل اتخاذ الاحتياطات اللازمة. وفي تلك اللحظة، خرج رجل من المنزل وهو يحمل سلة على رأسه. فظنت «صوفيا» أنها تحوي

الفراريج الباردة، ولكنها لم تكن تحوي سوى بعض الكتب الفرنسية.
وكان السيد «لوسور» يمشي وراء الرجل، وعند وصوله، قال لـ صوفيا:
لقد انتقيت لك بعض الكتب!

وبالكاد وجدت لديها الرغبة والقدرة على أن تشكره على ذلك كان يبدو لها كريهاً، ويثير غيظها بمبالغته بالملاطفة والتملّق. وإذا كان لا بد من أن يعيش أحد أبناء وطنها في «كستوفكا»، فهي تتمنى أن يكون متحلّياً بطباع أقوى وأفضل من طباع السيد «لوسور».

وانتحى بها السيد «لوسور» جانباً، وهمس في أذنها:

- آه! يا سيدتي، أنا أحسدك على رحيلك!

فردّت عليه بخشونة:

- ومن الذي يمنعك من أن تفعل مثلما فعلت؟!

فأجفل:

- ألا تدرين؟ سيكون في ذلك كثير من الجحود ونكران الجميل!...

وتغضّن وجهه المستدير، ثم انبسطت أساريره معبّرة عن الملاطفة والتزّلف. فخطر في بالها أنه راض ومرتاح في المذلّة والأمن اللذين يلقاهما خلال عمله في خدمة هذه الأسرة.

وأخيراً وصلت الفراريج. كانت المربية «فاسّيليسّا» هي التي أحضرتها، ووضعتها بنفسها في الزحافة الأولى، ثم عادت إلى «نيقولا» مرتعشة الخدين، ترسل النحيب والتنهيدات، وقبلت كتف طفلها الصغير الذي لا يزيد طوله عن خمسة أقدام وثماني بوصات.

وسرت عدوى التأثر إلى «ماري» فمسحت دموعها التي سالت من عينيها.

كانت «صوفيا» تراقب بشيء من الفضول هذا الفيض من الحزن، مقدّرة أن «السّلاف» تنقصهم اللياقة والاحتشام في التعبير عن عواطفهم ومشاعرهم، فلا ضابط ولا معيار لديهم في ذلك.

وتبادر إلى ذهنها أنهم جميعاً، إن كانوا شباباً أو شيوخاً، فقراء أو أغنياء، فإنهم يتصرفون تصرف الأطفال! وعلى رأسهم زوجها! الذي كان في ذلك الوقت يقوم بدور رئيس القافلة.

فبعد أن أبعد عنه «فاسّيليسّا» الحانية، المتباكية، اقترب من الزحافات وأخذ يتفقدها وقد قطّب حاجبيه ووضع يديه خلف ظهره، وعلى منكبيه عباءة مبطنة بالفرو. وعلى رأسه قبعة من الفرو أيضاً، ارتفع طرفاها إلى الأعلى. وكان وهو في هذا الهندام يبدو روسيّاً حقيقياً أكثر من أي وقت مضى، كأحد النبلاء والأثرياء الروس، وكأحد صيادي الذئاب. ووجهت له «صوفيا» تكريماً يعبر عن الولاء الذي يغمر الحقد والرغبة بالانتقام. كانت تنظر إليه وهو يمشي، متحدثاً مع أحد القرويين، متفقداً عقدة أحد الحبال، فتشعر باضطراب عذب، كما لو أنه كان بمجرد عيشه أمامها، يمنحها حظوة كبيرة. ومع ذلك، فإنها لم تردّ له كامل ثقتها به، فهي وإن تكن قد صفحت عنه، فقد ظلّ بالنسبة لها موضع أسرار خفيّة تبعث على الشك والريبة. فبعد أن فعل ما فعله، أصبحت تعتقد أنه يستطيع أن يفعل كل شيء. ألا يحتمل أن يخونها ويجعلها، مرة أخرى تشعر بخيبة الأمل، في المستقبل؟

وفي لحظات معيّنة، كانت تنقم على نفسها لأنها أحبته بهذا الشكل، وتشعر برغبة شديدة بأن تجعله يتعذّب، بدوره، وأمام الآخرين كان تبدي تأثرها، عندما يتحدثون عمّا يظهره لها من محبة ومودّة، مدفوعاً إلى ذلك بحماسة شديدة، وهي بالحقيقة ناتجة عن شعوره بسوء فعلته، وكتعويض عنها وتكفير عن ذلك الذنب. وفي الليل، على الخصوص، كانت تبدو دون أي وسيلة للدفاع وعاجزة عن مقاومة الرغبة التي يوحي لها بها. وبالأمس، لم يفارقها طوال النهار، وقد تناول طعامه معها في الغرفة، وساعدها في حزم أمتعتها. ولم يطلب منها ولا مرة واحدة، أن تذهب لترى والده، مرة أخرى ولا

شكّ بأنّ «ميشيل بوريسّوفيتش»، كان يقدّر أيضاً، مثلها أنّ لا جدوى في ذلك الوقت من هذه المقابلة. فقد ظلّ معتكفاً في مكتبه، ينتظر بفارغ الصبر رحيل كنّته. وهي، من جهتها، كانت تأمل أن تستطيع مغادرة المنزل، دون أن تضطر إلى توديعه.

فمتى إذن سينطلق الركب؟ ما هذا البطء الشديد في عمل وتحركات هؤلاء الروس؟! كان عددهم يزداد شيئاً فشيئاً أمام درج المدخل. ويبدو أنّ جميع العبيد الفلاحين في ملكية آل «أوزاريف» قد تواعدوا على اللقاء هناك لمشاهدة ذلك الرحيل. وأخيراً أحضر العاملون في الإسطبل، الأحصنة. ونشبت مشاجرة بين الفلاحين (الموجيك): فقد رفض «أنتيب» مرافقة بقية الخدم، وأراد أن يركب فوق «جبل» الحقائب والرزم، المعلّق خلف عربة سيدهم». ولسبب يصعب تفسيره وتبريره، أراد الحوذي «سافيلي» ذلك العملاق الملتحي، أن يمنعه من الركوب في ذلك المكان، وأخذ يصرخ، ملوحاً بسوطه. واضطر «نيقولا» إلى التدخل لتهدئة الاثنين. وحقق «أنتيب» رغبته، وتسلّق، وهو يضحك، فرحاً، فجلس على مقعده غير المعدّ لجلوس المسافرين، وتكوّر، ثم غطى رأسه بجلد خروف: هكذا كان قد أتى، وهكذا سيرحل. وضغطت «ماري» على ذراع زوجة أخيها، وقالت وهي تتنهّد:

- اقتربت لحظة الفراق!

ومرّ «نيقولا» من أمامهما وهو يبدو منشغلاً، عاد إلى البيت، ثم بدا بعد قليل، شاحباً، مقطّب الجبين، وقبعته في يده. وقال:

أبي ينتظرنا.

فصاحت «صوفيا» بعنف ينمّ عن الريبة والحذر، فقد اشتبهت أنّ هنالك شركاً قد نصب لها، وأنّ «نيقولا» عاد ليصبح عدوّها من جديد:

- ولماذا؟

فأجابتها «ماري» بسرعة:

- من أجل صلاة الرحيل، وهي عادة روسية، وأحد التقاليد المقدّسة. ولا تستطيعين أن ترفضي حضورها!

كانت أسارير الفتاة تعبّر عن الرجاء والتوسل، بينما بدا القلق على وجه «نيقولا» بحيث أن «صوفيا» شعرت بأنها عزلاء، لا تستطيع إبداء أي مقاومة، لذلك رضخت بشكل مفاجئ، قائلة في سرها إن هذا سيكون آخر تنازل يبدر منها.

واستقبل «ميشيل بوريسّوفيتش» أبناءه في الصالون.

ودخل وراءهم السيد «لوسور» و «فاسّيليسّا» وبعض الخدم المتقدمين في السنّ. كانت «صوفيا» تتوقع أن يرحب بها عمها، على الأقل. ولكنه لم يعرها انتباهه، ولم يلق عليها حتى ولا نظرة. كان قد ارتدى «ريدنفوت» سوداء لهذه المناسبة. وبدا وجهه متعباً، كثير التجاعيد، وكأنّ عينيه وخدّيه قد أحيطت بمسحوق الرصاص. وبإشارة من يده، دعا الجميع إلى الجلوس. ولم يكن هنالك ما يكفي من المقاعد، فأحضر السيد «لوسور» كرسيين، من قاعة الطعام. وجلس «نيقولا» بجانب «صوفيا». وفجأة رأت الرؤوس وهي تنحني، والأيدي وهي تنضم إلى بعضها، ولم يعد يعكّر صفو السكون سوى صوت الأنفاس المتسارعة.

وبعد برهة، انتصب «ميشيل بوريسّوفيتش» واقفاً، على ساقيه الطويلتين، فاقتدى به جميع الحاضرين. وبعد أن انحنى أمام الأيقونة التي تزين إحدى زوايا الصالون، تقدم نحو ابنه، وعانقه، ورسم عليه إشارة الصليب وتحدّث إليه باللغة الروسية. ثم التفت نحو «صوفيا». وارتفعت أمامها يد نحيلة معروقة ورسمت في الهواء إشارة كبيرة للصليب. فهمّت أن تحني رأسها بدافع المراعاة، ولكنها غيّرت رأيها، وتحدّت بنظراتها الرجل الذي يمنحها بركته. وبدا بريق يرتعش في عيني «ميشيل بوريسّوفيتش» كالذي

يبدو في المياه العكرة عند تحركها. كان يبدو في صراع مع نفسه، ضحية لعجرفة لا حدود لها وأسيراً لقرار مؤلم. وتلفّظت شفتاه الرّخوتان، بصوت ضعيف، هذه الكلمات:

- أتمنّى لكما حياة سعيدة في «سان بطرسبورغ».

وابتعد مستاءً مما أبداه من عطف. واستمر العناق ورسم إشارة الصليب بين المجتمعين هناك. وضمت «ماري» «صوفيا» بذراعيها بلهفة ومحبة، وهمست في أذنها:

- سأصلّي، وأتوسّل إلى الله كل يوم لكي تعودي عمّا قريب!

لا تقولي كلا، أوه! أرجوك لا تقولي كلا! فقد وجدت فيك أفضل من الصديقة، لقد وجدت أختاً!

كانت تبكي.

وقال «نيقولا» بصوت ينبض بالتأثر:

- هيا بنا! علينا أن نسرع. عليك أن تعتني بالوالد يا «ماري»، فأنا أعتمد عليك. اكتبي لي دائماً!...

وكان هو أول من توجه نحو الباب، وتبعه الآخرون:

«صوفيا» «ماري» السيد «لوسور» والخدم. وظل «ميشيل بوريسّوفيتش» في الصالون، وبدا متعباً مكتئباً، كما لو أنه لم يكن يرغب برحيل ابنه وكنته ولم يكن حتى يتوقع رحيلهما. وتبادر إلى ذهنه وقد انتابه الغضب: «ومع ذلك فإني لا أستطيع أن أطلب منهما أن يبقيا هنا!» واقترب من النافذة، كان جمهور من الفلاحين قد تجمّع حول الزّحافات. والخيول المتحفّزة أخذت تهز رؤوسها، والأجراس الصغيرة بدأ يتعالى رنينها وسمعت بعض الأصوات الخافتة تدندن خلف زجاج النوافذ:

إلى اللقاء! رحلة سعيدة!

وشعر «ميشيل بوريسّوفيتش» أنّ الانتظار إذا طال أمده، فإنه لن يستطيع السيطرة على ارتعاش أعصابه. كان قد ألصق جبينه على زجاج النافذة، ووضع يديه المتقلّصتين في جيبيه، دون أن تفارق عيناه العربة المغطاة التي استقلها ابنه وكنّته. ولم تبدُ لا هي ولا هو من بوابة العربة.وأنتيب الذي تكوّر خلفهما، فوق الأمتعة، كان يبدو ككتلة وسخة من الفرو، في وسطها أنف أحمر. وانطلقت القافلة أخيراً في الممر الرئيسي: ثلاث بقع سوداء انزلقت، الواحدة تلو الأخرى، على الثلج، بين سياجين من أشجار الصنوبر. وتشوشت الرؤية لدى «ميشيل بوريسّوفيتش»، فغمغم، وهو يرسم إشارة الصليب على زجاج النافذة:

ليحفظكما الله!

وأخذ رنين الأجراس يخفت، ثم تلاشى، وبعد قليل اختفت آخر زحّافة عند منعطف الطريق.

وشعر «ميشيل بوريسّو فيتش» حوله بفراغ يبعث على القلق. فماذا يفعل كل هؤلاء الناس هناك، خارج المنزل؟ ولماذا يتركونه وحيداً؟ وبغضب، فتح الباب وصاح بأعلى صوته:

- ماذا هنالك يا سيد «لوسور»! أنت تمضي الوقت على هواك ولم تعد تهتم بمباريات الشطرنج؟!

فأجابه صوت من بعيد:

- بلى يا سيدي! بلى!

وجلس السيد «لوسور» أمام رقعة الشطرنج، رفع نظره نحو خصمه، وانتظر بخضوع وانصياع، أولى السخريات المعتادة.

منشورات دار علاء الدين
سلسلة روايات نور العادلين
من تأليف هنري ترويّا

١- رفاق شقائق النعمان.

٢- النبيلة الروسية.

٣- مجد المهزومين.

٤- سيدات سيبيريا.

٥- صوفيا أو نهاية المعارك.

من منشورات دار علاء الدين

- الحجلة لعبة القفز بين المربعات
  ....خوليو كورتاسار
- نذير بالشر
  ....دافيد سلتزر
- مذكرات امرأة
  ....روش بدرخان
- أنماط غريبة من الحب
  ....سومرست موم
- الرحيل
  ....طاهر بن جلّون
- يوم صامت في طنجة
  ....طاهر بن جلون
- فصل الراحة
  ....غور فيدال
- قليل من حرارة الشمس في الماء البارد
  ....فرانسواز ساغان
- قصص من حياة دوستويفسكي
  ....ف جيلزنياك
- عودة الإنسان
  ....ف م دستويفسكي
- ٩٩ فرنكاً
  ....فريدريك بيغبيدير
- الأرواح الرمادية
  ....فيليب كلوديل
- لعبة حب مجنون
  ....كريستين أوربان
- عائلة كاردينال
  ....لدوفيك هاليفي
- الخطيئة الأولى المميتة
  ....لورنس ساندرز
- آنا وملك سيام
  ....مارغريت لاندن
- قلب كلب
  ....ميخائيل بولغاكوف
- جمعة أو أسرار وخفايا شواطئ المحيط الهادئ
  ....ميشيل تورنيي
- فالس الوداع
  ....ميلان كونديرا
- الترام الأخير
  ....نديم جورسيل

من منشورات دار علاء الدين

- ابنة الكاتب
  ....هنري ترويا
- ألوشا
  ....هنري ترويا
- ذكريات غيشا
  ....آرثر غولدن
- القدح المشعور
  ....آلان مابانكو
- حواء تخرج من أنقاضها
  ....آناندا ديفي
- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة
  ....أ. ب. دانييال
- الحب المتبادل بين الزوجين
  ....ألبرتو مورافيا
- يوميات سنونوة
  ....أميلي نوتومب
- خبز فوق الماء
  ....اروين شو
- فيل الوالي
  ....إيفو أندريش
- الحمامة
  ....باتريك زوسكيند
- قرب النهر أبكي
  ....باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  ....بريم ستوكر
- جاز
  ....توني موريسون
- أخوية اليقظانين
  ....جاك اتلي
- الأفريقي
  ....جان ماري لوكلوزيو
- مشاهد من حياة كهنوتية
  ....جورج اليوت
- هيجان محاكمة وقتل لوركا
  ....جوزيه لويس دي فيلالونغا
- اللؤلؤة
  ....جون شتاينبك
- إيفا
  ....جيمس هادلي شيز
- النطع
  ....جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  ....خورخي لويس بورخيس

La Lumiére Des Justes

رفاق شقائق النعمان



يرتقي هذا العمل الروائي إلى مصاف الروائع في الأدب العالمي لأنه يعقد قراناً إبدعياً بين الأدب والتاريخ، ويتناول مرحلة معقدة من تاريخ أورية، والصراع الدموي بين الملكية والجمهورية، والحركات الثورية التي تبنت قيم الثورة الفرنسية، وما جاءت به من شعارات... الحرية والعدالة والمساواة، وحقوق الإنسان والديمقراطية.

وتسنّى لهذه الرواية أن تمتلك عوامل الإدهاش والإبهار، إذ تترك في نفس القارئ انتظاراً مسربلاً بالدهشة والذهول، وعطشاً مضنياً لمعرفة النهايات بعدد الحرائق المبعثرة بين صفحات تلتف وتتلوّى كمتاهات مسكونة بالضباب، فتسرقنا من لحظتنا الراهنة لتضعنا في عوالم متداخلة سُداها صراع اجتماعي وسياسي وثقافي محتدم انخرطت فيه كل التيارات والفئات، ولُحمتها قصة حب متوقدة تكسر الحواجز بكل أشكالها لترتقي إلى مدارات السمو والتوحد.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سوريا - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy